MÂAREF معارف

Revue académique مجلة علمية محكمة

تصدر عن جامعة أكلي محند اولحاج بالبويرة (UAMOB)

partie n°2 : القسم الثاني :

Lettres et Sciences Humaines et Sociales الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

Numéro : 11 العدد : الحادي عشر / 11

Décembre شهر : ديسمبر

6EME Année : 2011 السنة السادسة : 2011

DIRECTEUR de Publication: المدير مسؤول النشر :

Pr. M.T. ABADLIA أ. د. محمد الطاهر عبادلية

Rédacteur en chef: رئيس التحرير :

kamel edine KARI د . كمال الدين قاري

membres de Redaction: أعضاء هيئة التحرير :

Ahmed DJEMIL د . أحمد جميل

Rabah MELLOUK د . رابح ملوك

Nacer HAMOUDI د . ناصر حمودي

Fatma MESSANI د . فاطمة مساني

ISSN : 1112 - 7007 الإيداع القانوني للمجلة :

☎ : 026938843 مكتب : 165 ، 227 : 026930924

موقع الجامعة على الانترنيت : www.univ-bouira.dz

البريد الإلكتروني لرئيس التحرير: Karikamal2008@yahoo.fr

جامعة اكلي محند اولحاج

البويرة ـ الجزائر

Université Akli Mohand Oulhaj (UAMOB)

BOUIRA - ALGERIE

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ معايير النشر في المجلة :

يشترط في البحوث والمقالات التي تنشر في مجلة معارف ما يأتي :

1 ـ أن يكون البحث مبتكرا أو أصيلا ، ويشكل إضافة نوعية في اختصاصه .

2 ـ أن تتوفر فيه الأصالة والعمق وصحة الأسلوب .

3 ـ ألا يكون قد سبق نشره .

4 ـ أن يلتزم بالقيم الإنسانية وبمعايير البحث العلمي وبخاصة ما يلي :

أ ـ الابتعاد عن التجريح والإسفاف في القول ، والتعريض بالآخرين .

ب ـ مراعاة البنية المنهجية .

جـ ـ ترقيم الهوامش والإحالات تكون إما أسفل النص في نفس الصفحة ، أو في آخر المقال ، مستقلة عن قائمة المصادر والمراجع .

د ـ إعداد قائمة بمصادر البحث ومراجعه .

5 ـ أن تكون مكملات البحث من خرائط أو جداول في صورتها الأصلية .

6 ـ أن يكون البحث المترجم مصحوباً بأصله المترجم عنه .

7 ـ أن يقدم لإدارة المجلة مطبوعاً على الورق ومخزناً في قرص مدمج **CD** أو في وسيلة من وسائل استقباله في جهاز الحاسوب .

8 ـ أن تقدم سيرة ذاتية للباحث في ورقة مستقلة عن البحث .

9 ـ عدد كلمات البحوث النظرية بين 3000 و5000 كلمة حسب المقاييس الدولية، أي (بين10ـ20 صفحة بمعدل300 كلمة / صفحة) فيرجى التقيد بذلك .

10ـ ترفق بالبحث ملخصات باللغات الثلاث (العربية والفرنسية والانجليزية) بما لا يتجاوز الصفحة الواحدة لكل لغة .

مع ملاحظة أن البحوث والمقالات :

ـ تخضع للتقويم العلمي واللغوي ويعلم الباحث بالنتيجة ، كما أنها تخزن في أرشيف المجلة ، ولا ترجع لأصحابها سواء نشرت أم لم تنشر .

ـ وهي تعبر عن آراء كتابها وحدهم ، فهم المسؤولون عن صحة المعلومات وأصالتها ، ولا تتحمل الإدارة أي مسؤولية في ذلك .

الهيئة الاستشارية الوطنية :

أ.د. أبو القاسم سعد الله (الجزائر)	د. سالم سعدون (البويرة)
أ.د. عمار بن خروف (البويرة)	د. عبد الرحمن عيساوي (البويرة)
أ.د. الطيب بودربالة (باتنة)	أ.د. عبد الحميد هيمة (ورقلة)
أ.د. الطيب بلعربي (الجزائر)	أ.د. عزيز سلامي (الجزائر)
د. أحمد رميتة (الجزائر)	أ.د. عمر صدوق (تيزي وزو)
أ.د. محمد شيبان (البويرة)	أ.د. كمال لدرع (قسنطينة)
أ.د. محند اعمروش (البويرة)	أ.د. محمد بومخلوف (الجزائر)
د. محمد سرور (البويرة)	د. محمد جلاوي (البويرة)
أ. د. أحمد دوقة (الجزائر)	د. منير نوري (الشلف)
د. جمال عباس (البويرة)	أ.د. محمد بوجلال (المسيلة)
أ.د. رشيد بوسعادة (الجزائر)	أ.د. أحمد حيدوش (البويرة)

الهيئة الاستشارية الدولية :

أ.د. برهان النفاتي (تونس)	
أ.د. عبد القادر فيدوح (البحرين)	
أ.د. عبد الله بلحاج (تونس)	
أ.د. محمد كريم الكواز (العراق)	
أ.د. أحمد بوحسن (المغرب)	
أ.د. محمد الحيدروسي (الأردن)	
أ.د. محمد الزحيلي (سورية)	
أ.د. محمد آيت المكي (المغرب)	
أ.د. مصطفى بن رابعة (ليبيا)	

الخبرة العلمية للعدد الحادي عشر/11 :

نتقدم بشكرنا الخالص لأعضاء لجنة قراءة هذا القسم من العدد (الحادي عشر/11) على جهودهم في تقويم البحوث وتقييمها ، وهم:

1. في الأدب العربي واللغة العربية:

د. عبد القادر فيدوح «أ.ت.ع» **(البحرين)**
د. رابح ملوك «أ.م.أ» **(البويرة)**
د. عبد الرحمان عيساوي «أ.م.أ» **(البويرة)**
د. بوعلام طهراوي «أ.م.ب» **(البويرة)**

2. في الفلسفة :

د. محمد شطوطي «أ.م.أ» **(الجزائر)**

3. في علوم التربية :

د. الطيب بلعربي «أ.ت.ع» **(الجزائر)**
د. خالد جوادي «أ.م.أ» **(المسيلة)**
د. عمر عمور «أ.م.أ» **(المسيلة)**

4. في التاريخ بتخصصاته:

د. مسعودة يحياوي مرابط «أ.ت.ع» **(الجزائر)**
د. عمار بن خروف «أ.ت.ع» **(الجزائر)**
د. أرزقي شويتام «أ.م.أ» **(الجزائر)**

5. في علم النفس بتخصصاته :

د. أحمد دوقة «أ.ت.ع» **(الجزائر)**
د. علي بوطاف «أ.م.أ» **(الجزائر)**
د. فاطمة الزهرة الزروق «أ.م.ب» **(البليدة)**
د. صليحة بلاش «أ.م.ب» **(الجزائر)**

6. في علم الاجتماع بتخصصاته:

د. محمد بومخلوف «أ.ت.ع» **(الجزائر)**
د. أنيسة الرحماني ابراهيم «أ.م.أ» **(الجزائر)**
د. عثمان فكار «أ.م.أ» **(الجزائر)**
د. فتيحة بن فرحات «أ.م.ب» **(البليدة)**
د. سعيد عيادي «أ.م.أ» **(البليدة)**

بحوث ومقالات العدد 11 :

مجموع البحوث والمقالات التي وصلتنا	المقبولة	المرفوضة	المؤجلة لأعداد لاحقة
70	35	08	27

التدقيق اللغوي:

أ. الياس جوادي . أ. سمير شيهاني . أ. صابر راشدي .

فهرس الموضوعات

كلمة التحرير 6

أولاً : معارف أدبية

التنكير والتعريف بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية

د . حفصة نعماني 7

إشكالية الهوية في رواية ((الانطباع الأخير لمالك حداد))

أ . نبيلة زويش 15

السمات النفسية السلبية وأثرها في دراسة الشخصية عند العقاد

أ . نبيل مزوار 31

جمالية الموسيقى الشعرية في النقد الحداثي العربي

أ . فتيحة حسين 45

أيقونة الرفض في شعر دعبل الخزاعي الرؤية والأسلوب

أ . لخضر هني 55

جماليات اشتغال التناص الديني في شعر الشهداء الجزائري ديوان الشهيد الربيع بوشامة أنموذجا

د . عبد اللطيف حني 75

الأدب التفاعلي وإشكالية تداخل الأجناس

أ . جمال قالم 91

ثانياً : معارف إنسانية واجتماعية

الدافعية للتعلم : أسباب انخفاضها ، وعوامل تنشيطها لدى المتعلمين

أ . عائشة بوكنوس 103

المساندة الاجتماعية وعلاقتها بقلق الموت لدى المصابات بسرطان الثدي

د . شهرزاد بوشدوب 119

الإدارة بين الاتجاهات التقليدية والحديثة

أ . الحسين مصطفاوي 139

إشكالية تطور العلم في فلسفة توماس كون Thomas Kuhn
أ . حياة مشاط 153

المسيرة النظالية للحركة النقابية في الجزائر قراءة سوسيولوجية
أ . موسى كاف 175

أهمية الثقافة الفنية عند المراهق
أ . نسيمة بوفاتيت 187

التغير الاجتماعي في الجزائر وتأثيره على السلوك الإنجابي
أ . حياة بوتفنوشات 203

العولمة والتربية المدرسية
أ . زهرة بودهدير 215

العلاقات التونسية الجزائرية 1830/1954 جوانب من التواصل النضالي
أ . سعيد جلاوي 227

شمال السودان الغربي وخلفيات التسرب الأوروبي
د . أحمد الحمدي 237

تعامل معلمي المراحل الابتدائية مع أخطاء المتعلمين
أ . ميمون حدة 247

الحرية والديمقراطية في ضوء مطارحات كارل بوبر
أ . خوني ضيف الله 263

كلمة التحرير

بقلم : د . كمال الدين قاري

قد يخفى الشيء من شدة ظهوره . . . فزيادة تدقيق النظر وتقريبه إلى العين يشوش الرؤية ويعدمها ، فـ « زيادة القرب حجاب » . . .

في مسيرتها التي لا تكل ولا تمل تخترق مجلة معارف العلمية المحكمة جدار السنة السابعة ، وتختم عامها السادس 2011 بإصدار العدد الحادي عشر.

وإن من جديد هذه المجلة مشاركتها في موقع جامعة البويرة على شبكة الانترنيت www.univ-bouira.dz ؛ وذلك بنشر مقالات وبحوث المجلة على الرابط الخاص بها على الموقع ، إضافة إلى ترجمة ملخصات المقالات إلى لغات حية قصد توسيع دائرة قراء المجلة ، بإمكان الجميع الاطلاع ونسخ ما يهمهم منها .

كما يسعد هيئة التحرير أن تشيد بالعدد المهم من الباحثين والأساتذة الذين شرفوا هذه المجلة ؛ إن ببحوثهم ومقالاتهم ، أو بمشاركتهم في اللجنة العلمية للمجلة ؛ توجيها وتقويما وتدقيقا وتصويبا ، عدد فاق أربعمائة باحث ، لا نريد لرفدهم أن ينقطع عن المجلة .

لذلك قمنا بفتح بيئة للتواصل الاجتماعي على الفيسبوك والتويتر ، في رابط المجلة الخاص ضمن موقع الجامعة ؛ كي تلتقي أقلام الأساتذة لتبني أفكارا ويتبادل الجميع الآراء بغية الاستفادة ، وهي إلى ذلك فرصة لتوطيد علاقة الأساتذة بعضهم ببعض .

تبدأ مجلة معارف عامها السابع 2012 بنفَس فيه وفرة من التفاؤل ، واستعداد أكبر للسير بها نحو اعتمادها دوليا .

هنيئا للجميع إصدار العدد الحادي عشر لشهر ديسمبر 2011 ، ومزيدا من التواصل والتعاون لرفع شأن العلم وأهله . ونلتقي قريبا إن شاء الله ؛ في عدد جديد ، وعلى موقع جامعة البويرة www.univ-bouira.dz.

التنكير والتعريف بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية

د . حفصة نعماني*

تتباين البنى التراكيبية بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية لأنّهما لغتان غير متجاورتين ، ويمكن أن يتأثّر الشخص غير الملمّ بخبايا إحداهما بلغة منشئه أو لغته الرسمية فيضفي خصائصها على اللغة الأخرى ، وقد لاحظنا هذه الظاهرة أثناء سنوات تدريسنا بقسم الترجمة إذ عادة ما يضفي الطالب على ما يكتبه باللغة الإنجليزية مسحة عربية أو مسحة فرنسية فيقع في الأخطاء التداخلية Errors of Interference ، وهذا التأثّر أكثر جلاء بين طلاب اللغة العربية لضعف مستواهم في اللغة الإنجليزية ، ومن بين أخطائهم المسترعية للانتباه سوء توظيف قواعد التنكير والتعريف في اللغة الإنجليزية لأنّهم يترجمون ما يدوّنونه باللغة الإنجليزية ترجمة حرفية انطلاقا من خصائص اللغة العربية . ويصبو هذا البحث إلى تمكين كل من تعوزه ملكة إحدى هاتين اللغتين من استعمال التنكير والتعريف على نحو صحيح في كلتيهما .

فيتّفق النّحاة العرب على أنّ النكرة هي الأصل في الاسم وأنّ المعرفة فرع ، حيث يقول ابن يعيش :

« واعلم أنّ النكرة هي الأصل ، والتعريف حادث »[1] .

ـ والنكرة هي ما دلّ على شيء غير معيّن ، أي أنّها لا تحتاج في دلالتها على المعنى المراد منها إلى قرينة ، وهي قسمان :

ـ ما يقبل (ال) المؤثّرة للتعريف نحو : رجل ، وشمس ، ودار . . .

ـ وما يقع موقع ما يقبل (ال) التعريف نحو : ذو ، ومن ، وما . كأن نقول : سألت رجلا ذا علم (أي صاحب علم) فـ « صاحب » تقبل دخول (ال) عليها .

وتجمع كتب النحو العربي على أنّ المعرفة هي ما دلّ على شيء معيّن

---

* قسم الأدب العربي ، جامعة أكلي محند أولحاج ، بالبويرة .

(1) ابن يعيش ، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي الموصلي : « شرح المفصل للزمخشري » ، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه إميل بديع يعقوب ، ج3 . دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، 2001 . . ص347 .

وهي نوعان :

ـ مالا تدخل عليه (ال) التعريف ولا يقع موقع ما يقبلها نحو : عمر ، وزيد ، وهذا . . .

ـ وما يقبل (ال) التعريف كـ « حارث » و« عباس » [1] إذ تقبل مثل هذه الأسماء (ال) التعريف لأنّ أصلها ليس من أسماء العلم ، فكلمتا « حارث » و« عباس » كنيتان للأسد .

ويغلب رأي النحاة على أنّ المعارف سبعة أقسام : الضمير ، والعلم ، والموصول ، واسم الإشارة ، وذو الأداة ، والمضاف ، والمنادى ، غير أنّ بعضهم يحصرها في ستة أقسام[2] دون أخذ المنادى بعين الاعتبار .

وتدرج في اللغة الإنجليزية الأداة « a/an » والأداة المعرّفة « the » ضمن قائمة المحدّدات الرئيسة Central Determiners ، فتدلّ الأولى على شيء غير معيّن بينما تخصّ الثانية ما تم تحديده[3] .

وليست هناك مطابقة تامّة بين اللغة العربية واللغة الإنجليزية في إلحاق الكلمات بهذه الأدوات : فقد تستعمل العربية كلمة مقترنة بـ (ال) التعريف بينما لا تستعمل اللغة الإنجليزية شيئا Zero Article وقد تأتي الكلمة في اللغة العربية نكرة وتقابلها في اللغة الإنجليزية كلمة نكرة مرفوقة بالأداة « a/an » ، وسنرى هذا في ما يأتي :

I ـ ماتتفق فيه اللغتان :

I . 1 اسم نكرة في اللغة العربية مقابل اسم نكرة في اللغة الإنجليزية مقترنا بالأداة (a/an) :

نذكّر بأنّ اللغة الإنجليزية تستعمل الأداة « a » قبل الكلمات المبدوءة بحرف صامت Consonant والأداة anقبل تلك المبدوءة بحرف صائت Vowel وتلجأ اللغة العربية إلى التنوين للتعبير عن النكرة . والنكرة عند النحاة العرب (شيء غير معيّن شائع في جنس مقدّر أو موجود) . ويمكن حصر حالات التطابق في هذا

(1) أمين علي السيد : « في علم النحو » ، ج1 ، ط2 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر . 1973 ، ص ص95 ـ 96 . وابن هشام ، أبو محمد جمال الدين ، الأنصاري : « أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك » ، ج1 . ط4 ، مزيدة ومنقحة ، مطبعة السعادة ، مصر . (1956 . ص60) بتصرف .

(2) (أمين علي السيد ، م ن : ص ن) .

(3) E . G . Woods, and N . j . Mc leod, Using English Grammer : Meaning and Form . English Language Teaching, Prentice Hall, London, (1989 : 162 _ 165) And J . Allsop : Cassell´s students´ English Grammer . Cassel, G . B, (1983 : 35) .

العنصر فيما يلي :

ـ يستعمل التنكير في اللغة العربية واللغة الإنجليزية للتعبير عن شيء غير معيّن بشكل مطلق نحو :

I can not write without a pen	⇔	ـ لا أستطيع أن أكتب بدون قلم

فلا شيء يحدّد الكلمتين « قلم » و« pen » من حيث الشكل واللون .

ـــ ويمكن أن يحصل التطابق إذا ورد الاسم المقترن باسم الإشارة Demonstrative نكرة مفردة نحو :

This is a pen .	⇔	هذا قلم

فـ « هذا » و « This » من المعارف ولكن مايبيّنانه يقتصر على فئة معيّنة من الأشياء ـ الأقلام ـ ولهذا فالأمر يتعلق بحالة عدم تعيين من نوع خاص .

ـــ ويمكن أن يرد الاسم نكرة خبرا للمبتدأ الصريح في اللغة العربية ، ويقابله في اللغة الإنجليزية الخبرPredicate المفصول عن Subject بفعل الكينونة « To be » نحو :

Happiness is a myth	⇔	السعادة خيال

2.1 (ال) التعريف في اللغة العربية مقابل الأداة (the) في اللغة الإنجليزية :

اختلف النحاة العرب في شأن (ال) التعريف وتمخّض عن هذا الاختلاف ثلاثة آراء ذكرها أمين علي السيد ونوجزها بقولنا أنّ الخليل بن أحمد الفراهيدي اعتبر أنّ : « المعرّف هو (ال) والهمزة التي في أولها همزة قطع أصلية لكنها وصلت في الدرج لكثرة الاستعمال »[1] .

وذكر سيبويه أنّ : « اللاّم وحدها هي حرف التعريف والهمزة زائدة »[2] .

أما المبرّد فيرى أنّ : « المعرّف هو الهمزة وحدها وقد زيدت اللاّم لتفرّق بينها وبين همزة الاستفهام »[3] .

والرأي الغالب هو أنّ التعريف يقع بالألف واللام مجتمعتين ، و(ال) التعريف عند النحاة نوعان : عهدية وجنسية : فتكون (ال) العهدية المعرّفة إمّا ذكرية أو علمية أو حضورية ، بينما تأتي (ال) الجنسية لتوضيح حقيقة الجنس أو استغراقه .

(1) أمين علي السيد المرجع السابق ذكره ، ص 162 .
(2) أمين علي السيد : م ن ، ص ن .
(3) أمين علي السيد : م ن ، ص ن .

وأمّا الأداة المعرفة « the » فيعدّها النحاة محـددا أساسـياCentral Determiner وتستعمل للدلالة على شـيء بعينـه ، ويكـون الشـيء المعـيّن فئـة بكاملـها Whole Class فهي تعوّض بذلك ما يمكن استعماله في صيغة المفـرد مـع الاقـتران بـالأداة « a/an » أو ما يمكن استعماله في حالـة الجمـع دون الاقـتران بـأداة . وقـد يقتصـر التعيين على اسم مفرد من الإنسان أو الحيوان أو الجماد ، ويذكر وودز ومكليـود[1] وكويرك وغرينبوم[2] أنّ هناك ثلاثة دوافع لاستعمال الأداة « the » :

ـ تستعمل الأداة « the » للإشارة إلى اسم نكرة سبق وروده في السياق مثل :

أعرت [طالبا] كتابا غير أنّ [الطالب] لم يعده بعد	⇔	I lent [a student] a book, but [the student] has not given it back

ـ تستعمل الأداة « the » مقترنة باسم معرّف في الجملة كأسماء المدن نحو :

ـ من مركز لندن إلى مركز باريس	⇔	From the heart of London to the heart of Paris

ـ تستعمل الأداة « the » مع التفضـيل Superlative أو مـع شـيء معلـوم لـدى العام والخاص ، نحو :

(قرّر سـتيفي كـرام البارحـة أنّ أحسـن السـبل لاسـتعادة القوى بعد الانهزام في مباراة هو الفوز بأخرى)[3]	⇔	(Steve Cram decided yesterday that the quickest way to recover from basing a race was to win another…)[4]

تشرق الشـمس مـن الشـرق وتغرب من الغرب[5]	⇔	(The sun rises in the east and sets in the west)[6]

ويمكن أن يقع تطابق في التعريـف بـين اللغـتين العربيـة والإنجليزيـة ــ أي استعمال العربية لـ (ال) التعريف واستعمال اللغة الإنجليزية الأداة المعرّفـة « the » ـ في إحدى الحالات الآتية :

(1) E . G . Woods, . and N . j . Mc leod, . 166 ـ 165 المرجع السابق ذكره ص
(2) R . Quirk, And S . Greenbaum, A University Grammer of English,Longman, London, (1989 : 68) .
(3) ترجمتنا .
(4) E . G . Woods, . and N . j . Mc leod, ، المرجع السابق ص 166 .
(5) ترجمتنا .
(6) E . G . Woods, and N . j . Mc leod, ، م ن ص ن .

أ ـ تستخدم اللغة العربية (ال) التعريف والإنجليزية الأداة « the= للتعبير على ما تقدّم ذكره في النص بصيغة النكرة ثم يرد ثانية معرّفا نحو :

﴿ . . . **كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول** . . . ﴾(2)	⇔	(…Even as we sent a messenger to Pharaoh . But Pharaoh disobeyed the Messenger…)(1)

ب ـ تستعمل (ال) التعريف في العربية مقابل الأداة « the » للدلالة على شيء معلوم ، كأن يكون المشار إليه معلما تاريخيا نحو :

﴿ . . . **إذ هما في الغار** . . . ﴾(3)	⇔	(…They two were in the Cave…)(4)

فالغار معروف عنه أنّه غار نقب في جبل ثور ، وهذا ما يسميه العرب بـ (ال) العهدية العلمية .

ج ـ تستعمل (ال) مقابل « the » للتعبير عما حضر في الذهن إما بصورة محسوسة أو بصورة مجرّدة ، كقول أحدنا في سياق معين :

ـ هذا هو الكتاب الذي كنت أبحث عنه	⇔	This is the book I was looking for

وقولنا :

ـ هذه هي الحقيقة	⇔	This is the truth

II ـ ما تختلف فيه اللغتان :

على الرغم ممّا عدّدناه من حالات إمكانية وجود نوع من التطابق بين اللغتين العربية والإنجليزية في استعمال اسم نكرة منوّن مقابل الأداة « a/an » واستعمال (ال) التعريف مقابل الأداة المعرّفة (the) فثمّة حالات عديدة لا تتّفق فيها اللغتان ، وإنّه لحريّ بنا أن نلفت انتباه القارئ إلى أنّنا سنورد في هذا العنصر أيضا حالة خاصة باللغة الإنجليزية وهي عدم استعمالها أي أداة قبل الاسم وهذا ما يسميه النحاة Zero Article وسنرى ما يمكن أن يقابلها في اللغة العربية .

II ـ 1 استعمال (ال) التعريف في اللغة العربية مقابل الأداة (a/an) في الإنجليزية :

ومثال ذلك :

(1) ترجمتنا .
(2) سورة المزمل : الآيات 15 ـ 16 .
(3) سورة التوبة : الآية 40 .
(4) ترجمتنا .

ـ **النحلة** حشرة	⇔	**A bee** is an insect

فاللغة العربية تعرّف الاسم لفظا وإن كان نكرة من الناحية الدلالية لأنّنا بقولنا : « النحلة حشرة» لا نرمز إلى نحلة معيّنة بذاتها ، وإنّما المشار إليه هو ذلك الجنس المتميّز عن سواه من الأجناس ، ويمكننا تعويض (ال) التعريف بـ (كلّ) فتصبح عبارتنا : « كل نحلة حشرة» ، ويسمي النحاة العرب (ال) التعريف في هذا المثال بـ (ال) التعريف الجنسية المستغرقة لأفراد الجنس حقيقة . كما أنّنا نستطيع أن نعوّض في ترجمة المثال الأداة « a » بالصفة غير المعرفة Indefinite adjective « any » أو « each » فتصبح ترجمتنا للمثال : Any/each bee is an insect .

II . 2 استعمال الأداة المعرفة (the) في اللغة الإنجليزية مقابل تعريف بالإضافة في اللغة العربية :

ومثال ذلك قولنا :

توابل الهند	⇔	the spices of India

II . 3 استعمال (ال) التعريف في اللغة العربية مقابل لاشيء Zero article في اللغة الإنجليزية :

يظهر الاختلاف بين اللغتين من هذه الناحية في أوجه أهمها :

أـ التعبير عن شيء مجرد ، نحو :

الحاجة أم الاختراع	⇔	Necessity is the mother of invention

ب ـ التعبير عن جنس معيّن بصورة شاملة ، نحو :

﴿ ... **وخلق الإنسان ضعيفا**﴾[1]	⇔	(…For Man was created weak)[2]
ضعيفا﴾[1]		

ونحو :

تلمع النجوم ليلا	⇔	Stars shine at night

ج ـ التعبير عن شيء مجسّد لا يمكن تجزئته إلى وحدات عددية Uncountable noun ، نحو :

---

(1) سورة االنساء : الآية28

(2) ترجمتنا .

يغلي الماء في الدرجة 100 م°	⇔	Water boils at 100°

د ـ عادة ما تعرّف أسماء المدن والعواصم والأوطان في اللغة العربية ـ اللهم بعض الاستثناءات كنيقوسيا ، وقبرص ، وتونس ، وفرنسا . . . وهي معارف باعتبارها تدخل في باب العلم ـ بينما لا تستعمل اللغة الإنجليزية الأداة « the » ما دام الوطن اسما غير مركّب نحو :

يعيش هذا الرجل في **الجزائر** منذ سنة 1930	⇔	This man has been in **Algeria** since 1930

هـ ـ ينطبق الشيء نفسه على أيام الأسبوع ، وفصول السنة ، والألعاب ، والوجبات الغذائية ، والأمراض ، نحو :

ـ ولد محمد يوم **الاثنين** . . .	⇔	Muhamed was born on **Monday**

ـ الصيف يعقب **الربيع**	⇔	Summer follows Spring

ـ إنّه مولع بلعب **الشطرنج**	⇔	He is fond of playing [1] **Chess**

ونلفت انتباه القارئ إلى أنّ الفعل الانجليزي « to play= إذا ما قابل الفعل العربي « عزف »فإنّ اللغة الانجليزية تعرّف الآلة الموسيقية المعزوف عليها بالأداة « the » نحو :

ـ تعزف أختي على آلة القيثار كل مساء .	⇔	My sister plays the guitar avery evening

ـــ لا يحضر أبونا أبدا إلى المنزل وقت **الغداء**	⇔	Our father is never at home at lunch

ـ مات الولد من **السرطان**	⇔	The child died of **Cancer**

و ـ إذا سبق اسم شخص باسم يبيّن مكانته الاجتماعية أو رتبته ، يأتي هذا الاسم في اللغة العربية مقترنا بـ (ال) بينما تحذف منه الأداة المعرّفة « the » في اللغة الإنجليزية ، نحو :

توفي الرئيس هواري بومدين يوم السابع والعشرين من شهر كانون	⇔	President HOuari Boumadian died on December 27 th 1978

الأول (ديسمبر) لعام 1978		

ز ـ تجيز اللغة العربية استعمال (ال) التعريف بعد اسم الإشارة ولا يجوز هذا في اللغة الإنجليزية إن لم يكن هناك شيء يفصل بين اسم الإشارة والمشار إليه ، نحو :

ـ هذا **الكتاب** مفيد	⇔	This book is interesting

ويستنبط ممّا صغناه أنّ مواطن اختلاف اللغتين العربية والإنجليزية في توظيف النكرة والمعرفة تفوق مواطن توافقهما ، وينبغي لمن يكتب بلغة غير لغة منشئه أو لغته الرسمية أن يضع نصب عينيه خصائص تلك اللغة فلا يلبسها جلبابا يضفي عليها طابع الغرابة .

قائمة المراجع

1ـ ابن هشام ، أبو محمد جمال الدين ، الأنصاري . « أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك » ج1 ، ط4 ، مزيدة ومنقحة ، مطبعة السعادة ، مصر . 1956 .

2ـ ابن يعيش ، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي الموصلي . « شرح المفصل للزمخشري » ، قدم له ووضع هوامشه وفهارسه إميل بديع يعقوب ، ج3 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان . 2001 .

3ـ السيد ، أمين علي . « في علم النحو » ، ج1 ، ط2 ، دار المعارف ، القاهرة ، مصر . 1973 .

4 ـ Allsop, J . Cassell´s students´ English Grammer, cassel,G . B . 1983 .

5 _ Quirk, R . And Greenbaum, S . A University Grammer of English, Longman, London . 1989 .

6 _ Woods, E . G . and Mc leod, N . j . Using English Grammer : Meaning and Form . English Language Teaching, Prentice Hall, London . 1989 .

إشكالية الهوية في رواية ((الانطباع الأخير لمالك حداد))

أ . نبيلة زويش*

مقدمة :

انصرف كثير من النقاد والباحثين في دراساتهم عن التعريف بصاحب النص ، انطلاقا من مفاهيم نقدية جديدة ، رأت ضرورة انفصال النص عن صاحبه ، فلم يعد يهم من قال ولا متى قال ولا لماذا قال النص ما قاله ، وتم التركيز على كيفية القول باعتبارها مكمن أدبية النص . لكن يبدو لي أن نصوصا بعينها ودون سواها تثير السؤال عن صاحبها ، ومن يكون ، وتحيلك بشكل صارخ عليه وعلى مبادئه فيكون الفصل بينهما بترا للمعنى وسدا أمام الولوج إلى عالم الحكاية وهو حال « الانطباع الأخير » فماذا عن مالك حداد؟

ولد مالك حداد عام 1927 من عائلة ميسورة ، مكنت أبناءها من التربية والتعليم في عهد الاستعمار ، الأمر الذي لم يكن في متناول كل أبناء الجزائر . نشأ في محيط مرجعيته الانتماء إلى الجزائر ، ومن ثوابته الإسلام . ترك مدارج الدراسة لتلبية نداء الوطن والتحق برفاق الكفاح منضويا تحت لواء جبهة التحرير الوطني ، أحب الجزائر كما لم يعرف هو نفسه مثله ، وفيما يقول : « في بلدي سهول وسهول ، سهول فسيحة كجملة بلا فاصلة ، سهول من غير قرى ، ثمة المسافة ذات الأبعاد الشاسعة التي لا يوقفها شيء . هذا المستطيل الكبير الموجود هناك بين لا متناهيين هو الجزائر » .

ويعد مالك حداد من الكتاب الأوائل ، الذين امتازت أعمالهم بالالتزام الثوري ، آمن بصدق قضية الجزائر وقوة شعبها ، ولأجل أن يكون اللسان الناطق بحقها كلفته قيادة الثورة ، بمهمات ثقافية وإعلامية في بلدان عديدة في أوربا والبلاد العربية والعالم مثل رحلته في عام 1961 إلى القاهرة ودمشق .

ومن أشهر أعماله الشعرية « الشقاء في خطر » و« اسمعني وأناديك » وكانت أشهر رواياته « الانطباع الأخير » و« سأهبك غزالة » و« رصيف الأزهار لا يجيب » . تبدي قصائده إدراكه ارتباط « الهوية » بمعنى الوطن والوطنية وفي ذلك يقول :

---

* كلية الأدب العربي ، جامعة مولود معمري ، بتيزي وزو .

« . . . عندنا كلمة وطن لها طعم الغضب
يداك قد داعبت قلب الزيانيين
ذراع الشقور كانت بداية الملحمة
آنذاك تراءى لي جدي حاملا اسم المقراني »[1] .

ولعل الجملة التي قالها ذات مرة ، تعبر عن شعوره بالمرارة والاستياء مما خلفه هذا الاستعمار في تكوين شخصيته ومن ذلك استعماله للغة الفرنسية « اللغة الفرنسية هي منفاي » وتثير هذه الجملة الإشكالية التي طرحت حول الأدب الذي كتبه الجزائريون باللغة الفرنسية ، وسؤال هوية هذا الأدب . وهي الظاهرة التي لم تخص الجزائر وحدها ، حيث طرحت في العديد من المستعمرات الفرنسية والأوربية .

ونشير إلى أننا لن نتوسع كثيرا في طرح هذه القضية ، ونكتفي بالإشارة إلى الاستفتاء الذي قامت به مجلة « الأخبار الأدبية »[2] الفرنسية سنة 1960 ، والذي شارك فيه العديد من الكتاب الجزائريين والمستوطنين ، والذين كان من بينهم مالك حداد ، الذي استفزه السؤال عمن يكون الكاتب الجزائري ، فقال : « . . . إن لنا أساليب في التفكير والإحساس وما إلى ذلك من تصرفات ، هي أشياء خاصة بنا ، فحتى لو عبرنا بالفرنسية فإننا ننقل حلمنا وغضبنا وشكوانا الصادرة من الأعماق قرونا وقرونا من تاريخنا »[3] وتوجه برد خاص في المقال نفسه للكاتب المستوطن روجي عوريل الذي يبدو أنه شبه الجزائر بالمعشوقة الجميلة التي يتواطأ العشاق الأذكياء على خيانتها ، فقال له : « إن الجزائر ليست عشيقتنا المشتركة ، إنها أمنا ، ولا يمكن ارتكاب « زنا المحارم » في أسرتنا »[4] ويخلص إلى أن هذا اللبس الذي أشار إليه الكاتب بشأن الكاتب الجزائري مجرد ظرف تاريخي ، طارئ أوجده الاستعمار الفرنسي للجزائر ، وهو زائل لا محالة[5] . وقد أكد مالك حداد موقفه هذا في عدة مناسبات من ذلك ما جاء في الكلمة التي ألقاها بدمشق في مايو 1961 ، حيث قال : « . . . إن على الكتاب الجزائريين الذين

(1) ينظر : مالك حداد ، « الشقاء في خطر » ترجمة ملك أبيض العيسى ، المؤسسة العربية للدراسات ، ط2 ، بيروت ، ص 43 .

(2) Albert Memmi, Anthologie des écrivains maghrébins d'expression française, ed, Présence Africaine, Paris, 1965, 2eme édition, p 12

(3) Malek Hadad, Les Zéros tournent en rond, (essais édition, F ـ Maspéro, Paris, 1961, p25 .

(4) المرجع نفسه ، ص 26 .
(5) ينظر المرجع نفسه ، 31 .

ينتمون إلى جيلي ، ولهم تكوين ثقافي كتكويني ، أن يتركوا أماكنهم اليوم أو غدا ، في ظرف قصير أو طويل ، ولكنه أكيد على أية حال للكتاب الجزائريين باللغة العربية ، وأن يقنعوا بترجمة أعمالهم إلى اللغة العربية في بلدهم . إننا كتاب جزائريون منفيون في اللغة الفرنسية »[1] .

لعل هذه المواقف الكثيرة ، التي وإن خالفها بعض الكتاب (كمحمد ديب) تدل على قناعة مالك حداد بهويته الجزائرية .

مفهوم الهوية :

إن اسم الهوية ليس غريبا في أصله ، فلا وجود للكلمة في معجم لسان العرب المحيط لابن منظور ، وإنما اضطر إليه بعض المترجمين ، فاشتق هذا الاسم من حرف الرباط ، أي الذي يدل عند العرب على ارتباط المحمول بالموضوع في جوهره ، وهو حرف هو في قولهم : زيد هو إنسان . . .[2] .

وللهوية عند القدماء عدة معان وهي التشخيص ، والشخص نفسه ، والوجود الخارجي قالوا : ما به الشيء هو باعتبار تحققه يسمى حقيقة وذاتا وباعتبار تشخيصه يسمى هوية وإذا أخذ أعم من هذا الاعتبار يسمى ماهية »[3] .

وقال الفارابي : هوية الشيء وعينيته ، وتشخصه وخصوصيته ووجوده المنفرد له الذي لا يقع فيه اشتراك . وعندما انتشر استعمال الكلمة صار تعريفها في قاموس « المنجد » باللغة العربية ، معناها « حقيقة الشيء أو الشخص ، المطلقة ، المشتملة على صفاته الجوهرية »[4] وأما اللفظ الذي يقابل الكلمة في الفرنسية فهو (identité) وقد اشتق من الكلمة اللاتنية (Edem) « التي تقال عن الأشياء أو الكائنات المتشابهة أو المتماثلة تماثلا تاما ، مع الاحتفاظ في ذات الوقت بتمايز بعضها عن بعض »[5] .

أما في قاموس « لاروس » فتعني : « مجموع الظروف ، أو الحيثيات التي تجعل من الشخص شخصا مميزا ، أو محددا » وذهب معجم « روبير » للمعنى نفسه الذي أورده « لاروس » : « ما يسمح بالتعرف على شخص بين جميع

(1) Malek Hadad, La liberté et drame de l'expression chez les écrivains algériens, ministère de la culture et de l'orientation nationale, Damas, juin 1961, p 15

(2) المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتنية ، د . جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، سنة 1979 ، ص 528 .

(3) المرجع نفسه ، ص 529 .

(4) المرجع نفسه ، ص 531 .

(5) Petit Robert, dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, ed 1984, 1984, p 340 .

الأشخاص الآخرين» . ويزيد على ذلك بأن الهوية ما يرتبط بالحالة المدنية والصفات المميزة للشخص[1] .

واستنادا لمختف التعريفات التي وردت في المعاجم السابقة الذكر ، تداول الناس الكلمة ووظفت بمعاني ودلالات متقاربة ، لكن المجال ، الذي وظفت فيه واستعملت بشكل مكثف ، كان علم النفس ، ويرجع العلماء ارتباطها بهذا المجال إلى الفيلسوف الإنجليزي « جون لوك» ومن التعريفات التي تنسب إليه : « إن « الذات» أو « الهو» هو ذلك الشيء المفكر ، الواعي . . . الحساس نحو المتع والألم أو الوعي بها . . . وهو ما يجعل من وعي ذلك الشيء الواعي» يلتقي مع ذاته وليس مع غير ذاته» وصار تعريف الهوية في معجم التحليل النفسي : بأنها « حقيقة الشيء من حيث تميزه عن غيره وتسمى أيضا وحدة الذات»[2] وهكذا اتسع مفهوم الهوية وارتبط بشكل خاص بالإنسان وسمي المصطلح بمسميات أخرى مثل : « الكينونة ، الذات الإنية ، الشخصية» وشكل هذا المفهوم مجالا واسعا وحقل دراسات اجتماعية وانتربولوجية ونفسية .

وتجاوزت إشكالية « الهوية» الأشخاص إلى الأوطان ، وكان ذلك مرتبطا ، خاصة بالاستعمار ، شعوب تطمس هويات شعوب ، وشعوب تدافع عن هويتها ، ومن ثم طرحت القضية بحدة في الوطن العربي ، فارتبطت الهوية في مصر بمقولة : « أنا مصري ، عربي ، إفريقي ، مسلم» وكانت في لبنان تعني على حد تعبير إلياس خوري ـ « التمايز بوصفه رؤية وطريقة كمجموعة من القيم التي تعكس خصوصية معينة ، وهذه الخصوصية ليست مطلقة بطبيعة الحال ، وإنما فيها التركيبة الإبداعية التي تعبر عن تقاطع بين الهوية والوطن»[3] ويضيف مؤكدا على العلاقة الوطيدة بين الهوية والوطن : « أنا لا أستطيع أن أفهم هوية بلا وطن ولا وطنا بدون هوية»[4] ونخلص من هذه العلاقة إلى الانتقال من هوية الفرد إلى هوية الجماعة ، وجميع العناصر التي تحدد الهوية الفردية تنطبق على الجماعية .

أما إذا عدنا إلى الهوية الجزائرية التي طرحت كقضية شعب عانى ويلات الاستعمار ، وتجلت على عدة مستويات ، سياسية واجتماعية وثقافية وخاصة أدبية ، فإننا نتبين أن فرنسا كانت الطرف الوحيد الذي أنكر هوية الشعب

(1) Petit Larousse en couleur, ed 1984, p 420 .

(2) عبد المجيد سالمي ـ نور الدين خالد ـ شريف بدوي ، معجم مصطلحات علم النفس ، دار الكتاب القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، 1971 ، ص 529 .

(3) ميخائيل عيد ، سؤال الهوية ، اتحاد الكتاب العرب ، ص 24 .

(4) المرجع نفسه ، ص 28 .

الجزائري ، وسعى لطمس شخصيته بالإدعاء أن هذا الشعب مشكل من أعراق مختلفة وقبائل متفرقة ، وصرح بذلك الجينرال ديغول نفسه : « إنها لم تكن ذات يوم دولة ولا أمة وإنما هي مجرد خليط مزركش وعشائر متطاحنة »[1] .

ولكن ، إن كانت تلك آراء المستعمر ، فإن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ، وإن كان في أعماقه الأكثر طرحا ودعما للهوية الجزائرية ، وما كانت اللغة التي كتب بها إلا غلافا خارجيا . لقد كان اللسان الناطق بلغة هذا المستعمر ، الصارخ في وجهه : « لست منك ولست مني »

وكان مالك حداد في رواية« الانطباع الأخير » خير نموذج نقل حيرة وانشغال وتساؤلات المثقف الجزائري من جهة ، والأسرة الجزائرية ، المعاشرة للمستوطنين ، وأثر الاحتكاك بهم من جهة أخرى .

لقد طرح مالك حداد الحيرة التي وقع فيها الجزائري بعد أن طرحت عليه مسألة إمكانية حصول بعض الجزائريين على صفة« المواطنة الفرنسية »(la citoyenneté française) بعد الإصلاحات الاستعمارية التي تجلت في قوانين 04 فبراير ، وهي المسألة التي تخدش جرح الهوية وتظهر مساعي فرنسا لطمس شخصية وهوية الشعب الجزائري[2] . فهل كان الجواب عن السؤال : كيف يمكن للجزائري أن يصبح فرنسيا؟ مضمنا في هذه الرواية على لسان بطلها سعيد : « لا أدري إن كنت وطنيا . ما أعرفه ، وأعرفه جيدا أني جزائري ، بل إني أخاف أن أكون قد أصبحت شيئا آخر »[3] ليصل في مستوى آخر من الحكاية للجواب الحاسم : « آن الأوان ليلتحق كل واحد بطائفته »[4] كما يبدو في مستويات أخرى إشارة الحكاية لقضية الزواج المختلط ونتائجه على الهوية الفردية والتشكيلية الجماعية : نتبين موقفه في قوله : « يوجد في كل زواج نسميه ببشاعة الزواج المختلط شيء مفارق أو لا معنى . . . هؤلاء الذين يلينون أمام هذه الدولانية السهلة لا ينكرون . . . بأن هذه الامتزاجات تخفي جرائم في نهاية الأمر . لهذا استقر ايدير في فرنسا بعد إتمام دراسته . إن حلا سهلا يؤدي دائما إلى حل آخر أسهل . أبوه ، رجل قديس مات من فرط الكآبة والخجل » . .[5] .

(1) ينظر : مولود قاسم نايت قاسم ، أصالية أم انفصالية ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1991 ، ج 2 ، ص 30 .

(2) Mostapha Lacheraf, Breve contributions a un débat sur le roman maghrébin, in Erit didatique, sur la culture, l'histoire et la société, ENAP Alger 1988, p37.

(3) مالك حداد ، الانطباع الأخير ، ترجمة السعيد بوطاجين ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ص 22 .

(4) الرواية ص 25

(5) الرواية ص 25 .

حكاية الحكاية :

تسرد الرواية قصة أسرة جزائرية قسنطينية في العهد الاستعماري . تتكون من أب وأم وثلاثة أبناء : بوزيد ليلى وسعيد . وهو البطل الذي يتتبع السارد مسار حياته ، وكيفية معايشته للثورة وأحداثها الدامية .

تقول الحكاية أن سعيدا ، المهندس المعماري الناجح ، المثقف ، الذي أحب جسور قسنطينة وشارك في بنائها ، وكانت مكمن فخره واعتزازه ، والذي كان من أصدقائه بعض المستوطنين الفرنسيين ، والذي أحبته لوسيا وفضلته عن الفرنسي ، والذي بادلها الحب ، جاءه خبر من قيادة جبهة التحرير يطلب منه تقديم المعلومات الهندسية التي تمكنهم من تهديم جسره الذي بناه هو ، والذي كان جسرا يمد قسنطينة بالحياة ، وتحول مع الاستعمار إلى جسر يعبر من خلاله عساكر العدو وأسلحتهم . ليزرعوا الموت والخراب .

كره سعيد الحرب لأنها السبب في تفجير جسره واشتد كرهه لها بعد أن أصابت الرصاصة الطائشة حبيبته ، حزن حزنا عميقا ، ورغم أنه يعلم أن الحرب غير عادلة ، ولا يحبها يلتحق بأخيه بوزيد في الجبل ليستشهد بقربه لأنه يحب الجزائر أكثر .

التعايش الاستقرار غياب سؤال الهوية :

تبدأ الرواية بلاحقة كبرى يرتد السارد من خلالها إلى طفولة سعيد ، ذاك الطفل الذي كان يعيش في سكينة وهدوء ، حيث تبدو طفولته عادية ، لا تختلف عن طفولة أي صبي في سنه ، وهي مجسدة لمعنى الهناء والاستقرار ، يقول السارد : « عندما كان سعيد صغيرا ، كان يحدث له أن يأخذ دراجته ويهجر المدينة . في البداية كان كل شيء على ما يرام ، قسنطينة منتصبة على صخرتها كنقطة على حرف ، الطرق نازلة نحو الساحل بسرعة مدوخة » . .[1] .

نلاحظ إذن ، أن دلالة الاستقرار والأمان ، التي أراد السارد إيصالها للقارئ قد شكلها من خلال زاويتين : الرجوع إلى طفولة البطل الآمنة ، كان يلعب ويبتعد عن المدينة دون أن يخاف أي خطر ، ومن خلال مدينة قسنطينة نفسها ، التي كانت منتصبة على صخرتها ، وكانت طرقها نازلة إلى السواحل . وفي هذا إحالة على الشخصية وبطاقتها الدلالية (طفل ، مطمئن ، دراجة ، يلعب ، يبتعد . . .) ، وعلى الفضاء وبطاقته الدلالية هو الآخر ، (فضاء محدد ، آمن . . .) .

(1) الرواية ص 34 .

لكن الملفت للانتباه ، أن هذه اللاحقة قد انبنت على سرد تابع جعل السارد من الفعل الماضي الناقص « كان » قرينة دالة عليه ، وفي ذلك إثارة وشحذ لذاكرة القارئ الذي يشده فعل « كان » إلى مخزون يربطه بفعل الحكي ، فبداية هذه الرواية تشبه المقدمات القصصية القديمة التي تبدأ عادة ب « كان يا مكان في قديم الزمان » وهو من جهة أخرى علامة على انفصال الحاضر عن الماضي ، الأمر الذي يؤكده السارد بقوله : « في البداية كان كل شيء على ما يرام »[1] .

فيخلص المتلقي إلى دلالة مفادها ، أن قسنطينة كانت مدينة آمنة وكان أهلها يعيشون في آمان وكان أطفالها يلعبون في سلام ، فيثبت لدى المتلقي اتصال الذات بالموضوع القيمي الواضح والجلي : الأمن والاستقرار ، ويحدث بعد ذلك تحول على مستوى هذه العلاقة فتنتقل إلى حالة انفصال نتبين ذلك مجددا بعد الجملة السابقة في قول السارد : « كان ذلك في البداية » ويضيف حتى يتأكد أن أمر ذلك الأمن كان في الماضي قوله : « فيما مضى كان السباخون هم الذين يسلكون هذا السبيل ويجيئون متأخرين لتزويد السوق ، فيما مضى . . . ، كان يستلزم أقل من سنة لينتصب حد بين الحاضر وهذا النبي ، ما مضى الذي لا يعرف الأسلاك الشائكة في الطرقات ، حظر التجول والدبابات »[2] .

فيتأكد من خلال هذه المقطوعة انفصال الذات عن موضوعها القيمي وهو انفصال بين زمنين الماضي الحضر وهو الأمر الذي يشد القارئ عندما يتكرر على لسان السارد مقطع : « فيما مضى كان . . . فيما مضى . . . ، كان ما مضى . » . . حيث يشكل هذا السرد المكرر نغمة يتسرب من خلال تكرارها الحسرة على الماضي الذي ولى وتبدلت من بعده الأحوال . لكن الملفت للانتباه في هذه المقطوعة أن السارد يضيف جديدا طرأ ، نستشف من خلاله اتصال الذات بموضوع آخر : « ما مضى لا يعرف الأسلاك الشائكة وحظر التجول والدبابات » صارت المدينة غير آمنة ، ولم يعد فيها أمان واستبدل بالأسلاك الشائكة والدبابات ، إنه الخطر ، ناقوس حرب يسلب الناس حريتهم وأمنهم . فتصبح الذات في اتصال بموضوع الحرب . ورغم استمرار السرد على الوتيرة نفسها ، حيث لا ينقل الأحداث مباشرة ، ولا يركز السارد على الفعل في حد ذاته ليبين الحركة ، ويكتفي في الغالب بنقلها من خلال الانطباع الذي تخلفه كتحولات تطرأ على المسار الحكائي ، فإننا تتبين هذا النمو من خلال ما تضيف كل مقطوعة من

(1) الرواية ص ن .
(2) الرواية ص 35 .

مستوى آخر ، من ذلك مثلا : « بين عشية وضحاها ، بين عشية وضحاها سوف لن نذهب إلى السنما ليلا ، بين عشية وضحاها ، نشعر حين يغشى الليل بأن البادية تسيطر على الأمور »[1] .

إن هذه المقطوعة لا تضيف حدثا جديدا فقط ، والمتمثل في سيطرة البادية على الأمور بل تؤكد من ناحية أخرى النمو الزمني ، فالمقطوعة أقرب في زمنها من زمن السرد ، وفيها انتقال من الماضي (الطفولة) إلى سن آخر (سن الخروج إلى السنما ليلا) رغم أن السارد يوظف قرينة زمنية ترتبط بالسرعة الزمنية (بين عشية وضحاها) وفي هذا المستوى يطرح السؤال هل تبدلت فعلا الأحوال ، أحوال الناس والمدينة بين عشية وضحاها؟ هل كانت آمنة ساكنة فعلا؟ وما معنى أن البادية تسيطر على المدينة؟

يبدو أن اختيار السارد لنقل الأحداث بطريقة غير مباشرة ، من خلال انطباع هذه الأحداث وأثرها على حياة البطل كانت له غاية مقصودة ، نتبينها من خلال هذه المقطوعة التي تنقل تأمل البطل الوضعية ، والحالة التي كانت تعيشها البلاد ولكن من منظور آخر ، منظور الطرف الآخر ، يقول السارد على لسان سعيد : « أتساءل الزورق المترنح في المحيط يوما عن أية خاصية بينهما؟ ماذا يفعل العساكر؟ وماذا يفعل القارب المترنح في المحيط ، هذا المحيط الذي يتظاهر بتحمله ليهرب بعدها عندما يبلغ رفضه للحضور المستهجن »[2] .

إن هذا المقطع الذي ينقل ردة فعل سعيد عندما كان ينظر إلى العساكر السكارى عند خروجهم من الحانة ، والثمالة تلقي بخطواتهم يمينا وشمالا ، وما شكل على مستوى ذهن البطل صورة الزورق الذي تلعب به الأمواج وسط المحيط ، يساهم بشكل كبير في إزالة إبهام وغموض حالة الهدوء والسكينة التي كانت تعرفها المدينة . إن السارد من خلال هذه المقطوعة المشهدية الخافتة الحركة ينقل للقارئ بداية الفهم والوعي لدى البطل . وكأن طارئا طرأ أيقظ في داخل البطل أشياء كثيرة كانت من المسكوت عنه ، والذي يكبت حتى يضيق به الصدر إلى لحظة لا يحتمل ويلفظ خارجا كطعام لم تهضمه المعدة . لكن السؤال الذي يطرح في هذا المستوى من مسار الحكاية ، ما هي الخلفية السردية التي جعلت هذا البطل لا يشعر بالضجر ، والكره لهذا المستوطن في البداية؟ لقد عرض السارد القصة ووضع البطل في الإطار الذي يجعله يعيش حالة التماهي مع

(1) الرواية ص 11
(2) الرواية ص 18 .

هذا الطرف الآخر ، بدأت الأحداث من الطفولة ، وساعتها كان سعيد طفلا وكان المستعمر قد استوطن ، والمقاومة الجزائرية كانت عرفت خفوتا خاصة على مستوى المدن الكبرى حيث تعايش السكان الأصليون مع المستوطنين وجمعتهم علاقة جيدة ، وبطل الرواية كان من أسرة ميسورة الحال ، وأتم تعليمه ، مهندس معماري ، مثقف ، وصديق لبعض المستوطنين وحبيبته لوسيا . ورغم أن السارد لم يصرح بهذه المعطيات دفعة واحدة ، لكنها من الأخبار التي انتشرت عبر مسار الحكاية شيئا فشيئا ، إلى أن وصل للمرحلة التي قال فيها مجيبا صديقته لوسيا عندما واجهته بالحديث عن الهوية التي صارت بين طرفي النزاع ، فأجابها : « عميقة جدا ، أخاف أن يصعب ردمها الآن وقد سال الدم ، التمشيطات ، الاغتصابات ، التعذيبات ، الاغتيالات بالجملة ، السجن ، الاعتقالات التعسفية » . . .

لقد بلغ مسار الحكاية لحظة الوعي الكامل لدى البطل ، ويبدو أنه لم يكن وعيا بوجود هذا الطرف الآخر المعادي ، المستعمر فقط ، بل لقد أدرك أنه كاد ينسى هويته ، أخذته الحياة التي كان يحياها مع هؤلاء المستوطنين . لكنه وعى في الأخير أنه ليس منهم وأنه رغم مستواه ، ورغم ثقافته ، ورغم حبيبته كالآخرين . نتبين هذا في قوله : « خطأ! إني كالآخرين وزوارقي الصغيرة لا تضيف شيئا . . . إني كالآخرين ، إني مع الآخرين . أفهم خبزهم وبندقيتهم ، أتحدث عن أمي كما يتحدثون عن أمهم ، أقبل أبنائي كما يقبلون أبناءهم ، أخاف السلب كما يخافونه . إني كالآخرين كل شيء يربطني بهم ، كل شيء يجعلني مماثلا لهم ، اختارت الشجرة غابتها و العلامة الموسيقية سمفونيتها . الوحيدون الذين أستطيع أن أفهمهم فعلا هم أهلي »[1] .

إن تكرار البطل لمقطع « إني كالآخرين » ورغم كل الجمل التي جاء بها المتكلم ليوضح فيما هو كالآخرين ، إلا أنها تحيل القارئ في تكرارها على سؤال الهوية الذي يطرح على البطل ، كل الأشياء تربطه بالآخرين ولأنهم في عداء مع هؤلاء فهو مع أهله وضدهم .

الانتماء/ سؤال الهوية/ الثورة :

يبدو من خلال المسار الذي أخذته أحداث القصة ، التي انبنت على الانطباع الذي خلفته أحداث رئيسية معدودة ، في مسار البطل وتشكل شخصيته وامتلاء بياضها الدلالي ، أن السارد لم يسلك طريقا ملتويا لطرح سؤال الهوية ، فبينما كان

(1) الرواية ص 84 .

سعيد في حديث أو نقاش مع أصدقائه (الطبيب لوجندر ، روبير ، لوسيا) عاود طرح قضية الحرب التي سبق وأن عرف بموقف سعيد منها : « الحرب ولو كانت عادلة ، هي عادة صعبة الإتباع ، عادة تتبع إلى أن ينسجم الديكور لوحده مع اللعبة الجديدة للمثلين »[1] . كما ينقل السارد نفسه رد سعيد على الطبيب الذي لاحظ التغير الذي طرأ عليه ، قال سعيد بحركة مازحة : قلت لك يا طبيب بأن الحرب ليست جميلة ، التاريخ لا قلب له »[2] . أما الدلالة التي تحسم بشكل مباشر سؤال الهوية لدى البطل فتظهر من خلال هذا الحوار :

« قاطعه روبير : بشرفي أنت تتحدث كوطنّي .

ـ لا أدري إن كنت وطنيا ، ما أعرفه ، وأعرفه جيدا أني جزائري ، بل إني أخاف إن أكون قد أصبحت شيئا آخر » . .[3] .

لقد بلغ في هذا المستوى وعي البطل بانتمائه إلى الجزائر ، وبهويته الحد الذي لم يبق فيه شك رغم أن القارئ قد يلفت انتباهه بداية رده « لا أدري إن كنت وطنيا » حيث يفتح باب التأويل واسعا ، ومن ثم يطرح السؤال ، ولماذا لا يعرف إن كان وطنيا؟

ويظهر السارد من خلال هذه الإجابة تردد البطل الذي يبدو أنه لم يطرح عليه ، من قبل ، سؤال الوطنية ، وأن معناها لم يشكل لديه في البداية إشكالية ، ومن ثم يبدو وكأنه لا يعرف ما معنى الوطنية ، وما الذي يجب فعله حتى يكون وطنيا ، إن حياته بين هؤلاء المستوطنين والامتيازات التي كانت لديه بينهم جعلته لا يدرك أنه إنما يصادق الأعداء . إن التغير الذي حدث بين عشية وضحاها بالنسبة لهذا البطل قد قلب الموازين ، لقد أدرك نتيجة للتحول الذي عرفته الحياة كاملة أن عليه أن يواجه أسئلة لم تكن تخطر على باله . لكن اختياره كان واضحا حتى وإن كانت أفكاره حول الحرب لا تتعلق بحرب الجزائر فقط ، فهو يرى أنها رغم قساوتها تكون أحيانا عادلة لأنها السبيل الوحيد الذي يرد الموازين إلى مكانها . ولهذا اعتمد السارد على كشف ما كان يفكر فيه هذا البطل وما كان يختلج بنفسه ، « لم يتجرأ سعيد على البوح بأنه يخشى أن يكون قد أصبح مضادا للفرنسيين »[4] لكن ما كان يعرفه سعيد دون شك ، أنه جزائري ، وأن التحولات التي طرأت جعلته يتذكر ما قاله ، وصرح به كامو في إحدى مقالاته ، ويوافقه فيما ذهب إليه ،

(1) الرواية ص 21 .
(2) الرواية ص 21
(3) الرواية ص 22 .
(4) الرواية ص 22 .

لأنه صار الأمر كذلك بالنسبة إليه ، ولهذا يقول كما قال كامو : « آن الآوان ليلتحق كل واحد بطائفته »[1] والالتحاق بطائفته يعني أنه مجبر على استرداد ما سلب منه ، ومن ثم تحدد انفصال الذات عن هويتها ولزم عليها السعي لتحقيق الاتصال ، استراد الوطن ، طرد المستعمر والتحرر واسترجاع الهوية باسترجاع الوطن .

أما إذا نظرنا إلى مسار الحكاية وأخذنا بعين الاعتبار أن هذه الذات (سعيد) قد انتقلت من ذات حالة إلى ذات فاعلة تسعى لتحقيق موضوع قيمي هو الهوية ، بدء من اللحظة التي قال فيها : « أخاف أن أكون قد أصبحت شيئا آخر »[2] فإننا نلاحظ أن عناصر الكفاءة التي كانت تبدو غير مكتملة لدى هذه الذات لتحقيق مشروعها قد جعلها الكاتب ، ومن خلال علاقة هذه الذات بالشخصيات الأخرى ، ومن الطرفين تكتمل شيئا فشيئا نحاول أن نتتبع اكتمالها وفقا لما ورد في النص .

أولا : لقد اكتملت قناعة (سعيد) الذات الحالة ، بأنه جزائري ، ومن خلال سكوته والتزامه الصمت أمام طلب لوجوندر للوسيا ، وبعد مراجعته لما اعترفت به الجارة « مليكة » ومن خلال تخلصه من تردده وحزنه على موت « لوسيا » التي تبين له أنه لم يحبها أبدا : « كان يفكر وهو سائر إن كان فعلا يحب « لوسيا » . إن كان لا يزال يحبها . لم يحب سعيد « لوسيا » أبدا ويتأكد موقف سعيد من لوسيا عندما يقول السارد : « لم يتجرأ سعيد على البوح بأنه يخشى أن يكون قد أصبح مضادا للفرنسيين »[3] .

إن الرواية بمسارها هذا ، كانت ستبدو عادية لا تختلف عن غيرها من الروايات التي سردت بطولات شعوب ثارت ضد الاستعمار ، لكن يبدو لي أن بذرة العبقرية في هذا العمل ، كانت في قصة الحب التي ضمنها الكاتب فيها ، لقد كانت بمثابة ملح الطعام ، وقد سبق وأشرنا في مقاطع سابقة إلى أن « لوسيا » الفرنسية قد فضلت سعيدا (العربي) عن ابن جلدتها ، الطبيب « لوجندر » الذي طلبها للزواج بحضور سعيد وبعض الأصدقاء ، نتبين ذلك في المقطع الآتي :

« في وقت التحلية قال الدكتور « لوجندر » بصدق لا جدال فيه ومن دون استهلال :

ـ لوسيا هل ترغبين في أن تكوني زوجة لي؟ . . .

ـ أترك يدي من فضلك . . .

---

(1) الرواية ص 42 .
(2) الرواية ص 22 .
(3) الرواية ص 18 .

ـ . . . هي لا تعرف الخداع » . .[1] .

لكن ما يشد انتباهنا في هذه العلاقة أنها مثلت للتنافس الذي يمكن أن يحدث بشكل طبيعي بين اثنين ، بل نلاحظ أن الكاتب ، وحتى يرفع من شأن حب سعيد ولوسيا لم يكتف برفض هذه الأخيرة للوجندر ، وجعل السارد يعلق على حب « لوجندر » للوسيا : « كان يحب لوسيا كما في روايات الأربعة فلس، غراميات لا سعر لها . ولو أحبته لوسيا لأصبحت الرواية بقيمة ثمانية فلس »[2] يتضح من هذه المقطوعة أن الكاتب كان يريد قصة حب متميزة ، قصة لا تشبه تلك القصص التي تشبه الواحدة منها الأخرى . كان يريدها قصة حب ترتقي إلى المستوى الإنساني ، الذي تتجاوز فيه الفروقات الاجتماعية ويبتعد فيه عن العنصرية .

ثانيا : كانت فرحة سعيد بأخته التي رفضت أن تكون مثل زوجها ، وبقائها وفية لوطنها علامة على اتضاح رغبته وإرادته القوية ، وعزمه على إسترداد ما ضاع منه ،» كان شريف ظلا ، ولكنه استقر في الرفاهية المخزية للعادة ، تعود إلى المقاطعات الفرنسية الثلاث ، لم يعرف المعاناة أبدا ، يقلقه التاريخ ، يناوئه كمغادرة ـ ثمة دائما كلمات . . . كلمة خائن مثلا »[3] .

يتضح من المقطوعة ، وعلاقة سعيد بأخته وبزوجها أنه يرفض خيانة وطنه ، خاصة عندما يضيف السارد : « كان سعيد مسرورا بأخته التي رفضت الذهاب ، في كل ذهاب هناك شيء من الهروب الذي يشبه التخلي عن الواجب ، وإذا رفضت ليلى الذهاب أبدت بشكل ما ارتباطها . . . بقيت وفية للساعات المضيئة المزروعة بالضحك » . .[4] .

نخلص من خلال المقاطع السابقة إلى استنتاج اكتمال رغبة الفعل وقدرة الفعل وبقية واجب الفعل الذي يثبت تحققه من خلال قول السارد : « كانت هناك ألف حجة لذلك » ليكتمل عنصر واجب الفعل عندما يأتي الأمر من قيادة جبهة التحرير لسعيد يطلب منه المساعدة لتخريب جسره الذي كان يشكل فيما مضى فخر واعتزاز سعيد نتبين ذلك من قول السارد : « . . . وجسر سعيد وجب تخريبه . أكيد ، ليس هو من سيقوم بالمهمة ، فقط طلبت منه إيضاحات تقنية ، طريقة من طرق التحسس ، الأماكن أكثر قابلية للعطب . هناك من الناس من يكفيهم تحطم كأس لمضايقتهم ، لتحريك شعورهم ، أما عندما يتعلق الأمر

(1) الرواية ص 34 .
(2) الرواية ص 106 .
(3) الرواية ص 70 .
(4) الرواية ص 76 .

بجسر .» . . ، ونتبين وجوب الفعل في قول مبعوث الجبهة : « يجب تخريبه . ثم أضاف المدعو علي وعيناه شبه مغمضتين : يجب تخريبه ، يجب» . .[1] إن هذا الطلب هو الذي حدد مسار البطل ، فالجسر الذي كان يفخر به يعتز به وافق سعيد على تخريبه من أجل غاية أسمى. لهذا قال السارد في مستوى آخر .» . . وجسر سعيد يقول : سأنتحر بإطلاق رصاصة على رأسي»[2] ليتكرر هذا الوجوب في مستوى آخر : « . . . يجب أن يزول الجيل الانتقالي . الجيل صنع الجسر . والجسر وجب أن يخرب . كان جيل سعيد جيل صانعي الجسور ، جسور الإرادة القوية . بيد أن الجسور وجب أن تخرب . لقد خربت»[3] .

ويتواصل تكرار خبر جسر سعيد في مستويات كثيرة من مسار الحكاية ، فتتشكل من خلاله الدلالة الكاملة التي أرادها المؤلف من وراء الجسر . ولعل المتتبع لكل المقاطع التي ورد فيها خبر الجسر يلاحظ التحولات التي طرأت عليه حيث انتقل من « عامل» شغل خانة «الموضوع» إلى عامل فاعل ، معارض ، فمساند فمرسل إليه .

أما عندما كان موضوعا تسعى الذات إلى تحقيقه فيمكن رده إلى القراءة التي ترى فيه اعتزاز سعيد ومكمن فخره ، لأنه ببنائه الجسر استطاع أن يحقق حلما كبيرا وأثبت وجوده كمهندس معماري تشهد قسنطينة له بأنه ساهم في فك عزلتها ، ولهذا نجد السارد يقول عنه : « . . . هذا الجسر كان السعادة الحقيقية الأولى لسعيد»[4] .

لكن هذا الموضوع ، وفي مستوى بلاغي رفيع من خطاب الرواية ، عندما يشخص السارد الجسر ، فيتحول إلى شخصية ، ثم يربطها بموضوع قيمي فيتحول إلى ذات فاعلة ، تسعى لاسترداد الشرف المسلوب ، نتبين هذا في المقطوعة الآتية : « ربع الجسر يديه على قدره اللامجدي . سيعرف التاريخ لماذا لم يعد جسرا . لقد سقط هو الآخر في ميدان الشرف»

لقد أصبح لهذا الجسر قدرا غير مجد ، وسيعرف التاريخ لماذا كان عليه أن يمضي فيه ، وكيف كان يسعى لتحقيق هدف نبيل ، وسقط في ميدان الشرف لأجله ، لقد استشهد الجسر في منظور هذا السارد ، مثله مثل بقية الشهداء .

(1) الرواية ص 29 .
(2) الرواية ص ن .
(3) الرواية ص 30 .
(4) الرواية ص 14 .

وأما عندما قال السارد : « لن تمر الدبابات على جسر سعيد ، وجسر سعيد يقول » . .[1] فيتحول الجسر إلى ذات معارضة لفرنسا ودباباتها .

ثم يكون بذلك ذات مساندة للجزائر بثورتها ، فتفجيره استشهاد لأجل هذا الوطن وإن كان سببا في انتعاش المدينة ونشاطها وحيويتها لأنه بمثابة معبر للحياة والخيرات ، وتحول على يد فرنسا لمعبر للدبابات الحاملة معها الموت ، فبتفجيره تنقطع الطريق أمام فرنسا ، وفي ذلك مساندة فعلية للثورة والوطن .

نستخلص من خلال هذه العلاقة التي جمعت سعيدا بجسره كيفية ترجيح الكاتب لرغبة سعيد الانتماء إلى وطنه واستعداده للتضحية بكل غال وعزيز لأجله . فالوطنية التي لم يكن يعرفها ، قد سلك الطريق المؤدي حتما إليها ، الاستعداد للتضحية ، فبعد ضياع الحبيبة (لوسيا) برصاصة طائشة ذهبت بحبه ، لم يتبق لسعيد سوى التضحية بجسده ولهذا يجمع السارد في المقطع الآتي بين « لوسيا و« الجسر » فيقول : « توفى الجسر كما توفيت لوسيا ، تعددت الأسباب والمنطق واحد » ويكتفي القارئ الدلالة التي يمكن أن يحصلها من قوله » والمنطق واحد » ليتبين هوية سعيد : جزائري وطني .

ورغم انجلاء الغموض الذي كان يعتم هوية سعيد في هذا المستوى من مسار الحكاية ، إلا أن الكاتب لا يسكت عن علاقات سعيد بالشخصيات أخرى ، فقد تأكدت هويته مرة أخرى ، بعد علاقته بأخته ليلى ، من خلال علاقته بأخيه بوزيد ، والرضا الذي أظهره في مواقف كثيرة ، على سلوك أخيه ومساندته له من ذلك : « تنفس سعيد ، ثمة رابطة أكثر من الأخوة تجمعه بأخيه بوزيد . . . بمثابة وعيه »[2] .

ويضيف السارد في مقطوعة أخرى ما يفهم منه أن سعيد لم يكن ليرى في أخيه شريرا حتى عندما أمر بتخريب الجسر ، جسر أخيه فيقول : « لم يكن بوزيد يحب الشر . جسر أخيه هو الذي خرب ، أتى على تخريبه ، جسر أخيه ، أخيه » . . .

ويأتي المؤلف إلى آخر علاقة تربط سعيدا بالآخر وتؤكد سعيه من أجل حماية هويته ، إنها علاقة سعيد بالجزائر ، التي تجلت في مستويات أولى من مسار الحكاية عندما قال سعيد : « ما أعرفه . وأعرفه جيدا أني جزائري » ثم عندما كرر سعيد مقولة ألبير كامو عندما اقتحمت القوات الفرنسية بيت أهله : « آن الأوان ليلتحق كل واحد بطائفته . ثم كانت بعد هذه المواقف العارضة أخبار الحدث الرئيسي ، خبر أول نوفمبر ، هذا التاريخ الذي أسقط بالنسبة للبطل/ الذات

(1) الرواية ص 30 .
(2) الرواية ص 43 .

الفاعلة ، جميع التحديدات الأحداث السابقة واللاحقة نتبين هذا في المقطوعة الآتية : « الساعة التي نعيدها إلى أول من نوفمبر ، هذا اليوم الذي غير توقيت فصول الشتاء إلى الأبد بالنسبة له ، وقد ابتدأت الهجرة لا بعد ولا قبل المسيح ولا محمد ، لا بعد ولا قبل كونفوشيوس أو سقراط . لا بعد ولا قبل (1830 و1954) . كان بالنسبة لسعيد يوم السنوات الجديدة وكل شيء يتحدد بالنسبة إليه ، ومن الآن فصاعدا ، بالعودة إلى أول نوفمبر من سنة ألف وتسعامئة وأربعة وخمسين »[1] .

نتبين من كل هذه المقاطع أن مسار الحكاية قد بلغ حد الحسم في قضية الهوية ، كل العلاقات السابقة كانت تؤسس لبلوغ هذه الذات موضوعها القيمي ، نتبين هذا في قول السارد : « ابتدأ الحلم في أحد صباحات نوفمبر ، حلم غال جدا . الحلم يوقظ ، ولكن الشمس تكسر الرؤى والأوهام لاحقا ، وتكون الحقيقة أكثر جمالا »[2] .

يبدو أن البطل قد تجاوز مستوى الحلم وبلغ الحقيقة التي تبدت له أكثر جمالا ، هذه الحقيقة التي أدرك كفاءة الوصول إليها عندما فكر في مستوى سابق من مسار الحكاية بأنه اختار الجزائر وهو يشير إليه السارد في قوله : لن يدخل سعيد الجزائر لركوب قطار كهربائي لشراء الجريدة ، لاحتضان والدته ، يدخل الجزائر ليفعل شيئا ، . . . كان سعيد وحيدا ولكنه ليس معزولا لأنه اختار الجزائر وكان هناك لا منتهي من كل الجهات ، لم يعد هناك فراغ »

لقد حازت هذه الذات على كل عناصر الكفاءة التي مكنتها من الاتصال بموضوعها القيمي « الهوية » وقد قامت كفاءة سعيد الذات الفاعلة على المواضيع الكيفية الآتية .

إرادة الفعل : شعر سعيد بأنه رغم علاقته بالمستوطنين ورغم حب لوسيا ليس من المستوطنين ، وأنه « كالآخرين » وأن وجود هذا الطرف لم يكن اختيارا ، بل كان مستهجنا ، ووعى أنه في حياته تلك كاد أن يفقد هويته ، ومن ثمة كان يريد أن يلتحق بطائفته بعد أن آن الآوان .

ـ وجوب الفعل : أدرك سعيد أن أشياء كثيرة تغيرت بين عشية وضحاها وأن هناك ألف حجة ومنطق التحاقه بإخوانه واحد كما أدرك أن من واجبه بحكم انتمائه ، وأخوته لبوزيد أن يساعد الثورة ويساعد في تخريب الجسر لأنه منهم وبرفضهم لهذا المستعمر كان يجب عليه هو الآخر أن يرفضهم .

---

(1) الرواية ص ص 100 ـ 101 .
(2) الرواية ص 103 .

ـ قدرة الفعل : كان سعيد يملك قدرة الفعل ، هو من بنى الجسر وهو الذي يعرف كيف يخرب ، وفي تخريبه ووقوفه أمام عبور دبابات المستعمر ومنعها من العبور ، قدرة الفعل

ـ الأداء : بعد عودته من فرنسا ، بعد زيارته لأهل « لوسيا » ، أدرك أن حبهم لم يكن ولن يكون سببا في منعه من القيام بواجبه ، لهذا رجع ليقوم بشيء . . . ، وبعد التحاق سعيد بأخيه بوزيد وكان بذلك يجيب على السؤال الذي طرحه على نفسه « هل أبقى غير مشارك دائما . . . ؟ ثم يحيل السارد القارئ من خلال مقاطع مختصرة على استشهاد البطل عندما يقول : « ناقص الجزائري الفكرة . ناقص سعيد »[1] .

ما تجدر الإشارة إليه أن هذا الأداء كان إيجابيا لأن في التحاق سعيد بأخيه اتصال وثبت كامل للهوية الجزائرية وليس في استشهاده انفصال عن الهوية بل يمكن القول ، إن في استشهاده اتصال أبدي بالهوية الجزائرية ، سعيد جزائري حر ثائر ، شهيد الوطن .

قائمة المصادر والمراجع :

1ـ عبد المجيد سالمي ـ نور الدين خالد ـ شريف بدوي ، معجم مصطلحات علم النفس ، دار الكتاب القاهرة ، دار الكتاب اللبناني ، 1971 .
2ـ مالك حداد ، « الشقاء في خطر » ترجمة ملك أبيض العيسى ، المؤسسة العربية للدراسات ، ط2 ، بيروت .
3ـ مالك حداد ، « الانطباع الأخير » ، ترجمة السعيد بوطاجين ، منشورات الاختلاف ، الجزائر .
4ـ المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانجليزية واللاتنية ، د . جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، سنة 1979 .
5ـ مولود قاسم نايت قاسم ، « أصالية أم انفصالية » ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1991 .
6ـ ميخائيل عيد ، « سؤال الهوية » ، اتحاد الكتاب العرب .
1 ـ Albert Memmi, Anthologie des écrivains maghrébins d'expression française, ed, Présence Africaine, Paris, 1965, 2eme édition .
2 ـ Malek Hadad, La liberté et drame de l'expression chez les écrivains algériens, ministère de la culture et de l'orientation nationale, Damas, juin 1961 .
3 ـ Malek Hadad, Les Zéros tournent en rond, (essais édition, F ـ Maspéro, Paris, 1961 .
4 ـ Mostapha Lacheraf, Breve contributions a un débat sur le roman maghrébin, in Erit didatique, sur la culture, l'histoire et la société, E N A P Alger 1988 .
5 ـ Petit Larousse en couleur, ed 1984 .
6 ـ Petit Robert, dictionnaire alphabétique et analogique de la langue française, ed 1984 .

(1) الرواية ص 133 .

السمات النفسية السلبية وأثرها في دراسة الشخصية عند العقاد

أ . نبيل مزوار*

بين يدي العرض:

ما من شك في أن للمقومات النفسية أثرها البالغ على الشخصية سلبا وإيجابا ، فهي أحد أبرز مكوناتها الأساسية بل إنها تعتبر في عدد غير قليل من الشخصيات عناوين دالة عليهم لا يذكرون إلا بها ولا يعرفون إلا من خلالها .

ولعل المتتبع لتراجم العقاد يلمس ولعه الشديد بدراسة السمات النفسية التي اتصفت بها بعض شخصياته ، حتى أخذ عليه تحويل الدراسة الأدبية إلى بحوث نفسية على أن عنايته ببحث آثار هذه السمات يمتد إلى أول عهده بالتأليف في مطلع العشرينيات ولم يلبث أن ازداد هذا الاهتمام مع تطور الدراسات النفسية وتنامي حاجته إليها ولا غرو في ذلك فالعقاد من أكثر النقاد اشتغالا بفن التراجم دراسة وتأليفا .

السمات النفسية السلبيةو أثرها في العمل الإبداعي:

ويحمل العقاد على هذا الاهتمام اعتقاده بأن هناك صلة وثيقة بين السمات النفسية للمبدعين ولاسيما السلبية منها ، وبين عملية الإبداع ، لأن المبدع يحاول في كثير من الأحيان التسامي عن المعوقات التي تؤرقه بالإبداع الفني ، وهذه الفكرة بالذات يحرص علماء النفس على إثباتها[1] بل لعلها من أبرز الأسباب في كون بعض رواد هذا العلم وعلى رأسهم فرويد يلجأ ون إلى الأدب باعتباره ميدانا تطبيقيا لمفاهيمهم النظرية ، وبالمقابل يفسرون هذا الإبداع على أساس هذه العلل بلغة رمزية مشحونة بالدلالات[2] .

وقد كشف العقاد عن أهمية الحقائق النفسية في منهجه ، معتبرا أن تاريخ العظيم في نفسه لا في ظروفه الخارجية كما يروج له رواد المدرسة الاجتماعية ، لأن هذه الظروف بحسب العقاد « لن تعنينا في شيء إن لم يكن وراءها كشف عن

---

* كلية الآداب و العلوم الاجتماعية ، جامعة فرحات عباس ، سطيف .

(1) ينظر ، عادل عزالدين الأشول ، سيكولوجية الشخصية ، (د . ط) مكتبة الأنجلو مصرية 1978ص48

(2) ينظر أحمد حيدوش ، الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث

حقيقة نفسية في حياة المترجم له » [1] .

ولعل اللافت في دراسته وتحديده لهذه السمات هو اعتماده على آثار هذه الشخصيات لتتميم جوانب النقص المسجل في أخبارها ، وأن موقفه من هذه الشخصيات ساهمت في تحديده على نحو مباشر أو غير مباشر طبيعة هذه السمات .

الأنوثة في شعر عمر بن أبي ربيعة:

ففي دراسته لشخصية عمر بن أبي ربيعة ، أشار العقاد إلى الجانب الأنثوي في طبع الشاعر ، الذي يؤكده تشبهه بالنساء في تدليله لنفسه ، وإظهاره التمنع لطالباته ، وأن كلامه كما يرى العقاد ينم على ولعه بكلامهن والاستمتاع بروايته وترديده ، مما لا ينزع إليه الرجل صارم الرجولة عادة[2] .

ولعل جانب الأنوثة في طبع عمر وشعره يظهر أكثر ما يظهر برأي العقاد في « تدليل اسمه بين تلقيب وكناية وتسمية كما يعهد في أحاديث النساء ، فهو تارة أبو الخطاب وتارة المغيري ، وتارة عمر » [3] .

كما يستند العقاد في تقرير هذه السمة إلى قول الشاعر : « لقد كنت وأنا شاب أُعشق ولا أعشق ، فاليوم صرت إلى مداراة الحسان إلى المماة » [4] ، ثم ذكر قصة تشير إلى تحرش النساء به إمعانا في بيان أنه مطلوب لا طالب ،

ويرى العقاد في ذلك مؤشرا سلبيا ، لأنه ما من شاب يبلغ مبلغه في الفتوة والطاقة إلا وينجذب إلى هوى النساء ، إلا أن يكون المانع عن ذلك عرف أو شرع « فإن لم يكن هذا المانع ففي انتظاره أن يطلب معشوقا قبل أن يطلب عاشقا أنثويا لا ترضاها طبائع الفحول » [5] .

كما عزز العقاد رأيه في تقرير هذا الحكم إلى أبيات من شعره قال فيها :

قَالَتْ ثُرَيَّا لأُتْرَابٍ لَهَا قُطُفٌ ... قُمْنَ نُحَيِّي أَبَا الخَطَّابِ عَنْ كَثَبِ

فَطِرْنَ حَدّاً لِمَا قالَتْ وَشَايَعَهَا ... مِثْلَ التَّمَاثِيلِ قدْ موّهن بالذهبِ[6] .

---

(1) عباس العقاد ، عباس العقاد ، ساعات بين الكتب ، ط 1 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1986 ، مج 26 ، ص 604 .

(2) ينظر عباس العقاد ، شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة ، ص . 193

(3) عباس العقاد ، شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 ، مج 16 ، ص 193 .

(4) المرجع نفسه ، ص 194 .

(5) المرجع السابق ، ص 194 .

(6) ينظر ، المرجع نفسه ، ص 193 . وانظر ، ديوان عمر بن أبي ربيعة ، شرح : يوسف شكري فرحات ، ط 1 ، دار الجيل ، بيروت ، 1992 . ، ص 150 .

وقوله :

وَقوْله قومِي تَصَدِّي له لِيبْصِرَنَـا ثـمّ أغمِزيـهِ يَـا أخْـت فِـي خَفَـرِ
قالتْ لـهَا قدْ غـمَـزْته فأَبَـى ثمّ اسبطَرَتْ تَمْشِي عَلى أثَـرِي[1] .

وذهب العقاد إلى أبعد من ذلك في وصف شعر عمر بن أبي ربيعة الذي يخاطب فيه النساء بأن ليس في ديوان الشاعر كله بيتا واحدا « يدل على سطوة رجل يروع الأنثى بما تميل إليه فطرتها من مظاهر البأس والغلبة »[2] ، وأن حديثه عن الأنثى هو حديث ظرفاء المجالس وهذه الطبقة كما يرى العقاد يشبه إحساسها إحساس المرأة وهم « يشبهونها بعض الشبه فيصدقون في الحكاية عنها والتحدث بخوالج نفسها »[3] . ورغم اجتهاد العقاد في سوق الأدلة لتأكيد رأيه في الشاعر غير أن النقاد لا يرون في ما عرض من أدلة مسوغا كافيا لوصف طبع بن أبي ربيعة أو شعره بالأنثوي .

فأما كونه يسوق كلمات النساء في مجال القص في مغامراته الغرامية فليس دليل إدانة كما يرى الدكتور عمر فروخ بل هو دليل براعة فنية وقدرة على التصوير بواقعية ، ويدل أيضا على خبرته بعقلية النساء وبصره بخطابهن ، وقدرته على تدوير الحديث معهن ، وكيف يتوصل إلى إغواء للمنيعة منهن[4] .

ثم إن عمر ليس بدعا في ذلك ، فجميل بن معمر وهو إمام العذريين والغزل العذري لا تكاد تخلو قصيدة من قصائده من ذوات الحوار من مثل هذه العبارات ، التي تفيض بالحديث عن أنوثة المرأة وتكشف مشاعرها الخاصة وما تهفوا إليه ، وهو صاحب البيت المشهور :

ألا أيّهَـا النّـوّام وَيْحَكـمْ هبّـوا أسْألكمْ هَلْ يَقتل الرّجلَ الحبّ[5]

كما لا يمكن أن يكون ما في ألفاظ عمر من رقة ولين باعثه الوحيد نشأة الترف والتقلب في النعمة ، فما القول في من نشأ في الفقر والخشونة ومع ذلك كان شعره يتدفق بالألفاظ الرقيقة الناعمة ، بل إن كلماته وكلمات عمر تخرجان من مشكاة واحدة وأعني به بشار بن برد ، ومن ذلك قوله على لسان فتاة قاصر اغتصبها :

(1) ينظر، المرجع نفسه ، ص 193 . وانظر ، الديوان ، ص 160 .
(2) المرجع نفسه ، ص 196 .
(3) المرجع نفسه ، ص 197 .
(4) ينظر ، عمر فروخ ، عمر بن أبي ربيعة ، (د . ط) ، دار لبنان للطباعة والنشر ، بيروت ، 1983 ، ص 70 . 70 .
(5) ينظر ، الديوان ، ص 28 .

انْهَـضْ فمَـا أنْـتَ كالـذِي زَعَمـوا أنْـــتَ وَرَبِّـــي مغَـــازِلٌ أشِـــر
قـدْ غابَـتْ عَنْـك اليَـوْمَ حَاضِـنَتِي فـــالله مِنْـــك فِيـــك يَنْتَصِـــر[1] .

ويخالف الدكتور شادان جميل ما ذهب إليه العقـاد مـن أنـه لـيس في شـعر عمر بن أبي ربيعة كله بيتا واحدا يدل علـى سـطوة رجـل يـروع الأنثـى بمـا تميـل إليه ، وأن في ذلك مبالغة يناقضها قول الشاعر وهو يصف دخوله بيـت معشـوقته ، دون خشية أعين الرقباء :

ولقـدْ دَخَلـت البيـتَ يخشَـى أهْلـه بَعْـدَ الهـدوِّ وَبَعْـدَمَا سَـقط النّـدَى
فوَجَـدْت فِيـهِ حـرّةً قـدْ زينَـتْ بِالحلِيِّ تَحْسِبه بِهَا جَمْـرَ الغَضَـا[2]

وقوله في رائيته المشهورة التي مطلعها :

أمِـنْ آلِ نعْـمٍ أنْـتَ غـادٍ فمبْكِـر غـــدَاة غـــدٍ أمْ رَائِـــحٌ فمهَجّـــر

وهي قصيدة طويلة ضمنها الشاعر قصة تحكي مغامرة له مع فتاتـه في ليلـة آثمة غاب فيها الرقباء ، فلما تنبه أهلها عرض عليهـا أن يخـرج إلى القـوم بسـيفه ، فإما الفوت وإما القتال والموت ، وفيها من أبيات السطوة والقوة والاعتـداد بـالنفس الشيء الكثير لعل أقلها يخالف ما ذهب إليه العقاد وهـو يـدافع عـن فكرتـه حـول أنثوية طبع عمر[3] .

وأما ترديد الشاعر لألقابه وكناه واسمه في شعره كظهوره بمظهـر المطلـوب لا الطالب ، إنما كل ذلك ضـرب مـن ضـروب الاعتـداد بـالنفس وإثبـات الوجـود الذاتي والمفاخرة على طريقته الخاصة ، فهي « سمة فنية تعد انعكاسا لسـمة نفسـية هي الاعتداد المفرط بالنفس »[4] ، ولا غـرو في ذلـك وهـو الفتـى الوسـيم الثـري الحسيب النسيب الذي يتيسر له ما لا يتيسر لغيره .

ويبدو لي أن نسقه الخاص في التعـبير الـذي يخـبر عـن الأنثـى ويصـف مـا يثيرها لا يمكن اعتباره دليل إحساس مشترك ، بل هو دليـل قـدرة وخـبرة ، نتيجـة خلطته الواسعة بالنساء لأسباب مختلفة أشار العقاد إلى جانب منهـا عنـدما تحـدث

(1) ينظر ، عباس العقاد ، مراجعات في الآداب والفنـون ، ط 3 ، دار الكتـاب المصـري ، دار الكتـاب اللبنـاني ، 2000 ، مج 25 ، ص 523 . وانظر ، الديوان بشار ، شرح وتقديم : محمد الطاهر بن عاشـور ، (د . ش) ، ص 155 .

(2) ينظر ، عمر بن أبي ربيعة في الخطاب النقدي العربـي الحـديث ، ط 1 ، دار دجلـة ، عمـان ، (د . ت) ، ص 53 . وانظر ، الديوان ، ص21 ، 22 .

(3) ينظر ، جابر قميحة ، منهج العقاد في التراجم الأدبية ، ط 1 ، مكتبة النهضة المصـرية ، القـاهرة ، 1980 . ، 1980 . ، ص 246 .

(4) ينظر ، شادان جميل عباس ، عمر بن أبي ربيعـة في الخطـاب النقـدي العربـي الحـديث ، ط1 ، دار دجلـة ، عمان (د . ت) ، ص 35 .

عن ظروف نشأته ثم إن حواره معهن لا يصور شخصيته فحسب بل يصور شخصية ونفسية المرأة التي يشبب بها من جميع جوانبها وملامحها .

جميل وشلل الإرادة:

وفي دراسته لشخصية جميل ، عزا العقاد عشق الشاعر إلى سمة سلبية بارزة فيه سماها شلل الإرادة ، لأن جميل حسب العقاد لم يتعلق بمعشوقته بباعث الاستمتاع بهذه العلاقة أو بشعوره بتحقيق ذاته فيها ، بل لأنه عاجز عن فراق معشوقته ، « مقيد بضروب من العادات والوسواس لا حيلة له فيها ولا قدرة له عليها »(1) .

ومن ثم بدا له أن حال العاشق لا تختلف عن حال المريض ، بل ربما كانت حاله أسوأ منه ، لأن المريض لا يدخر وسيلة للعلاج أنى وجدت ، أما العاشق فمستسلم لدائه كأنه قدره الذي لا مفر له منه ، فجميل كما يرى العقاد « مشلول الإرادة حتى عن التوسل بما يستطيع أن يحاوله من وسائل الشفاء »(2) . ويجد العقاد في مقالة والد جميل خير دليل على شلل الإرادة عند الشاعر ، فقد حاول والده مواجهته بالحقيقة بعدما رأى منه ما رأى عله يستدرك نفسه فقال له : « يا بني حتى متى وأنت عمه في ضلالك ، لا تأنف من أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وينكحها وأنت» عنها بمعزل ، ثم تقوم من تحته إليك فتغريك بخداعها وتريك الصفا والمودة وهي مضمرة لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها . . . فأنشدك الله إلا ما كففت وتأملت أمرك فانك تعلم أن ما قلته حق ، ولو كان إليها سبيل لبذلت ما أملكه فيها ، ولكن هذا أمر قد فات واستبد به من قدر له وفي النساء عوض »(3) .

ثم ضمن العقاد جواب جميل لأبيه حتى يكشف عن مبلغ ما يعانيه الشاعر ، إمعانا في إقامة الدليل من ذلك قوله : « إن الرأي ما رأيت والقول كما قلت ، ثم قال : ولكن هل رأيت قبلي أحدا قدر أن يدفع قلبه هواه؟ أو ملك أن يسلي نفسه؟ أو استطاع أن يدفع ما قضي عليه؟ والله لو قدرت أن أمحو ذكراها من قلبي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت ، ولكن لا سبيل إلى ذلك وإنما هو بلاء بليت به لحين قد أتيح لي » . .(4) .

كما ساق العقاد تعزيزا لرأيه مقالة ابن عم جميل الذي رق لحاله فأبى إلا

(1) ينظر ، عباس العقاد ، جميل بثينة ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 ، مج 16 ، ص 263 .
(2) المرجع نفسه ، ص 263 .
(3) المرجع السابق ، ص 263 .
(4) المرجع نفسه ، ص 263 ، 264 .

أن يصرفه عن ما هو فيه بلغة فيها شيء من الاستفزاز لنخوته فقال : « إنك لعاجز ضعيف في استكانتك لهذه المرأة وتركك الاستبدال بها مع كثرة النساء ووجود من هي أجمل منها ، وإنك منها بين فجور أرفعك عنه أو ذل لا أحبه لك ، أو كمد يؤدي إلى التلف ، أو مخاطرة بنفسك لقومها إن تعرضت لها بعد إعذارهم إليك» . .[1] ، فأجابه : « يا أخي ، لو ملكت اختياري لكان ما قلت صوابا ولكني لا أملك الاختيار ، وما أنا إلا كالأسير لا يملك لنفسه نفعا » [2] .

ولم يكتف العقاد بعرض هاتين المقالتين بل علق عليهما لبيان سداد رأيهما وعدم قدرتهما على ثني جميل عن الاستمرار فيما هو فيه فذكر من ذلك أنه ما نصح والد ولده بأحكم ولا أصوب من هذه النصيحة ولا أثار ندا ندا بأبلغ ولا أهيج من هذا الكلام[3] ، ثم أورد ردا بليغا موجزا لجميل على عذاله وناصحيه يقول فيه :

هِيّ السِّحْر إلا أنّ لِلسِّحْرِ رقيَةً وَإِنِّي لا ألفِي لهَا الدّهْرَ رَاقِيَا[4] .

وأكد ذلك أوثق تأكيد حين حاول أن ينفيه فقال :

يَقولونَ مَسْحورٌ يجَنّ بِذِكرِهَا وأقسِم مَا بِي مِنْ جنون ولا

ويؤكد العقاد فكرة شلل الإرادة عند جميل من طريق آخر ببحثه نشْأَة العلاقة بينهما فذكر قصة تعرفه ببثينة التي شده إليها شتمها له وكيف أثاره ذلك واستملحه منها حتى ذكر في شعره فقال :

وَأوّل مَا قَادَ المَوَدّة بَيْنَنَا بِوَادِي بَغِيضٍ يَا بثَيْنَ سِبَاب[6] .

ويذهب العقاد في تفسير قيام هذه العلاقة على الخصومة ، إلى أن ذلك يحصل عادة عند ضعاف الشخصية ، مشيرا إلى أن هناك صنفا من الناس تغريهم الإساءة ويزيد هم الحرمان كلفا بمن تعلقوا لا سيما إن اجتمع المنع والإغراء ، ويبدو لي أن حرص العقاد على جمع الأدلة التي تظهر ضعف شخصية جميل هو ما يحمله على الارتجال في الأحكام في كثير من الأحيان ، لأن قيام العلاقات على أساس الخصومة لا يدل دوما على ضعف شخصية أحد الطرفين ، فقد يدل على قوتهما أيضا وهو سبب من أسباب الإعجاب أقصاه العقاد لأنه لا يفيده في موضع

(1) المرجع نفسه ، ص 264 .
(2) المرجع نفسه ، ص 264 .
(3) المرجع السابق ، ص 263 .
(4) ينظر، المرجع نفسه ، ص 264 . وانظر ، ديوان جميل بن معمر ، جمعه وحققه وشرحه : أميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 2004 . ص 226 .
(5) ينظر ، المرجع نفسه ، ص 265 . وانظرايضا ، الديوان ، ص 96 .
(6) ينظر ، المرجع نفسه ، ص 267 . وانظرأيضا ، الديوان ، ص 28 .

الاستدلال .

وقد احتج العقاد على وقوع جميل فريسة معاملة بثينة الماكرة له بقوله :

وَلسْت عَلى بَذْل الصّفاءِ هَويتها وَلكِنْ سَبَتْنِي بِالدّلال وبِالبخْلِ[1] .

وينظر العقاد إلى هَذا اللون منَ التعلق على أنه آية من آيات العَجز ودلَيلا على ضعف الثقة بالنفس وتعليقها بمشيئة غيره « إن أقبلت عليه معشوقته رضي عن نفسه واستراح إلى هذا الرضى ، وإن أعرضت عنه ظل في حيرة وابتئاس » ، ويرى في صدها عنه فرصة للخلاص لو أن له عزيمة[2] .

وتفسير العقاد تمنع المحبوب ودلاله على المحب بالاستسلام والضعة بقبول الإساءة هو قفز على مستوى من اللذة بين المحبين لا يعرفها إلا من ذاقها، فالصد والهجر يذكيان جذوة الحب ويلهبانه مذ بدأ الحب .

ويشير العقاد في قراءة نفسية لإرادة جميل بأن الأصل في الإرادة الفردية أنها أضعف من الغريزة النوعية وأن الحسم يكون لصالح الغريزة النوعية إذا تعارضتا واصطدمتا ويلفت العقاد النظر إلى أن هذه الحالة نادرة الحدوث « ووقوعها يدل على شذوذ في الفرد أو شذوذ في الأحوال التي تعرضت لها علاقته الغرامية »[3] ، كما هو الشأن في حالة جميل؛ الذي يرد إليه العقاد علة هذا الشذوذ قبل الأحوال التي تعرضت لها العلاقة .

لقد توفرت أسباب كثيرة في رأي العقاد ، أضعفت من إرادة جميل وعرضته للعجز الشديد عن مواجهة هذه الأزمة النفسية العميقة التي عصفت به ، من ذلك : أنه كان مدللا قليل التمرس بالمصاعب من ثم يكون هدفا سهلا لأي أزمة عارضة سيما الأزمات النفسية ، ومنها وسامته التي تميل به إلى التصدي إلى هذه الأهواء والتفرغ لها ، وكذا فضول الوقت الذي لا يملأه بالشواغل ولا يقسمه بين عمله وهواه إلى جانب ضعف رأيه ، وقلة حزمه .

كما كان بالمقابل مزاجه الفني يحفزه على التمادي في الغواية واستيحاء المقاصد الشعرية منها ، ويضاف إليها العصر وأثر البيئة وحكمها ، « وكلها كان مما يمد في دواعي هذه الفتنة وينحني بينه وبين وسائل الخلاص منها »[4] .

والغريب أن هذه الأسباب التي يعتبرها العقاد مرتكزا في إثبات خور عزيمة

(1) ينظر ، المرجع السابق ، ص 267 . وانظر ، الديوان ، ص 177 .
(2) المرجع نفسه ، ص 267 .
(3) المرجع نفسه ، ص 265 .
(4) المرجع السابق ، ص 266 .

جميل يشترك في قسم كبير منها مع عمر بن أبي ربيعة ومع ذلك لا يصفه العقاد بنفس الوصف .

تضخم الأنا في شعر المتنبي:

وفي دراسة شخصية المتنبي ، تناول العقاد سمة من أبرز السمات السلبية التي عرف بها الشاعر وأعني بها شعوره بالعظمة وسيطرته عليه؛ إلى الحد أنه كان يرى أن نفسه أكبر من تشتغل بالشعر وبالوقوف به تزلفا على أبواب الممدوحين ، لأنه « خُلق لما هو أجل وأرفع من ذلك وهو الملك والقيادة »[1] . ومن ثم كان المتنبي لا يجد غضاضة في أن يعتبر نفسه ندا لبعض السلاطين ، ولا يجد حرجا في التصريح بذلك في شعره ، ويستدل العقاد على رأيه هذا بأبيات هنأ المتنبي فيها كافورا بدار بناها فقال :

إنّمَـــا التَهْنِئَـــات للأكفـــاءِ وَلِمَـــنْ يَـــدْنِى مِـــنَ البعْـــدَاءِ[2] .

وذهب إلى أبعد من ذلك في ختام القصيدة فقال :

وَفـــؤَادِي مِـــنَ الملـــوكِ وَإنْ كـــا نَ لِسَـانِي يـرَى مِـنَ الشّـعَرَاءِ[3] .

وفي اعتقادي أن هذا لَيس غريبا أن يصدر عن المتنبي لكن الغريب أن تحتمل طبقة السلاطين منه هذا ، وأن يدفعهم التهافت على شعره إلى غض الطرف عن تعاليه وتطاوله ومعاملته لهم معاملة الأنداد .

وإذا كان المتنبي يرى بأنه قد خاب ظنه لعدم تحقق آماله في العظمة ببلوغ الملك والسلطان ، فإن العقاد قد خاب ظنه بالشاعر لتعلق همته بهذه الآمال وغفلته على أنه بثروته الشعرية أخلد وأعظم من المال والملك .

ولعل الواقع يؤكد ما ذهب إليه العقاد ، فقد مضى على المتنبي أكثر من ألف سنة من الزمان لم يخب فيه ذكره ولم يتقادم على طول العهد أثره ، فيما لا يُذكر السلاطين وأصحاب الرياسة إلا مقرونين به وبأمثاله ، وقد صدقت نبوءته بعدم ذهاب أثره بهلاك جسده ، وفي ذلك قال :

أَنَامُ مَلْءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الخَلْقُ جَرَاهَا وَيَخْتَصِمُ[4] .

(1) عباس العقاد ، مطالعات في الكتب والحياة ، ط 3 ، الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 2000 ، مج 25 ، ص 177 .

(2) ينظر ، المرجع السابق ، ص 178 . وانظر ، ديوان المتنبي ، (د . ط) ، دار الجيل ، بيروت ، (د . ت) ، ص ص 446 .

(3) ينظر ، المرجع نفسه ، ص 178 . وانظر ، الديوان ، ص 447 .

(4) وانظر ، الديوان ، ص 332 .

وقد شبه بعض الباحثين المتنبي بامرئ القيس في السعي والمصير ، إذ راح كل منهما يبحث عن الملك ، إلا أنهما عادا في نهاية المطاف بخفي حنين ، لكنهما وإن منيا بالإخفاق في الحصول على تاج السلطان فقد حملا تاج الشعر دون منازع ، كما جمعهما الأصل الواحد فكلاهما من اليمن ثم إنهما لقيا المصير نفسه فقد قتلا في طريق عودتهما إلى مسقط رأسيهما(1) .

ولم يكتف العقاد بالقراءة السطحية لسلوك الشاعر من خلال اتصافه بهذه السمة بل نفذ إلى أغوار نفسيته ، لينتهي به استبطان الشاعر إلى نتيجة خلاصتها أن المتنبي كان يتمتع بذات الاستعداد الفطري الذي وُهبه رجال المطامع ، لكنه استعداد داخلي ليست له صورة خارجية لافتقاره لأداة العظمة ، ومن ثم انحرفت عظمته إلى « عالم الفنون ولم تخرج في عالم الحوادث » (2) .

ويرى العقاد أن من أبرز مظاهر شعور المتنبي بالعظمة نزعته إلى التضخيم التي لا يجاريه فيها أحد ، من ذلك قوله :

خَمِيسٌ بِشَرْقِ الأَرْضِ وَالغَرْبُ زَحْفُهُ وَفِي أُذُنِ الجَوْزَاءِ مِنْهُ زَمَازِمُ(3) .

وقوله :

وَلاَ تَحْسَبَنَّ المَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً فَمَا المَجْدُ إِلاَّ السَّيْفُ وَالفَتَكَةُ البِكْرُ

وَتَضْرِيبُ أَعْنَاقِ المُلُوكِ وَأَنْ تُرَى لَكَ الهِبَوَاتُ السُّودُ وَالعَسْكَرُ المَجْرُ(4) .

وتتغذى هذه نزعة حسب العقاد من تعلق الشاعر الكبير بصور الفخامة والعظمة وهيلمان الملك وتقاليد السلطان ، « ومظاهر الوجاهة والقوة ، فضلا عن ذوقه الموسيقي الخاص لطنين الألفاظ وجرسها » (5) .

ويبدو لي أن العقاد لم يترك رافدا من الروافد يعزز فكرة الشعورلدى الشاعر إلا و ذكره ، لتبرير سلوكه وشعره الذي فاض بالتعبير عن هذا الانشغال لأنه حسب العقاد ملك عليه نفسه .

وإذا كان تلبس فخره بهذا الشعور لا يستغرب لما فيه من حديث عن النفس ، فإن ارتباط مديحه به مما يثير الاستغراب حقا ، أما العقاد فيرى في مديح

(1) انظر ، محمد آيت لعميم ، المتنبي الروح القلقة و الترحال الأبدي ، ط 1 ، المطبعة والوراقة الوطنية ، المغرب ، 2010 ، ص 175 .
(2) عباس العقاد ، مطالعات في الكتب والحياة ، مج 25 ، ص 181 .
(3) ينظر أيضا ، المرجع نفسه ، ص 181 .
(4) ينظر أضا، المرجع نفسه ، ص 181 . وانظر ، الديوان ، ص 189 .
(5) المرجع السابق ، ص 182 .

المتنبي فخرا آخر غير مألوف ، لأنه كان يثني على ممدوحه بما يحسه ويريده هو لنفسه ، وربما استكثر عليه مدحه فيشاركه فيه « بل إنه يعطي نفسه قسطا منه لا يقل عن قسط ممدوحيه » [1] .

وإذا كان تقديم المتنبي لنفسه على حساب ممدوحيه وتواتر ذلك في أشعاره حمل بعض منتقديه إلى وصفه بالنرجسي ، فإن بعض النقاد اعتبروا نرجسيته من مآثره لا من مثالبه ، حيث إنها كانت بمثابة طاقة دافعة إلى تمجيد الذات التائقة إلى التحرر وبلوغ الكمال الإنساني[2] .

وكما بدا التضخيم بالنسبة للعقاد آية دالة على شعور المتنبي بالعظمة ، بالمقابل كان تصغيره دالا على هيمنة هذا الشعور عليه ، وهكذا اتصلت المبالغة في الاستصغار بالمبالغة في التفخيم وقد بلغ ولع المتنبي بالتصغير حدا لم يبلغه شاعر قبله أو بعده ، ممّا جعله ظاهرة مستحقة للتعليل والتحليل[3] .

استدراك العقاد على المعري:

وفي هذا السياق ذكر العقاد تناول المعري للظاهرة ، من خلال عرضه لإجابة هذا الأخير عن سؤال ابن القارح ، فقد أكد له من خلالها نزوعه الشديد للتصغير ، وأنه « لا يقنع منه بخلسة المغير ، ولا ملامة عليه ، إنما هي عادة صارت كالطبع تغتفر مع المحاسن » [4] .

ومع موافقة العقاد للمعري في أنها عادة وأنها يمكن أن تغتفر مع المحاسن ، لكنه تساءل في ما إن كانت عادة من عادات اللفظ ؟ أم من ضرورات الوزن ؟ أم من عبثات اللسان؟[5] .

ويبدو لي أن في تساؤلات العقاد عن طبيعة هذه العادة وصفتها ، ما يدل على أن العقاد لم يقنع بإجابة المعري وقد قاده ذلك إلى البحث عن دواعي هذه الظاهرة لعله يجد فيها ما يرضي فضوله ، فذكر أن أكثر ميله للتصغير حين يهجو وهو حانق مغتاظ ، أو في حال الاحتقار والتعالي والاستخفاف ويستدل العقاد على ذلك بقول المتنبي في كافور :

---

(1) المرجع نفسه ، ص 185 .
(2) ينظر ، محمد آيت لعميم ، المتنبي الروح القلقة و الترحال الأبدي ، ص 176 .
(3) ينظر ، سعد أبو الرضا محمد أبو الرضا ، نحو منهج نفسي في نقد الشعر ، (د . ط) ، الهيئة العامة للكتاب ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ، 1984 ، ص 62 .
(4) عباس العقاد ، مطالعات في الكتب والحياة ، مج 25 ، ص 177 .
(5) ينظر ، أحمد الحوفي ، أضواء على الأدب الحديث ، ص 226 .

أوْلـــى اللَئَـــام كـــوَفِير بِمَعْـــذِرَةٍ فِي كلِّ لؤمٍ وبَعْض العذْرِ تَفنِيـد[1] .

ومثاله أيضا ما قاله في الشعراء الذين يزاحمونه :

أفِي كلِّ يَوْمٍ تَحْـتَ ضِـبْنِي شَـوِيعِرٌ ضَعِيفٌ يقاوِينِي قصِيرٌ يطـاوِل[2] .

وفي ذمه لأهل زمانه ، يقول :

أذَمّ إِلـــى هَـــذَا لِزمَـــان أهَيْلـــه فـأعْلمهمْ فـدْمٌ وَأحْـزَمهمْ وَغـد[3] .

ومع أن أكثر المواضع التي استدل فيها العقاد عن التصغير عند الشاعر كانت في الهجاء إلا أنه نفي أن يكون التصغير أداة لصيقة بكل هجاء ، ويصر على رأيه بأن استخدام المتنبي لهذه الصيغة يرجع إلى خلائقه الشخصية[4] .

وهذا يعني أن الحالة النفسية التي تسيطر على الشاعر ، هي التي تتولى توجيه وتحديد اختياراته للألفاظ ، وإذا كان الدكتور محمود السمرة يوافق العقاد في أن الباعث على تصغير المتنبي هو الشعور بالعظمة ، إلا أنه لا يراه الباعث الوحيد؛ فاحتقاره للناس من البواعث على التصغير أيضا[5] .

وفي اعتقادي أن استدراك السمرة على العقاد لا موجب له ، لأن التفكير في الاحتقار يحركه غالبا الشعور بالعظمة ويبدو لي أن العقاد تجاوز عن باعث مهم يتمثل في العظمة التي يصطنعها المتنبي وهو يدرك ضعفه وعجزه عن بلوغ غاياته ومع ذلك يكابر ويمزج ذلك باحتقار من حوله .

اعتداد أبي نواس بنفسه بين العقاد وطه حسين:

وفي السياق ذاته أشار العقاد في دراسته لأبي نواس ، إلى اعتداده الشديد بنفسه إلى درجة تضخم الأنا عند الشاعر حتى ساهم ذلك في خلق عقدة لهذه الشخصية التي يفترض أنها في منعة من الوقوع في براثن العقد لتحصنها بالعرض وأعني بهذه العقدة خسة النسب لأن في المجاهرة والظهور بها إهانة[6] . وقبول الإهانة يتعارض مع شعور النرجسي وإحساسه كيفما كان سببها ويستدل العقاد على تضخم الأنا عند أبي نواس وتيهه بنفسه على غيره بقوله :

(1) ينظر ، عباس العقاد ، مطالعات في الكتب والحياة ، مج 25 ، ص 183 . وانظر ، الديوان ، ص 508 .
(2) ينظر ، المرجع نفسه ، ص 183 . وانظر ، الديوان ، ص 377 .
(3) ينظر ، المرجع السابق ، ص 183 . وانظر ، الديوان ، ص 198 .
(4) ينظر ، سعد أبو الرضا محمد أبو الرضا ، نحو منهج نفسي في نقد الشعر ، ص 64 .
(5) ينظر ، محمود السمرة ، العقاد دراسة أدبية ، ط 1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عمان ، الأردن ، 2004 ، ص 222 . وانظر ، الديوان ، 294 .
(6) انظر ، عباس العقاد ، أبو نواس ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 ، مج 16 ، ص ص 115 . انظر ، العربي حسن درويش ، أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر ، (د . ط) ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، 1987 ، ص 361 .

لَقَدْ زَادَنِي تِيهًا عَلَى النَّاسِ أَنَّنِي أَرَانِي أَغْنَاهُمْ وَإِنْ كُنْتُ ذَا عُسْرٍ[1] .

ومن مظاهر تيه أبي نواس أنه يتعالى عن من يتعالى عنه ، ولا ينهض لتحية من يحييه من القادة والرؤساء إلا أبا العتاهية الذي صافاه ولم يقاطعه أو يترفع عنه حتى بعد تزهده وبسبب تلبسهما بالآفات الاجتماعية في شبابهما[2] .

ويخالف الدكتور طه حسين العقاد في النظرة لاعتداد أبي نواس بنفسه إذ يراه في حده الطبيعي الذي عليه عامة الشعراء قديما وحديثا ، ويرى أن هذا الاعتداد شرط أساسي للتجويد الفني؛ لأنه لولا ذلك ما كان ليحفل بالشعر وما كان ليبدع فيه ، ويستغرب من وصم العقاد له بالنرجسي بالرغم من أن اعتداده ليس ملفتا بالقياس مع غيره من الشعراء : كبشار والمعري والمتنبي وهذا الأخير تجاوز الحد الذي وقفت عنده جمهرة الشعراء[3] .

ومع تسليم العقاد برأي الدكتور طه حسين في اشتراك الشعراء في سمة الاعتداد بالنفس؛ لكنه يراه اشتراكا في المعنى اللغوي ، فحسب لأن الدراسات النفسية كما يرى العقاد تميز بين مدلولات هذا اللفظ المختلفة حسب بواعثها فهناك : اعتداد باعثه جنون العظمة ، وآخر بداعي جنون الأثرة ، وغيره يسببه جنون الانحصار الذاتي ، كما تذكر هذه الدراسات اعتدادا آخر يؤدي إليه جنون العناد فيما يؤدي جنون الاشتهاء الذاتي إلى النرجسية وينتهي العقاد بهذا التعديد إلى أن « الدراسات النفسية تميز بين هذه المدلولات التي يتميز فيها أبو نواس والمعري والمتنبي وبشار حيث تجمعهم في المعجم كلمة الاعتداد »[4] .

ويؤكد العقاد على دقة الدراسات النفسية وأهميتها لكونها تعرفنا أن الصفة الواحدة قد لا تؤدي إلى نتيجة واحدة ، ويستدل على ذلك بحب التدليل بأنه قد « يورث اعتدادا بالنفس ، وقد ينم كذلك على فقدان الثقة بها لأن صاحبه يعلق قيمته على التفات الآخرين إليه »[5] .

ويبدو لي أن في استعراض العقاد لبواعث الاعتداد بهذا التدقيق ، وضبطه للمصطلح بهذه العناية ، لا سيما وأنه يوجه كلامه إلى الدكتور طه حسين ، أنه بذلك يلفت انتباه الباحثين إلى حظه من هذه الدراسات ، وبيان مستقبلها ، ومحاولته إغراءهم بها ، وقد يكون أيضا لإعذاره في اشتغاله الكبير بها وإقحامها في مجال الأدب .

(1) انظر ، المرجع نفسه ، ص 119 .
(2) المرجع نفسه ، ص119
(3) انظر ، طه حسن ، خصام ونقد ، (د . ط) ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، (د . ت) ، ص 692 .
(4) ، عباس العقاد ، يوميات ، ط 2 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1969 ، ج 2 ، ص 20 ، 21 .
(5) المرجع نفسه ، ص 40 .

جيتي وسلبية اللامبالاة:

وفي دراسته لشخصية جيتي ، أشار العقاد إلى اللامبالاة التي اتسم بها سلوك الشاعر دون مبرر ممّا عرضه لانتقاد شديد في محيطه فبعد أن أثنى العقاد على هذه الشخصية من خلال حديثه عن اتزانها واعتدالها في مطالب العقل والعاطفة أشار إلى ما انطبع به سلوك الشاعر من جفوة باردة وجمود لا ينسجم مع طبيعة الأحياء وأن سلوكه هذا في مثل عصره يكاد أن يحوله إلى شيء من الأشياء الجامدة ، وقد وصف أحد الكتاب القريبين منه حاله فقال : « أنه يشبه تماثيله الرخامية تماما[1] .

ثم أشار العقاد إلى انصراف الشاعر انصرافا مطلقا إلى ما يرتبط بشؤونه وأعماله فلا ينفق جهدا أو وقتا فيما لا يعنيه ولا يكلف نفسه أدنى إحساس بالآخرين مما تقتضيه المروءة والنخوة في وقت كانت فيه أمم العالم من حوله تعج بالخطوب « وتعتلج بالآمال والآلام وهو قابع وراء أسوار نفسه لا يريمها ولا يطل منها إطلالة عطف أو اهتمام » [2] .

ونتيجة لهذا الموقف المحرج كما يرى العقاد حاول جيتي أن يبرر لمن لامه على جموده وعدم تفاعله مع الثورة إبان النهضة الوطنية فذكر من ذلك قوله لمن لامه على عدم حمل السلاح « كيف كنت تراني أحمل السلاح بغير بغضاء؟ ومن أين لي بالبغضاء في غير شباب؟ لو حدثت هذه الأمور لي وأنا في العشرين لما كنت آخر من يهب ويهيب ولكنها حدثت وأنا قد جاوزت الستين » [3] ، ويعلق العقاد على هذه الحجة الواهية بتساؤل فيه شيء من التهكم رغم مكانة جيتي عنده ، إذا كانت سنه لا تسمح له بهذه المشاعر « فكيف عرف أن يحب الفتاة الحسناء ويخطبها للزواج في الرابعة والسبعين ، ولم يعرف أن يبغض أعداء بلاده في الستين » [4] .

والعقاد يلمح بذلك التناقض الشديد في قول الشاعر وسلوكه إذ كيف يعجز القلب الذي يحب عن حمل البغضاء لأنه لا أيسر على قلب المرء من المشاعر السلبية .

وفي هذا الإطار ذكر العقاد استغاثة بيتهوفن وصديقه فويت به وهو على

(1) ينظر ، عباس العقاد ، تذكار جيتي ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 مج 19 ، ص 97 ، 98 .
(2) المرجع نفسه ، ص 98 .
(3) المرجع السابق ، ص 99 .
(4) المرجع نفسه ، ص 100 .

فراش الموت فلم يجب دعاءهما ولم يرع حقوقهما عليه ، رغم أن ذلك لا يكلفه شيئا سوى المجاملة الاجتماعية ، « وقس على ذلك علاقته بكل إنسان حتى أمه وأبيه ، وأولياء نعمته وأقرب الناس إليه » (1) .

خلاصة

و لعل أهم ما ينبغي التنبيه إليه في نهاية هذا المقال هو أن العقاد سعى من خلال الإشارة إلى السمات السلبية للشخصيات التي درسها إلى بيان أثرها في شخصية الشاعر وشعره ، وأنه لم يكن هذا قصارى جهده في تناولها بل امتد جهده لبحث أسبابها ودواعيها ثم إنه لم يكتف في تقريرها والتحقق منها باعتماد الرواية التاريخية فحسب كما دأب على ذلك كتاب التراجم بل استعان بآثارها أيضا باعتبار أن الشعر كما يرى تعبير عن نفس صاحبه .

مصادر ومراجع البحث :

1 ـ جابر قميحة ، منهج العقاد في التراجم الأدبية ، ط 1 ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1980 .
2 ـ محمد الطاهر بن عاشو ، شرح وتقديم ديوان بشار : (د . ش) .
3 ـ ديوان جميل بن معمر ، جمعه وحققه وشرحه : أميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 2004 .
4 ـ يوسف شكري فرحات ، شرح : ديوان عمر بن أبي ربيعة ط 1 ، دار الجيل ، بيروت ، 1992 .
5 ـ ديوان متنبي ، (د . ط) ، دار الجيل ، بيروت ، (د . ت) .
6 ـ سعد أبو الرضا محمد أبو الرضا ، نحو منهج نفسي في نقد الشعر ، (د . ط) ، الهيئة العامة للكتاب ، المكتبة الثقافية ، القاهرة ، 1984 .
7 ـ شادان جميل عباس ، عمر بن أبي ربيعة في الخطاب النقدي العربي الحديث ، ط1 ، دار دجلة ، عمان (د . ت) .
8 ـ طه حسن ، خصام ونقد ، (د . ط) ، الشركة العالمية للكتاب ، بيروت ، (د . ت) .
9 ـ عباس العقاد ، تذكار جيتي ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 .
10 ـ عباس العقاد ، ساعات بين الكتب ، ط 1 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1986 .
11 ـ عباس العقاد ، أبو نواس ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 .
12 ـ عباس العقاد ، جميل بثينة ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 .
13 ـ عباس العقاد ، شاعر الغزل عمر بن أبي ربيعة ، ط 2 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 1994 .
14 ـ عباس العقاد ، مراجعات في الآداب والفنون ، ط 3 ، دار الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 2000 .
15 ـ عباس العقاد ، مطالعات في الكتب والحياة ، ط 3 ، الكتاب المصري ، دار الكتاب اللبناني ، 2000 .
16 ـ عباس العقاد ، يوميات ، ط 2 ، دار المعارف ، القاهرة ، 1969 .
17 ـ العربي حسن درويش ، أبو نواس وقضية الحداثة في الشعر ، (د . ط) ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، 1987 .
18 ـ عمر بن أبي ربيعة في الخطاب النقدي العربي الحديث ، ط 1 ، دار دجلة ، عمان ، (د . ت) .
19 ـ عمر فروخ ، عمر بن أبي ربيعة ، دار لبنان للطباعة والنشر ، بيروت ، 1983 .
20 ـ محمد آيت لعميم ، المتنبي الروح القلقة والترحال الأبدي ، ط 1 ، المطبعة والوراقة الوطنية ، المغرب ، 2010 .
21 ـ محمود السمرة ، العقاد دراسة أدبية ، ط 1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، عمان ، الأردن ، 2004 .

(1) المرجع نفسه ، ص 100 .

جمالية الموسيقى الشعرية في النقد الحداثي العربي

أ . فتيحة حسين*

تعد الظاهرة الموسيقية في الشعر المعاصر من أكثر الظواهر الفنية بروزا ، وأشد ارتباطا بمفهوم التجديد الشعري في ذهني الشاعر والمتلقي معا ، لأن التغييرات التي طرأت عليه مست أولا وبشكل ملفت الجانب الموسيقي ، وقد اتخذ الشاعر الحديث في بداية الأمر موقفا محايدا من الموسيقى الشعرية القديمة ، متحفظا في آرائه حولها ، إذ وبالرغم من أنه أحس« بوطأة الموسيقى الشعرية التقليدية ذات القوالب المسبقة الصنع ، على مشاعره ، وشعر بحاجته إلى التعديل في الفلسفة الجمالية . .»[1] إلا أنّ «استقرار الجماليات القديمة في ضمائر الشعراء لكثرة ما قرأوا وما نظموا من الشعر التقليدي حال دون الخروج الحقيقي على تلك القوالب ، حتى كانت نهاية الأربعينيات من هذا القرن ، حيث حاول رواد شعر التفعيلة الخروج من الإطار الموسيقي للقصيدة التقليدية إلى إطار موسيقي جديد ، ليس تطويرا للقديم ، ولا تعديلا فيه ، إنما تجديد جذري بعيد عن تلك ((الإصلاحات)) الشعرية»[2] لكن هل يعني هذا إلغاء كلي للموسيقى الشعرية التراثية؟ وإن كان كذلك ، فما مفهوم النقاد الجدد للموسيقى الشعرية الحداثية وما هو موقفهم من الموسيقى الشعرية المتوارثة؟

1 . النقد الجديد والشعر العمودي .

لقد ثارت الرؤية الشعرية المعاصرة للشعر وعلاقته بالواقع الجديد في بداية الأمر على الشعر التقليدي ، ووصفته بأنه شعر» . . . متسلط ، يريد أن يضحي الشاعر بالتعبير من أجل شكل معين من الوزن ، والقافية الموحدة مستبدة ، لأنها تفرض على الفكر أن يبدد نفسه في البحث عن عبارات تنسجم مع قافية معينه ينبغي استعمالها ، ومن ثم فإن الأسلوب القديم عروضي الاتجاه ، يفضل سلامة الشكل على صدق التعبير وكفاءة الانفعال ، ويتمسك بالقافية الموحدة ولو على حساب الصور والمعاني التي تملأ نفس الشاعر ، وكل هذا إيثار للأشكال على

* قسم الأدب العربي ، جامعة أكلي محند أولحاج ، بالبويرة .
(1) محمد عزام ، الحداثة الشعرية ، إتحاد كتاب العرب ، ط3 ، دمشق ، 1996 . ص14 .
(2) المصدر نفسه ، الصفحة 14 .

المضامين ، بينما يريد العصر أن يشتغل بالحياة نفسها وأن يبدع منها أنماطا تستنفذ طاقته الفكرية والشعورية الزاخرة »[1] فحسبها أن الشعر القديم يكبل جموح الشاعر بقيود صارمة ، تفرض عليه الالتزام بقواعد الشكل ولو على حساب المضمون ، وهو ما لم يقبل به الشاعر المعاصر بتاتا ، كونه يقتل روح الإبداع فيه .

ولكن هنا نتساءل : أننكر ما للوزن والقافية من أثر قوي على سمع المتلقي ومن ثمة على فكره؟ أغابت عنا تلك الروائع التي تركها السلف يوم اطلعنا على انجازات الشعراء الجدد؟

هي أسئلة تداركتها الرؤية الجديدة ، بعدما أيقنت أن حركة شعر التفعيلة لم تأت لنسف كل ما هو تراثي ، وإنما أتت . . . متأملة في علم العروض القديم واستعانت ببعض تفاصيله على إحداث تجديد يساعد الشاعر المعاصر على حرية التعبير وإطالة العبارة وتقصيرها بحسب مقتضى الحال ، ولم تصدر الحركة عن إهمال للعروض ، كما يزعم الذين لا معرفة لهم به ، وإنما صدرت عن عناية بالغة به ، جعلت الشاعر الحديث يلتفت إلى خاصية رائعة في ستة بحور من الشعر العربي تجعلها قابلة لأن ينبثق عنها أسلوب جديد في الوزن يقوم على القديم ويضيف إليه جديدا من صنع العصر[2] ، ورؤية شعراء التفعيلة إلى الموسيقى الشعرية ما هي إلا « . . دعوة إلى دراسة الإمكانيات التي تقدمها بحور الشعر العربي الستة عشر للشاعر المعاصر ، الذي يهمه التعبير عن حياته في حرية وانطلاق »[3] ومن ثمة ، فهو لم يولد من عدم ، وإنما هو شعر « . . . جار على قواعد العروض العربي ، ملتزم لها كل الالتزام ، وكل ما فيه من غرابة أنه يجمع الوافي والمجزوء والمشطور والمنهوك جميعا »[4] .

وبالتالي ، فهو لم يتمرد عليه وإنما سار وفق ما سمحت به قوانين السلف ، لأنه يدرك أن الأوزان الخليلية هي التي تمنح الشاعر المعاصر الإمكانيات التي سيعبر بها عن الوضع الجديد ، وبالتالي فكيف له أن يعلن القطيعة معها ، وهنا ربما تمكن شعر التفعيلة من أن يحقق شرعيته في الوجود ، مؤكدا على أنه شعر « مستمد من عروض الخليل بن أحمد ، قائم على أساسه ، بحيث يمكن أن نستخرج من كل قصيدة حرة مجموعة قصائد خليلية وافية ومجزوءة ومشطورة

(1) المصدر السابق ، ص63 .
(2) المصدر نفسه ، ص52 .
(3) نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، دار العلم للملايين ، ط6 ، بيروت ، 1981 ، ص69 ، 70 .
(4) المصدر نفسه ، ص146 .

ومنهوكة »[1] فالشعر العمودي هي القاعدة التي تؤمن له السير السليم وفق نهج معين مساير للحياة الجديدة .

2. موقف الرؤية النقدية المعاصرة من عناصر الموسيقى الشعرية المتوارثة :

أ. الوزن :

لقد كانت نظرة الجيل الجديد إلى مكمن جمالية الوزن ، مغايرة تماما لنظرة القدامى إليه ، ولعل نازك الملائكة أول شاعرة معاصرة عرضت وجهة نظرها في ذلك ، إذ رأت أنه العنصر البارز الذي يعطي المادة المكونة للقصيدة شعريتها ، ذلك أن الشعر ليس مجرد صور وعواطف وأفكار ، بل « إن الأفكار والعواطف لا تصبح شعرية بالمعنى الحق إلا إذا لمستها أصابع الموسيقى ، ونبض في عروقها الوزن »[2] فالوزن هو الذي يضفي على القصيدة سمة الشعرية ، ولا تعني بكلامها هذا التقيد بتلك الأوزان التي خلفها الخليل ، وإنما تدعو إلى تبني الأوزان الحرّة ، كونها هي التي « تتيح للفرد العربي المعاصر أن يهرب من الأجواء الرومانسية إلى جو الحقيقة الواقعية التي تتخذ العمل والجد غايتها العليا . . أما القيود التي تضيق آفاق الأوزان القديمة فهي تلوح للفرد المعاصر ترفا وتبديدا للطاقة الفكرية في تشكيلات لا نفع لها ، في وقت ينزع فيه هذا الفرد إلى البناء والإنشاء وإلى إعمال الذهن في موضوعات العصر ، إنه يكره أن يضيع جهوده في إقامة هياكل شعرية معقدة لها من الرصانة والهيبة أكثر مما يطيق . »[3] ، فالوزن الحرّ هو روح الشعر الذي ينظم كل العناصر المكونة له ، وينقلها من نثريتها إلى شعريتها ، ومن ثمة فالوزن ليس شكلا جاهزا ، بل هو الروح التي تسري في عروق اللغة والعواطف والصور ، فدعت إلى التزام التفعيلة الواحدة في القصيدة ، فيما سمته هي بالشعر الحرّ ، الذي هو تعامل « في ترتيب تفاعيل الخليل ، يطلق جناح الشاعر من كل قيد »[4] ويمنح له جواز سفر إلى أعماق الحياة الجديدة والتعبير عنها بالأساليب الملائمة والمعبرة عنها بأصدق تعبير .

فالموسيقى الجديدة إذن ، هو طريقة جديدة في التعامل مع بعض الأوزان الخليلية ، التي قسمتها نازك إلى قسمين : بحور صافية ، وبحور ممزوجة[5] . مما

(1) المصدر السابق ، الصفحة نفسها .
(2) المصدر نفسه ، ص224 ـ 225 .
(3) المصدر نفسه ، ص56 .
(4) نازك الملائكة ، الديوان مج2 ، ص13 .
(5) ينظر : نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، ص83 ، 84 .

يعني أن جمالية الوزن عندها لا تكمن في التقيد بالأوزان ، وإنما تكمن في طريقة التعامل معها ، والواقع الجديد هو الذي يفرض ذلك ، وبالتالي فشعر التفعيلة ليس وزنا أو بحرا جديدا وإنما هو تعامل شعري جديد ، أو شكل من الأشكال الشعرية التي ذكرتها[1] .

لقد أشار أدونيس إلى ما أحدثته الدعوة إلى التخلي عن الأوزان الخليلية وإعلان التمرد عليها من ضجة واسعة النطاق على الساحة الشعرية والنقدية معا ، حيث رأى بعض المتعصبين أنّ أي شعر لا يلتزم بالأوزان الخليلية لا يسمى شعرا[2]، وذاك حسبهم سبب كافي لإخراجه من دائرة الشعر ، وذاك ما رفضه الجيل الجديد من الشعراء ، الذي يرى أن إجبارهم على الالتزام بالأوزان الموروثة إجحاف في حق الشعر والشعراء ، لأن تحديد الشعر على أنه وزن بالدرجة الأولى » . . . تحديد خارجي سطحي قد يناقض الشعر ، إنه تحديد للنظم لا للشعر ، فليس كل كلام موزون شعر بالضرورة ، وليس كل نثر خاليا بالضرورة من الشعر . » . .[3] ، فليس الوزن وحده هو الذي يميز بين الشعر والنثر ، لأن « . . . مثل هذا التمييز كمي لا نوعي ، كذلك ليس الفرق بين الشعر والنثر فرقا في الدرجة ، بل فرق في الطبيعة »[4] ، لذا فإن جمالية الأوزان لا تكمن في الخضوع المطلق لها ، لأنها ما هي إلا « إلزامات كيفية تقتل دفعة الخلق ، أو تعرقلها ، أو تقسرها ، فهي تجبر الشاعر أحيانا أن يضحي بأعمق حدوسه الشعرية على سبيل مواضعات وزنية ، كعدد التفعيلات أو القافية »[5] وإنما تكمن جماليتها في تحررها هي في حدّ ذاتها ، وتماشيها مع موسيقى الحياة الكامنة التي « . . . لا تنتهي في إيقاعات لا تنتهي »[6] .

وقد أشار أدونيس إلى قصر الرؤية القديمة في فهمها للشعر ، مبديا رفضه القاطع لها حيث قال : « الشعر هو الكلام الموزون المقفى » عبارة تشوه الشعر ، فهي العلامة والشاهد على المحدودية والانغلاق ، وهي إلى ذلك معيار يناقض الطبيعة الشعرية العربية ذاتها ، فهذه الطبيعة عفوية ، فطرية ، انبثاقية ، وذلك حكم عقلي منطقي »[7] فهو لا يرفض الأوزان الخليلية رفضا مطلقا ، ودليله على ذلك

(1) ينظر : المصدر السابق ، ص74 ـ87 .
(2) ينظر : أدونيس ، زمن الشعر ، دار العودة ، ط3 ، بيروت ، 1979 ، ص15 .
(3) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
(4) المصدر نفسه ، ص 16 .
(5) أدونيس ، مقدمة للشعر العربي ، دار العودة ، ط3 ، دمشق ، 1979 ، ص115 .
(6) أدونيس ، زمن الشعر ، ص164 .
(7) أدونيس ، مقدمة للشعر العربي ، ص108 .

قصائده التي كتبها على الأوزان الخليلية ، وإنما ما يرفضه هو جعلها قانونا مفروضا على الشاعر ، يلزمه التقيد به حتى وإن لم تكن هناك حاجة إليه ، وذاك ما يفقد الشاعر حرية التعبير والاختيار ، وتقتل فيه روح الإبداع ، ومن ثمة فجمالية الوزن تكمن في إحساس الشاعر بالحرية أثناء التعامل معه والتنويع فيه بتنوع المشاعر التي تجيش بداخله ، ليخلق بذلك وزنا شعريا شعوريا ، لا وزنا شعريا فحسب .

ب ـ القافية :

تعد القافية من العناصر الإيقاعية الأخرى ، التي وقفت عندها الرؤية النقدية الجديدة ، وقد لقيت نقدا لاذعا بسبب الرؤية النقدية التراثية إليها ، كونها ليست في نظرهم عنصرا مهما في القصيدة المعاصرة ، بل إنها « . . . تضفي على القصيدة لونا رتيبا يمل السامع ، فضلا عما يثيره في نفسه من شعور بتكلف الشاعر وتصيده للقافية ، ومن المؤكد من أن القافية الموحدة قد خنقت أحاسيس كثيرة وأودت معاني لا حصر لها في صدور شعراء أخلصوا لها ، ذلك لأن الشعر الكامل الغنائي منه خاصة الشعر العربي غنائي كله تقريبا لا يستطيع أن يكون إلا وليد الفورة الأولى من الإحساس في صدر الشاعر ، وهذه الفورة قابلة للخمود لدى أول عائق يعترض سبيل اندفاعها ، فهي أشبه بحلم سرعان ما يفيق منه النائم . » . .[1] . فلم تكن القافية معينا للشاعر في التعبير عن الآلام والأحزان التي غطت سماء حياته ، بل كانت دائما هي « . . . العائق ، فما يكاد الشاعر ينفعل وتعتريه الحالة الشعرية ويمسك بالقلم فيكتب بضعة أبيات ، حتى يبدأ محصوله من القوافي يتقلص ، فيروح يوزع ذهنه بين التعبير عن انفعاله والتفكير في القافية سرعان ما تفيض الحالة الشعرية وتمهد فورتها ، ويمضي الشاعر يصف الكلمات ويرصّ القوافي دونما حس »[2] ، ففي الوقت الذي ينبغي على الشاعر أن يطلق العنان لفكره ويدع الكلمات تنساب منه دون انقطاع ، يجد نفسه مقيدا ومجبرا على أن يخضع كلماته لعملية الانتقاء ، لأنها لا يسمح لها كلها بالسفر إلى عالم القصيدة في ظل القوانين الموسيقية القديمة ، أين تجد القافية أمامها ، تمنعها لأنها ليست كما تريدها هي ، وهذا ما رفضه الشعر الجديد ، وقام بالثورة عليها منددا بضرورة إعادة تكييفها مع الواقع المعيش ، ففقدت بذلك القافية دورها التقليدي لتقوم بدور جديد بحسب ما يتطلبه نمو القصيدة في رحلتها إلى الذروة ، وهنا

(1) نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، 18 .
(2) المصدر نفسه ، ص18 ـ 19 .

تكمن جماليتها .

وهنا نتساءل : هل تم فعلا إلغاء القافية من الموسيقى الشعرية الجديدة؟وهل يعني التخلص منها نهائيا نظم الشعر بالسهولة المطلقة؟

إن قامت الثورة فعلا على القافية ، فإن هذا لا يعني إلغاؤها كلية ، إذ لمس فيها شعراء التفعيلة ضرورة تستوجب حضورها في العمل الشعري ، من بينهم نازك التي ثارت عليها من قبل ، لتعود لتؤكد أهميتها في تحقيق الموسيقى الشعرية في الشكل الجديد ، ولم تقف عند هذا الحد ، بل حاولت أيضا أن تقيد شعر الشاعر المعاصر بقافية في كل سطر ، فهي تذهب إلى أن شعر التفعيلة يتكون من أشطر متفاوتة الطول ، وهذا من شأنه أن يضعف الإيقاع و« لذلك فإن مجيء القافية في آخر كل شطر سواء كانت موحدة أم منوعة يعطي هذا الشعر الحر شعرية أعلى ، ويمكّن الجمهور من تذوقه والاستجابة إليه »[1] وما قولها هذا إلا دليل على تشبثها بالرؤية التقليدية للقافية ، وللبيت الشعري ، وبالتالي كيف يكون الشعر حرا إذا التزم بالقافية الموحدة؟وما الفرق حينئذ بين الشطر الشعري والبيت الشعري؟

لقد نوّه أحمد عبد المعطي حجازي بدوره إلى أهمية القافية في الشعر ، منبها الشاعر المعاصر إلى استحالة التخلص منها ، كون الشعر الأوربي لم يتمكن من ذلك على الرغم من نجاح الشعر المرسل عندهم ، مستندا إلى رأي هنري لانز في أن شعر اللغات الأوربية أحوج ما يكون إلى القافية من شعر اللغات الأخرى ، التي تعتمد على كم معين من المقاطع المتساوية كما في الشعر العربي[2] .

وقد تناول أدونيس بدوره القافية « أهمية وعيوبا » في الشعر العربي ، مشيرا إلى بعض الصفات التي تعتريها في أغلب الأحيان ، فرأى أن الشعر « يفقد كثيرا بالقافية ، بفقد اختيار الكلمة وبالتالي اختيار المعنى والصورة والتناغم ، فكثيرا ما تنحصر القافية في أداء مهمة تكرارية دون أن يكون لها أي وظيفة في تكامل مضمون القصيدة ، وربما جاءت القافية زائدة يمكن الاستغناء عنها دون الإساءة إلى القصيدة ، بل ربما اضطر الشاعر إلى وضع قافية غريبة عن القصيدة ودفعتها الشعورية الصميمة ، وهكذا تكثر في القصيدة الزوائد وتمتلئ بالحشو »[3] . فمن عيوب القافية ، أن يأتي بها الشاعر إجبارا لا لضرورة تفرض عليها أن تكون

(1) المصدر السابق ، ص191 .
(2) ينظر : عبد المعطي حجازي ، الشعر رفيقي ، دار المريخ للنشر والتوزيع ، ط2 ، بيروت ، 1971 ، ص58 .
(3) أدونيس ، مقدمة للشعر العربي ، ص115 .

حاضرة في ذلك الموقع بالتحديد ، مما يجعل منها كالغريبة التي تدرك كيف دخلت ولماذا وجدت هناك بالذات ، إلاّ أن وجود هذه العيوب في بعض قصائد الشعراء لا يعني عدم أهميتها بصفة مطلقة في الشعر ، حيث نجد أن وجودها في الشعر الجديد أيضا شيء مستحسن ، كونها جزء من الخصائص الصوتية والموسيقية للكلمة وليست ضرورة[1] ، فهي لم تعد تقوم بنفس وظيفتها التقليدية ، بل تجاوزتها لتلتحق بكل كلمة لا بآخر كلمة من البيت ، فدورها يكمن في الكلمة وغناها وموسيقاها وليس في ختام السطر أو البيت ، وبالتالي لم تعد للقافية قيمة في حد ذاتها ، بل في علاقتها بغيرها من العناصر في القصيدة ، وهي ليست بنظرة جديدة اتجاه القافية ، إذ سبق وأن تحدث عنها نقاد العرب القدامى أمثال : قدامة بن جعفر وابن طباطبا . . . وبهذا فهي عنصر إيقاعي مهم في إبراز الإيقاع الشعري ، تكمن جماليته في خلقه لعلاقات وطيدة مع العناصر الأخرى للقصيدة .

ورأى نزار أن موسيقى الشعر الجديد ليست هي نفسها موسيقى الجيل القديم ، كونها « موسيقى تأتي من فعل الكتابة نفسه ، ومن المعاناة المستمرة ، والمغامرة مع المجهول اللغوي والنفسي لا من التراكمات الصوتية والنغمية المخزونة في أذننا الداخلية بشكل وراثي وعضوي . ولأن موسيقى الشعر الحديث هي مغامرة شخصية بين الشاعر والعالم ، وبين الشاعر واللغة ، فلا يمكن التكهن بالصياغة النهائية التي ستصل إليها القصيدة العربية في المستقبل »[2] ، فالشاعر المعاصر يواجه عالمين في نفس الوقت لا عالم واحد ، عالم اللغة الذي يضع أمامه قاموسا لغويا ثريا ، يصعّب عليه عملية الاختيار ، والعالم الحقيقي المليء بالأحداث التي لا تنتهي ، والتي تجبره على التعبير عنها بأي وسيلة لأنها تمسه ، بل إنه جزء منها ، مما يفرض عليه إبداء رأيه فيها .

وقد تحدث عن القافية وعن المأساة التي مرت بها في خضّم حديثه عن الفهم الخاطئ لليسار ، من أنهم دعوا إلى نبذ كل ما له صلة بالتراث ، فذلك ليس بصحيح ، إذ إنه « لا يطالب أبدا بإلغاء الأثواب الفضفاضة في شعرنا ، لأنه لا يعرف أن التخلي عن أثوابنا القديمة معناه العري الأدبي العام ، ولكنه يطلب بتعديل هذه الأثواب بشكل يجعلها عصرية . . وعملية . . ومريحة »[3] فهو لا يرفض أن نأخذ من التراث وأن نستعين به ، لأن التخلي عن الماضي دليل على الجهل في حدّ ذاته ، ومن لا حاضر له ، لا مستقبل له ، وإنما ما دعا إليه هو أن

(1) ينظر : المصدر السابق ، ص114 .
(2) المصدر نفسه ، ص179 ، 180 .
(3) نزار قباني ، الشعر قنديل أخضر ، منشورات نزار قباني ، ط16 ، بيروت ، 2000 ، ص36،37 .

نكيف هذه العناصر القديمة مع الوضع الجديد ، نجعلها تساير الحاضر فتتماشى وفق ما يتطلبه الحال الراهن فقط ، كي لا تكون منبوذة . ومتى سايرت القافية الواقع الجديد ، كانت مريحة ، و إنني أستعمل هنا كلمة (مريحة) لأنها الكلمة الأصلح لما أريد التعبير عنه ، إذ لا شاعر عربي مهما كان مجيدا يستطيع أن يدعي أن جميع قوافيه مستريحة وأنه دائما في أحسن حالاته ، فالقافية برغم كل سحرها وإثارتها نهاية يقف عندها خيال الشاعر لاهثا ، إنها اللافتة الحمراء التي تصرخ في بالشاعر ،« قف »حين يكون في ذروة اندفاعه وانسيابه ، فتقطع أنفاسه وتسكب الثلج على وقوده المشتعل وتضطره إلى بدء الشوط من جديد »[1] لذا ينبغي على الشاعر العربي المعاصر أن يختار من القوافي التي وإن استعملها لن يشعر بانقطاع في التدفق الشعوري الشعري ، فلا يحس بشيء يشوش تفكيره ويكسر عنه إيقاع تعبيره ، فليست كل القوافي صالحة التوظيف ، فمنها ما يحسن بتوظيفها الشعر ومنها ما تفسده ، وما أكثر الشعر الرديء لرداءة استعمال القافية فيه ، حتى غدت للشاعر والقارئ معا أشبه « . . . بالإشارة الحمراء . . التي تفاجئ السائق ، وتضطره إلى تخفيف السرعة ، أو التوقف النهائي ، بحيث يعود محرك السيارة إلى نقطة الصفر . . بعد أن كان في ذروة اشتعاله واندفاعه . . ومثل هذه الوقفة المباغتة وغير المتوقعة ، تؤثر بغير شك على حركة السيارة ، وأعصاب السائق وسلامة المسافرين .»[2] ، وقد يتساءل المرء : كيف لم توقف القافية تدفق ينبوع الإبداع الشعري لدى الشاعر العربي القديم؟

لم يقصد نزار من كلامه هذا ، الدعوة إلى « إسقاط القافية أو إلغائها ، وإنما نرى أن تكون القافية موقفا اختياريا . . فمن أراد أن يتوقف عندها ، فله ذلك ، ومن أراد أن لا يتوقف فبإمكانه أن يواصل رحلته . . ولن يأخذه أحد إلى السجن .»[3] فلا ينبغي أن يحس الشاعر العربي أنه مجبر على الالتزام بها ، بل ينبغي أن نترك له الحرية في ذلك ، لأنه المعني الوحيد الذي يدرك إن كان هو في حاجة إليها أم لا ، ومبدأ الاختيار هو الجوهر الذي نادى به الجيل الجديد ، ويبقى الأهم في كل هذا هو » أن يكون ثمة « تعويض موسيقي » للفراغ الناشئ عن إلغاء الوزن والقافية ، فإذا استطاع الشاعر أن يقدم هذا البديل الموسيقي فسوف نصغي إليه بكل خشوع واحترام :

نحن لسنا متمسكين بالنموذج الموسيقي التاريخي . .

(1) المصدر السابق ، ص 37 ـ 38 .
(2) المصدر نفسه ، ص 39 .
(3) نزار قباني ، ما هو الشعر؟ منشورات نزار قباني ، ط3 ، بيروت ، 2000 ، ص124 .

ولا (بالطرب التاريخي) . .
الميكروفون في يد الشاعر . .
ولا شروط مسبقة مفروضة على حريته . .
كل ما نطلبه منه أن يقنعنا بأنه يغني بصورة جيدة . .
بصرف النظر على الطريقة التي يغني بها . .»[1] .

لم يعد يهمنا لا الوزن ولا القافية لأن : «ذوقنا الموسيقي تطور ونما وتأثر إلى حد بعيد بالبناء السمفوني المركب في الموسيقى الأوربية وبالأصوات الحادة المتمزقة والبوق والصنوج النحاسية ، لقد تجاوزنا مرحلة «ربابة الراعي» بإيقاعها البدائي البسيط إلى مرحلة البناء الموسيقي المتداخل ، وانتهت في حياتنا مرحلة القصيدة العصماء ، بأبياتها المئة ، تجلد أعصابنا بقواف نحاسية ، مرصوصة كأسنان المشط . . نعرفها قبل أن نعرفها»[2] .

وهذا لا يعني مطلقا إلغاء القافية«النزوع إلى السهولة في صناعة الشعر ، بل العكس هو الواقع ، إذ إن ذلك التخلي يفرض على اللغة مطالب عسيرة المنال ، عندما يزول صدى القافية من الآذان يصير النجاح أو الإخفاق في اختيار الألفاظ وبناء العبارات ، وسائر نظام القصيدة أبرز للعيان ، زوال القافية يضع الشاعر مباشرة وجها لوجه أمام مقاييس النثر ويسلب الألفاظ كثيرا من موسيقاها الناعمة ويكشف في القصيدة عن كثير من العورات»[3] وإنما ما أصبح يهمنا اليوم هو ما مدى قدرته على التأثير في آذاننا ونفوسنا وإقناع عقولنا بما يقول ، وما دامت «العصافير لا تتقيد بالنوتة الموسيقية المكتوبة ، ولا تلتزم بمقام واحد ، وإنما تدوزن حناجرها حسب ظروفها الحياتية . فلماذا لا يكون خيار الشاعر كخيار العصفور؟»[4] .

وإن كان نزار قد دعا إلى التجديد في الموسيقى الشعرية ، فهذا لا يعني الابتعاد عن الموسيقى الخليلية ، بل التجديد يكون انطلاقا منها وفي داخلها ، حيث نجده يثمّن الثروة الموسيقية التي تركها الخليل بن أحمد قائلا : «إن بحور الشعر العربي الستة عشر بتعدد قراراتها وتفاوت نغماتها هي ثروة موسيقية ثمينة بين

(1) المرجع نفسه ، ص 124 . .
(2) نزار قباني ، الشعر قنديل أخضر ، ص41 ـ 42 .
(3) يوسف حسن بكار ، بناء القصيدة العربية في النقد العربي القديم ، في ضوء النقد الحديث ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، ط2 ، بيروت ، 1982 ، ص139 . نقلا عن إليوت ، نظرات في الشعر الحر ، مقال مترجم في : الشعر بين نقاد ثلاثة .
(4) نزار قباني ، الشعر قنديل أخضر ، ص125 .

أيدينا ، وبإمكاننا أن نتخذها نقطة انطلاق لكتابة معادلات موسيقية جديدة في شعرنا »[1] فهذا تأكيد منه على المجهود الذي بذله الخليل في سبيل الإبداع الشعري ، مجهود لا يمكن للأجيال اللاحقة تجاهله وعدم العودة إليه ، فهو القاعدة الأساسية التي بني عليها الشعر ، ومنه نخلق معادلات جديدة للشعر الجديد تتوافق معه ، وهذا معناه « . . . أن موسيقى الشعر ليست مخطوطة كلاسيكية محفوظة في متحف ، لا يسمح لنا بلمسها أو بإخراجها إخراجا جديدا وبتوزيع جديد »[2] فمهما كان هناك من قيود في الإبداع الشعري ، إلا أن هناك في الضفة الأخرى نوع من الحرية ، التي لولاها لما تفنن الشاعر المعاصر في طريقة تقديم قصائده للمتلقي المعاصر الذي لا يحبذ أن يرى الشيء نفسه وعلى نفس الطريقة ولو للمرة الثانية ، فما بالك أن يقرأ ويسمع ويرى ديوانا وردت كل قصائده على نفس الهندسة الفنية؟

وبالتالي فإن جمالية الوزن والقافية تكمن في ولوجهما إلى عالم القصيدة دون إرغام ، ومنحهما حرية التعامل مع بقية العناصر الأخرى .

قائمة المصادر والمراجع :

1ـ أحمد عبد المعطي حجازي ، الشعر رفيقي ، دار المريخ للنشر والتوزيع ، ط2 ، بيروت ، 1971 .
2 ـ أدونيس ، زمن الشعر ، دار العودة للنشر والتوزيع ، ط3 ، بيروت ، 1979 .
3ـ أدونيس ، مقدمة للشعر العربي ، دار العودة ، ط3 ، دمشق ، 1979 .
4ـ محمد عزام ، الحداثة الشعرية ، إتحاد كتاب العرب ، ط3 ، دمشق ، 1996 .
5 ـ نازك الملائكة ، قضايا الشعر المعاصر ، دار العلم للملايين ، ط6 ، بيروت ، 1981 .
6ـ نزار قباني ، قصتي مع الشعر ، منشورات نزار قباني ، ط6 ، بيروت ، 2000 .
7ـ نزار قباني ، ما هو الشعر؟ ، منشورات نزار قباني ، ط3 ، بيروت ، 2000 .
8ـ نزار قباني ، الشعر قنديل أخضر ، منشورات نزار قباني ، ط16 ، بيروت ، 2000 .
9ـ يوسف حسن بكار ، بناء القصيدة العربية في النقد العربي القديم ، في ضوء النقد الحديث ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، ط2 ، بيروت ، 1982 .

(1) المصدر نفسه ، ص40 ـ 41 .
(2) المصدر السابق ، ص40 .

أيقونة الرفض في شعر دعبل الخزاعي الرؤية والأسلوب

أ . لخضر هني*

الملخّص :

تناولت هذه الدراسةُ رؤيةَ دعبل الخزاعي للحياة العباسية بكل أطيافها وتلوناتها السياسية والاجتماعية والفكرية ، ومدى تناغمها مع اللغة الشعرية عنده ، وكان هدفي في كل هذا هو إثبات الوشيجة بين التراكمات الفكرية والمذهبية للشاعر وبين أسلوبه المشكل لمنجزه الشعري .

وكنت قد انطلقت في بحثي من رصد مفهومي الرؤية والرؤيا باعتبارهما مصطلحين نقديين ، يتماسّا صوتا ودلالة ، ثم عرّجت إلى المضمرات الرؤيوية التي اغترف منها شاعرنا وشكلت وجدانا إنسانيا اسمه دعبل الخزاعي؛الإنسان؛ المتشيع؛ الرافض لكل أشكال السلطة العباسية .

أما الدراسة التطبيقية ، فقد توقفت عند ما يمكن اعتباره ملامح أسلوبية أكثر انتشارا على جسد الديوان ، وكنت في كل مرّة أرمقها بمنظارين ، منظار الأسلوب ، ومنظار الرؤية ، رغبة في تقريب الفكري بالجمالي في الشعر عموما .

وفي الأخير ، وبعد دراسة تطبيقية على أهم الملامح الأسلوبية التي ميزت شعرية دعبل ، خلصت إلى أن أسلوبية الشاعر كانت إلى حد بعيد صدى صادقا لرؤيته الشيعية؛ ما يعني الرؤية تتشاكل مع الأسلوب في شعر دعبل الخزاعي لتشكل أيقونة تضيء سديم نصوصه المفعمة بحمولات مذهبية .

تقديم :

لم يكن نظمُ العرب الشعرَ مجرد حكاية لأمجاد أيامهم ، وجميل مآثرهم ، ولا لمحض التنفيس عن خواطرهم وأنّات صدورهم ، بل جاء النظم في أغلب حالاته مصورا لرؤاهم ، وترجمانا لمنهج حياتهم ــ على بساطتها وبداوتها ـ بما يحمله من مضامين فكرية تنبعث رؤيتها من واقع الحياة في جميع مستوياتها ، والشاعر العربي في مساعيه الحثيثة نحو فهم الحياة ، يحاول دوما أن يثير هذه المضامين في نفوس متلقيه ، رغبة منه في إشعارهم بما يحدق بهم من متغيرات ،

* قسم الأدب العربي ، جامعة محمد بوضياف ، بالمسيلة .

وما يحيط بهم من وقائع وأحداث ، ورسالة الشعر في ذلك شأنها شأن المعارف والفنون الأخرى ، تجمع بين معايير الفن والرؤية الفكرية .

وإذا كان الشعر هو الذي يدرَك بالفكر ، فلأن العامل الوسيط بينهما هو الحدس (Intuition) بوصفه معرفة فطرية تأملية ، حيث يكمن الجوهر الحقيقي للفكر التساؤلي ، ولأنه كذلك ، فهو يحمل قلق مشاغله الفكرية عبر رؤية تعبر عنها الرسالة الشعرية (Message poétique) ، ومن هنا كانت مبادئ الشعر ـ على الدوام ـ فكرية ، ينطلق منها الفكر التساؤلي ، بخاصة في العصر الأموي؛ عصر الاضطراب الفكري والسياسي على وجه العموم ، الذي غرس بذور الوعي الحجاجي ، وما نتج من ذلك من صراع فكري بين المذاهب الدينية والتيارات الفكرية والسياسية .

وكان الشيعة من أوائل من رفع لواء الرفض بالحجاج ، بالاستناد إلى العقل في « ظاهرة الخلافة »، فوجد هذا الاتجاه من يغذيه في جميع أنواع المعارف ، بما فيها الشعر ، الذي كرّسه أنصار هذا المذهب للدفاع عن مبادئهم القائمة على الاستدلال بالحجة ، ولاشك أن الخطوات التي سعى إليها مناصرو هذا المذهب هي ما حفّز الشاعر « دعبل الخزاعي» الذي عرف عنه شدة ولائه لآل البيت والجهر بمبادئهم .

من هذا المنظور جاء هذا المقال ليدرس الرؤية والأسلوب في الشعر العباسي الأول ، متخذا شعر دعبل بن علي الخزاعي حقلا تطبيقيا ، ومتلمسا العلاقة الجدلية القائمة بين رؤية الشاعر للعوالم التي من حوله ، وبين أسلوبه المشكل لنتاجه الإبداعي ، وهذا عن طريق تحليل بنية الخطاب الشعري الشيعي أسلوبيا ، لذا كان لزاما على هذا البحث أن يسير في الحقل الشعري لدى دعبل الخزاعي بمنظورين؛ منظور الرؤية (vision) ، ومنظور الأسلوب (style) ، وتبحث في المسافة بينهما ، ومدى التناغم الحاصل بين دفتيهما .

ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة في سعيها إلى إقامة توأمة بين الفكر والفن ، والتجربة والتعبير ، وبالأحرى بين الرؤية والأسلوب في النص الدعبلي ، بمنهج أسلوبي وصفي تحليلي ، يسبر أغواره بالقدر المتاح لها من الأدوات الأسلوبية المشكلة لخطابه الشعري الشيعي .

وتحاول هذه الدراسة أن تبحث عن الكيفية التي من شأنها تصبح الرؤية المذهبية والأيديولوجية سياقا خارجيا له ظلال وارفة على الرفض عموما وعلى شعر دعبل الخزاعي بالخصوص؟ .

أولا : الشّعر رؤية :

الشعر ترجمان الفكر ، ووحي النفس الإنسانية ، منها يغترف تجاربه ، وعنها يعبر وينظم ، والشاعر مهندس المفردات والأبجديات ، يرصف أحسن الكلمات في أحسن نظام ، ويفجر ينابيع اللغة ليخلق من اللغة العادية لغة غير عادية ، مختلفة عنها بناء ودلالة ، وهو بذلك يتجاوز اللغة اليومية التواصلية التعبيرية ، إلى لغة مجازية شاعرية إيحائية ، تحمل أبعادا إشارية ، ورمزية ، وأسطورية ، « هو ذا الشعر؛ اللغة التي تغذي الحلم الإنساني في خضم المفارقات والتناقضات والصراعات؛ القوة الخفية البانية لكل قيمة من قيم المحبة والعدالة والسلام »[1] ، إنه الثورة من أجل كل ما هو إنساني ، والانطلاق نحو آفاق رحبة ، إلى العوالم الممكنة التي يسعى إليها الشاعر الإنسان ليعيش إنسانيته فوق أرض الخير والجمال ، وتحت سماء العدل والقيم العليا .

ولكن هل من المعقول أن يكون للشعر هذا الدور السلبي ؟ أوَ ليس للشعر رؤية خاصة إزاء الماضي والحاضر والمستقبل ، أو ليس الشعر « نظما شاعريا للواقع الملموس ، يصل بمقارباته إلى فكرة أصيلة عن الإنسان والعالم والكون »[2] ، وهل الشعر إلا « تعبير عن رؤيا كيانية يعتنقها الشاعر لتفجير مكبوته الوجداني ، والرؤيوي والحضاري ، وبغية معانقة الآفاق البعيدة ومجاهيلها الغيبية »[3] ، ومكنوناتها الدفينة المتخفية وراء عالم الشهادة؟

ليس من الممكن أن نقزم مهمة العمل الإبداعي ، الذي يدور في محور الإنسان ، ونعتبره مجرد ترفٍ فني ، لا قيمة له ، و« النقد الذي ينظر إلى العمل الأدبي باعتباره علاقات جماليةً لا تهدف إلى غاية ، ينكر على الأديب إنسانيته ، ويجعل منه طفلا يقوم بنشاط عبثي لا جدوى منه »[4] ، وينفي عن الأدب هذا الدور الريادي الهادف إلى تغيير معالم الواقع الحياتي الذي نحياه ، ويسعى إلى إعادة تشكيله وصياغته ، وترتيب ما انفرط من قضاياه ، وبناء عالم آخر أكثر رحابة وحرية وأمنا .

(1) أحمد الطريسي : النص الشعري ، بين الرؤية البيانية والرؤيا الإشارية ، دراسة نظرية وتطبيقية ، الدار المصرية السعودية ، القاهرة ، 2004 ، ص 08 .

(2) سعيد علوش : معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1985 ، ص 127 .

(3) عبد القادر فيدوح : الرؤيا والتأويل ، مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة ، ديوان المطبوعات الجامعية ، وهران ، الطبعة الأولى ، 1994 ، ص 38 .

(4) عبد المحسن طه بدر : الرؤية والأداة ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة ، ص 15 .

1. الرؤية/الرؤيا :

إنّ المتصفح لتراثنا المعجمي في جذر الفعل « رأى »[1] ، يستشف أن الأصل في الرؤية أن تكون بالعين المجردة ، وقد تكون أيضا بالوهْم والتخيُّل ، وربما كانت بالفؤاد ، وقد تكون بمعنى العِلم ، وربما اتجه مدلولها إلى الحُلم ، ويمكن أن تدل على الاعتقاد والانتماء الفكري ، وربما يُقصد بها التأمل والتدبر في العوالم التي من حولنا ، وقد تعني النظرة المستقبلية ، الاستشرافية للحياة وللكون .

وفي موسوعة « برنستون » للشعر والنّظريات الشّعرية ، هي « كلمة مفعمة بالغوامض والإضافات المعنوية التي غالباً ما تولّد تناقضات في السّياقات التي تستعملها . . . . فهناك رؤيا الاستحالة والكشف (التنبؤ) . وهناك الرّؤيا التي توحي بالمحسوس الحي ، . . . إلا أنّها قد تشير إلى ما هو وهمي ، ولغتها هي الحكاية المجازية والاستعارة والرّمز وغير ذلك من وسائل للتعبير عن المعاني في العمق ، وتتطلب غالباً مهارات خاصة في التأويل »[2] .

ويُفهم مما سلف أن مصطلح الرؤيا من المصطلحات الغامضة في الخطاب النقدي الحديث ، وأن معناها يتأرجح بين الحسي الملموس المدرك بالحواس وبين المجرد الصوري الفلسفي المدرك بالقلب والعقل؛ ما يعني أن للرؤيا مفاهيم ضبابية ، وأبعادا غائرة في عمق التجربة الإنسانية ، وفي آفاق الكون ، والوجود ، والحياة ، وهذا بسبب تعدد معانيها ، واختلاف مراميها ، وتشعب أبعادها الفلسفية والمعرفية ، واختلاطها مع مفهوم الرؤية القريب منه صوتا ودلالة .

ويبدو أن مصطلح الرؤية ـ من خلال التأصيل المعجمي ـ يستوعب جميع الدلالات التي تتشظى عن الفعل (رأى) ، ابتداءً من الرؤية البصرية المجردة التي « تتشكل من ممارسة الشاعر للحياة ، ومن احتكاكه بالواقع والناس ، ومن عمله بقضاياهم وطموحاتهم ، ومن معارفه ، وخصوصيات انتمائه الفكري الثقافي والسياسي »[3] ، وانتهاءً إلى الرؤيا القلبية العقلية التي تصور المستقبل الإنساني ،

(1) جاء في لسان العرب ، مادة (رأى) : "الرُّؤيَة بِالعَيْنِ تَتَعدَّى إلى مفعول واحد ، وبمعنى العِلْم تتعدَّى إلى مفعولين؛ يقال : رأَى زيداً عالماً ورَأَى رَأْياً ورُؤْيَةً ورَاءَةً مثل راعَة ، وقال ابن سيده : الرُّؤيَة النَّظَر بالعَيْن والقَلب" ،
أما الرؤيا لغة : قال ابن منظور " أَرْأَى الرجلُ إذا كَثرتِ رُؤَاهُ ، بوزن رُعاهُ ، وهي أَحْلامه ، جمعُ الرُّؤْيا ، ورأَى في منامه رؤْيا ، على فُعْلى بلا تنوين ، وجمع الرُّؤْيا رؤًى .

(2) Princetion Encyclopedia Of poetry and poetics . Princeton University . Press . 1974 . p990-991

(3) أحمد زكي كنون : غنى الرؤية والرؤيا في شعر محمد السرغيني ، العدد الخامس والعشرون ، مجلة

والاجتماعي ، والكوني الذي يتوق إلى العيش في ظله الإنسانُ[1] .

فالرؤية الشعرية ، إذن ، تنبع من جملة الأفكار ، والتصورات ، والانفعالات والمواقف ، والمبادئ التي يستمد الشاعر مادتها الخام من السياق الاجتماعي ، والسياسي ، والديني ، والنفسي الذي يعيش فيه ، ثم تختمر في خلد المبدع ليعبر عن رؤيته ، انطلاقا من الواقع والأحداث والظروف ، فيصور آفاقاً مستقبلية ، تشرئب لها نفسه ، ويتوق لها قلبه ، إنه بهذا يخط طريقا أفضل لحياة جديدة ، ولقيم سامقة ، ولمُثُلٍ عليا ، وبالأحرى لحياة أفلاطونية فاضلة .

وعلى هذا فالرؤيا الشعرية إذن ، هي الصوت الصارخ الذي يدوي في أعماق العمل الإبداعي ، وليس يسمع هذا الصوت إلا مُتَلق منتج لدلالة ، مؤمن بانفتاح النص على قراءات متعددة ، متجاوز حدود الدلالات المعجمية ، مفض إلى الماوراء ، إلى حيث عمق التجربة الإنسانية؛ لأن القصيدة مَنْجَمٌ من الانفعالات والأحاسيس ، والدلالات الاجتماعية ، والنفسية ، والرؤيوية .

ومما لاشك فيه أن الرؤية الشعرية هذه هي قرينة كل نص إبداعي ، سواء أكان النصُ جاهلياً ، أم إسلامياً ، أم عباسياً ، ولا مجال هنا لعنصر العصر أو المصر ، لأن « المهم في النص الشعري هو طاقته الاختراقية ، أي ما يضيفه إلى السياق ، إلى ما يتقدمه وما يمليه . . إن الواجب هو التشديد على عنصر التجاوز في النص لا على عنصر مرجعيته ، وعلى الأفق الذي يتحرك في اتجاهه ، لا على إطاره ، يجب على النقد إذا أراد أن يكون خلاقا ، أن يشدد على متجه النص الشعري لا على منبثقه ، وعلى منظوراته لا على شروطه ، فليس النص الشعري مصبًّا ، وإنما هو منبع »[2] ، غير أنّه من الواجب التنبيه هنا إلى قضية هامة ، هي أنّ كل رؤية شعرية تصطبغ بطبيعة الحياة الإنسانية والحضارية التي ينتمي إليها المبدع ، و« تظل رؤيا الفنان دائما مقيدة بطابع الحضارة التي ينتمي إليها ، تتأثر بكل ما تتأثر به هذه الحضارة من عوامل ، ولكنها تطمح لتستشرف المستقبل ، وتجذب الحضارة ـ لا حضارة قومه فحسب بل حضارة البشرية جمعاء ـ إلى رحابه »[3] ، والأمر كذلك في الحضارة العباسية ، فقد تلونت رؤية الشاعر في هذا

نزوى : www . nizwa . com

(1) يشار إلى أن الفرق بين "الرؤية والرؤيا" يكمن في أن الرؤية ترتبط بالنظر إلى الواقع المعتمد على الحواس الخمسة ، أما الرؤيا لا ترتبط بذلك ، وإنما ترتبط بأبعاد استشرافية مستقبلية تدرك بالبصيرة النافذة التي يمتلكها الشاعر ، لأن الشعر رؤيا فلسفية إلى الحياة والكون والوجود .

(2) أدونيس علي أحمد سعيد : كلام البدايات ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1989 ، ص 18 .

(3) شكري محمد عياد : الرؤيا المقيدة ، دراسات في التفسير الحضاري للأدب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1978 ، ص 04 .

العصر بكل ألوان الحياة الجديدة ، وبكل ما تحمله من روافد سياسية واجتماعية ومذهبية .

وهذا يعنى « أن الشعر قد صار رؤية وموقفا ، وصار حلما وفكرا في ذات الوقت ، وأصبح الشاعر أحيانا يحلم بعوالم خاصة ، وأصبح أحيانا أخرى يتوجه إلى الإنسان ، يفكر فيه ، ويتأمل موقفه من الزمن والكون والمصير ، ويتجاوز الحدود المكانية والزمانية الجزئية إلى حدود كلية ومطلقة ، إلى عالم ما وراء الحس ، كما هو الحال في بعض تجارب أبي نواس وأبي العلاء والمتنبي »[1] ، وغيرهم من شعراء هذا العصر الذين رسموا الحياة العباسية بكل ما تحمله من تلونات عرقية ، ودينية ، وسياسية ، واجتماعية ، واستطاعوا أن يبلوروا رؤى فكرية وفلسفية ومذهبية في الحياة العباسية ، ومن أبرز هؤلاء الشعراء؛ شاعرٌ نشأ في الكوفة؛ وشرب معين التشيع؛ وشب على الإحساس بالظلم والاضطهاد؛ الشاعر الهجّاء؛ الشاعر الذي حمل خشبة يستصلب الناس؛ الشاعر الذي ملأ الأرض مدحا لآل بيت النبي ﷺ ، وقدحا في خلفاء بني العباس؛ الشاعر الذي نشأ في بيت من بيوتات الشعر[2]؛ إنه (دعبل بن علي الخزاعي)[3] ، شاعر آل البيت ، وناصر حياض مذهب التشيع .

ومن شعره في ولائه وحبه لآل البيت قوله[من الطويل] :

مَلامَك في أهلِ النّبِيِّ ، فإنّهم ... أحِبّايَ ، ما عَاشوا وأهلُ ثِقاتِي
نَبَذْتُ إليهم بِالمودّةِ صَادِقا ... وسَلمْتُ نفسي طائعا لِولاتِي
فيَا رَبِّ زِدْنِي من يَقِيني بصيرةً ... وَزِدْ حبّهم يا رَبِّ في حَسَناتِي
أُحِبُّ قَصَيَّ الرَّحمِ مِنْ أَجْلِ حبّكم ... واهجُرُ فِيكم أُسْرَتي وبَناتي[4]

فهذه الأنموذج الشعري يكشف عن رؤية خاصة يمتلكها دعبل ، وقد جاء مؤدلجا على وفاق ما يطرحه العقل الشيعي ، ومتلفعا بلفاع المشروع المذهبي الذي ما فتئ يتمظهر في المنجز الشعري الدعبلي ، من هنا حاول الشاعر أن

(1) محمد زكي العشماوي : موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1981 ، ص 10 .
(2) ينظر ، ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج 2 ص 307 ت : محمد محي الدين عبد الحميد .
(3) دِعْبِل بن علي الخزَاعي (148هـ ـ 246 هـ) أحد الشعراء المتميزين في العصر العباسي الأول ، ومن الشعراء الذين ملأوا الأرض مدحا لآل بيت النبي ﷺ ، و قدحا في خلفاء بني العباس ، . . وأخباره مبثوثة في "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني ، و"معجم الأدباء" لياقوت الحموي ، و"تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي ، ولسان الميزان لابن حجر العسقلاني ، و"دعبل بن علي الخزاعي ، شاعر آل البيت" لعبد الكريم الأشتر .
(4) الديوان ، ص 55 ، 56 .

يختـزل الحيـاة العباسـية في قيمـة التغـيير علـى أنهـا حقيقـة ينبغـي لآل البيـت أن يناضلوا من أجلها ، ويبذلوا كل غال ونفيس من أجل رد حقوقهم المسلوبة ، وبهـذا تَضَامَنَ الشـعري بـالرؤيوي ، وتعاضـدت الرغبـةُ مـع الأفـق المـأمول ضـد الواقـع المعمول وهمومه المتجسدة في السلطة العباسية .

ثانيا . الشّعر أسلوب :

الأسـلوب[1] إنتـاج تعـبيري يـؤطر رؤيـة الشـاعر ، ويرسـم حـدود أبعـاده الفكرية؛ وهو اختيار فني مقصود بأنساق دالـة ، يعكـس رؤيـة العـوالم الممكنـة في دواعيها المستمدة من الواقع ، ويخطئ من يعتقـد أن الأسـلوب قاصـر علـى النسـق التعبيري في جماليات صوغه ، إنه نظام من السياق ضمن مجموعـة مـن العناصـر ، يرتبط بعضها ببعض ، من شـأنها أن تكـوّن فكـر صـاحبه في المنظومـة المعرفيـة ، وتقدم للمتلقي رؤية كاشفة للوجود ومتغيراته ، وهو أيضا سـياق فكـري تعـبيري ، يحمل في مضامينه إمكانية خلق رؤية جديـدة للعـالم الممكـن توقعـه ، أو قـل في ذلك إنه تعبير عن الذات ، في واقعها التأملي ، الـتي تسـتمد رؤيتهـا مـن الرغبـة في تحقيق طموحاتها ، والميل إلى تجسيد رؤاها ، متجاوزة بذلك ما سبق من تجـارب حققت أهدافها ـ في حينها ـ بما توافر لديها من معطيات ، ومن ثَـمَّ تسـعى ركـائز الأسلوب الفني ـ على وجه الخصوص ـ إلى اكتنـاه عـالم الـذات عـبر آليـة النسـيج الفكري الكاشف الذي يصـنعه وعـي المبـدع ، أو الـدارس ، في نصـه ، مـن أكمـام جمالية اللغة .

1. الأسلوب اختيار :

مـن العبـارات الشـائعة في الـدرس الأسـلوبي عبـارة « الأسـلوب اختيـار » ؛ ويقصد بها اختيار المبدع لأدواتـه اللغويـة والتعبيريـة؛ حروفـا كانـت أو ألفاظـا أو تراكيبا أو صورا؛ اختيارا يتماشى مع مقصديته والموقـف الـذي يسـعى إلى التعـبير عنه؛ لأن « عملية الاختيار هي عملية متعلقة بالمبـدع ، فهـو يسـتطيع أن يختـار مـا

(1) إنّ الباحث في الـدرس الأسـلوبي بالكـاد يعثـر علـى تعريـف محـدد لمصـلح الأسـلوب ، بـل إن "تعاريفـه ومفاهيمه مختلفة ومتباينة تباين المدارس البلاغية واللسانية والأسلوبية والاتجاهات الأدبيـة والنقديـة والفنيـة والثقافية ومناهجها" على حد قـول الـدكتور معمـر حجـيج في كتابـه : (اسـتراتيجية الـدرس الأسـلوبي بـين التأصيل والتنظير والتطبيق) ، وقد عرّفه "بيار جيـرو" في كتابـه (الأسـلوبية) بقولـه : "الطريقـة للتعـبير عـن الفكر بواسطة اللغة" ، أو كما أورد "فيلي ساند يرس" في مؤلفه (نحو نظرية أسلوبية لسانية) قـول"بوفـون" : "الأسلوب هو الشخص نفسه" ، وربطه ابن خلدون في (المقدمة) بالنص الأدبي حين قال إنه : "المنوال الـذي تنسج فيه التراكيب ، والقالب الذي يفرغ فيه . . . ويرجع إلى صورة ذهنية للتراكيـب المنتظمـة كليـة باعتبـار انطباقها على تركيب خاص" ، والأسلوب ـ أيضا ـ كما قـال جـان كـوهن في كتابـه (بنيـة اللغـة الشـعرية) : "هو كل ما ليس شائعا ولا عاديا ولا مطابقا للمعيار المألوف . . إنه انزيـاح بالنسـبة لمعيـار ، أي إنـه خطـأ ولكنه خطأ مقصود" ، وانحراف عن معيار اللغة العادية لتحقيق الأدبية في أسلوب ما .

يريد مادام مقتنعا بأن ما يختاره أكثر تعبيرا عن تجربته ورؤيته؛ ولذلك للمبدع أن يختار ما يريد ما دام اختياره يحقق له هدفه ومراده»[1] ، وغايته التي من أجلها أقام اختياره .

فالاختيار ، إذاً ، خطوة أساسية وجوهرية في عملية الإبداع ، وهو ما يتجلى وبصورة واضحة عند جاكبسون حين اعتبر الحدث اللساني مجرد تعامد بين محوري الاختيار والتوزيع لأداء الرسالة التواصلية أو الإبداعية على حد سواء .

وهذا مثال نحاول من خلاله تطبيق محوري الاختيار والتوزيع على بيتين من شعر دعبل ، ثم نستجلي اللمسات الانحرافية ، ونبحث في مدى استجابتها لطبيعة الشاعر النفسية والشخصية ، يقول دعبل الخزاعي [من الكامل] :

يا رَبْع أيْنَ تَوَجّهَتْ سَلمَى؟ أمَضَتْ فمهجة نَفسِهِ أمْضَى
لا أبْتَغِي سقيا السّحابِ لهَا في مقلتِي عِوَضٌ عَنِ السّقيَا(2) .

يستهل الشاعر أولى اختياراته في هذين البيتين بحرف النداء « يا » دون غيرها من أدوات النداء الأخرى المتعارف عليها في الدرس النحوي ، وهو اختيار في غاية الدقة والوعي الشعري ، وذلك لما في أداة النداء المختارة « يا » من مدٍّ صوتي يستعين به لإيصال ندائه أرجاء الربع كله ، وهذا يتناسب ورحلة البحث عن سلمى ، كذلك اختيار هذا المد يتيح للشاعر جوا من الصراخ والتأوه والتنفيس عن ما يتلجلج في صدره الحزين .

وثاني اختيار نجده في لفظة « الربع » دون غيرها من مرادفاتها كالحي مثلا أو القبيلة أو المكان ، لكن الشاعر آثر هذه المفردة لما تحمله من معان تجد صداها في نفس دعبل ، فالربع لغة في الربيع ، والإنسان أكثر ما يحن إلى الأرض يكون في الربيع ، حيث هدوء الطبيعة الذي يعكس هدوء النفس الإنسانية ، فالشاعر في رحلة البحث عن سلمى يبحث ـ ابتداء ـ عن سلم نفسي ، ولن يتحقق هذا إلا بوجود سلمى الغائبة عن عينه ، الحاضرة في وجدانه .

ثم سؤاله « الربع » عن طريق سلمى ، دون سؤال الإنسان مثلا له الكثير من الدلالات ، أليست الأرض هي الشاهد الوحيد على أخبار الإنسان حيث ما حل وارتحل ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾»[3] ، فهو يريد خبرا يقينا عن طريقها لتقصي أثرها .

(1) يوسف أبو العدوس : الأسلوبية ، الرؤية والتطبيق ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، الطبعة الأولى ، الأولى ، 2007 ، ص 162 ـ 163 .
(2) ديوان دعبل بن علي الخزاعي ، دعبل الخزاعي ، ص 37/36 .
(3) سورة الزلزلة ، الآية ، 04 .

وفي اختيار الشاعر لكلمات فيها حرف السين له ما يبرره ، فهذا الحرف له سمة إيقاعية وأخرى دلالية؛ فهو صوت مهموس يناسب تصوير الأحاسيس الداخلية ، فقد ردده خمس مرات ابتداء من قوله « سلمى » ، ثم توالى التكرار في قوله : (نفسه ، سقيا ، السحاب ، السقيا) وكأن الشاعر مشدود إلى اسم سلمى المبدوء بالسين فهو يردده تلذذا به ، فالشاعر خلق من هذا التقابل بين اسمها سلمى؛ الحياة العطرة التي يصبو إليها دعبل من جهة ، ومن جهة أخرى السحاب والسقيا التي تمثل بدورها الخصوبة والنماء والحياة ، فهو يريد سلمى أن تكون رمز الاستقرار النفسي ، ويريد السحاب (المطر) أن يكون رمز الاستقرار المادي؛ ما يعني أنه يريد الحياة النفسية والحياة المادية المستقرتين معا ، أضف إلى ذلك أن اسم (سلمى) يحمل في طياته شحنات رؤيوية ، ودلالات سيميائية تحيل إلى معاني السلم والأمن والطمأنينة ، وهذا بدوره يكشف ملل الشاعر من حياة المطاردة ، والتشطر ، والفرار ، نتيجة ما وقع له من خلفاء بني العباس بسبب لسانه السليط .

وإن اختيار الشاعر للبحر الكامل ذي التفعيلات الصافية والطويلة اختيار واعٍ ، يبرر حجم المعاناة النفسية التي ألمت بالشاعر ، فحالة الشوق والحنين التي تعصر فؤاده ، وتدمي روحه المتعبة يستوعبها بحر الكامل ، وكأنه بحر يركب الشاعر قاربه عله يكون منجاةً من أحزانه وأتراحه ، فجاءت مهجة نفسه أمضى ، ومقلته عينه أسقى ، وبحر بيته أوْفى وأكمل .

إن مسألة اختيار المفردات في النظم الشعري هو اختيار واع ، وتفضيل لفظة على غيرها من البدائل المتاحة ، تعد إحدى السمات الأسلوبية في شعر الخزاعي ، وتكشف عن بصمات شخصيته المتخفية وراء الاستعمال اللغوي الواعي ، ثم لما في الاختيار من مفاجآت غير متوقعة تثير انتباه المتلقي .

يتصرف دعبل من خلال الأنموذج الشعري في تشكيل أسلوبه وفقا لما تمليه حالته النفسية وطبيعته الشخصية ، فهو يعمد إلى التصرف في أدائه اللغوي ، وينزاح به أحيانا عن المعتاد المألوف ، وربما لم يعبأ بترتيب مفرداته الشعرية وتوزيعها على النمطية المعهودة ، فيقدم المفعول مثلا على ركني الجملة ، وهو من الانحراف في التوزيع والترتيب فيقول : (فمهجةَ نَفْسِهِ أَمْضَى) ، وليس هذا التقديم للمفعول تقديما اعتباطيا ، وإنما هو إنزياح عن سنن التراكيب المألوفة في اللغة النفعية التواصلية .

وتقديم المفعول « مهجة » على فعله وفاعله « أمضى » يعد سمة أسلوبية ، وانحرافا عن النمط السائد في بنية الجملة؛ إذ تقديم المفعول هنا يوحي بمدى

الانصياع والتقهقر والانكسار النفسي الذي يعاني منه الشاعر ، وكأن « مهجة » دعبل المترعة بالأشجان والأحزان مفعولٌ بها لا تقوى على مواجهة النصال التي رُمي بها ، وهو يعكس الحالة الشعورية للذات المتعبة المنسحقة التي صارت في محل مفعول بها دائما .

ومن انحرافه أيضا تقديم الخبر شبه جملة (في مُقْلَتِي) عن المبتدأ (عِوَضٌ) ، وحقيقة هذا التقديم ، إنما لبيان حال مقلته التي ذرفت دموعا حرّى ، بل انبجست ماء منهمرا لفعل ما لقيت من عذابات الروح العاشقة التي تصبو للقيا سلمى ، وهذا التقديم في واقع الأمر يقتضي حاجته لتقديم رؤاه وأحاسيسه بالطريقة التي يراها أكثر تعبيرا وإيحاء من غيرها .

وأيضا انحرافه من خلال استخدامه ضمير الغيبة في البيت الأول (نفسه) ، ثم ينتقل إلى ضمير المتكلم في البيت الثاني (أبتغي) و(مقلتي) ، وسر انتقال الشاعر من ضمير الغائب إلى ضمير المتكلم أنه في البيت الأول لم يشأ أن يظهر بمظهر الضعيف المستكين ، لكنه في البيت الثاني أظهر نفسه قوية ، لأنه في مقام إظهار الأنا وإبرازها عاشقة والهة .

إن تصرف دعبل في أدواته الفنية وانحرافه عن النمط المألوف بحثا عن تراكيب غير مألوفة يعكس نفسيته غير العادية المضطربة المنفعلة ، وهذا التصرف في البناء الأسلوبي يعد عملية واعية تقوم على حسن اختيار الأدوات اللغوية وتوزيعها واستغلال ما فيها من شحنات تعبيرية وطاقات تصويرية .

واستهلال الشاعر البيتين بتكثيف أدوات الإنشاء الطلبي من خلال أسلوب النداء والاستفهامين المتوالين ، يشي بطلبٍ نفسي يجده في فؤاده ، وحنين ملح يحاصر ذات الشاعر ، فهو يخاطب (الربع) عن وجود سلمى بأداة نداء تنتهي بمد صوتي ، ثم يسأله عن مكانها ، وهل مضت وارتحلت ؟ وإلى أين ؟ ، وفي هذا السؤال ما ينم عن تجلٍ من تجلياته السائلة في ربطها بالعالم الافتراضي المتوقع حدوثه لمكان سلمى ، وفي مثل هذه الحال ، أيضا ، يعيش الشاعر حالة من الاستغراب والاستنكار بينه وبين الأشياء التي من حوله؛ فقد أفقدته أعز مخلوق في حياته ، وهي الخطوة الأولى لفحص تجربته بالتساؤل بغرض الوصول ، ولكن أَنَّى له ذلك واستكناه أسرار هذا التجلي محير ، والبحث عن خفاياه تنتابها الدهشة من فعل ما وقع ؛ أي جهل الشاعر بحقيقة مصير الحبيب؛ الأمر الذي دفعه إلى البحث عن معرفة حقيقة وجهة « سلمى » الغائبة / الحاضرة ، فما كان منه إلا أن تجاوز واقعه المعمول ليبحث عن واقع مأمول لتأكيد الذات ، وقد كان ذلك من أجل

وضع حد لحالته النفسية التي تسعى إلى بناء إطار مرجعي يبعث في داخله عالما مشرئبا ، تنبثق منه معالم التألق في احتضان صفات الود ، وفضائل الحب .

2. شعرية التقابل :

التقابل جوهر الوجود وحقيقته ، وعليه قيام الحياة وتنوعها ، وهو سمة أسلوبية تعبيرية يتعمدها الشاعر ، رغبة في إبراز عالمين متناظرين ، وفي البيتين الآتيين يبدو دعبل ناقدا متأملا واقع المجتمع العباسي الذي ألف رغيد العيش ، وركن إلى الراحة ، فقال [من البسيط] :

مَا أكثَرَ النّاسَ لا بَلْ مَا أقلهمْ الله يَعْلَم أنّي لَمْ أقُلْ فنَدَا
إنّي لأفتَح عَيْنِي حِينَ أفتَحهَا عَلى كثِيرٍ وَلكِن لا أرَى أحَدَا (1) .

يفاجئنا الشاعر في صدر البيت الأول بهذا الانفعال النفسي الذي تجسده صيغتا التعجب المتقابلتان المتضادتان (ما أكثر/ما أقل) ، ليوحي بمدى المفارقة الحاصلة من وجود الناس تارة ، وقلتهم تارة أخرى ، وبين إثبات الكثرة وإقرار القلة نفي وإضراب (لا/ بل) ، وكأنه تنبيه لذهن المتلقي أن الناس كإبل مائة ، لا تجد فيهم راحلة ، وهم كثيرون في الرخاء ، لكنهم في النائبات قليل ، وليعطي حكمَه الصدقَ وقولَه الحقَ ، وشّح بيته بشهادة رب العباد على أنه لم يقل كذبا أبدا .

وفي البيت الثاني يعمد الشاعر إلى تكثيف أدوات التوكيد (إني ، لام التوكيد ، التكرار) على أن هذه الغثائية الحاصلة من كثرة العدد وقلة النوع سمة عصر احتدم فيه الصراع الاجتماعي والسياسي؛ وقَلّ فيه الناصر والظهير ، وضعف فيه المعين والرِدء .

والشاعر يهندس البيتين على ثنائية متضادة؛ على (الكثرة والقلة) و(الفاعلية والخمول) و(الحركة والسكون) ، ليتجاوز الرؤية البصرية إلى الرؤيا الاجتماعية والنفسية والتأملية ، وليرسم لنا المشهد الاجتماعي العباسي ، ويحلل نفسية الإنسان الذي عاش في ظل الترف والدعة ، ومال إلى حياة اللهو والعبث ، وشط عن حياة القيم والمبادئ .

ودعبل من خلال البيتين يخط لنا الطريق الذي يسمو بالحياة البشرية نحو عالم أفضل ، نحو عالم يعيش فيه الإنسان مع أخيه الإنسان في تآزر وتعاطف ومواساة ، ويدفع بعضهم بعضا نحو صناعة الحضارة التي تتطلب إنسانا فاعلا ساعيا إلى التغيير والتجديد .

(1) دعبل بن الخزاعي : ديوان دعبل الخزاعي ، ص 71 .

ومن هنا ، تكون توقعات الشاعر متطابقة مع سنن تطور الحياة ، وما ينبغي أن يكون عليه الإنسان؛ لذا كان العالم المتعين في منظور الشاعر وسيلة لإنتاج عالم ممكن على نحو ما أكده أمبرطو إيكو (**Umberto Eco**) الذي اعتبره « ذلك العالم الذي نعرفه من خلال مجموعة من الصور عن العالم ، أو أوصاف حالة ما ، وهذه الصور هي عوامل إبستيمية يقصي بعضها بعضا ، ومجموع صور العالم المتعين يشكل موسوعة هذا العالم الكبرى والكاملة بالقوة »[1] ، لكن مع كل هذا هذا من يعين دعبل وقد حمل خشبةً يستصلب الناس ؟ ومن يصاحب شاعرا قد تمنى الرحيل قبل الرحيل؟ ومن يكون رديفه وقد ركب ظهر الهجاء ، وامتطى صهوة التشيع ، وظاهر العباسيين العداء والشنآن؟ ومن الخليل الذي تسيل مهجته على عتبات مبادئ دعبل وقيمه التي يؤمن بها؟

3. رؤيا الطلل الشيعي :

دعبل من الشعراء الذين وقفوا موقفا خاصا من قضية الطلل ، واعتبرها سمة فنية تليدة ، وهاجم شعراء عصره الذين بقوا مستمسكين بتلابيب تراثية فنية قديمة ، بل سخر منهم ، وراح يخط لنفسه طريقا جديدا متمثلا في الوقوف على الطلل الشيعي المقدس ، وراح يرسم المكان الطللي بكل دلالاته وتجلياته وقداسته ، تأمل ما جاء في تائيته المشهورة[من الطويل] :

مَدَارس آياتٍ خَلتْ مِن تَلاوةٍ ... وَمَنزِل وَحْيٍ مقفِر العَرَصَاتِ
لآل رَسول اللهِ بِالخيْفِ مِنْ مِنًى ... وبِالركنِ وَالتّعْرِيفِ وَالجَمَرَاتِ
دِيَار عَلَيٍّ والحسِين وجَعْفَر ... وَحَمْزَةَ والسّجَادِ ذِي الثّفِنَاتِ
قِفا نَسْأَل الدّارَ التي خَفّ أهْلهَا ... مَتَى عَهْدهَا بِالصّومِ وَالصّلواتِ
وَأَينَ الأُولَى شَطّتْ بِهِمْ غُرْبَةَ النوى ... فَانِينَ فِي الآفَاقِ مُفْتَرِقَاتِ
إِذَا ذَكَروا قَتْلَى بِبَدْرٍ وخَيْبَرٍ ... وَيَوْمَ حُنَينٍ أَسْيَلوَا العَبَرَاتِ[2] .

يفتتح الشاعر تائيته بتكثيف جملة من الأيقونات الطللية (خلت ، منزل وحي ، مقفر ، ديار ، قفا ، غربة النوى ، ذكروا ، أسبلوا العبرات) ، ليغدو مطلع النص تشكيلا طلليا بامتياز ، وهذا بفضل محاولة نبش الخطاب الطللي الجاهلي مستنطقا إياه عبر استدعاء مفردات طللية معهودة ، وهذا الاستحضار بدوره يسهم في إتاحة الفرصة للشاعر من أجل تأمل واسع لمعالم المكان المقدس ، من خلال

(1) رشيد الإدريسي : سيمياء التأويل (الحريري بين العبارة والإشارة) ، دار المدارس ، المغرب ، الدار البيضاء ، البيضاء ، الطبعة الأولى ، 2000 ، ص 72 .
(2) دعبل الخزاعي : ديوان دعبل الخزاعي ، ص 53/52 .

ذكره وتحسره على ما لحق العلويين من مظالم ومآتم ، لـ « تستقر في نفسه رؤى قلقة ومضطربة ، وتغوص هذه الرؤى في أعماق ذاته ، ويقف وقفة قصيرة تملأ نفسه حزنا وشجنا على ما مضى وعلى من فارق » وهو بهذه الوقفة ، إنما يؤسس لمفهوم قداسة المكان والزمان والإنسان؛ لأن « في مجال المقدس يغدو البشر والأشياء والأفعال والأمكنة والأزمنة على صلة بالقداسة »[1] .

لم يكن حضور الطلل في بناء النص الشعري الدعبلي ، ليعيد ما هو تقليدي تراثي كما عهدناه؛ بكاءٌ على الدمن والحجر ، وإنما كان وقفة تساؤلية ، ضمن رؤيا استشرافية (قفا نسأل) من أجل الكشف والاستبصار ، بغية الوصول إلى المأمول ، هي وقفة على أطلال الروح المتشيعة المتعبة والحزينة ، على أطلال الحياة والقيم الدينية التي ملأت قلبه ، وملكت عليه وجدانه ، كيف لا والشاعر يصور حالة الحزن والشجن عبر استدعاء شخصيات دينية ممثلة ابتداء بشخص النبي ε ، ثم يتوالى ذكر الشخصيات الدينية الأخرى التي لها ارتباط بالمخيال الشيعي ، كذلك يحاول الشاعر حشد الأمكنة التي لها صلة بالقداسة ، فقد ذكر (مدارس آيات) ليتحسر على العلم والذكر اللذَيْن ضاع أثرُهما في هذا العصر ، وذكر الخيف ، ومنى ، والركن ، والتعريف ، والجَمرات ، والصوم ، والصلوات ، ليتحسر على العبادة التي قلَّ مريدوها ، ونقص إيمانهم بها ، وذكر بدر وخيبر وحنين ، وهو حَنِينٌ إلى المواجهة والقوة والصراع مع غاصبي السلطة من كف الشيعة ، وهكذا فالشاعر يتحسر على أيقونات ثلاث؛ العلم والإيمان والقوة ، وكأنه يؤسس لمفهوم النهوض الحضاري والثقافي الذي لا يقوم إلا باجتماع هذا الثالوث .

4 . بلاغة الجناس/ استجلاء الرؤيا :

الجناس أحد الفنون البديعية التي يلجأ إلى المبدع من أجل تحقيق شيء من الإيقاع الداخلي في النص الإبداعي ، والتناغم النفسي مع استكشاف الأمر واستبصار حقيقته ، وذلك من خلال شبكة من العلاقات الصوتية التي بدورها تعطي بعدا موسيقيا مؤثرا في المتلقي ، وهو يمثل ثنائية لفظية تتوافق في البنية الصوتية ، وتختلف في البنية الدلالية؛ فهو جمال لفظي مرتبط ارتباطا وثيقا بالمعنى؛ إذ لا بد في الجناس أن « يقوم على مفارقة بين وجهي العلامة اللغوية ، إذ الأصل فيها أن يطابق وجهها الحسي(الدال) مدلوله ، ولكن الجناس يشوش

(1) أحمد الجوّة : مشاكلة القصيدة لنصوص العقيدة ، أعمال مهرجان الشعر العربي الحديث بتوزر ، منشورات إتحاد الكتاب التونسيين ، الطبعة الأولى 2005 . ص 151 .

ذلك التطابق ، فيفتق تلك اللحمة ويخيل بوحدة صوتية بين ألفاظ متباعدة في الخطاب ، ولكنها تخفي اختلافا في الدلالة ، فتكون للمتقبل لذتان؛ الأولى صوتية موسيقية يحدثها التناغم الذي يوجده الجناس؛ والثانية دلالية؛ إذ يبحث عن المعنى المخفي وراء تشابك صوتي صيغي»[1] ، كما هو ماثل في هذه الأبيات من تائيته تائيته الخالدة [من الطويل] :

تَجَـاوَبْنَ بِالإِرْنَـانِ والزّفـراتِ نَـوَائِح عجْـم اللفـظِ وَالنّطقـاتِ
يَخبِّرنَ بِالأَنْفَاسِ عَـنْ سِرِّ أَنْفـسٍ أَسَـارَى هَـوَىً مـاضٍ وَآخَـرَ آتِ
فأَسْعَدْنَ أَوْ أَسْعَفنَ حَتّى تَقـوْضَتْ صفوف الدّجَى بِالفجْرِ منْهَزِمَاتِ[2] .

الأبيات مقتطفة من قصيدته التائية العصماء ، وهي أروع ما قاله الشاعر دعبل الخزاعي في آل البيت وما أصابهم من كوراث وحوادث ، وألمّ بهم من رزايا وأحزان ، جراء ما يعتبرونه ظلما وحيفا مارسه عليهم العباسيون .

وفي الأبيات سرد متواصل مؤلم ، يبكي آل البيت ، ويصف تفجع النساء عليهم ، ونواحهم على من قضى من شهدائهم ، حتى غدا عويلهم أصواتا غير مفهومة ، يختلط فيها البكاء بالنواح ، وهذا لعظم الخطب وجلال الرزء الذي داهمهم ، وفي بكاء النسوة وأنفاس الزفرات المتصاعدة ، عاطفةٌ متوهجةٌ تحكي الحب والهوى المتأصل في ذات المريد المتشيع ، فهم يبكون ماضيهم وحاضرهم المترع بالدموع والدماء ، وفي بكائهم إسعاد لأنفسهم ، وإسعاف لمصاب الآخرين ، وبهما يشقون طرائق الدجى نحو فجر جديد واعد .

والملفتُ في صنعة الأبيات بديعيا ، تأثيثُها بشذرات الجناس بين الأزواج التالية : (الأنفاس ، وأنفس) وبين (أَسْعَدْنَ ، أَسْعَفنَ) ، ولنبدأ مع الزوج الأول :

والملفتُ في صنعة الأبيات بديعيا ، تأثيثُها بشذرات الجناس بين الأزواج التالية : (الأنفاس ، وأنفس) وبين (أَسْعَدْنَ ، أَسْعَفنَ) ، ولنبدأ مع الزوج الأول :

(1) الأزهر الزناد : دروس في البلاغة العربية ، نحو رؤية جديدة ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، 1992 ، ص 156 .
(2) دعبل الخزاعي : ديوان دعبل بن علي الخزاعي ، ص 50 .

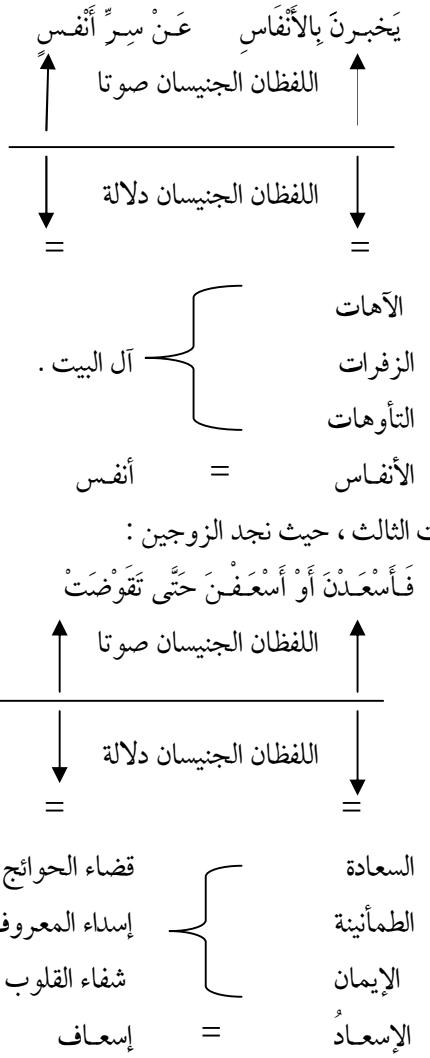

والأمر كذلك في البيت الثالث ، حيث نجد الزوجين :

فتجانست لفظة (الأنفاس) في بداية الصدر مع لفظة (أنفس) في نهاية الصدر ، تجانسا في المادة الصوتية المكونة لهما ، ليصبح الطرف الثاني(الأنفس) « صدى للطرف الأول يذكر به ، بأن يعيده فيثير أثره مجددا في الذاكرة »[1] الجمعية للمعتقد الشيعي ، ليصبح البكاء قرين التشيع ، وكأن الأنفاس والأنفس شيء واحد « يعود القديم في الجديد منه على الرغم من تقدم الكلام خطيا ، فكل فضاء فاصل بين طرفي كل زوج من الألفاظ المتجانسة يمثل حلقة ذات طرفين

(1) الأزهر الزناد : دروس في البلاغة العربية ، نحو رؤية جديدة ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، 1992 ، ص 154 .

أول وثان ، ولكل واحد منهما علاقة بسابقه ، من حيث هو صدى له يردده ، وعلاقة أخرى بلاحقه من حيث هو أصل له يتواصل فيه بترددده فيه »[1] ، فيوهمنا فيوهمنا الجناس بالاتفاق صوتا فقط ، لكنه في الحقيقة يخفي تراكمات دلالية متشاكلة بين كل لفظين جنيسين .

وتجانس الفعل (أسعدن) مع الفعل المجاور له خطيا (أسعفن) يخلق مسارين متواكبين ، أحدهما إيقاعي والآخر دلالي ، يعبران عن رؤية شيعية تجعل من البكاء والعبرات المهراقة شفاء للقلوب ، وإسعادا للنفوس ، وإسعافا للأرواح التي اغترفت من معين الفواجع والمواجع ، وتماهت بحب آل بيت المصطفى ρ؛ وليصبح هذا البكاء عربون الوفاء ، وضريبة الإخلاص ، بل نشيدهم العذب الصادح بعواطف الحب الروحي ، المتشبث بتلابيب الأتقياء الأصفياء من حماة البيت العلوي .

فالجناس جسد مظاهر لغوية صوتية تناغمت إلى حد كبير مع رؤية الشاعر للحياة العباسية ، بل كان الجناس جسرا يعبر منه دعبل إلى عالم الرؤية ، ليعبر عن تجربة شيعية ، ويصدح بروح الحياة العباسية التي كانت تزخر بالتأنق والتألق في ألوان الحياة كلها ، فكان الجناس في شعر الخزاعي أحد مظاهر هذا التميز ، فضلا عن أنه يتوافق مع طبيعة الشاعر الشيعي ، لما فيه من تناقض ومخالفة يعيشها دعبل مظهرا ومخبرا .

5. الرؤية الساخرة :

الصورة وسيلة الشاعر لنقل الأفكار ، والأحاسيس ، والعواطف ، وكل ما يحيط بتجارب الواقع ، وهي معيار الإبداع ، ودليل النبوغ ، بها نعرف مدارج الشعراء في معراج الشعرية ، وهي في العصر العباسي آية التفاوت ، وسمة التفوق الفني ، وبخاصة إذ كانت الصور جديدة مستحدثة ومستوحاة من واقع الحضارة المختلفة ألوانها السياسية والاجتماعية والمذهبية ، ولعل موقع دعبل في هذه الخارطة ، موقع مكين ، فقد أضاف إلى التصوير لمسات جديدة ، وبصمات إبداعية مفعمة بطاقات إيحائية ، حتى لتغدو الصورة عنده نابضة بالحركة والحياة ، أو كأنها شريط سينمائي ماثل أمامك بكل تفاصيله المرئية والمسموعة ، على نحو ما تمثله هذه الصورة الساخرة الفكهة الكاريكاتورية التي رسمها الشاعر لجارية مغنية تدعى برهان[من السريع] :

برهـــانَ لا تطـــرِبْ جلاسَهَـــا حَتّـــى تريْـــكَ الصَّـــدرَ مَكشـــوفا

(1) المرجع نفسه ، ص 154 ـ 155 .

شَـــبّهْتهَا لـــــمّا تَغَنّـــتْ لهـــــمْ بنَعْجَـــةٍ قـــدْ مَضَـــغَتْ صوْفـــا[1] .

يجعل الشاعر هذه الجارية بطلة لصورته الهزلية الساخرة ، والتي تصور ظاهرة اجتماعية وثقافية شاعت في العصر العباسي ، خلاصتها أن هذه القينة التي تدعى (برهان) تعتمد في جلب مستمعيها على حركاتها الجسمية القائمة على الإثارة والإغراء ، وليست تعتمد على موهبتها الإبداعية الغنائية ، ويجلو هذه الصورة ويقربها إلى الأذهان بعض الآليات الأسلوبية التي اتكأ عليها الشاعر؛ منها تقديم المسند إليه (برهان) على المسند(لا تطرب) بغرض بيان بطل الصورة ، ثم يأتي أسلوب القصر ممثلا في (لا ، حتى) ليقصر الصفة على الموصوف ويحصره للدلالة على أن طرب الجلاّس لا من غناء برهان ، بل هو من تغنجها وتكسرها ، ثم تأمل الصيغة الصرفية لكلمة(جلاّس) وهي على وزن (فعّال) وهذا لبيان كثرة مرتادي النوادي والحانات ، وهو مظهر اجتماعي عباسي بامتياز ، وكذلك يأتي أسلوب الحال في الشطر الثاني للبيت الأول(مكشوفا) لبيان أذواق هؤلاء الجلاس والرواد لحانات الغناء واللهو ، وقد انحرف عن هدفه الأسمى ، وحادَ عن قصده الإبداعي ، الذي هو الاستمتاع بالفن الراقي الذي يطرب السمع والنفس إلى طلب الإغراء والإثارة .

وفي البيت الثاني يشبه الشاعر (برهان) حين تغني بنعجة تمضغ الصوف ، فيختار لذلك فعلا مضارعا دالا على الاستمرار(تغنّت) ليدل على مزاولتها الغناء ، وفي صيغة الفعل(تفعلت) تكلف وتصنع ، فهي ليست صاحبة موهبة وملكة ، وإنما هي صاحبة صنعة وتكلف ، وإذا كانت النعجة لا تقدر على مضغ صوفها ، فإنّ (برهان) غير قادرة على هضم فنها ، ومعرفة أبجدياته وأصوله .

إنها صورة ساخرة تبرز دعبلا مصورا ماهرا ، وقادرا على رسم لوحته ، نافخا فيها الروح والحركة ، وجاعلا منها نافذة نطل من خلالها على ظواهر اجتماعية وثقافية في عصره .

فالصور الفنية عند دعبل وسيلة لإيضاح المعنى فحسب ، بل تتجاوز ذلك إلى اعتبارها وسيلة من وسائل الرؤية؛ لذا كانت الصور في ديوان الخزاعي منسجمة إلى حد بعيد مع المضامين السياسية والتأملية والعبثية التي قدمها في رؤاه ، إضافة إلى اعتماده على الصور الحية الكاريكاتورية من خلال توظيفه التجسيد والتجسيم والتشخيص ، لاسيما في غرض الهجاء الذي استعمله دعبل سيفا على رقاب الخلفاء العباسيين .

(1) دعبل الخزاعي : ديوان دعبل الخزاعي ، ص 101 .

إنّ التصور الشعري عند دعبل يأخذ في أحايين كثيرة طابع «الرفض» ليعبر عن رغبته في التحول إلى ما هو أسمى وأرقى ، وذلك بخلق عالم افتراضي يحفزه على التجاوز ، واختراق المعمول من الوضع البائد في نظره ، وهذا من خلال استثمار الواقع العباسي كقناع يتم فيه الكشف عن صور القمع التي سلبت حق آل البيت ، لذا كانت شعرية دعبل تصب في مضمار دفاعه عن توجهه الثقافي ، والتنويه بعقيدته في الولاء لأهل البيت ، ومن ثمَّ فإن سمات شعريته الفكرية تكمن في هذه العقيدة المقدسة بنظرتها الملتزمة في دعم نظرية التشيع .

مصادر البحث ومراجعه :

القرآن الكريم ، برواية ورش عن نافع .

1ـ ابن رشيق القيرواني : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، ج 2 ، ت : محمد محي الدين عبد الحميد . دار الجيل ، الطبعة الخامسة .

2 ـ ابن منظور : لسان العرب ، تحقيق : عبد الله على الكبير ، ومحمد أحمد حسب الله ، هاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف ، 1979م .

3 ـ أحمد الطريسي : النص الشعري ، بين الرؤية البيانية والرؤيا الإشارية ، دراسة نظرية وتطبيقية ، الدار المصرية السعودية ، القاهرة ، 2004 .

4 ـ أدونيس علي أحمد سعيد : كلام البدايات ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1989 .

5 ـ الأزهر الزناد : دروس في البلاغة العربية ، نحو رؤية جديدة ، المركز الثقافي العربي ، الطبعة الأولى ، 1992 ، ص : 156 .

6 ـ بيار جيرو : الأسلوبية ، ترجمة منذر عياشي ، مركز الإنماء الحضاري ، الطبعة الثانية ، 1994 .

7 ـ جان كوهن : بنية اللغة الشعرية ، ترجمة : محمد الوالي ومحمد العمري ، توبقال دار للنشر ، الدار البيضاء ، المغرب ، الطبعة الأولى ، 1986 .

8 ـ دعبل بن علي الخزاعي : ديوان دعبل بن علي الخزاعي ، جمع وتحقيق ، د إبراهيم الأميوني دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1998 .

9 ـ رشيد الإدريسي : سيمياء التأويل (الحريري بين العبارة والإشارة) ، دار المدارس ، المغرب ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، 2000 .

10 ـ سعيد علوش : معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ، 1985 .

11 ـ شكري محمد عياد : الرؤيا المقيدة ، دراسات في التفسير الحضاري للأدب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1978 .

12 ـ عبد الرحمن بن خلدون : مقدمة ابن خلدون ، دار الجيل ، بيروت ، لبنان ، د ط . د . ت .

13 ـ عبد القادر فيدوح : الرؤيا والتأويل ، مدخل لقراءة القصيدة الجزائرية المعاصرة ، ، ديوان المطبوعات الجامعية ، المطبعة الجهوية بوهران ، الطبعة الأولى ، 1994 .

14 ـ عبد المحسن طه بدر : الرؤية والأداة ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة .

15 ـ فيلي ساند يرس : نحو نظرية أسلوبية لسانية ، ترجمة خالد محمود جمعة ، دار الفكر ، سوريا ، الطبعة الأولى ، 2003 .

16 ـ معمر حجيج : استراتيجية الدرس الأسلوبي بين التأصيل والتنظير والتطبيق ، دار الهدى ، الجزائر ، 2007 .

17 ـ محمد زكي العشماوي : موقف الشعر من الفن والحياة في العصر العباسي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، 1981 .

18 ـ يوسف أبو العدوس : الأسلوبية ، الرؤية والتطبيق ، دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، الطبعة الأولى ، 2007 .

الدوريات العربية :

ـ أحمد الجوّة : مشاكلة القصيدة لنصوص العقيدة ، أعمال مهرجان الشعر العربي الحديث بتوزر ، منشورات إتحاد الكتاب التونسيين ، الطبعة الأولى ، 2005 .

الروابط الالكترونية :

ـ أحمد زكي كنون : غنى الرؤية والرؤيا في شعر محمد السرغيني ، العدد الخامس والعشرون ، مجلة نزوى : www . nizwa . com

المراجع الأجنبية :

ـ Princetion Encyclopedia Of poetry and poetics . Princeton University . Press . 1974

جماليات اشتغال التناص الديني في شعر الشهداء الجزائري

ديوان الشهيد الربيع بوشامة أنموذجا

د . عبد اللطيف حني*

ملخص :

تفاعل الكثير من المبدعين مع أحداث الثورة التحريرية الجزائرية ، فراحوا يصفون معاركها ويتغنون بانتصارات المجاهدين فيها ، ويدونون للأجيال اللاحقة تاريخا مشرفا ، ومنهم من عاش وذاق لذة الاستقلال ومنهم من نال شرف الشهادة ، وعليه تتنزل هذه الدراسة لتسلط الضوء على شعر الشهداء وتكشف عن جماليات اشتغال التناص الديني وتشخص أدواته وآلياته متخذة من ديوان الشهيد الربيع بوشامة أنموذجا .

أولا : بسط منهجي :

وظف الشعراء الشهداء الجزائريون العديد من التقنيات للتعبير عن أحاسيسهم ورؤيتهم ومواقفهم تجاه الثورة التحريرية ، ومن هذه التقنيات الفنية لغة شعرية موحية ، وصور فنية مشخصة ، وتناص وإيقاعات موسيقية معبرة ، ومفارقات تصويرية تبرز ما يتمتعون به من شعرية وجمالية في التعبير .

كما اهتمت القصيدة الثورية الجزائرية بتوظيف تقنية التناص باعتباره أكثر الوسائل الفنية نجاعة في التواصل مع القارئ والتقرب من أفكاره والتأثير فيه بطريقة غير مباشرة وجعله ينفد إلى الخطاب الشعري ، فتقنية التناص نجد لها حضورا قويا في النص الشعري الثوري الجزائري « بما تمتلكه من إمكانات فاعلة في توسيع فضاءات المعنى في النص الشعري إلى الحد الذي يجعله مفتوحًا على التأويل ، فضلا عن دوره في تعزيز تجربة الشاعر ، وتوثيق دلالة محددة أو نفيها أو توكيد موقف وترسيخ معنى ، وبالإجمال إنتاج دلالة مؤازرة للنص في حالتي قبوله ورفضه بالتضمين الصريح أو بالتلميح »[1] .

---

* معهد الآداب واللغات ، المركز الجامعي بالطارف .

(1) رجاء عيد ، القول الشعر ـ منظورات معاصرة ـ ، منشأة دار المعارف ، الإسكندرية ، ط1 ، 1997 ، ص23 .

ثانيا : التناص المفهوم والوظيفة :

التناص مصطلح حديث ظهرت بذوره الأولى في منتصف الستينيات من القرن الماضي ، حين وظفته الناقدة اللسانية جوليا كريستيفا ، ووضعت تعريفا له : « بأنه أحد مميّزات النصّ الأساسية ، والتي تحيل على نصوص أخرى سابقة عنها أو معاصرة لها[1] وبذلك يكون التناص تداخل النصوص وتفاعلها مع خواص وأدوات نصوص أخرى قرئت واستقرت في ذاكرة المتلقي ، فالنص الأدبي كما هو معلوم يتفاعل مع غيره من النصوص الأدبية سواء بالتأثير أو التأثر ، والنص الجديد ما هو إلا نتيجة استخلاص نصوص قديمة وسابقة له ، فالمبدع يشكل تجربته الأدبية من خلال اطلاعه على نصوص سابقة ، وبذلك يستفيد من تناصات سابقة سواء عمدا أو مصادفة .

وعلى هذا الأساس فالتناص هو « حدوث علاقة تفاعلية بين نص سابق ونص حاضر؛ لإنتاج نص لاحق »[2] والنصوص تبنى وفق نصوص أخرى ، لأنَّ : « كل نص يتوالد؛ يتعالق ، ويتداخل ، وينبثق من هيولى النصوص في مجاهيل ذاكرة المبدع الإسفنجية ، التي تمتصّ النصوصَ بانتظام ، وبثّها بعملية انتقائية خبيرة ، فتشتغل هذه النصوص المستحضرة من الذاكرة داخل النصّ ، لتشكل وحدات متعالية في بنية النصّ الكبرى »[3] ومن هنا فالنصّ المتناصّ هو النصّ الذي يقبل التماهي مع نصوص أخرى قديمة أو معاصرة ، لأنَّه أشبه بلوح من زجاج ، يوحي بنصّ آخر أو يلوح من خلفه نصّ آخر . ونستدل من هذه الرؤية أن التناص « أمر قائم ومشروع لا مناص منه ، بحيث لا يمكن تصور نص بريء ينشئه مبدعه من درجة الصفر ، إذ إنه لا فكاك للإنسان من شروطه الزمانية والمكانية ومحتوياتهما »[4] .

وانطلاقا من هذه التعاريف فالنص المتناص يتقاطع مع العديد من النصوص السابقة ، وخطابه منفتح على كل الخطابات نص يتوالد وفق رؤية صاحبه يستفيد من أصداء الكتابات السابقة أو المعاصرة له ، ويكون هذا النص عبارة عن تراكم

(1) علوش سعيد ، معجم المصطلحات الأسلوبية المعاصرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1985 ، ص 215

(2) عبد الملك مرتاض ، فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص ، مجلة علامات ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، 1991 ، ج1 ، ص 75 .

(3) الطّعان صبحي ، بنية النص الكبرى ، عالم الفكر : مجلد : 23 ، عدد 2 » 1 يوليو ـ سبتمبر وأكتوبر ـ ديسمبر ، 1994 ، ص 446 .

(4) محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري ـ إستراتيجية التناص ـ ، دار العودة ، بيروت ، ط1 ، 1977 ، ص123 .

من النصوص تتحاشد وتتزاحم لتكون نصا جديدا برؤية جديدة مستفيدا من معطيات الماضي وأبعاد الحاضر وأفق المستقبل ، والنص في رأي رولان بارت إن لم يلامس الأبعاد الثلاثة « الماضي ، الحاضر ، المستقبل » فهو نص ميت لا تسري في عروقه الحياة ، حيث يقول : « إنّه نصّ بلا ظلّ ، لأنَّ النصّ الحقيقيّ في حاجة إلى ظلّه بشكل لازم »[1] ، أي هو محتاج لخصوصيته وأسباب بقائه ومدى مساهمته بذلك في بناء نصوص أخرى ، وعليه فغن رجاء عيد يرى أن النص المتناص يتميز بميزة « أَنَّهُ يتيح ــ بفاعلية القراءة ـ تزامن البنيات مهما اختلفت مساقاتها الزمنية ، وذلك من خلال التواليات والدَّالات ، التي تنفتح على تاريخية زمنية ومزمّنة أيضاً . وكأنها ـ بذلك ـ اختزال لخطاطة التشكل الأدائي ، ممّا يتيح فضاءات تأويلية ، وكأن الملفوظات المتعدّدة في خطابات نصوص أخرى . تتحوّل في النصّ المتناصّ إلى ملفوظ ، يجمع الكلّ في واحد »[2] .

والجدير بالذكر أن التناص يمنح القصيدة طاقة إيحائية ودلالية مؤثرة ويشد من أزرها من حيث المعاني والأفكار فإنها تكتسب صفة الأصالة والعمق والبعد عن السطحية التي قد تشوش على القارئ ، كما يمنح التناص النص الشعري عمرا أطول، ففيها تحيا العديد من النصوص ، وبذلك يشكل بنية من التداخل الزمني والفكري الممتع ، وعليه « فإن إنتاج التناصّات لا يتمّ إلا من خلال تقاطعها مع الذات ، التي يعاد عبر سيرورتها ، إعادة إنتاج هذه التناصّات ، وإعطاؤها دلالات جديدة ، نابعة من الوضع السوسيو/ ثقافي لمؤلّف النصّ »[3] .

ولكشف بنية التناص يجب على القارئ أن يتسلح بالمعرفة الأدبية ويعي جيدا قيمة هذه التقنية وكيفية عمل ماكيناتها ، وهذا ما يؤكده ريفاتير حيث قول : « أن يعي بأن النص [الشعريّ] يحيل دوماً إلى شئ قيل بطريقة أخرى في موضع آخر ، أي هي التجربة المستمرة للفّ لفظّي »[4] ، فالنص هو نتيجة تلاقح النصوص وتوالدها في عالم الإبداع ، والنص المنتج ما هو إلا امتداد شرعي لإنتاج أدبي سابق يصاغ وفق رؤية وتوجه مبدعه ، وهذا ما يضيفه ريفاتير حيث يقول : « ليست القصيدة موضوع قراءات تقدّمية واسترجاعية لنصّها فحسب ، بل هي

(1) رولان بارت ، لذة النص ، ترجمة : فؤاد صفا ، والحسين سجان ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، 1988 ، ص37 .
(2) رجاء عيد ، القول الشعري ، ص 227 .
(3) حسن محمد حماد ، تداخل النصوص في الرواية العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1997 ، ص 39 .
(4) مايكل ريفاتير ، سيميوطيقيا الشعر ، ترجمة : محمد معتصم ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، المغرب ، ط1 ، د ت ، ص 229 .

أيضاً نسق قادر على إرجاع قابل للتوسيع ، ولكنّه يظلّ إرجاعاً إلى كلمات يراقبه التناصّ »[1] .

وهكذا يشكل التناص نقطة تواصل وتفاعل بين النصوص الشعرية ، ويربطه بماضيه ، ويؤكد على انتمائه الحضاري وهذا ما يمنحه التواصل المثمر مع المتلقين وهذا ما يذهب إليه الدكتور عبد الله الغذامي بقوله : « وعلى ذلك فإن النصّ يقوم كرابطة ثقافية ، ينبثق من كلّ النصوص ، ويتضمّن ، مالا يحصى من النصوص ، والعلاقة بينه وبين القارئ هي علاقة وجود لأنَّ تفسير القارئ للنصّ هو ما يمنح النصّ خاصيته الفنّيّة »[2] .

ولا يقتصر التناص على المضمون بل يتعدى إلى النواحي التركيبية للنص « لغة وصورة وموسيقى » وهذا ما سماه ريفاتير بالتناص الضمني ، حيث يقول فيه : « التناصّ الضمنيّ يتأثّر كثيراً بمرور الزمن ، وبالتغيّر الثقافي ، أو بعد اطلاع القارئ على المجموعة الكاملة من كتابات النخبة ، التي تربّى عليها جيلٌ شعريّ خاص . لكن سيطرة النصّ على القارئ لا تتقلصّ حتّى عندما يكون المتناصّ معه قد طُمِسَ »[3] ، ويركز ريفاتير على ثقافة القارئ وخبرته في كشف ما رواء النص من نصوص غائبة ، ويساعده في استحضارها النص المتناص بواسطة مجموعة من الإيحاءات المختلفة ، وبذلك يكون التناص « فالتناص حضورٌ نستشفّه بواسطة خبرة عميقة بالنصوص الأدبية ، وهذا الحضور النصيّ يحتاج إلى فراسة تتبّع وإلى بصيرة وتبصّر فقد تندمج البنيات المتناصّة في بنية النصّ كإحدى مكوناته ، ولا يدركها سوى القارئ المنفتح في قراءاته على نصوص متعددة »[4] .

ثالثا : أهمية التراكيب القرآنية ودورها في إنتاج الدلالة :

يساهم التناص الديني في بناء قصائد الربيع بوشامة[5] ، بشكل خاص نظرا لثقافته الدينية وحفظه للقرآن الكريم ، مما كثف حضور النصوص القرآنية وساهم في تشكيل نصوص بوشامة بشكل عام والثوري منها بخاصة ، ويساعدنا التناص

(1) نفسه ، ص 228 .
(2) عبد الله الغذامي ، الخطيئة والتكفير "من البنيوية على التشريحية" ، النادي الأدبي الثقافي ، ط1 ، 1985 ، ص 57 .
(3) مايكل ريفاتير ، سيميوطيقيا الشعر ، ص 227 .
(4) رجاء عيد ، القول الشعري ، ص 232 .
(5) الشهيد الربيع بوشامة من مواليد ديسمبر 1916م ببلدية قنزات ببني يعلى دائرة بوقاعة ولاية سطيف ، نشأ في أسرة جزائرية محافظة ، حفظ القرآن وأخذ علوم العربية والفرنسية ، انتسب لجمعية العلماء الجزائريين ، عرف بنشاطه السياسي ، ألقي عليه القبض وعذب وأعدم في 14 ماي 1959م ، ترك ديوانا شعريا ضمنه مواقفه وتجاربه .

في الكشف عن البنية الفنية لقصائده ، وذلك بإماطة اللثام عن النصوص الدينية الغائبة واستجلاء العلاقات التي تربطها بالنص الشعري الثوري الجزائري ، الذي يعتمد على التعالق مع النص القرآني لطبيعة المتلقي الذي يعتمد على الخلفية المقدسة في تلقي النصوص الأدبية ، وبذلك تتكون علاقة حميمة بواسطة التناص بين المتلقي والخطاب الثوري ، ويستطيع الأول ـ أي المتلقي ـ بطريقة آلية استحضار النص الغائب من خلال بعض التلميحات والإشارات عن طريق المفردات والتراكيب والتعابير ، وعليه سنحاول معاينة التناص الديني وملامحه وأشكاله في ديوان الشهيد الربيع بوشامة ، ومحاولة التطلع للخلفية الثقافية في إضفاء دلالات واسعة على نصوصه الشعرية الشعبية .

ولعل حضور الخطاب القرآني في نصوص الشاعر الشهيد بوشامة أكثر الظواهر بروزا ، حيث تتراوح أصداؤه بين أرجاء ديوانه ، فقد حاول الشاعر الشهيد بطريقة لا شعورية امتصاص الخطاب القرآني لإيصال خطابه وتبطينه بالمعاني والدلالات ، مما يعكس نجاحه في توظيفه بما يتلاءم وسياق مواقفه ، وساهم بطريقة فعالة في شحن القصيدة الثورية بكثير من التقديس والرؤى والآفاق الممتدة على صعيد المعاني والدلالات الشعرية ، ومكنت بوشامة من إيصال أفكاره ومشاعره مجسدة مصورة مشخصة للقارئ ، كما عمل الخطاب القرآني كنص غائب له بصماته الواضحة على نصوص الشاعر والتأثير في المتلقي وجلبه وسجنه في متن النص .

والجدير بالذكر أن الخطاب الديني كان حاضرا في أغلب نصوص شعر الشهداء ، ومثل القرآن بتعابيره ومفرداته وتراكيبه المعين الصافي والمنهل الكافي للشعراء الجزائريين للتعبير عن مختلف قضاياهم ، وهوأمر نرصده كثيرا في الشعر المعاصر عموما ، وهذا ما ذهب إليه الدكتور علي عشري زايد في قوله : « وإذا كان الكتاب المقدّس هو المصدر الأساسيّ الذي استمد منه الأدباء الأوربيون شخصياتهم ونماذجهم فإن عدداً كبيراً منهم قد تأثر ببعض المصادر الإسلامية ، وفي مقدمتها القرآن الكريم ، حيث استمدوا من هذه المصادر الإسلامية الكثير من الموضوعات والشخصيات التي كانت محوراً لأعمال أدبية عظيمة »[1] ، ويعلل سبب الحضور المكثف للنص الديني في الخطاب الشعري بقوله : « ليس غريباً أيضاً أن يكون الموروث الدينيّ مصدراً أساسياً من المصادر ، التي عكف عليها

(1) علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربيّ المعاصر ، دار الفكر العربيّ ، بيروت ، 1997 ، ص75 .

شعراؤنا ، واستمدوا منها شخصيات تراثية ، عبروا من خلالها عن بعض جوانب من تجاربهم الخاصة »[1] .

إن التناص مع القرآن الكريم يمنح النص الشعري نفسا طويلا وخلودا وبقاء في ذاكرة الناس ، حيث لا يبارح أفكارهم ، وتبرز هذه المعاني القرآنية كلما كان الكلام مرتبطا بها ، للتدليل والاستشهاد ناهيك عن المتعة الأدبية والفكرية التي يتركها في نفس المتلقي ، فهي لا تنقضي ولا تمحي أبدا من شعوره وهذا لارتباط النص بالمقدس والمحترم وهو القرآن ، كما لا يمكننا إغفال ما يمنحه التناص الديني للشعر من دعم مباشر وقوي للشاعرية في الكلمات والتراكيب « فالكلمة الشعرية ليست مجرد صوت له دلالة ، وإنما هي وجود وحضور وكيان وجسم »[2] .

وهذا ما سعى إليه الشاعر الشهيد الربيع بوشامة في الإشادة بالثورة التحريرية وإنجازاتها في سبيل تحرير الجزائر من الاستدمار ، فوصف معاركها الضارية ، وشخص بسالة وشجاعة المجاهدين في الإقدام إلى مواجهة الأعداء ، وتغنى بقوافل الشهداء الطيبة العطرة ، وشجع الشعب الجزائري على الالتفاف على الوحدة والتمسك بعرى الدين المتين لتحقيق النصر ونيل العزة والكرامة التي تؤخذ ولا تعطى ، وفي هذه الموضوعات وغيرها كان الشاعر بمثابة المؤرخ الذي يحصي ويسجل كل حادثة صورة وصوتا ، لذلك اهتم بالبناء الفني لقصائده الثورية وبطنها بالتعابير والأساليب المؤثرة القوية ، مستخدما آلية التناص مع القرآن الكريم للارتقاء بالمتلقي وتقريب الأفكار إليه ، والعناية بالأبعاد اللغوية والفكرية للنص من خلال استثمار جماليات التراكيب القرآنية .

رابعا : مظاهر التناص القرآني في شعر الربيع بوشامة :

لكشف النصوص القرآنية الغائبة في خطاب بوشامة ننتهج التأويل الذي لا يهتم كثيرا بظاهر النص الحاضر ، إنما يعتمد على إشاراته وإيماءاته التي يلقيها لكي تساعدنا للوصول إلى النصوص الغائبة التي تتوارى وراء النص الحاضر ، والتأويل هو الطريقة المثلى لكشف ما يريد الشاعر قوله من خلال هذا النص ، وحتى نزيح الستار عن التناص الموجود مع أيّ القرآن الكريم وعقد العلاقة

(1) نفسه ، ص 76 .

(2) عز الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ـ قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ـ ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، ط 03 ، 1981 ، ص 181 .

بينهما ، حيث يقول الشاعر[1] :

يـا شـهيد الأوطـان حسـبك مجـدا أن تكـــون القربـــان للتحريـــــر
نم قريـــرا في ذمـــة الله وأنعـــم بســـــلام في جنـــــة وحريـــــر
نم قريـــرا مرتـــاح بـــال سعيـــدا في حمـى الخـالق العزيـز الغفـور

عنـد قراءتنـا للبيـت يلتصـق بأسماعنـا هـذا التنـاص التـآلفي أو مـا يسـمى بالتناص الإشاري الذي يحيلنـا مباشـرة علـى الآيـة القرآنيـة : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[2] وقولـه : ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾[3] ، فالشـاعر يخاطـب الشهيد ويمجد فيه شجاعته وإقدامه للذود عن حمى الوطن ، فحسبه فخـرا ومجـدا أن يكون قربانا وفداء للجزائر ، وجائزته عند الله تعـالى ، حيـث الخلـود في جنانـه التي وهبها للمؤمنين والشهداء ، وقد أكد الربيـع هـذا المفهـوم بالاسـتعانة بالتنـاص الإشاري الذي يوحي بقيمة وقدر الشهيد عند الله تعالى ، ويحفـز الجزائـريين علـى إحراز شرفه والذود عن أرضهم وأنفسهم وأعراضهم ، فقـد صـور لنـا الشـاعر هـذه القيمة الثمينة بجملة من الألفاظ القرآنية (الجنة ، الرضى ، الحريـر ، النـوم القريـر ، مرتاح ، حمى الخالق ، العزيز الغفار ، سعيدا ، السلام) ، وعنـد مجتمعـه (المجـد ، الفادي ، حسن العمل ، قيمة طيبة) .

ويبدو أن هذا التنـاص يـوحي بالـدلالات والأبعـاد النفسـية الـتي يتمتـع بهـا الشهيد عند الشاعر ، فهو مقدس لعمله المقدس وصنيعه المجيـد وطاعتـه لله ، فنـال مـن عملـه إحـدى الحسـنيين إمـا النصـر وتحريـر الـبلاد والعبـاد ، وإمـا الشـهادة والارتحـال إلى حمـى الـرحمن وجنانـه ، وهـي الغايـة الـتي كانـت في نفـس كـل مجاهد حمل على عاتقه الذود عن وطنه ، ويبـدو أن شـاعرنا يلـح علـى الشـهادة ، فالشهيد أعلى شرفا وقيمة في نصه الشعري الذي استعان بـالتكرار لتبـيين ذلـك (نم قريرا ، نم قريرا كما استهل نصه بمخاطبة الشهيد الذي يشكل بـؤرة المعنـى وكثافـة الدلالات .

ولعل استعانة الشاعر بلغة القرآن الكـريم وتعـابير وأسـاليب أعطـى لشـعره قوة إيمانية مضيئة بالجماليات القرآنية ، الـتي تتكـون منهـا ثقافتـه الأدبيـة ، فجعلـه مخزنا يأخذ منـه صـوره وتراكيبـه ويسـتلهم مـن معانيـه ، فيتجلـي خطابـه محلـى

(1) الشهيد الربيع بوشامة ، الـديوان ، جمـع وتحقيـق : جمـال قنـان ، منشـورات المتحـف الـوطني للمجاهـد ، الجزائر د . ط ، 1994 ، ص 206 .
(2) الحج : الآية 23 .
(3) ص الآية 66 .

بالنفحات الإيمانية ومحاطا بقدسية الاحترام والتقدير ويتناسب مع طبيعة المتلقي الذي يحفظ القرآن ، فيسهل إيصال الأفكار إليه بليغة ومؤثرة ، لذلك لا نجد ركنا في ديوانه إلا وتحسسنا فيه بصمات القرآن الكريم لأنه « مصدر إلهام للذات الشاعرة ، تتفيأ ظلال لغته ، وتتأمل في حضرة الكلام الإلهي ، وتنهل من ينابيعه المختلفة وتتزود ما شاء الله لها من إعجازه ، وتنوع أساليبه واختلاف إشاراته ووفرة مخاطبته ، وتستمد الذات المبدعة شاعريتها البشرية من شاعرية النص القرآني »[1] .

كما يتجلى التناص الديني في استنكار الشاعر لحوادث 8 ماي 1945 ، ففي غمرة التوجع والألم من الحادثة التي كان الاستعمار بطلها بآلات القتل والتدمير ، والشعب الضعيف الأعزل ضحيتها ، يستحضر الربيع شخصية الإمام عبد الحميد بن باديس ويتحسر على وفاته وشدة وطأة الاستعمار بعده ، ويرثيه بأعماله وجهوده في سبيل الحفاظ على الثوابت الوطنية ، فيقول[2]:

من لهذا الحمى الجريح الشقي ... في لظى ، من للشيب والشبان
إيه عبد الحميد رحت في الدنيا ... مسعد الروح مكروم الجثمان
وتركت الإسلام والعرب والضاد ... جميعا تصلى لظى الفقدان!!!

وقوله[3] :

ورأيت المستضعفين ضحايا ... في غمار من الدماء والخسائر
وشهدت القرى أحيلت خرابا ... والبساتين الغلب قفرا يبابا
وجمال الغاب الروائع أضحى ... طعمة للنيران يصلى عذابا

ففي هذه الأبيات تواصل الشاعر مع آيات القرآن الكريم للتعبير عما عانه الشعب الجزائري في مجازر 8 ماي المخزية في تاريخ فرنسا ، وشهادة عز وإباء في تاريخ الجزائر ، حيث تشكلت الأبيات من ألفاظ قرآنية (تصلى ، الشقي ، لظى ، الغلب ، الروح ، الدنيا ، النيران ، عذابا) وكونت صوره الشعرية التي عبرت عن حسرته ، كما تبدو هذه المعاني متوافقة مع قوله تعالى : ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾[4]

(1) محمد بن عمارة ، الصوفية في الشعر العربي المعاصر ـ المفهوم والتجليات ـ ، شركة النشر والتوزيع ، المدارس ، المغرب ، ط01 ، 2001 ، ص 156 .
(2) الديوان ، ص 107 .
(3) نفسه ، ص 198 .
(4) الغاشية : الآية 4 .

وقوله : ﴿الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى﴾[1] وقوله : ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾[2] وقوله : ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى﴾[3] وقوله : ﴿وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾[4] وقوله : ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾[5] ، إن الشاعر تناص الآيات السابقات فكان لنصوصه سندا قويا وداعما لأفكاره ومعمقة لمعانيه ، ومعبرة عما يقاسيه من الآلام ، فالمجازر مثل لظى السعير تحرق كل شيء ، غير أن المفارقة تكمن في أن لظى جهنم حق على من يدخلها وهي إنصاف له لأنه اقترف الآثام والشرور ، أما لظى نيران المستعمر فهي ظلم وجور وقهر وعدوان على حقوق الشعب الجزائري الذي يريد استقلال أرضه المغتصبة ، ولأنه وعد بالحرية لكن المستدمر أخلف وعده كعادته ، فموقف النص القرآني إيجابي وهو حق وقصاص في الآخرة يتمخض عنه التقدير والإجلال لله تعالى ، أما النص الشعري يتمخض عنه موقف سلبي فهو ظلم وإهانة وتعسف .

ويؤكد الشاعر على قداسة روح الشهيد التي ضحى بها في ريعان شبابه وسما بها إلى العلا والنور ، حيث يقول[6] :

يا شهيدا في زهرة العمرة قضى ... ضامئا للعلا وللتحرير
لم يمتع نفسا بأطيب عيش ... أو ينل أهنة المنى والسرور
سوف ينمو على دمائك غرس ... يثمر العز والعلا في الدهور
لا تضيع الأرواح والأدمع الحر ... ـ بحال ـ في شعبك الموتور
إن في النفس من رداك قروحا ... داميات مشبوبة التنور
ترهق الروح والفؤاد شقاء ... مستجدا الآلاء دون فتور

يشيد الشاعر بانتقال الشهيد إلى عيشة طيبة دائمة عند رب كريم ، فهو لم يمت بل ارتقى إلى ربه إلى جنان الخلود ، فالشاعر تعالق في هذا المعنى مع قوله تعالى : ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[7] ، نلحظ اعتماد الدفقات الشعرية على الآية الكريمة كوسيلة مساعدة لإنتاج الدلالة وصنع المعاني ، وتزدحم الدفقة النابعة بالكثافة والضياء ببعض المعاني القرآنية المشتقة من سورة آل عمران ، فالربيع استعان بهذا المعنى السامي الذي تقرره الآية الكريمة

(1) الأعلى : الآية 12 .
(2) الليل : الآية 15 .
(3) المعارج : الآية 15 .
(4) عبس : الآية 30 .
(5) النبأ : الآية 38 .
(6) الديوان ، ص 40 .
(7) آل عمران ، الآية 169 .

ليوحي للقارئ من خلالها بالتداخل مع النص القرآني ، ومن خلال هذا التناص يبدو لنا أن « النصّ الشعريّ منسوج تماماً من عدد من الاقتباسات والمراجع والأصداء سابقة أو معاصرة ، تتجاوز النصّ من جانب إلى آخر في تجسيمة واسعة »(1) .

ويجب الإشارة إلى أن ملامح التناص عند الربيع بوشامة مع النص القرآني قد تأتي واضحة بلفظها ومعناها تارة ، وتلميحا وخفاء تارة أخرى ، وقد تأتي موافقة للنص القرآني تارة ومخالفة له تارة أخرى في بنيها ، وهذا ما لامسناه من خلال النماذج الشعرية السابقة .

ويتوعد الشاعر الاستعمار مشيرا إلى مصيره القاسي الذي سيؤول نتيجة أعماله الإجرامية وتنكيله بالشعب الجزائري فيقول(2) :

وترى رأى العين عقبى اغتصاب واعتساف في يومك المقدور

يخلق الشاعر أجواء قرآنية بواسطة تناصه مع الآية القرآنية : ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾(3) بواسطة البنية اللفظية التي تشكل بنية نصه الشعري ، فتمثلت الدلالة والمعنى معا فيه من الآية الكريمة ، حيث يؤكد الشاعر على هزيمة الاستعمار وسقوط مملكته الزائفة ، ففي النص الكثير من الإشارات والإيحاءات التي توضح مدى كره الشاعر للاستعمار وتوقه لزواله ونهايته ، وتتمثل في المفردات القرآنية التي تلونه ، فهي أشبه بإشارات قادرة على استدعاء الصور الذهنية ودمجها مع مخيلة المتلقي ، حيث تمثل مفتاح المعاني والدلالات ، وهي « عبارة عن مهيّج يسمّيه علماء النفس منشّطاً »(4) .

وفي سياق مقت الربيع بوشامة للاستعمار ، هاهو يتوعده بالهلاك والخسارة ويصب عليه لعنات الله ، فيقول(5) :

وعليهم من الله تعالى لعنات الأشقى وعقبى النار

ويبدو أن الشاعر يستدعي قوله تعالي : ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصْلَى النَّارَ

(1) محمد خير البقاعي ، دراسات في النصّ والتناصّية ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، ط1 ، 1998 ، ص16 .
(2) الديوان ، 49 .
(3) آل عمران : الآية 13 .
(4) بير جيرو ، علم الإشارة ، تر : منذر عياشي ، دار طلاس للدراسات والنشر ، دمشق ، ط1 ، 1988 ، ص27 .
(5) الديوان ، 192 .

الْكُبْرَى﴾[1] ، وقولـه : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾[2] ، حيث يتجلى لنا بوضوح فاعلية الامتصاص الشعري لتركيب قرآني ، استعان به الشاعر بطريقة جيدة تاركة جمالية محسوسة في بناء الخطاب ، بواسطة التضمين اللفظي والمعنوي ، مما يجعل المتلقي يتفاعل معه ويتواصل مع أفكاره .

إن ما يميز تناصات الربيع بوشامة هو اعتماده على اللفظة القرآنية ذات الأبعاد الدلالية المتعددة والنورانيات المختلفة التي تبهر المتلقي وتأسره ، بتقنية التداخل بين المستويين القرآني والشعري عن طريق « توليد بعض الشذرات والومضات والتضمينات القرآنية ، التي تسهم في تكثيف الدلالات والإيحاءات المتتالية »[3] ، ويظهر ذلك في قوله[4] :

فاصبر لحظك ، واحي الدهر متئدا فالصبر ذخر وأجر غير ممنون

نكشف التعالق بين النص الشعري وقوله تعالى : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾[5] ، وقولـــه : ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾[6] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾[7] وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾[8] ، فهذا التوظيف للآيات القرآنية يكسب البيت الشعري دلالة عميقة ليس على مستوى اللفظ فقط ، بل من ناحية المعنى ، فالشاعر أراد أن يكشف لنا عن منافع الصبر ، فهو في نظره ذخر وشفاء لكل عليل وأجره عند الله تعالى لا يقدر (غير ممنون) ، فالشاعر من خلال تناصه يمنح نصه قوة في الإقناع والتأثير ، وتجعله يستقر بسهولة في مخيلة المتلقي يحاكي بها صور أخرى ، وبذلك يستدعي دلالات أعمق ، وهذا ما أكد عنه محمد حماد حسين إذ يقول : « إن البحث في تخلق النص من خلال تداخلاته النصية يدخلنا مباشرة إلى ترسباته وأعماقه متجاوزين بذلك السطوح النصية اللامعة في جسد النص التي تبدو لنا كقمم الثلج التي تخفي النصوص الأساسية المكونة له ، تلك النصوص

(1) الأعلى : الآية 11 ـ 12 .
(2) الرعد : الآية 35 .
(3) صبحي الطعان ، بنية النص الكبرى ، ص 445 .
(4) ص الآية 49 .
(5) القلم : الآية 48 .
(6) الإنسان : الآية 24 .
(7) فصلت : الآية 8 .
(8) القلم : الآية 3 .

المتقاطعة والمتصارعة داخل الذات المؤلفة »[1] .

ونرصد فاعلية التمثيل الشعري لبعض التراكيب القرآنية ونلمس مظاهره في أغلب قصائد الشاعر عن طريق كشف ذلك التقاطع بين النصين القرآني والشعري على جميع المستويات ، مما يزيد الصورة وضوحا وجلاء ، ويظهر في قوله :[2] .

قوله :[2] .

ورحت جنات عدن في البلاد زهت لمغرم بجمال الكون وارد

نلحظ تنامي استدعاء أيّ القرآن الكريم وتوظيف ألفاظه ومعانيه ، فقد استقاها الشاعر من قوله تعالى : ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[3] ، حيث يصور النص القرآني صفات الجنة الجنة التي وعد الله بها المؤمنين (الأنهار تحتها ، مساكن طيبة ، جنات عدن) ، ويظهر أن الشاعر استدعى من التركيب القرآني جملة (جنات عدن) ليعبر بها عن جمال الجزائر وطيب أرضها وكثرة مائها وسحر طبيعتها ، فهي جنة الله في أرضه ، ويعبر عن حبه لها فهي الوطن والدار والأهل ، وبذلك يكون « إن التناص أشبه بإشارات أو ومضات جمالية ، لأنَّ الإشارة الجمالية تتحرّر من كل اصطلاح ، ليلتصق المعنى بالتمثيل ، وهذا التحرّر يمنح الإشارة قدرتها على الخلق ، لهذا فالشاعر مخترع إشارات أو تعبيرات لعلاقات قيد التشكيل ، وإشارات عفوية في حالة التوالد »[4] .

وهناك نصوص شعرية أخرى تنتهج الطريقة نفسها ، حيث يقوم الربيع بتوظيف بعض الصور المستوحاة من الآيات القرآنية بهدف الغوص بالموقف إلى دلالات أعمق واستثارة المتلقي ومحاولة كسر الحواجز التي من شأنها تعطيل عملية نقل الأفكار ، أو الحول دون فهمها ومن ذلك تحفيزه ـ أي الشاعر ـ للشعب الجزائري على الخوض الثورة والكفاح لتحرير وطنه ، فيقول[5] :

سوف تجني أشهى الثمار بيمناك وتحيا في جنة وظلال

يستدعي الربيع الآية القرآنية : ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾[6] ،

(1) أمير حلمي مطر ، فلسفة الجمال –نشأتها وتطورها ـ ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط 02 ، 1983 ، ص 80
(2) الديوان ، 62
(3) الصف : الآية 12 .
(4) بير جيرو ، علم الإشارة ، ص 115
(5) الديوان ، 66 .
(6) يس : الآية 56 .

ويمكننا القول أن الشاعر يمتلك مقدرة فنية تكمن وراء التوظيف الفني للتناص ، بإدخال النص القرآني إلى سياقه الخاص واستحضاره لدعم أفكاره وجمع شتات صوره ، وله مهارة أدبية في تكييف اللفظ القرآني وتمثله الجمالي مع ألفاظه وتعابيره وشحنها بالدلالات القرآنية والإيحاءات الجديدة التي تتفق مع تجربته الشعورية .

ويواصل الشاعر الربيع التغني بطبيعة الجزائر مستخدما صورا أخرى مستوحاة من النصوص القرآنية التي تصف الجنة وما فيها من نعيم ، حيث يقول :[1] .

وجرى الماء تحتها سلسبيلا و تعالت في جوها الصلوات

فالتناص في البيت الشعري يقوم على استدعاء الآية القرآنية : ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا﴾[2] ، وقد استقى من الآية الكريمة لفظة (سلسبيلا) ، وهي عين تجري في الجنة لكي يعبر بها عن الماء الصافي الجاري في الطبيعة الجزائرية التي خربها الاستعمار وعاث فيها فسادا ، فالصلوات تتعالى حبا وابتهالا لله من أجل الجزائر ، مما يزيدها قدسية وبركات من المولى عز وجل ، فالتناص كشف المعنى من خلال الإيماءات الدلالية التي تقودنا مباشرة إلى النص القرآني دون جهد أو عناء ، باستدعاء بعض الألفاظ القرآنية التي يحفظها أغلب الناس فتقوم بالمعنى وتفي بنقل الفكرة وتصويرها وتكون دليلا دلائليا على التناص مع القرآن الكريم « فالدليل بطبيعته مكوّن من دال ومدلول ، يشكّل صعيد الدوال صعيد العبارة ، ويشكلّ على صعيد المدلولات صعيد المحتوى »[3] .

ويتقاطع الشاعر في بيت آخر مع آية قرآنية ، مستخدما صورتها لكشف الدلالات وشحن الموقف ، بغية التأثير في المتلقي وهذا ما ينطبق على قوله[4] :

واذهب خلال حقول الكرم خالية قطوفها كالثريا فوق أرفاد

نلحظ استدعاء القرآن الكريم من خلال الصورة التي امتصها الشاعر من الآيتين الكريمتين : ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾[5] وقوله تعالى : ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا

(1) الديوان ، 198 .
(2) الإنسان : الآية 18 .
(3) رولان بارت ، مبادئ في علم الأدلة ، ترجمة : محمد البكري ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سورية اللاذقية ، ط2 ، 1987 ، ص 66 .
(4) الديوان ، 63 .
(5) الحاقة : الآية 23 .

﴿تَذْلِيلًا﴾[1] حيث يصور النص القرآني أحد مشاهد نعيم الجنة ، وهي قرب ثمارها من ساكنيها تصلهم دون جهد أو عناء ، والنص الشعري يتمثل هذه الصورة وأخذ من وصفها الجميل ليتغنى بطبيعة الجزائر وخيراتها التي في متناول الشعب ، وقد مثل الشاعر الجزائر بالجنة التي من صفاتها القطوف الدانية مشيرا إلى عطاء الأرض الجزائرية ومدى تجاوبها وتواصلها مع أبنائها .

وتتجلى لنا فاعلية الامتصاص الشعري في أبيات الربيع بوشامة لبعض الألفاظ والتراكب القرآنية حيث استطاع الاستفادة من دلالتها المعنوية ، وحافظ على حيويتها ووهجها في تراكيبه وتعابيره الشعرية ، مما زادتها تلألأ ووضوحا ، ووسعت فضاء المعاني وأغنت التجربة الشعرية وألهمتنا تأثيرا ، وهذا ما يظهر أيضا في توظيف آخر حيث يقول[2] :

ويراها الأعداء فتحا مبينا جاء ـ عفوا ـ بالغنم والأفراح

يتقاطع الشاعر مع قوله تعالى : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾[3] ليعبر عن نبذ الخلاف بين الإخوة من أجل تضارب المصالح فلابد من إشاعة مبدأ التسامح وهذا وصف لخلاف نشب بين شخصيتين ثوريتين فأراد الشاعر أن يصلح ذات البين ، وينبه إلى أهمية الخلافات بالنسبة للعدو التي تمكنه من استغلالها لضرب الثورة التحريرية ، لذلك استحضر الربيع حدث فتح مكة التي يصورها القرآن الكريم على أنها حدث عظيم في تاريخ الدعوة فالرسول ﷺ رجع إلى مكة منتصرا بعد أن خرج منها بدينه ، فاليوم يفتحها بتوفيق من الله ، ويسميها القرآن النصر والفتح المبين ، وقد بدأت به سورة الفتح ، أما النص الشعري فيعكس الآية ويعبر عن فرحة الاستعمار لنشوب الخلاف بين قادة الثورة ويراه فتحا مبينا وانتصارا عظيما لأنه سيستغل ذلك لمصلحته ، وبذلك استطاع الشاعر أن يوظف تركيب (فتحا مبينا) على شكل رمزي إشاري لتحقيق المعنى بالتمثيل من حوادث القرآن وقصصه ، وذلك بخلق مشهد جمالي بليغ وواسع الدلالة .

لعل التناص الديني يكسب أشعار الربيع قوة ومتانة في التعبير ويوشيها بغزارة الدلالات الشعرية ، بمزية استحضار التراكيب القرآنية ، ويظهر ذلك في قوله :[4]

ليت لي مثل الأناسي بصرا جد حديد

(1) الإنسان : الآية 14 .
(2) الديوان ، 198 .
(3) الفتح : الآية 01 .
(4) الديوان ، 198 .

أبصـــــر الأشـــــياء طـــــرا مـــــن قريـــــب أو بعيـــــد
وأريـــــح الـــــنفس ممـــــا هـــــو يبـــــدي ويعيـــــد

نلحظ أن الخطاب الشعري قد استدعى ثلاث آيات متتالية ، وهي قوله تعالى : ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(1) ، وقوله : ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾(2) ، وقوله : ﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾(3) ، فالشاعر استقى من كل آية ما يناسب فكرته وصورته واستفاد من استحضارها للارتقاء في مستويات الدلالة وتعميق الرؤية ، حيث جمعها لتصب في سياق واحد هو الأمل بالمستقبل ونشره في نفسه ، والتطلع لغد أفضل؛ غد يرى فيه الجزائر مستقلة ، ويتضح من خلال توظيفه لصيغة للتمني (ليت) في البيت الأول ، ليتوزع مدلولها وعملها في باقي الأبيات (ليت لي ، ليت أبصر ، ليت أريح) .

يتضح لنا جليا هذا التعالق الوظيفي بين تراكيب الشاعر وبين آيّ القرآن الكريم ، من خلال علاقة المحاكاة والتآلف والتحاور بين النص الشعري والقرآني من ناحية اللفظ والمعنى لأن القرآن الكريم هو ملهم المبدعين وممدهم بالشاعرية والتألق بتعابيره المبينة وأساليبه المعجزة ، ويتضح ذلك في قوله(4) :

قـل لمسـتعمر كنـود حقـود لج في الشـر عـن هـوى وغـرور

يبدو التعالق في البيت الشعري مع قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾(5) لغرض وصف الطباع الخادعة للاستعمار ، من خلال وصف الله تعالى للإنسان الذي لا يحمد مولاه على النعم التي أولاه بها ، والخيرات التي حباه بها ، فتغلبه نفسه التي تحب المزيد ولا تعترف بفضل ربها ، لقد تناص الشاعر مع المعنى القرآني لتقريب صورة المستعمر الحقيقية التي يواريها ويخفيها دوما .

خاتمة :

إن التناص مع الخطاب القرآني هو بمثابة نفخ روح القدسية في النصوص الشعرية ، وإعادة بعثها من جديد في تشكيلها المتنامي ، وهذا التوظيف لا يخدم البنية الفنية والأسلوبية للنص الشعري فحسب بل هو دلالة على التواصل بين النص القرآني المتجدد في معانيه وصوره وبين الذاكرة الشعرية ، ويفسر اعتماد الشعر الجزائري الثوري في تشكيل نصوصه على جماليته وسحر بيانه ، كما يدل على

(1) ق : الآية 22 .
(2) ق : الآية 31 .
(3) البروج : الآية 13 .
(4) الديوان ، ص 49 .
(5) العاديات : الآية 6 .

الثقافة الدينية المتجذرة في إبداع الشعراء الشهداء التي تفرض نفسها على نظمهم ورؤيتهم للواقع ، كما تشكل التراكيب القرآنية النسبة الأكبر في زخرفة بنية ديوان الربيع بوشامة ، لعلمه بأن التعالق مع القرآن الكريم يمنح القصيدة حيوية وديناميكية دائمة ومتواصلة ، وتجعل النص الشعري مشحونا بعمق المعاني والدلالات .

مصادر ومراجع الدراسة :

1 . القرآن الكريم .
2 . أمير حلمي مطر ، فلسفة الجمال ــ نشأتها وتطورها ـ ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ط 02 ، 1983 .
3 . بير جيرو ، علم الإشارة ، تر : منذر عياشي ، دار طلاس للدراسات والنشر ، دمشق ، ط1 ، 1988 .
4 . حسن محمد حماد ، تداخل النصوص في الرواية العربية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1997 .
5 . رجاء عيد ، القول الشعر ـ منظورات معاصرة ـ ، منشأة دار المعارف ، الإسكندرية ، ط1 ، 1997 .
6 . رولان بارت ، لذة النص ، ترجمة : فؤاد صفا ، والحسين سجان ، دار توبقال للنشر ، المغرب ، 1988 .
7 . رولان بارت ، مبادئ في علم الأدلة ، ترجمة : محمد البكري ، دار الحوار للنشر والتوزيع ، سورية اللاذقية ، ط2 ، 1987 .
8 . الشهيد الربيع بوشامة ، الديوان ، جمع وتحقيق : جمال قنان ، منشورات المتحف الوطني للمجاهد ، الجزائر د . ط ، 1994 .
9 . الطّعان صبحي ، بنية النص الكبرى ، عالم الفكر : مجلد : 23 ، عدد 2» 1 يوليو ـ سبتمبر وأكتوبر ـ ديسمبر ، 1994 .
10 . عبد الله الغذامي ، الخطيئة والتكفير «من البنيوية على التشريحية « ، النادي الأدبي الثقافي ، ط1 ، 1985 .
11 . عبد الملك مرتاض ، فكرة السرقات الأدبية ونظرية التناص ، مجلة علامات ، النادي الأدبي الثقافي ، جدة ، 1991 .
12 . عز الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر ـ قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية ـ ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، ط 03 ، 1981 .
13 . علوش سعيد ، معجم المصطلحات الأسلوبية المعاصرة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1985 .
14 . علي عشري زايد ، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربيّ المعاصر ، دار الفكر العربيّ ، بيروت ، 1997 .
15 . مايكل ريفاتير ، سيميوطيقيا الشعر ، ترجمة : محمد معتصم ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط ، المغرب ، ط1 ، د ت .
16 . محمد بن عمارة ، الصوفية في الشعر العربي المعاصر ـ المفهوم والتجليات ـ ، شركة النشر والتوزيع ، المدارس ، المغرب ، ط01 ، 2001 .
17 . محمد خير البقاعي ، دراسات في النصّ والتناصّية ، مركز الإنماء الحضاري ، حلب ، ط1 ، 1998 .
18 . محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري ـ إستراتيجية التناص ـ ، دار العودة ، بيروت ، ط1 ، 1977 .

الأدب التفاعلي وإشكالية تداخل الأجناس

أ . جمال قالم*

مقدمة :

نستطيع الجزم أنّنا نعيش الآن عصرا رقميا بمعنى الكلمة وبكلّ ما توحيه من دلالات ، وأصبحنا في أمسّ الحاجة أن نعي هذا التحوّل ، وندرك أبعاده ومراميه ، فلكلّ عصر ما يوافقه من وسائل وأدوات وطرائق وسبل وآليات تكفل معرفة تفاصيله ، هذا التحوّل مسّ كلّ جوانب الحياة ، خاصة ما اتصل بوسائل التواصل وآليات التبليغ ، واللغة كما هو معروف تأتي على رأس هذه الوسائل ، بكل مستوياتها ، خاصة الأدب ، باعتبار أن الأدب لغة من مستوى عال ، وحتى تتّضح المصطلحات لابد من التفريق بين تفاعل النص الأدبي والأدب التفاعلي ، فالتفاعلية تستخدم لتقييم النصوص المطبوعة التي تتفاعل مع قارئها ، مع اقتصار نمط التفاعل على الانفعال بها ، غالبا ، أو التعليق عليها بصفتها منجزات تامة ، أما الأدب التفاعلي فهو شكل أدبي جديد تنطوي تحته أجناس جديدة من بينها الرواية التفاعلية والشعر التفاعلي والمسرحية التفاعلية . . . ، إذًا فما المقصود بالأدب التفاعلي ؟ وماهي الحدود الفاصلة بين أجناسه ؟

تعريف الأدب التفاعلي :

يُعرّف الأدب التفاعلي بأنه : الأدب الذي يوظّف معطيات التكنولوجيا الحديثة ، خصوصًا المعطيات التي يتيحها نظام (النص المتفرع Hypertext) ، في تقديم جنس أدبي جديد ، يجمع بين الأدبية والإلكترونية ، ولا يمكن لهذا النوع من الكتابة الأدبية أن يتأتّى لمتلقيه إلا عبر الوسيط الإلكتروني أي من خلال الشاشة الزرقاء ، ويكتسب هذا النوع من الكتابة الأدبية صفة التفاعلية بناء على المساحة التي يمنحها للمتلقي ، والتي يجب أن تعادل ـ وربما تزيد عن ـ مساحة المبدع الأصلي للنص ، مما يعني قدرة المتلقي على التفاعل مع النص بأي صورة من صور التفاعل الممكنة[1] .

---

* قسم الأدب العربي، جامعة أكلي محند أولحاج ، بالبويرة .

(1) فاطمة البريكي ، مدخل إلى الأدب التفاعلي ، ص 49 . أو ينظر : فاطمة البريكي ، في ماهية الأدب التفاعلي ، http : //www . doroob . com/?p 4134

والتفاعل يعرّفه سعيد يقطين بأنّه « يعتبر في الإعلاميات بمثابة عملية التبادل أو الاستجابة المزدوجة التي تتحقق بين الإمكانات التي يقدمها الإعلامياتي للمستعمل ، والعكس ، ويمكن التدليل على ذلك من خلال نقر المستعمل على أيقونة مثلا للانتقال إلى صفحة أخرى ، كما أن الحاسوب يمكن أن يطلب من المستعمل فعل شيء ما ، إذا أخطأ التصرّف من خلال ظهور شرط يحمل معلومات على المستعمل الخضوع لها لتحقيق الخدمة الملائمة ، وهناك معنى آخر للتفاعل أعم وهو ما يتمثّل في العمليات التي يقوم بها المستعمل وهو ينتقل بين الروابط لتشكيل النص بالطريقة التي تفيده ، وهو بذلك يتجاوز القراءة الخطية التي يقوم بها قارئ الكتاب المطبوع »[1] .

إن العلاقة التفاعلية لم تعد ثنائية ، زوجية محصورة بين العمل الفني والجمهور بل إنها تمتد إلى عدد كبير من المتلقين ، هنا يؤاخي الإبداع الفني بين العديد من (الشركاء المؤلفين) حيث أن كل فاعل أمام حد التواصل يغزل خيطه داخل نسيج الشبكة العنكبوتية الهائلة التي يقوم كل إنسان رقمي بنسجها[2] .

إنّ النص الأدبي في طوره الإلكتروني عبارة عن لوحة فسيفسائية تجمع بين النصوص في كافة أحوالها ، المكتوب منها ، والمسموع والمرئي ، في حالاته الثابتة والمتحرّكة ، وتتسم هذه اللوحة الفسيفسائية الإلكترونية بقدرتها على إقامة علاقات التداخل والتشابك بين النصوص المختلفة المتضمنّة فيها ، على ما تنطوي عليه من تنوع وتعدّد ، بالإضافة إلى المرونة في الانتقال بين المواد النصية وغير النصية[3] .

فهو يمنحُ النّصوص بُعداً ترابُطِيّاً ويُحدثُ بينها انسجاماً وقابِلِيَّةً للتَّفاعُل ؛ فيُصبحُ كلُّ نصٍ قابلاً لأن يتضمَّنَ نصوصاً أخرى يُمكن الانتقالُ إليها بسرعةٍ والتّعامُلُ معها مستقِلَّةً .

ويمكن أن نجمل أهم ميزات الأدب التفاعلي فيما يأتي :

ـ أنّه يجسّد سمات النص المفتوح الذي لا تحده حدود ، غير أنه لا يعوزه النظام والترتيب .

ـ يرفع من مقام المتلقي/ المستخدم ، حيث يتوّج على عرشه ، فيملك

(1) سعيد يقطين ، من النص إلى النص المترابط (مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء / بيروت ، 2005 ، ص 9 ـ 10 .

(2) إدمون كوشو ، أسئلة النقد في الإبداع الرقمي ، تر : عبده حقي ،
http : //www . arabworldbooks . com/ArabicLiterature/criticism . htm

(3) فاطمة البريكي ، مدخل إلى الأدب التفاعلي ، ص 183 .

مقاليد التصرّف فيه وفق هواه ورغباته ، وبالتالي يهدّم الجدار العازل المقام بين المبدع والمتلقي .

ـ النص نتاج جماعي ، المبدع الذي سينظم إلى جماعة المتلقين ، وجماعة المتلقين الذين يتحولون إلى مبدعين ، فالنص ملك للجميع .

ـ كما لا حدود مضبوطة للنص في نهايته ، أيضا لا بداية محدودة أو مضبوطة ، هذا الأمر مردّه إلى اختلاف المتلقين واختياراتهم .

إشكالية تداخل الأجناس الأدبية :

يمكننا مع الأدب الرقمي أن نتحدّث عن ممارستين مختلفتين حيال الأجناس الأدبية : فهناك من جهة أنواع قديمة (الشعر ، السرد ، الدراما) ، أي الأجناس الكلاسيكية ،والتي بدأت تتلبس بالآليات الرقمية وتوظفها لفائدتها ، متخذة بذلك مظهرا جديدا للأدب ومقدمة صورة جديدة للإبداع الأدبي ، وقد تنوّعت التجارب في هذه الأجناس وصارت متعددة ومتفرعة ، يتداخل فيها اللفظي بالصوري بالحركي والصوتي بالسمعي والثابت بالمتحرك . . . ، كما بدأت تظهر أجناس جديدة ، من جهة أخرى ، متصلة بالحاسوب والفضاء الشبكي مثل الروايات المشتركة والكتابات التفاعلية الجماعية التي يشارك العديد من القراء والكتّاب في كتابتها .

لكن توظيف الأدب الرقمي لإمكانات الوسائط المتعددة قد يؤدي إلى إشكالية عسيرة في تصنيفه ضمن جنس أدبي معين ، وهذا الأمر يحدث خللا في نظرية الأنواع الأدبية ذاتها ، فبمقدوره أن يهضم الأجناس الأدبية الأخرى ويشكّل جنسا أدبيا جديدا ، له طابعه الخاص ، وآلياته الخاصة ، غير أن هذا الأمر لا يعني البتة تجريد الأدب الرقمي من أدبيته ، ولكّن نظرية الأنواع الأدبية تحتاج إلى صياغة جديدة ، نظرية جديدة ومختلفة تجمع كل الأجناس الأدبية السابقة من رواية وقصة وشعر ومسرح وغيرها لتدمجها في جنس إبداعي جديد يتّسق تماما مع متطلّبات العصر الرقمي ، وأن هذا الأخير يحتاج إلى إنسان جديد ، بوعي جديد ، لأن لكل عصر وسائله وأسلوبه وطريقته في الإبداع ، لذلك نحن بحاجة إلى جنس أدبي جديد ، وكتابة جديدة عابرة للأجناس الأدبية السابقة .

يؤكد ذلك الروائي محمد سناجلة فيقول : « هذا العصر سينتج أدبا جديدا قادرا على هضم كل ما سبق ومزجه مع ما توفره الثورة الرقمية من إمكانيات كبيرة لخلق جنس إبداعي جديد ، قادر حقا على حمل معنى العصر الرقمي

بمجتمعه الجديد وإنسانه المختلف »[1] .

ويضيف قائلا : « ما نشهده هو عصر إبداعي جديد يهضم كل ما سبقه من أجناس أدبية وإبداعية وتقنية ويعيد خلقها في أدب جديد ومختلف ، وهذا الأدب هو ما اجتهدت فأطلقت عليه اسم الواقعية الرقمية »[2] .

إنّ الأنواع الكلاسيكية المتجدّدة هي التي تثير الاهتمام أكثر لدى المشتغلين بالدراسة الأدبية الرقمية ، كما أنّ أغلب المبدعين في هذه الأجناس شعرا ورواية ومسرحا هم الذين يدلون بدلوهم في هذا النمط الإبداعي الذي هو حاليا قيد التشكّل ، وإنّ تعدد هذه الأشكال والأجناس التعبيرية يجمع بينها عنصران مركزيان هما : البعد الرقمي الذي يجعلها تتحقق بواسطة الوسيط الجديد ، من جهة ، والبعد التفاعلي ، الذي يتجلّى بصور وأشكال متعددة ، من جهة ثانية ، وهي مرشّحة للمزيد من التطوّر والتنوّع ، نظرا لما يختزنه هذا الوسيط من إمكانيات ، وما يوفّره من خدمات تساعد على تفتّق الإبداع وتطويره[3] .

وقد عرف الأدب الغربي نماذج مختلفة من الأدب التفاعلي ، تنتمي لأجناس مختلفة ، منها القصيدة التفاعلية التي تنتمي إلى جنس الشعر التفاعلي ، ومنها المسرحية التفاعلية ، التي تنتمي إلى جنس المسرح التفاعلي ، بالإضافة إلى الرواية التفاعلية ، ولكل جنس من هذه الأجناس الأدبية التفاعلية أعلام نظّروا له ، وأرسوا أصوله ، وبيّنوا أهم خطوطه وملامحه ، وأبدعوا نصوصه الأولى ، التي تعدّ من كلاسيكياته .

1. نظرة عن كثب :

أ . الشعر التفاعلي :

يَعَرِّف مُحمد أسليم الشعر التفاعلي بقوله : « هو شعرٌ يَستغِلُ الوسائط المتعددة ومجموعة من البرامج المعلوماتية ولغات البرمجة ، لصياغة نصوص لا تمتزج فيها اللغة بالصوت والصورة فحسب ، بل وتتحرر فتتحول الشاشة إلى ما يشبه فضاء حركيا ، حيث تكتب الحروف والكلمات وترقص وتتحول إلى أسراب طائرات » . .[4] .

---

1 محمد سناجلة ، الأدب الرقمي يكتب ويقرأ ويشاهد معا ،
http : //www.forum1.esgmarkets.com/showthread . php?p 196-187

(2) محمد سناجلة ، ما بعد الكلاسيكية الرقمية ،
http : //www.arabvolunteering.org/corner/newreply. php?do newreply&p 57271

(3) سعيد يقطين ، النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية ، ص 196 .

(4) ينظر : محمد أسليم ، http : //www . aslim . org/forum/viewtopic . php?t 633

أما فاطمة البريكي فتقول عنه : « هو ذلك النمط من الكتابة الشعرية الذي لا يتجلى إلاّ في الوسيط الإلكتروني ، معتمداً على التقنيات التي تتيحها التكنولوجيا الحديثة ، ومستفيداً من الوسائط الإلكترونية المتعددة في ابتكار أنواع مختلفة من النصوص الشعرية ، تتنوع في أسلوب عرضها ، وطريقة تقديمها للمتلقي/ المستخدم ، الذي لا يستطيع أن يجدها إلاّ من خلال الشاشة الزرقاء ، وأن يتعامل معها إلكترونياً ، وأن يتفاعل معها ، ويضيف إليها ، ويكون عنصراً مشاركاً فيها »[1] .

فالقصيدة التفاعلية هي شكل جديد من أشكال الشعر الحديث الذي يعتمد على الآليات المتطورة في الحاسبة الإلكترونية ، والتي تعتمد الصورة والموسيقى والاسترجاع ، وهي عبارة عن بانوروما متحركة ، في حدود الذات الخالقة ، المبدعة مع الذات الأخرى المتذوقة أو المتفحّصة أو المشاركة في ذات الوقت ، حيث تعتمد القصيدة على الكلمة المرادفة للصورة بأشكالها المتعددة ، المتحركة والثابتة ، جنبا إلى جنب مع الموسيقى أو المؤثر الصوتي الفاعل والمتحرك هو الآخر ، لدفع القصيدة باتجاه التناغم والاكتشاف[2] .

وقد تكون القصيدة التفاعلية نصية ، قوامها كلمات فحسب ، أو متعددة الوسائط تستخدم واحدا أو أكثر من العناصر البصرية / الصوتية / المتحركة ، قد تكون خطية البناء ، أو تشعبية لكنها في جميع الحالات تمنح القارئ خيارات المشاركة في تشكيلها ، وتنقسم خيارات التشكيل إلى : تشكيل النص ، وتشكيل مسارات امتداد للنص[3] .

أما تعريف لوس غلايزرلها فهو : « تلك القصيدة التي لا يمكن تقديمها على الورق »[4] .

ونستطيع تعريف القصيدة التفاعلية بأنها : قصيدة قيد التشكيل يمكن الاشتباك مع نصها بفعل .

وما يميّز القصيدة التفاعلية تنوع جمهورها وعالميتها وانفتاحها على جميع

(1) فاطمة البريكي ، مدخل إلى الأدب التفاعلي ، ص 77 .

(2) زيدان حمود ، المرئي والمسموع وتداخلات الكلمة المتخطية في قصيدة (تباريح رقمية لسيرة بعضها ازرق) للشاعر مشتاق عباس معن ، http : //www . nasiriyeh . net/index . html

(3) زيدان حمود ، المرئي والمسموع وتداخلات الكلمة المتخطية في قصيدة (تباريح رقمية لسيرة بعضها ازرق) للشاعر مشتاق عباس معن ، http : //www . nasiriyeh . net/index . html .

(4) Patricia Donvan, EPC celebrates poetry on the Web, University of Buffalo Reporter vol . 31 No . 25,March 30,2000 :
http : //www . buffalo . edu/reporter/vo131n25/n4 . html

الوسائط المتاحة بحيث تتحول إلى عالم مسرحي متحول ومفتوح على كل الاحتمالات وتحرر لغتها من قيود الزمان والمكان والمادة[1] .

وهي أنواع ، منها :

قصيدة الومضة التي تقوم غالبا على المفارقة والسخرية والدهشة وفي استثمارها لمعطيات التكنولوجيا يؤدي الزمن فيها دورا واضحا يكون مختصرا في أضيق الحدود ، وتعتمد هذه القصيدة بصورة كلية على برنامج العروض التفاعلية الذي يؤسس لهيكلية جديدة للقصيدة يعتمد على مشاركة المتلقي ـ المستخدم .

وهناك الشعر البصري الذي لا يقرأ فقط وإنما يشاهد ويرى وقد اتخذ معنى مختلفا كما ظهر في عدد من المواقع التي عملت على تحويل الكلمات إلى صور ، وتستحضر في هذا السياق الشعر الهندسي الذي يكتب على شكل من الأشكال الهندسة والذي عرفه الأدب العربي وقد استخدمت مصطلح الهندسي بديلا لمصطلح الشعر الدائري[2] .

والقصيدة التفاعلية لا ترتبط دائماً بشبكة الإنترنت ، إذ يمكن الحصول عليها على الأقراص المدمجة والتعامل معها دون شرط الاتصال بالشبكة .

وأول قصيدة تفاعلية ـ هي مجموعة شعرية تفاعلية ـ عربية نظمها الشاعر مشتاق عباس معن عام 2007 بعنوان : تباريح رقمية لسيرة بعضها أزرق ، وقد وظف الشاعر في قصائده الصورة والصوت وخصائص أخرى يتميز بها الحاسوب والإنترنت ، النصّ مكوّن من شبكة مترابطة من النوافذ تتفرّع إلى جملة نوافذ من خلال الانتقال بالضغط على مفاتيح النقل داخل الشبكة الإلكترونية ، فكل نافذة متفرعة / مترابطة تكون مكوّنة من ثلاثية الصياغة الرقمية : جرافيك ومؤثر صوتي وشيفرة كتابية .

ب . الرواية التفاعلية :

منذ أن أصدر ميشيل جويس أول رواية تفاعلية في العالم بعنوان « الظهيرة ، قصة » أو (Afternoon, a story) عام 1986 ، مستخدماً برنامجا خاصا بكتابة النص المتفرع ، توالت بعد ذلك الروايات التفاعلية في الأدب الغربي ، وظهر ذلك جليا في تجارب مثل تجربة بوبي رابيد في الرواية التفاعلية وروبيرت كاندل في الشعر التفاعلي ، واستمر الأدب الرقمي بالتطور ، مستثمرا كل ما

(1) ينظر : المرجع نفسه ، ص 86
(2) المرجع نفسه ، ص87 ـ 96

يستجد على الساحة التكنولوجية .

والرواية التفاعلية تعبر عن عالم جديد ، خليط بين مفهوم الخيال الرابط ووجهة النظر الخاصة بالروائي ، مع استخدام تقنيات أخرى تضيف المعنى وتبرز وجهة النظر للرواية والروائي ، هذه الإمكانات المتاحة سوف تخلق موضوعاتها غير تلك التي طرحتها الرواية الورقية ، لذا يعتقد أن الزمن سوف يضيف للرواية الرقمية بجهد روادها ، حتى قد ننتهي إلى شكل جديد آخر ، مزيج بين ما نعرفه عن الرواية التقليدية ، وما أتاحته التقنيات الجديدة والمضافة . . خصوصاً أننا على بداية الطريق[1] .

تتميز الرواية التفاعلية بكتابتها الموجزة التي تعمل على مضاعفة طرق تقطيع الخطاب وابتكار طرق جديدة لكسره ، كتابة ينكب فيها الروائي على لحظة معينة يقوم بتقديمها بشكل مفصل دون اللجوء إلى الإطناب ، بل يركز على حدث معين لا يغادره حتى يفرغ منه ، وهذا ما يجعلها تتقدم في شكلها البسيط كفقرات يمكن ولوجها بشكل اعتباطي[2] .

ويرى بعض الدارسين أنّ الرواية التفاعلية قد حققت قطيعة مع الرواية الورقية ويظهر ذلك في عدة مستويات مجملة في التالي :

1 ـ **الانغلاق والنهاية :** الرواية التفاعلية هي شكل كتابي جديد بدون مركز ، ينبسط تبعا لإيقاعه الخاص ، يتحرك أمام أعين القارئ ، يتركب وينحل ، عن طريق الرابط ، الذي يقوم بدور كبير في هذا الانزلاق والتركيب والانحلال ، لذلك لا يعد هذا الأخير مجرد إجراء معلوماتي يؤمِّن المرور من فضاء نصي إلى آخر ، حال تنشيطه من قبل القارئ ، بل يقوم بوظيفة الحذف السردي حينما يتم التقريب بين عقدتين مختلفتين زمنيا ، حيث تحل الواحدة محل الأخرى محققة بذلك قفزة زمنية ، كما يضطلع بوظيفة نحوية بلعبه لدور الواصل المنطقي ، الضمني .

2 ـ **إخفاء أثر الأوالية التي أنتجت النص :** مع النص المترابط أصبح بالإمكان الاطلاع على لحظات خلق النص ، وعلى المراحل الأولى التي سبقت عرض النص على الشاشة .

3 ـ **تجاوز الإيضاح :** النص المترابط يسمح بقلب مؤقت أو نهائي للوضع التلفظي ، فأصبح بمقدور القارئ أن يقحم داخل الرواية ويصبح شخصية من شخصيات عالمها .

---

(1) السيد نجم ، http : //www.alriyadh.com/2005/11/24/article110008.html

(2) لبيبة خمار ، الرواية التفاعلية وفن الحذف ، http : //forums. arab-ewriters. net/index. php

4 ـ **التناص :** الجديد يتمثل في كون التناص لم يعد فقط ظاهرة تطال النص بأكمله بل أصبح ينطبق على كل جزء مهما صغر أو كبر في النص ، متيحا بذلك إمكانية ظهور نص في آخر ، ومتيحا إمكانية مشهدة العلاقات التناصية (الإزاحة ، الإحلال وترسيب المعنى)[1] .

ويقسم محمد سناجلة الرواية الكلاسيكية الرقمية إلى ثلاثة أنواع :

الترابطية : وهي التي تتميز بكثرة الروابط (النص المترابط) التي تمنح أبعادا عدة لخدمة النص الأدبي ، كما أن لها كاتبا واحدا فقط هو الذي يتحكم في مسارها .

الرواية التفاعلية : التي تختلف عن سابقتها بأن لها أكثر من كاتب وتتيح للقارئ مساحة للإدلاء برؤيته في الرواية ومسارها .

رواية الواقعية الرقمية : باعتبارها تعبيرا خالصا عن المجتمع الرقمي بجميع مكوناته الافتراضية .

شهدت الساحة العربية ولادة أدب الواقعية الرقمية على يد الروائي والناقد الأردني محمد سناجلة من خلال روايته ظلال الواحد[2] ، التي تبعتها عدة تجارب روائية ، إضافة إلى كتاب تنظيري في الواقعية الرقمية ، ويرى سناجلة أنّ : « رواية الواقعية الرقمية تعبر عن الإنسان الافتراضي الذي يعيش في المجتمع الرقمي كما أنها تعبر عن الإنسان الواقعي ، ولحظة تحوله إلى كينونته الجديدة كإنسان رقمي افتراضي يعيش في المجتمع الرقمي »[3] .

رواية الواقعية الرقمية تختلف في بعض الجوانب عن الرواية التفاعلية ، هذه الأخيرة كما سبق التعريف بها هي تلك الرواية التي يستثمر فيها الكاتب تقنيات النص المترابط ، وما يوفّره من روابط متعددة الوسائط ؛ من نصوص وصور (ثابتة أو متحركة) وأصوات . . . الخ ، أما رواية الواقعية الرقمية؛ وإن كانت تعتمد على ما تعتمد عليه الرواية التفاعلية ، إلا أنها تختلف عنها في كونها « تستخدم الأشكال الجديدة التي أنتجها العصر الرقمي ، وتدخلها ضمن البنية السردية نفسها ، لتعبّر عن العصر الرقمي والمجتمع الذي أنتجه هذا العصر ، وإنسان هذا العصر (الإنسان الافتراضي) الذي يعيش ضمن المجتمع الافتراضي ، وهي أيضا تلك الرواية التي

(1) لبيبة خمار ، http ://forums.arab-ewriters.net/ viewtopic.php?t 2605&start &postdays &postorder asc&highlight

(2) محمد سناجلة ، رواية ظلال الواحد ، www . Sanajlehshadows . 8k . com

(3) محمد سناجلة ، رواية الواقعية الرقمية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت / عمان ، 2005 .

تعبّر عن التحوّلات التي ترافق الإنسان بانتقاله من الواقعية إلى الافتراضية »[1] .

في رواية « ظلال الواحد » التي نشرها رقميا عام 2001 وورقيا عام 2002م ، استخدم في بنائها ما يعرف بتقنية النص المترابط ، وذلك في البنية السردية نفسها ، حيث كان النص ينتقل من رابط إلى آخر في بنية شجرية دائرية ، فقد بدأت الرواية على شكل جذر تتشابه اشتباكاته ثم ساق ثم أغصان ثم تكسو الأغصان أوراق لتكتمل الشجرة[2] .

أما في روايته الثانية الموسومة بـ (شات) التي رأت النور بعد أربع سنوات من تجربته الأولى فيناقش المجتمع الرقمي نفسه ، حيث أن بطل هذا المجتمع هو الإنسان الرقمي الافتراضي ، كما يجلّي طريقة عيشه داخل هذا المجتمع ، وترصد من خلا ل الرواية لحظة تحول الإنسان من كينونته الواقعية إلى كينونته الرقمية الجديدة[3] .

وفي عمله الرقمي الثالث صقيع الذي يختلف عن سابقيه في كون المؤلف يوظف جميع عناصر التكنولوجيا الرقمية لخدمة النص الأدبي الذي يبدو بأنه قصة قصيرة غير أنه يحمل في ثناياه قصيدتي شعر ، ما يجعل القارئ يحار في تحديد ماهية هذا الجنس الأدبي ، كما يستخدم تقنية (الوسائط المتعددة) مستعينا بعدد كبير من الصور المتحركة ، والمؤثرات الصوتية التي تجعل النص مزيجا بين السرد الأدبي والموسيقى والسينما .

المسرحية التفاعلية :

المسرحية بوصفها جنسا أدبيا مهما دخل مجالات الرقمية الرحبة ، وهي لا تعتمد النص فقط بل تعتمد أيضا على العرض المسرحي ، الذي هو الآخر في طريقه لمثل هذا التعرض الرقمي ، لتتحول إلى مسرحية رقمية لا مكان لها على الورق ، ولا يمكن التفاعل معها أو قراءتها إلا على شاشة الانترنت ، وقد قامت بترجمة مصطلحه الغربي الدكتورة فاطمة البريكي إلى المسرحية التفاعلية ، وقد عرّفتها بأنّها : « نمط جديد من الكتابة الأدبية ، يتجاوز الفهم التقليدي لفعل الإبداع الأدبي الذي يتمحور حول المبدع الواحد ، إذ يشترك في تقديمه عدة كتّاب ، كما قد يدعى القارئ / المتلقي أيضا للمشاركة فيه ، وهو مثال العمل الجماعي المنتج ،

(1) فاطمة البريكي ، أول رواية تفاعلية في الوطن العربي ، جريدة الغد ، 3 / 6 / 2005 ،
http : //www . alghad . jo/index . php?news 26062

(2) محمد سناجلة ، رواية ظلال الواحد ، www . Sanajlehshadows . 8k . com

(3) محمد سناجلة ، رواية (شات) ، www . arab-ewriters . com/chat

الذي يتخطى حدود الفردية وينفتح على آفاق الجماعية الرحبة »[1] .

يشير الباحث والكاتب البولندي « ماريك هولينسكي » إلى وجود تجارب قليلة كانت قد بدأت عام 1966 لعرض مسرحي كومبيوتري وتحت شعار (المسرح والهندسة الآلية) فيقول : « في هذه العروض زوّد الممثلون والكادر التقني أيضا بأجهزة تلفون لاسلكي ، واستلم الممثلون تعليمات أثناء العرض تخص دورهم ، . . . وكانت الأجهزة التقنية موصولة فيما بينها بشتى السبل . مثلا الحركة على الخشبة والقاعة كانت تسجلها كاميرا تلفزيونية وحين يبدل الممثل مكانه كانت الإضاءة تتغير أوتوماتيكيا ، ولم يقتصر عمل الكومبيوتر على هذه الأمور بل كان يتجاوب مع مواقف غير متوقعة مستفيدا من حرية اختيار هذه التوصية المبرمجة أو تلك »[2] .

ويعتبر تشارلز ديمر رائد المسرح التفاعلي ، فقد ألّف أوّل مسرحية تفاعلية عام 1985 تحت عنوان « Château de Mort »[3] ، كما أسّس مدرسة لتعليم كتابة سيناريو المسرح التفاعلي في موقعه الخاص على الانترنيت عبر تقديمه دورات تعليمية متعددة ، فيكون في مسرحه التفاعلي هذا ، يؤسس لنظرية مسرحية جديدة يمكن تسميتها بـ (نظرية المسرح الرقمي)[4] .

وقد بدأت فكرة المسرح الرقمي بغرض الوصول إلى تأليف مسرحية مشتركة عبر الانترنيت بين أفراد متباعدين من جنسيات وبلدان مختلفة ، هذا التجريب في التأليف المسرحي يعد شكلا مغايرا ، فهو يقوم أولا بإلغاء شخصية المؤلف الأساس ويمكن لأي قارئ أن يكون مؤلفا آخرا بمجرد الدخول لموقع أحداث المسرحية الالكترونية ويساهم في تكملة الأحداث التي لا تنتهي ، كأن يختار شخصية معينة ويهتم بها لغرض تفعيل مسيرتها الدرامية ، ثم يأتي شخص آخر ويختار شخصية أخرى في المسرحية نفسها ويحاول أن يوسع مديات حركتها النصية وهكذا تستمر العملية بلا توقف[5] .

الأمر لم يتوقّف في حدود التأليف المسرحي التفاعلي بل تعداه إلى إنجاز

(1) فاطمة البريكي ، مدخل إلى الأدب التفاعلي ، ص 99 .
(2) ينظر : محمد حسين حبيب ، نظرية المسرح الرقمي ، صحيفة المدى العراقية ، العدد 544 بتاريخ 27 / 11 / 2005 ، http : //www . almadapaper . com/paper . php?source akbar&p 102
(3) ينظر : Charles Deemer, Watch Out, Mama, Hyperdrama's, Goanna Mess With Your Pittock Mansion; http : //www. Ibibio. org/c Deemer/ Watch Out. htm
(4) تشارلز ديمر http : //www . thetherapist . com
(5) محمد حسين حبيب ، المقال السابق .
http : //www . arab-ewriters . com/?action ShowWriter&&id 150

عرض مسرحي تفاعلي ، ولا ينحصر الجهد في العرض المسرحي في الاستعانة بما توفّره التكنولوجيا الحديثة ، بقدر ما يصل بمحاولة خلق تأثير بين العرض المسرحي والتكنولوجيات الرقمية ، لينتج نوع مسرحي جديد بخصائص جمالية جديدة .

خاتمة :

الأمر المستعجل هو التعريف بأسرار العمل الإبداعي الرقمي ، وتقريبه إلى القارئ العادي مع شرح المصطلحات المتّصلة به وتبسيطها ، والنقد الرقمي مطالب بشيء من المسؤولية والشجاعة لكشف جماليات الإبداع الرقمي ، وبيان صوره الفنية ، ومحاولة إيجاد أطر جديدة ينضوي خلالها فك أسراره ، خاصة ما تعلّق بتداخل الأجناس الرقمية ، التي تطرح بحدّة ، حيث اندمجت الرواية بالقصيدة ، بالمشهد المصوّر ، بالصوت ، بالألوان . . . ، فزالت الحدود بين أجناس تعبيرية مختلفة وانصهرت في قالب واحد ، يعبر عن هذا العصر الذي زالت فيه الحدود وتقاربت فيه المسافات وتلاشى فيه ثقل الزمن ، عصر أصبح فيه العالم قرية صغيرة .

قائمة المصادر والمراجع :

أولا : المصادر :

1 ـ محمد سناجلة ، رواية ظلال الواحد ، www . Sanajlehshadows . 8k . com
2 ـ محمد سناجلة ، رواية ظلال الواحد ، www . Sanajlehshadows . 8k . com
3 ـ محمد سناجلة ، رواية (شات) ، www . arab ـ ewriters . com/chat

ثانيا : المراجع :

1 . الكتب :

1 ـ سعيد يقطين ، النص المترابط ومستقبل الثقافة العربية ، المركز الثقافي العربي ، لبنان/ المغرب ، 2008 .
2 ـ سعيد يقطين ، من النص إلى النص المترابط (مدخل إلى جماليات الإبداع التفاعلي) ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء / بيروت ، 2005 .
3 ـ فاطمة البريكي ، مدخل إلى الأدب التفاعلي ، المركز الثقافي العربي / بيروت ـ الدار البيضاء ، 2006 .

2 . الجرائد والمجلات :

1 ـ حسن سلمان ، الأدب الرقمي يطالب بحقوقه المهدورة ، جريدة الشرق الأوسط ، العدد 10627 ، الأربعاء 24 ذو الحجة 1428 هـ 2 يناير 2008 . http : //www . asharqalawsat . com/sections . asp?section =1&issueno =10627
2 ـ محمد حسين حبيب ، نظرية المسرح الرقمي ، صحيفة المدى العراقية ، العدد 544 بتاريخ 27 / 11 / 2005 ، http : //www . almadapaper . com/paper . php?source =akbar&page =102

3 . المواقع الإلكترونية :

1 ـ محمد أسليم ، http : //www . aslim . org
2 ـ فاطمة البريكي ، في ماهية الأدب التفاعلي ، http : //www . doroob . com/?p =4134

3 إدمون كوشو ، أسئلة النقد في الإبداع الرقمي ، تر : عبده حقي . http : //www . arabworldbooks . com/ArabicLiterature/criticism .
4 محمد سناجلة ، الأدب الرقمي يكتب ويقرأ ويشاهد معا ، . http : //www . forum1 . esgmarkets . com/showthread . php?p =196187
5 ـــ محمد سناجلة ، ما بعد الكلاسيكية الرقمية ، . http : //www . arabvolunteering . org/corner/newreply . php?do =newreply&p =57271
6 ـ عبير سلامة ، الشعر التفاعلي . . طرق للعرض طرق للوجود ، http : //www . arab ـ ewriters . com/?action =ShowWriter&&id =154
7 ـ محمد أسليم ، http : //www . aslim . org/forum/viewtopic . php?t =633
8 ـ زيدان حمود ، المرئي والمسموع وتداخلات الكلمة المتخطية في قصيدة (تباريخ رقمية لسيرة بعضها ازرق) للشاعر مشتاق عباس معن ، http : //www . nasiriyeh . net/index . .
9 ـ السيد نجم ، http : //www . alriyadh . com/2005/11/24/article110008 . html
10 ـ لبيبة خمار ، الرواية التفاعلية وفن الحذف ، http : //forums . arab ـ ewriters . net/index . php
11 ـ كمال الرياحي تونس http : //kamelriahi . maktoobblog . com
12 لبيبة خمار ، http : //forums . arab ـ ewriters . net/viewtopic . php?t =2605&start =0&postdays =0&postorder =asc&highlight=
13 ـ محمد سناجلة ، رواية الواقعية الرقمية ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت / عمان ، 2005 .
14 ـ فاطمة البريكي ، أول رواية تفاعلية في الوطن العربي ، جريدة الغد ، 3 / 6 / 2005 ، . http : //www . alghad . jo/index . php?news =26062
15 ـ تشارلز ديمر http : //www . thetherapist . com
16 ـ محمد حسين حبيب ، نظرية المسرح الرقمي ، http : //www . arab ـ ewriters . com/?action =ShowWriter&&id =150

الدافعية للتعلم : أسباب انخفاضها ، وعوامل تنشيطها لدى المتعلمين

أ . عائشة بوكنوس*

مقدمة :

تعـّرف الدافعية بأنهـا طاقـة كامنـة في الكـائن الحـي، تعمـل علـى اسـتثارته ليسلك سلوكا معينا في العالم الخـارجي، ويـتم ذلـك عـن طريـق اختيارالاسـتجابة المفيدة وظيفيا له في عملية تكيفه مع بيئتـه الخارجيـة، ووضـع هـذه الاسـتجابة في مكان الأسبقية على غيرها من الاستجابات المحتملة، مما ينـتج عنـه إشـباع حاجـة معينة أو الحصول على هدف معين .

وبدراسة الدافعية فإننا نضيف إلى فهم السلوك الإنسـاني تصـورنا عـن الـدافع المحدد للهدف الذي يضعه الفرد لنفسـه، وبـذلك نخطـو خطـوة واسـعة نحـو فهـم سلوك الفرد في المجتمع .

و يعني مما سبق أن مفهوم الدافع يستخدم لوصف ما يستحث الفرد ويوجـه نشـاطه ، كمـا يسـتخدم هـذا المفهـوم بشـكل عـام لتفسـير مـا يـدور داخـل الفـرد، ولايمكـن ملاحظتـه بصـورة مباشـرة ، وإنمـا يمكـن اسـتنتاجه والاسـتدلال عليـه كديناميكيات تحرك سلوك الفرد وتوجهه، ومـن ثـم فالـدافع يجمـع بـين وظـيفتي استثارة السلوك وتوجيهه[1] .

و لاشك أن الدوافع الأساسـية البيولوجيـة كـالجوع والعطـش والنـوم والألم وغيرها هي دوافع ذات أهمية بالغة للمحافظة على بقاء الإنسـان واسـتمرار حياتـه ، لكـن هنـاك دوافـع أخـرى لا تقـل أهميتـه عنهـا، وهـي ليسـت مرتبطـة بـالنواحي البيولوجية عند الإنسان بل ارتباطها أشد بالنواحي النفسية والاجتماعية[2] .

و مفهوم الدافعية لغة : يشار إليهـا في اللغـة الإنجليزيـة بكلمـة (Motivation) وتعني محفز ، منشط ، محرك .

أما التعريف الإجرائي : لمفهوم الدافعية فلقـد تعـددت التعريفـات الإجرائيـة

---

* كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة أكلي محند أولحاج ، بالبويرة.

(1) مصطفى حسين باهي وأمينة شبلي ، الدافعية نظريات وتطبيقات ، مركز الكتاب للنشر ، 1998 ، ص 07.

(2) محمد عودة الريماوي وآخرون ، علـم الـنفس العـام ، دار المسـيرة ، الأردن ، الطبعـة الأولى ، 2004 ، ص 218.

وتنوعت وذلك بسبب اختلاف الخلفيات النظرية لعلماء النفس أي اختلاف وجهات النظر في مدارس واتجاهات علم النفس وطبيعة عملية الدافعية من حيث التعقيد في مكوناتها وخصائصها .

ومفهوم الدافعية أكثر اتساعا وشمولا من مفهوم الدافع . ويستخدم مفهوم الدافعية في علم نفس المعاصر في معنيين :

المعنى الأول : عبارة عن منظومة من العوامل المسببة للسلوك (وهنا تدخل مفاهيم الحاجات ، الدوافع ، الأهداف ، المقاصد والطموحات) .

المعنى الثاني : يتضمن وصف للعملية التي تعمل على إستشارة ومساندة النشاط السلوكي في مستوى معين .

فالدافعية إذن هي جملة من الأسباب ذات الطابع السيكولوجي والتي تفسر سلوك الإنسان من بدايته واتجاهاته ونشاطه[1] .

و سنتناول من خلال طرحنا هذا عرض بعض الأنواع الهامة من الدافعية :

1. دافعية التحصيل (الإنجاز) : Achèvement Motivation

هو دافع خاص بالإنسان دون غيره من الكائنات الحية الأخرى ويمكن تسميته بالسعي نحو التميز والتفوق ، فهناك من يرى ضرورة الاهتمام بالمهام الصعبة والوصول إلى التميز وهناك أشخاص يكتفون بأقل قدر من النجاح .

2 . الدافعية المعرفية : Cognitive Motivation

إن الأشخاص الذين يمتلكون مستوى مرتفع من الدافعية المعرفية يميلون إلى قراءة الكتب والمجلات التي تعالج موضوعات معقدة والقيام بنشاطات تتطلب القدرة على الاستدلال وحل المسائل الحسابية وهذا ليس له علاقة بالذكاء .

3 . دافعية الكفاءة : Compétence Motivation

و تشير أساسا إلى سعينا للتعامل مع البيئة بكفاءة وفاعلية ومعالجة المعلومات بشكل فاعل ، وأننا نقوم بذلك لأن لدينا دافع داخلي للتفاعل بنجاح مع البيئة التي نعيش فيها .

4 . دافعية تحقيق الذات : Actualization . Self

فحسب العالم ماسلو ، الإنسان يحقق مجموعة الحاجات الفسيولوجية

(1) محمد محمود بن يونس ، سيكولوجية الدافعية والانفعالات ، دار المسيرة ، الأردن ، الطبعة الأولى ، 2007 ، ص 13 ـ 14.

المتمثلة في الجوع ، العطش ، النوم ، الإخراج ، الجنس ، . . . الخ .

و يقوم بإشباعها وذلك يؤدي إلى ظهور مجموعة ثانية من الحاجات وهي الحاجة إلى السلامة والأمن .

أما المجموعة الثالثة فهي الحاجة إلى الحب والانتماء ، فإذا تحققت هذه الحاجات يسعى الإنسان إلى البحث عن التقدير والاحترام سواء أكان ذلك ذاتيا أم من الآخرين .

وهذه الحاجات تدفع بالإنسان إلى البحث عن الشهرة والمكانة الاجتماعية والاعتراف بالقدرات ومشاعر الأهمية ولكن الهدف الأسمى الذي يكافح الإنسان من أجل بلوغه هو تحقيق الذات[1] .

و فيما يلي أهم التعريفات التي قدمت من طرف الباحثين فيما يخص تعريف الدافعية للتعلم من المنظور النفسي الاجتماعي وعرض لأهم مكوناتها ووظائفها .

1 ـ الدافعية للتعلم : (La Motivation Scolaire)

1 ـ تعريف (Ball, 1983) : الدافعية هي العملية التي تتضمن إثارة وتوجيه السلوك والإبقاء عليه .

2 ـ تعريف (Markova, 1990) : الدافعية هي تركيبة متكاملة من العناصر تتضمن الأسباب و الأهداف والانفعالات العاطفية .

3 ـ تعريف (TARDIFF, 1992) : الدافعية للتعلم هي ما يحرك سلوك المتعلم نحو هدف أو غاية معينة، علما بأن مصدر تلك الحركة يمكن أن يكون داخليا أو خارجيا ، كما أن الدافعية ناتجة كذلك عن الإدراك الذي يحمله التلميذ عن الأهداف المنشودة من المدرسة وعن قيمة النشاطات التي يقوم بها التلميذ والقدرة على التحكم في تلك النشاطات إلى جانب ما يشعر به التلميذ اتجاه المادة واتجاه المحيط التربوي بصفة عامة .

4 ـ تعريف (ZIMMERMAN, 1990) : الدافعية للتعلم هي حالة ديناميكية لها أصولها في إدراكات المتعلم لنفسه ومحيطه والتي تحثه على اختيار نشاط معين والإقبال عليه والاستمرار في أدائه من أجل تحقيق هدف معين .

5 ـ تعريف (Viau, 1997) : الدافعية للتعلم هي حالة داخلية تحرك أفكار ومعارف المتعلم ووعيه وانتباهه وتحثه على مواصلة الأداء للوصول إلى حالة

(1) محمد عودة الريماوي وآخرون ، علم النفس العام ، دار المسيرة ، الطبعة الأولى ، 2004 ، ص 218.

توازن معرفي .

نلاحظ من كل ما سبق ذكره من تعريفات أن مفهوم الدافعية للتعلم مفهوم واسع يصعب تحديده أو حصره، وهذا لصعوبة تحديد مكونات الدافعية للتعلم والتي تختلف من نظرية لأخرى ومن بيئة ثقافية إلى بيئة ثقافية أخرى[1] .

2 ـ دور الدافعية في التعلم :

إن الدافعية شرط أساسي لحدوث التعلم ، وإنتقاء الدافعية في موقف تعليمي يحول دون حدوث التعلم ، فإذا كان الأمر يتعلق بضرورة توفر شرط الدافعية فكيف تؤثر الدافعية في التعلم؟ وللإجابة على هذا السؤال سوف نحاول أن نوضح أهم أبعاد الدافعية :

فالبعد الأول لوظيفة الدافعية : أن الدافعية تنشأ عن وجود حالة عدم اتزان بين الكائن الحي والبيئة وهذا لا يأتي إلا عن طريق نشاط معين من طرف الكائن الحي .

البعد الثاني : أنها عامل توجيهي أي أنها توجه الكائن الحي نحو وجهة معينة أو نحو غرض معين .

البعد الثالث : الوظيفة التعزيزية حيث يؤكد ثورانديك أثر العقاب في التعلم ، وأن المكافأة أو الأثر الطيب هو الشرط المرجح لتثبيت السلوك الناجح[2].

3ـ مكونات الدافعية للتعلم :

توصل الباحث Chiu عام 1967 من خلال أول دراسة أجريت بهدف تحديد مكونات الدافعية إنطلاقا من المنظور النفسي الاجتماعي إلى تحديد 05 عوامل وهي :

ـ الاتجاه الإيجابي نحو الدراسة .

ـ الحاجة إلى الاعتراف الاجتماعي .

ـ تجنب الفشل .

ـ حب الاستطلاع .

ـ التكيف مع مطالب الوالدين ، الأساتذة والأقران .

أما الباحث كوزكي فقد توصل إلى تحديد 09 عوامل أساسية ثم تبين له من خلال

(1) أحمد دوقة وآخرون ، سيكولوجية الدافعية للتعلم في التعليم ما قبل التدرج ، ديوان المطبوعات لجامعية ، 2011 ص 11 ـ 12 .

(2) ثائر أحمد غباري ، الدافعية بين النظرية والتطبيق ، دار المسيرة ، الأردن ، 2008 ، ص 41 .

الدراسات أنه يمكن تلخيص العوامل التسعة إلى خمسة عوامل أساسية وهي :

ـ الحماس

ـ الجماعة

ـ الفعالية

ـ الاهتمام بالنشاطات المدرسية

ـ المطاوعة والليونة أي الامتثال للقواعد والمطالب والواجبات المفروضة على التلميذ .

كما أن الدراسة التي قامت بها Markova حول مكونات الدافعية والتي حاولت من خلالها تحديد الأسباب والمتمثلة في الأمور التي تدفع التلميذ إلى الدراسة .

أما الأهداف فهي إدراك التلميذ لقدرته على تجسيد ما يطمح إليه .

و أما الانفعالات فقد إعتبرت أن الحالة النفسية للتلميذ أثناء عملية التعلم والمتضمنة اتجاهاته نحو المادة والمدرس وميول التلميذ وعلاقاته مع المحيط المدرسي .

و تعتبر الدراسة التي قام بها الباحث مرزوق في عام 1993 من الدراسات الهامة والنادرة في البيئة العربية حول مكونات الدافعية حيث إعتمد على مفهوم التوقع الذي جاء به أثكنسون Athkinson والذي طور من طرف أكلسAccles ووقفليد Wigfield وزملائهما عام 1993 حيث توصلوا إلى تحديد ثلاث مكونات للدافعية :

مكون التوقع : (Expectancy) ويتمثل في مدى إدراك التلميذ بأنه لديه القدرة الكافية للقيام بالعمل المدرسي المطلوب منه .

مكون القيمة : (Valence) ويشمل هذا المكون على أهداف التلاميذ وإعتقاداتهم حول أهمية وفائدة العمل الذين يقومون به .

مكون التوقع : (Affection Component) ويقصد به رد الفعل الإنفعالي للتلاميذ نحو المهمة أو النشاط الدراسي[1] .

(1) أحمد دوقة وآخرون ، سيكولوجية الدافعية للتعلم في التعليم ما قبل التدرج ، ديوان المطبوعات لجامعية ، الطبعة الأولى ، 2011 ، ص 13 ـ 16 .

4ـ وظائف الدافعية للتعلم :

إن للدافع في عملية التعلم وظائف عديدة من أبرزها :

1 . الوظيفةالاستشارية : Arousal Fonction

وتمثل أولى وظائف الدوافع في عملية التعلم ، فمن وجهة نظر نظرية التعلم فإن الدافع لا يسبب السلوك وإنما يستثير الفرد للقيام بالسلوك ودرجة الاستثارة والنشاط العام للفرد لها علاقة مباشرة بالتعلم . وأن أفضل درجة من الاستثارة هي الدرجة المتوسطة حيث إنها تؤدي إلى أفضل تعلم ممكن . فنقص الاستثارة يؤدي إلى الملل بينما الزيادة تؤدي إلى النشاط والاهتمام ، أما الزيادة الكبيرة فتؤدي إلى زيادة الاضطراب والقلق .

2 . الوظيفةالتوقعية : Expectant Fonction

يمثل التوقع اعتقادا مؤقتا بأن ناتجا ما سوف ينجم عن سلوك معين و التوقعات لها علاقة وثيقة بمستوى الطموح LevelOf Aspiration وهذا العامل له علاقة وثيقة بخبرات النجاح والفشل بالخبرات الاجتماعية للفرد .

3 . الوظيفة الانتقائية :

تقوم الوظيفة الانتقائية بعملية انتقاء السلوك عند الاستجابة بحيث توجه السلوك نحو مثير معين وتتجاهل المثيرات الأخرى .

4ـ الوظيفة الباعثية للدوافع : Inventive Fonction

يشير مفهوم البواعث إلى أشياء تثير السلوك وتحركه نحو غاية ما عند ما تقترن مع مثيرات أخرى .

فنحن نتوقع من التلاميذ أن يظهروا اهتماما أكبر بمادة دراسية يرتبط معها باعث أو ثواب أكبر من مادة أخرى لا يرتبط منها ذلك الباعث .

5ـ الوظيفة التوجيهية :

توجه السلوك تجاه هدف محدد ، فنوجه كل جهودنا نحوه .

6 . الوظيفة العقابية : Punishment Fonction

تشير الدراسات المتعلقة بالموقف التعليمي أنه يعتمد أثر العقاب على شدته ، كما أن العقاب يقوي السلوك خاصة إذا ألحق العقاب ثوابا أو حدث معه في نفس الوقت ، كما أن العقاب مؤثر فعال إذا أتبع سلوك المعاقب بسلوك بديل وإلا فلا جدوى من العقاب والعقاب لا يعلم استجابات بديلة وإنما يعمل فقط

على زوال بعض الاستجابات بشكل مؤقت[1].

5 ـ عناصر الدافعية للتعلم :

هناك عدة عناصر تشير إلى وجود الدافعية لدى الفرد وهي :

1. حب الاستطلاع : Curiosity

الأفراد فضوليون بطبعهم فهم يبحثون عن خيرات جديدة ويستمتعون بتعلم الأشياء الجديدة ويشعرون بالرضا عند تطوير مهاراتهم وكفاياتهم الذاتية .

إن المهمة الأساسية للتعليم هي تربية حب الاستطلاع عند الطلبة واستخدامه كدافع للتعلم ، فتقديم مثيرات جديدة ومتنوعة للطلبة يستثير حب الاستطلاع لديهم .

2. الكفاية الذاتية : Self Efficacy

ويعني هذا المفهوم اعتقاد فرد ما أن بإمكانه تنفيذ مهمات محددة أو الوصول إلى أهداف معينة ويمكن تطبيق هذا على الطلبة ، فالطلبة الذين لديهم شك في قدرتهم ليست لديهم دافعية للتعلم ومن مصادر الكفاية الذاتية نذكر إنجازات الأداء وهي تقسيم المهمة إلى أجزاء بحيث تضمن نجاحهم في كل جزء بإضافة إلى الخبرات البديلة وهي ملاحظة أداء الأفراد وهم ينجحون في أداء مهمتهم كما لا ننسى الإقناع اللفظي وهي عندما يقوم أفراد بإقناع شخص بأنه قادر على حل أو القيام بالمهمات الصعبة والحالة الفسيولوجية وهي ما يرافق من شعور بالفشل أو النجاح من توترات .

3. الاتجاه : Attitude

الإتجاه خاصية عادة ما تكون داخلية لا تظهر دائما من خلال السلوك ، فالسلوك الإيجابي للطلبة قد يظهرفقط بوجود الأستاذ ولا يظهر في أوقات أخرى وهناك ثلاث طرق لتغيير الاتجاه : توفير رسالة إقناعية ، نمذجة وتعزيز السلوكات المقبولة ، توفير عناصر سلوكية انفعالية للاتجاه .

4ـ الحاجة : Needs

يعرف مور في 1947 الحاجة بأنها الشعور بنقص معين إذا ما وجد تحقق الإشباع . ويرى كرتش وكرتدشفيلد عام 1948 أن الحاجة حالة خاصة من مفهوم التوتر النفسي . ويعرفها إنجلش عام 1958 بأنها شعور الكائن الحي بالافتقاد

(1) سامي محمد ملحم ، سيكولوجية التعلم والتعليم ، الأسس النظرية والتطبيقية ، دار المسيرة الأردن ، ط2 ، 2006 ، ص 148 ـ 149 .

لشيء معين .

وبناء على هذه التعريفات يمكن القول إن الحاجة هي نقطة البداية لإثارة الدافعية لدى الكائن الحي والتي تحفز طاقته وتدفعه في الإتجاه الذي يحقق إشباعها .

5ـ **الكفاءة : Compétence**

الكفاءة هي دافع داخلي نحو التعلم يرتبط بشكل كبير مع الكفاية الذاتية، والفرد يشعر بالسعادة عند نجاحه في إنجاز المهمات ويجب على الأساتذة والمعلمين أن لا يوفروا للطلبة الذين تنقصهم الكفاية الذاتية فرص النجاح فحسب، بل يجب أن يوفروا لهم مهمات فيها نوع من التحدي لقدراتهم وإثبات ذواتهم

6ـ الدوافع الخارجية : External Motivation

المشاركة الفعالة تقتضي توفير بيئة إستثارية تحارب الملل وينبغي على استراتيجيات التعلم أن تكون مرنة وإبداعية وقابلة للتطبيق وأن تبتعد عن الخوف والضغوط والأهداف الخارجية كما أن للعلامات قيمة جيدة كدافع خارجي إذا كانت عملية التقويم مخططة بشكل جيد .

والتعزيز شكل أخر من أشكال الدوافع الخارجية فبتوقف التعزيز يتوقف العمل، كما أنه يجب أن يكون لدى الطلبة دافعية داخلية لإنجاز المهمات، ولكن الدافعية الخارجية لها أيضا قيمة في نهاية العمل فقيمة التعزيز حقا نجدها في الدافعية الداخلية لكن الطلبة بحاجة إلى بناء ثقة من خلال المدح وتوفير المعززات الخارجية .

7ـ **الحافز :**

يعرف ملفن ماركس الحافز بأنه تكوين فرضي يستخدم للإثارة إلى العمليات الدافعة الداخلية التي تصحب بعض المعالجات الخاصة بمنبه معين وتؤدي بالتالي إلى إحداث السلوك ، فهو بمثابة القوة الدافعة للكائن الحي لكي يقوم بنشاط ما بغية تحقيق هدف محدد .

8ـ **الباعث :**

يشير الباعث إلى موضوع الهدف الفعلي الموجود في البيئة الخارجية والذي يسعى الكائن الحي بحافز قوي إلى الوصول إليه فهو الطعام في حالة دافع الجوع والماء في حالة دافع العطش والنجاح والشهرة في حالة دافع الإنجاز[1] .

(1) ثائر أحمد غباري ، الدافعية بين النظرية والتطبيق ، دار المسيرة ، الأردن ، 2008 ، ص 41 .

5 ـ دراسات اهتمت بالدافعية :

1 ـ و لقد أجرى الباحثون عدة دراسات حول الدافعية للتعلم نذكر من بينها دراسة Sautroch عام 2003 حيث وجد أن الطلبة ذوي الدافعية المرتفعة للإنجاز واقعيون في انتهاز الفرص بعكس منخفضي الدافعية كما بينت نتائج البحث أن ذوي الدافعية المرتفعة يكونون أكثر نجاحا في المدرسة ويحصلون على ترقيات في وظائفهم وعلى نجاحات في إدارة أعمالهم أكثر من ذوي الدافعية المنخفضة[1].

2 ـ أما عن دراسة أحمد مهدي مصطفى إبراهيم عام 1987 حول أثر تفاعل طريقتي التلقي والتعليم بالإكتشاف ومستوى الدافع المعرفي في تحصيل التلاميذ حيث تم تطبيق الدراسة على عينة عشوائية من تلاميذ الصف التاسع والذي بلغ عددها 172 تلميذ ، 88 طبق عليهم طريقة التلقي والباقي طريقة الاكتشاف .

ولقد أسفرت النتائج على وجود فروق ذات دلالة إحصائية لصالح مجموعة الإكتشاف وعدم وجود فروق دالة إحصائيا بين مجموعة الدافع المعرفي المرتفع ومجموعة الدافع المعرفي المنخفض .

وعدم وجود تفاعل دال إحصائيا بين مستوى الدافع المعرفي (مرتفع ، منخفض) والمعالجتين (التلقي ، الإكتشاف) في تأثيرهما على التحصيل الدراسي[2] .

3 ـ و عن الدراسة التي قام بها عمر العمر بدر عام 1987 وهي دراسة مسحية للدافعية لدى طلبة جامعة الكويت حيث شملت عينة الدراسة على 235 طالب وطالبة من تخصصات مختلفة وكان الهدف من الدراسة هو التعرف على الفروق في الدافعية للتعلم وإعلاء الذات وكذا وضع الأهداف حسب مختلف التخصصات الموجودة في الجامعة .

ولقد أسفرت النتائج إلى وجود فروق دالة بين درجات طلبة الكليات النظرية والكليات العلمية في متغير إعلاء الذات ووضع الأهداف .

وعن وجود فروق في الدافعية للإنجاز بين الكليتين لصالح كلية العلوم[3] .

---

(1) أصلان صبح المساعيد ، الذكاء الانفعالي وعلاقته بكل من التحصيل الأكاديمي ودافع الإنجاز ، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد 6 ، العدد 02 ، 2009 .

(2) أحمد مهدي مصطفى إبراهيم ، أثر تفاعل طريقتي التعليم بالتلقي والتعليم بالإكتشاف ومستوى الدافع المعرفي في تحصيل تلاميذ الصف التاسع من مرحلة التعليم الأساسي ، رسالة دكتوراه ، كلية التربية ، جامعة الأزهر ، 1987 .

(3) عمر العمر بدر ، دراسة مسحية للدافعية لدى طلبة جامعة الكويت ، مجلة العلوم الإجتماعية ، العدد 04 ، 1987 .

1ـ **دراسة قوتفريد Gottfried عام** 1985 :

حول الدافعية الداخلية عند تلاميذ المرحلة الابتدائية والمرحلة المتوسطة من التعليم حيث كان الهدف من الدراسة هو البحث عن مدى اختلاف الدافعية الداخلية بإختلاف المواد الدراسية، وهل هي مرتبطة ببعض المتغيرات مثل القلق وإدراك التلميذ لكفاءته؟

ولقد شملت الدراسة ثلاث عينات تكونت الأولى من 171 تلميذ ، أما العينة الثانية فتكونت من 260 تلميذ ، أما العينة الثالثة فتضمنت 166 تلميذ .

ولقد أسفرت النتائج على وجود ارتباط موجب ودال بين الدافعية الداخلية والتحصيل الدراسي قدر بـ 240[1].

2ـ **دراسة عزت عبد الله كواسة عام** 2002 :

حول الذكاء الوجداني وعلاقته بدافع الإنجاز لدى طلاب الجامعة واستهدفت الدراسة الكشف عن المتغيرات الهامة التي تحدد مفهوم الذكاء الوجداني ودافع الإنجاز وتكونت عينة الدراسة من 300 طالب وطالبة من طلبة الجامعة .

و قد أسفرت النتائج عن وجود علاقة موجبة بين متغيرات الذكاء الوجداني وبين دافع الإنجاز[2] .

6 ـ أسباب انخفاض الدافعية لدى المتعلمين :

يرجع انخفاض الدافعية نحو التعلم إلى عدة أسباب منها :

1ـ **الاستجابة لسلوك الوالدين : ويتمثل ذلك في عدة نقاط :**

ـ توقعات الوالدين : أي عندما تكون توقعاتهم مرتفعة جدا ، فإن الأطفال يخافون من الفشل وبالتالي تنخفض الدافعية لديهم .

والتوقعات المنخفضة جدا ، فقد يقدر الآباء أطفالهم تقديرا منخفضا جدا أو ينقلون إليهم مستوى طموح متدن ، وبهذا يتعلم الأطفال أنه لا يتوقع منهم إلا القليل فيستجيبون تبعا ذلك .

ـ عدم الاهتمام : فقد ينشغل الآباء بشؤونهم الخاصة ومشكلاتهم فلا يعيرون اهتماما بعمل الطالب في الجامعة أو التلميذ في المدرسة كما لو كان تعلمه ليس من شأنهم ، وقد يكون الآباء مهتمين بالتحصيل إلا أنهم غير مهتمين بالعملية التي

(1) أحمد دوقة وآخرون ، سيكولوجية الدافعية للتعلم في التعليم ما قبل التدرج ، ديوان المطبوعات لجامعية ، 2011 ص 11 ـ 12 .

(2) أمل محمد حسونة ومنى سعيد أبو ناشي ، الذكاء الوجداني ، دار العالمية للنشر ، الطبعة الأولى ، 2006 .

تؤدي إلى ذلك التحصيل .

ـ التسيب : لا يضع الآباء المتسيبون حدودا لأطفالهم ولايتوقعون منهم الطاعة وقد يعتقد البعض أن التسيب يعلم الطالب الاستقلالية ويزيد من دافعيته إلا أن ذلك يولد لدى الطالب شعورا بعدم الأمن ويخفض من دافعية للتحصيل .

ـ الصراعات الأسرية أو الزوجية الحادة : فقد تشغل المشكلات الأسرية الأطفال ولا تترك لديهم رغبة في الدراسة فكيف تكون المدرسة مهمة بالنسبة إليهم إذا كانوا يدركون أن شعورهم بالأمن مهدد بأخطار مستمرة .

ـ النبذ والنقد المتكرر : يشعر الأطفال المنبوذون باليأس وعدم الكفاءة فتنخفض بذلك دافعيتهم نحو التعلم ويظهر ذلك كما لو كان طريقة للانتقام من الوالدين .

ـ الحماية الزائدة : فكثير من الآباء يحمون الأطفال حماية زائدة لأسباب متعددة أكثرها شيوعا الخوف على سلامة الأطفال والرغبة في أن يعيشوا حياة أفضل من تلك التي عاشها الآباء .

ـ تدني تقدير الذات : يؤدي تدني تقدير الذات إلى انخفاض الدافعية نحو التعلم .

ـ الجو المدرسي غير المناسب : إن الجو التعليمي في نظام المدرسة أو في صف معين يمكن أن يؤدي انخفاض الدافعية للتعلم لدى عدد كبير من الطلاب ويعتمد جو المدرسة على مزيج من العوامل المرتبطة بالعاملين الإداريين والتعليميين فإذا كانت الروح المعنوية للعاملين في المدرسة مرتفعة فإن جو المدرسة يصبح أقرب إلى الإنجاز والتفاؤل فيما يتعلق بالتعلم وبالعلاقات الإنسانية .

وللأستاذ أو المعلم الدور الأكبر في رفع معنويات طلابه وجعل بيئة الصف دافعا قويا للتحصيل واكتساب وتعديل السلوك[1] .

7 ـ عوامل تنشيط الدافعية نحو التعلم :

إن الدافعية شرط أساسي من شروط توجيه السلوك واكتساب وتعلم المهارات المختلفة في مجالات السلوك المتباينة وخاصة في مواقف التعلم المدرسي لذلك نجد أنه من المفيد عرض أهم عوامل تنشيط الدافعية ومنها :

1ـ تركيز الانتباه على الموضوعات المطلوب تعلمها :

عادة ما ينشأ لدى الكثير في التلاميذ بعض الاهتمامات حول الأهداف التي تدور حولها الموضوعات التي يتعلمونها في المدرسة ، وبذلك يقوم المعلم بشرح هذا الموضوع ليعمل على توجيه انتباه الطلاب نحو الأهداف التي يحققها ذلك

(1) كريمان بدير ، التعلم النشط ، دارة المسيرة ، الأردن ، 2008 ، ط1 ، ص68 ـ 69 .

ويتطلب من المعلم تحديد هذه الأهداف لكي يحققها مع الطلاب وفي الدراسة التي أجراها كل من ميز وكيربتين أن مستوى أداء الطلاب يرتفع عندما يكون المعلم والطلبة قادرين على فهم الموضوعات والأهداف التي تحققها المواضيع المدروسة، وقد تبين من نتائج هذه الدراسة أن فاعلية أداء الفرد تزداد في تحقيق الهدف النهائي وأن المعلم يستطيع توجيه انتباه الطلاب باللجوء إلى كثير من الأساليب التي ترتبط بإثارة الحواس .

2- **تحقيق الحاجة إلى الإنجاز :**

الحاجة إلى الإنجاز من الحاجات الرئيسية التي ترتبط بأهداف العمل الخاصة بالمعلم ومساعدة الطلاب على تحقيق هذه الحاجة يعمل على تنشيط مستوى أدائهم وتحقيق أهم جوانب الدافعية في العمل المدرسي .

3- **تحديد الأهداف ووضوحها :**

تحديد الأهداف ووضوحها يتطلب أن يكون هناك أهداف عامة وأهداف خاصة ، فالأهداف العامة تكون بمثابة الإطار العام الذي يحدد عملية النمو والأهداف الخاصة فإنها تحدد المهارات وأساليب السلوك وطرق التفكيرالمطلوب تنميتها وعلى درجة وضوح الأهداف وتحديدها يتوقف مستوى النمو والتعلم الذي يمكن أن تحققه المدرسة للتلاميذ وعن طريق تحديد الأهداف نعطى الفرصة للطلبة لتحديد مستويات الأداء المختلفة .

4 . **تنمية الميول لتحقيق الأهداف :**

إن الاهتمام بتنمية الميول خاصة منها الميول المباشرة يساعد على تحقيق فاعلية عملية التعلم بدرجة أفضل من تنمية الميول غير المباشرة ومن الدراسات نذكر دراسة هارلوك حيث كانت نتائج الدراسة كما يلي :

أعلى أداء كان في المجموعة التي توجه لها المدح .

ثاني أداء كان للمجموعة التي وجه إليها اللوم .

تحديد مستوى العمل المطلوب تعلمه :

يتطلب مستوى العمل وملائمته لمستوى قدرات التلاميذ وإمكانياتهم أن تضع بعين الاعتبار كل من مستوى مرحلة التعلم والفروق الفردية داخل هذه الجماعة ويرتبط الإختلاف في المستوى الخاص بالعمل بمستوى القدرة بالإضافة إلى الاختلاف الكبير في مستوى العمل لدى الأفراد الذين يكونون في نفس مستوى القدرة .

الحافز :

يعتبر مفهوم الحافز من المفاهيم الدافعية التي تؤدي دورا هاما في تنشيط السلوك وتحقيق الأهداف والحافز عبارة عن مكافأة أو مصدر لإشباع الحاجة التي تظهر لدى الفرد وتقدم للفرد من خلال الموقف لتعزيز نمط السلوك المطلوب تعلمه .

الثواب والعقاب :

ويقصد بالثواب أو المكافأة ما يحصل عليه فرد آخر أو جماعة يؤدي إلى الشعور بالسرور والارتياح ويؤدي إلى احتمال تكرار الاستجابة الناجحة في مواقف كثيرة ومن أنواع الثواب عبارات التشجيع والاستحسان الهدايا الرمزية ، الحصول على مكانة اجتماعية بين الطلاب أو وضع اسمه في لوحة شرف ، هذه العوامل كلها تؤدي إلى تنشيط السلوك وأن تكون هناك منافسة بين الطلاب ، أما العقاب فإنه يؤدي إلى الشعور بالألم وعدم الرضا والعقاب أشكال كسحب الحب أو التهديد بالعقاب ، القسوة والحرمان التأنيب والزجر .

المواصلة والاستمرارية في عملية التعلم :

ترتبط تكملة موضوع التعلم بالأداء المطلوب تعلمه أو نمط السلوك المطلوب اكتسابه لكي يصبح له نمط سلوكي ثابت لدى الأفراد فيكتسبون من خلاله العوامل الدافعية اللازمة بجعل المتعلم في حالة نشاط مستمر لكي يتم تحقيق الهدف .

التقويم وسجلات التقدير :

يمكن إستخدامها في جميع المواد الدراسية عند قيام الطلاب بتسجيل نتائج التحصيل الدراسي والنشاط المدرسي اليومي أو كل أسبوع أو فترة من الفترات الأداء والتعلم ، ويستفيد المعلم من هذه النتائج في معرفة معدل الأهداف التربوية كما تعطي هده المعلومات الفرضية للأولياء في تتبع النمو التربوي لأبنائهم .

منحى التعلم :

تعتبر معرفة نتائج الأداء بواسطة منحيات التعلم من العوامل التي تنشط الدافعية لدى الطلاب نحو ممارسة العمل أو المهارة والمطلوب تعلمها في أغلب المواد الدراسية .

الممارسة :

تعتبر الممارسة شرط هام من شروط التعلم وتعتبر خاصة من خصائص البيئة التي توفر التعلم الإيجابي فلا يتحقق التعلم دون ممارسة الاستجابات التي

تحقق اكتساب المهارة[1] .

8ـ الأساليب الإرشادية لرفع مستوى الدافعية ادى المتعلمين :

ـ توجيه انتباه الطلاب منخفضي الدافعية إلى ملاحظة نماذج (قدوة) من ذوي التحصيل الدراسي المرتفع وما حققوه من ذلك .

ـ مساعدة الطلبة على ادرك إمكانية النجاح لما يملكونه من قدرات وإبداعات على تخطي الجوانب السلبية والأفكار غير العقلانية والتي قد تكون مسيطرة عليهم .

ـ تنمية ورعاية قدرات الطالب العقلية مع السعي إلى زيادة إدراك أهمية التعلم كوسيلة للتقدم والارتقاء .

ـ ضبط المثيرات واستثارة المواقف وذلك بتهيئة المكان المناسب للطالب وإبعاده عن مشتتات الانتباه وعدم الانشغال بأي سلوك أخر عندما يجلس للدراسة وإستثمار المواقف التربوية بما يدعم عملية الدافعية .

ـ إثراء المادة الدراسية بفعالية وتوفر الوسائل والأنشطة المساعدة على ذلك .

ـ تنمية وعي الطالب بأهمية التعلم .

ـ إبراز أهمية النجاح في سعادة الفرد وفق الإستجابة الإيجابية .

ـ تنمية الإبداعات وتشجيع المواهب .

ـ إيجاد حلول تربوية لمشكلات الطالب النفسية والصحية والأسرية . . . إلخ .

ـ تنمية بيئة التعلم بشكل إيجابي .

ـ مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين عند التعامل من قبل المعلمين والأولياء .

ـ المعلم الناجح هو الذي يبذل جهده في فهم دوافع المتعلمين حتى يتمكن من تحقيق أكبر قدر من التعلم الهادف والنشط بين المعلمين .

ـ أهمية الحوافز المادية والمعنوية في تثبيت التعلم أو نموه .

ـ توجيه ميول المتعلمين نحو نشاط معين واستخدام المنافسة بقدر مناسب بينهم .

ـ تقنيين الثواب والعقاب داخل الأسرة والمدرسة إذ إن ذلك يؤثر على دافعية التعلم إيجابا أو سلبا .

(1) كريمان بدير ، التعلم النشط ، دارة المسيرة ، الأردن ، 2008 ، ط1 ، ص 61 ـ 66 .

ـ عدم لجوء المعلمين والآباء إلى أسلوب المقارنة بين المتعلمين خاصة الإخوة منهم .

ـ أن لا يكون الدافع (الطموح) نحو التعلم أكبر من قدرات وإمكانيات المتعلم حتى لا يصاب بالفشل[1] .

خاتمة :

اهتم موضوع مقالنا بمفهوم جد مهم وهو من الموضوعات الهامة التي شغلت أذهان الباحثين في علم النفس خصوصا في مجال التربية والتعليم ألا وهو الدافعية للتعلم ولعل فهم الدور الذي تلعبه الدافعية في السلوك وكيفية الإستفادة منه يؤدي إلى اهتمام التلاميذ بما يتلقونه من دروس ، كما يشعرهم بأهمية التحصيل الدراسي .

و تلعب الدافعية دورا حاسما في التعلم بنوعيها الداخلي والخارجي إلا أن كثيرا من الدراسات أثبتت أن الدافعية الداخلية أكثر أثرا وأشد قوة في استمرار السلوك التعليمي من الدافعية الخارجية كالمعززات ، المحفزات كون أن الأولى ترتبط بحاجات ، قيم ، اتجاهات واهتمامات، لذا فهي تترك أثرا أعمق .

و لقد حاولنا من خلال هذا المقال تحديد مفهوم الدافعية للتعلم بالرغم من أن هذا المفهوم واسع ويصعب تحديده أو حصره لصعوبة تحديد مكونات الدافعية للتعلم والتي بدورها تختلف من نظرية لأخرى ومن بيئة ثقافية إلى بيئة ثقافية أخرى وتبقى الدافعية شرط أساسي لحدوث عملية التعلم ، كما أنه يمكننا التعرف على مدى وجودها عند الفرد من خلال عناصر تعرف بعناصر الدافعية .

وقد تنخفض الدافعية لدى المتعلمين وذلك راجع لعدة أسباب وعوامل نذكر على سبيل المثال لا الحصر ، توقعات الوالدين ، الصراعات الأسرية ، الجو المدرسي غير المناسب ، . . . وغيرها .

و يبقى للأستاذ أو المعلم طبعا الدور الأكبر في رفع معنويات طلابه وجعل بيئة الصف دافعا قويا للتحصيل .

قائمة المراجع

1 ـ أحمد دوقة وآخرون ، سيكولوجية الدافعية للتعلم في التعليم ماقبل التدرج ، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2011 .

2 ـ أحمد مهدي مصطفى إبراهيم ، أثر تفاعل طريقتي التعليم بالتلقي والتعليم بالإكتشاف ومستوى الدافع المعرفي في تحصيل تلاميذ الصف التاسع من مرحلة التعليم الأساسي ، رسالة دكتوراه ، كلية التربية ، جامعة الأزهر ، 1987 .

(1) كريمان بدير ، التعلم النشط ، دارة المسيرة ، الأردن ، 2008 ، ط1 ، ص 66 ـ 67

3 ـ أصلان صبح المساعيد ، الذكاء الإنفعالي وعلاقته بكل من التحصيل الأكاديمي ودافع الإنجاز ، مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية المجلد 6 ، العدد 02 ، 2009 .
4 ـ أمل محمد حسونة ومنى سعيد أبو ناشي ، الذكاء الوجداني ، دار العالمية للنشر ، الطبعة الأولى ، 2006 .
5 ـ محمد عودة الريماوي وآخرون ، علم النفس العام ، دار المسيرة الأردن ، ط1 ، 2004 .
6محمد محمود بن يونس ، سيكولوجية الدافعية والانفعالات ، دار المسيرة ، الأردن ، الطبعة الأولى ، 2007 .
7 ـ مصطفى حسين باهي وأمينة شبلي ، الدافعية نظريات وتطبيقات ، مركز الكتاب للنشر ، 1998 .
8 ـ ثائر أحمد غباري ، الدافعية بين النظرية والتطبيق ، دار المسيرة ، الأردن ، 2008 .
9 ـ رندا سهيل رزق الله ، فاعلية برنامج تدريبي لتنمية مهارات الذكاء الوجداني ، دراسة تجريبية في مدارس دمشق ، رسالة الدكتوراه في علم النفس ، 2006 .
10 ـ سامي محمد ملحم ، سيكولوجية التعلم والتعليم ، الأسس النظرية والتطبيقية ، دارالمسيرة ، الأردن ، ط2 ، 2006 .
11 ـ عمر العمر بدر ، دراسة مسحية للدافعية لدى طلبة جامعة الكويت ، مجلة العلوم الإجتماعية ، العدد 04 ، 1987 .
12 ـ كريمان بدير ، التعلم النشط ، دار المسيرة ، الأردن ، ط1 ، 2008 .

المساندة الاجتماعية وعلاقتها بقلق الموت لدى المصابات بسرطان الثدي

د . شهرزاد بوشدوب*

مقدّمة

يسعى الإنسان عادة في هذه الحياة من أجل تحقيق طموحاته ليضمن بذلك لنفسه حياة كريمة ، هذه الحقيقة وللأسف لا تشمل جميع الناس ، فالكثير منهم لسبب من الأسباب لم يسعفه الحظ لتجسيد ولو جزء بسيط من هذه الطموحات وتعود هذه الأسباب أغلبها إلى الإصابة بأحد الأمراض المزمنة .

فالمرض مهما كان نوعه موقف ضاغط طارئ يهدّد سلامة الكيان الإنساني جسديا ونفسيا بشكل يفرض على المريض قيودا على نشاطاته الاعتيادية والاستمتاع بحياته .

فالإنسان منذ أن وجد عرف معنى المرض لذلك حاول جاهدا الشفاء منه بأنواع مختلفة ومتعدّدة ، لأنّ الصحة نفسية كانت أم جسدية قيمة يسعى الإنسان دوما الحصول عليها والاحتفاظ بها كما يسعى فاقدها إلى كسبها ، إذا كان يحدث هذا مع أغلب الأفراد حتى في الأمراض البسيطة فما بالنا إذا تعلّق الأمر مع الأمراض المزمنة أو من النوع المستفحل الذي يحتاج إلى معالجة مستمرّة ينجم عنها آثار جانبية بغيضة ومنهكة للمريض ، فبمجرّد إدراك الشخص أنّ مرضه عضال وأنّ حالته لا تتقدّم وأنّ فترة المرض قد تطول عندئذ يشعر باليأس من جدوى أية معالجة جديدة ، إذ يبدو أنّ كلّ إجراء علاجي يحمل في طياته تهديدا جديدا بالموت وتأكيدا على أنّ المرض لم يتمّ إيقافه .

من بين هذه الأمراض المزمنة والخطيرة في نفس الوقت لدينا مرض السرطان الذي بات يهدّد فئة كبيرة من الناس فهو بالنسبة للأغلبية كحكم بالإعدام أو الموت .

فرغم التطوّر الطبي في طرق العلاج إلاّ أنّ نسبة انتشاره في تزايد مستمر خصوصا في السنوات الأخيرة حيث سجّل في الجزائر سنة (2005) مثلا أكثر من (30.000) حالة جديدة ، ويعتبر سرطان الثدي وهو موضوع دراستنا أحدى أنواعه

* قسم علم النفس وعلوم التربية ، جامعة الجزائر 2.

والذي يحتلّ المرتبة الأولى لدى النساء وهذا ما تؤكده التقارير الصحية التابعة للمعهد الوطني للصحة العمومية حيث يسجّل سنويا زيادة مقلقة في عدد المصابات بسرطان الثدي وفي أغلبية هذه الحالات يتمّ اللّجوء لعملية بتر نتيجة التشخيص المتأخّر واستفحال المرض[1] .

و يعتقد معظم المصابين بهذا الداء أنّ حياتهم في خطر دائم وأنّهم لن يعيشوا طويلا ، إنّها صورة الموت التي تلاحقهم وتنغّص عليهم عيشهم إنّهم يعيشون حالة من الرعب الداخلي المستمر ممّا يؤثّر سلبا على حالتهم الصحية كما أنّ هاجس الموت عند هؤلاء المصابين يبدأ منذ تشخيص المرض لأنّ المصاب يعلم مسبّقا أنّ نسبة الشفاء منه ضئيلة أو تكاد تكون منعدمة وفي هذا الصدد [2] يقال : « بأنّ المصاب بالسرطان تصبح لديه نظرة متشائمة للمستقبل إلى جانب الخوف المستمر من الحالة التي سيؤول إليها . هذا ما كشفت عنه أيضا دراسة « كوتاري » وآخرين Kothari & al (1998) حيث وجدت أنّ قلق الموت يكون شائعا بدرجة جوهرية بين مرضى الأورام السرطانية وذلك بالمقارنة بكل من مرضى القلب ومرضى الضغط[3] .

هنا تصبح المساندة الاجتماعية بالنسبة للمريض أكثر من ضرورة وصورة علاجية له لدعم تقبّله لمرضه وتقوية أمله في الحياة ، فهناك من الدلائل ما يشير إلى أنّ المساندة الاجتماعية ربّما تطيل من عمر مرضى السرطان هذا ما كشفت عنه دراسة « لاي » وآخرون Lai & al (1999) حيث وجدت أنّ مرضى السرطان المتزوّجين تمكّنوا من البقاء بدرجة تفوق المرضى من غير المتزوّجين أو من المنفصلين عن شركائهم أو المطلّقين أو الأرامل[4] .

نفس الشيء أسفرت عنه دراسة « سبيي جيل » وآخرون Spiegel & al (1989) حيث وجدت أنّ مريضات سرطان الثدي اللاّتي شاركن في لقاءات أسبوعية ضمن جماعات المساندة الاجتماعية استطعن العيش لمدّة أطول ممّن لم يشاركن في هذه الجماعات[5] .

بناء على ذلك نستنتج أنّ المساندة الاجتماعية تلعب دورا هاما في تعديل العلاقة بين المرض والحالة الصحية ، فهي تقوّي وتعزّز رغبة المريض في الشفاء

(1) Bouzid, 2005 : 6.
(2) محمد خليفة بركات ، 1975 : 13.
(3) هناء أحمد الشويخ ، 2007 : 161.
(4) شيلي تايلور ، 2008 : 822.
(5) المرجع السابق ، 2008 : 822.

كما تزيد من إرادته في الاستبصار بذاته وتقبّله لمرضه لأنّ المساندة الاجتماعية باختصار في نظر البعض[1] : « هي التي تنقل إلينا الإحساس والشعور بأنّنا لسنا بمفردنا في مواجهة الضغوط أو التهديد كما تترك لدينا انطباعا بأنّنا محل الرعاية والتقدير والاحترام» .

مشكلة الدراسة

في ظلّ المعطيات النظرية السابقة تبلورت لدينا مجموعة من الأسئلة وهي كالتالي :

ـ هل توجد حقيقة علاقة بين المساندة الاجتماعية ودرجة الشعور بقلق الموت لدى المصابات بسرطان الثدي؟

ـ هل توجد فروق بين منخفضات ومرتفعات المساندة الاجتماعية في درجة الشعور بقلق الموت لدى المصابات بسرطان الثدي؟

ـ هل يوجد اختلاف بين منخفضات ومرتفعات المساندة الاجتماعية في أبعاد قلق الموت لدى المصابات بسرطان الثدي؟

فرضيات الدراسة

للإجابة على أسئلة الدراسة صيغت هذه الفرضيات :

ـ توجد علاقة بين المساندة الاجتماعية ودرجة الشعور بقلق الموت لدى المصابات بسرطان الثدي .

ـ توجد فروق بين منخفضات ومرتفعات المساندة الاجتماعية في درجة الشعور بقلق الموت لدى المصابات بسرطان الثدي .

ـ يوجد اختلاف بين منخفضات ومرتفعات المساندة الاجتماعية في أبعاد قلق الموت لدى المصابات بسرطان الثدي .

أهمية الدراسة

تأتي أهمية الدراسة الحالية من أهمية المتغيّرات التي تتناولها والمتمثّلة في المساندة الاجتماعية وقلق الموت عند المصابات بسرطان الثدي خاصة ونحن نعلم أنّ المساندة الاجتماعية تلعب دورا حيويا لا يستهان به في تعديل العلاقة بين الأعراض المرضية للسرطان والتجاوب الإيجابي للعلاج فهي تعتبر من العوامل الواقية من تفاقم المرض واستفحاله ، كما تقوم بتخفيف من وطأة المشاعر السلبية

(1) بشرى إسماعيل أحمد ، 2004 : 90.

المرتبطة بقلق الموت لدى المريضات .

كما تكمن أهمية الدراسة أيضا من الناحية النظرية والتطبيقية في توفير قدر من البيانات والمعلومات تكشف عن حقيقة العلاقة الموجودة بين كلّ من المساندة الاجتماعية ودرجة الشعور بقلق الموت لدى المصابات بسرطان الثدي ، كما تحاول التعرّف أيضا عن الفروق الموجودة بين منخفضات ومرتفعات المساندة الاجتماعية لدى المصابات بسرطان الثدي في درجة شعورهنّ بقلق الموت ككل وفي أبعاده الثلاث المتمثّلة في (التفكير المستمر بالموت ، سيطرة فكرة الموت وتكرار فكرة الموت) .

وأخيرا تسعى هذه الدراسة إلى تسليط الضوءعلى الجانب الوقائي وذلك فيما تقدّمه من توصيات بشأن فوائد المساندة الاجتماعية بالنسبة للصحة الجسمية والنفسية لمريضات سرطان الثدي ، كما نأمل أن تساعد أيضا على دفع جهد أكبر نحو الاستفادة أكثر من مزايا المساندة الاجتماعية بالنسبة لهذه الشريحة من المجتمع .

إطار النظري ومصطلحات الدراسة

أوّلا : المساندة الاجتماعية Social Support

يعتبر مصطلح المساندة الاجتماعية في علم النفس حديث العهد مقارنة إلى حقيقته كظاهرة إنسانية فهي قديمة قدم الإنسان نفسه ، فلا يمكننا تصوّر كائن بشري وحتى حيواني بدون مساندة ذويه عند الحاجة .

والجدير بالذكر أنّ علماء الاجتماع هم أوّل من استعمل هذا المصطلح في إطار تناولهم للعلاقات الاجتماعية حيث صاغوا اصطلاح شبكة العلاقات الاجتماعية الذي يعتبر البداية الحقيقية لظهور مصطلح المساندة الاجتماعية[1] .

و لقد عرّفها « ساراسون » وآخرون Sarason & al (1986) : « بأنّها الاعتقاد بوجود بعض الأشخاص الذين يمكن للفرد أن يثق فيهم والذين يتركون لديه انطباعا بأنّهم يحبّونه ويقدّرونه ويمكنه اللّجوء إليهم والاعتماد عليهم عندما يحتاجهم »[2] .

أما بالنسبة لـ « كوهين » وآخرون Cohen & al (1989) تعني هذه الكلمة : « إدراك الفرد بأنّ هناك أشخاص من المحيط العائلي ، الأصدقاء وزملاء العمل

(1) محمد محروس الشناوي ، محمد السيد عبد الرحمان ، 1994 : 3.
(2) معتز سيد عبد الله ، 2000 : 25.

يمكن الاعتماد عليهم للمساعدة إزاء الصعوبات التي يواجهها »[1]

كذلك يعرّفها « فوكس » Vaux (1992) : « بأنّها مجموعة من العلاقات يتلقى الفرد من خلالها العون للتعامل مع المطالب وبلوغ الأهداف »[2] .

و في رأي **محمد محمد بيومي خليل**[3] : « تشير المساندة الاجتماعية إلى كل دعم مادّي أو معنوي يقدّم للمريض بقصد رفع روحه المعنوية ومساعدته على مجابهة المرض وتخفيف آلامه العضوية والنفسية الناجمة عن المرض » .

أخيرا نختم بوجهة نظر **هناء أحمد شويخ**[4] التي تعرّف المساندة الاجتماعية : « بأنّها إدراك الفرد لوجود أشخاص مقرّبين له ، يثق فيهم ، ويهتمّون به في أوقات الأزمات يمدّونه بأنماط المساندة المتعدّدة ، سواء في صورة عطف أو في صورة تقدير واحترام أو في صورة مساعدة مادّية ، أم في صورة علاقات حميمة مع الآخرين أم كلّهم معا » .

بناء على ما تقدّم يظهر أنّه من الصعب أن نجد تعريفا شاملا لكل المعاني التي يتضمّنها هذا المصطلح كونه جدّ مركّب وكلّ تناوله من زاويته الخاصة ، فبعضهم اقتصرها إلى مجرّد إدراك الفرد لها والرضا عنها بينما ركّز آخرون على الوظائف النوعية لها أي ما يستقبله الشخص مثلا من مساندة انفعالية ، مادّية أو معرفية ، كما عرّفت أيضا من خلال شبكة علاقات الفرد التي يمكن الرجوع إليها عند الحاجة . فرغم تباين الباحثين في وجهات النظر بشأن المساندة الاجتماعية إلاّ أنّ الكل أجمع على أهمّيتها ، إذ تعدّ بالنسبة للفرد من أهمّ المصادر الأساسية يحتاج إليها ولا يمكن الاستغناء عنها بأيّ حال من الأحوال ، فهي ضرورية لاستمرار حياة الإنسان وبقائه ، فهي تشبه على حدّ تعبير « كوهين » و« ويلس » Cohen & Wills (1985) القلب الذي يضخّ الدم إلى سائر أعضاء الجسم بما أنّها هي التي تزوّد الفرد بمقوّمات الرعاية والحب وإحساسه بالقبول من البيئة المحيطة به ، وهي التي تدعّم حياته بالانتماء إلى مجتمعه الذي يعيش فيه ، وتعزّز لديه الشعور بالتقدير والاحترام ، كما أنّ زيادة معدّلات المساندة الاجتماعية تؤدّي إلى الإحساس بالسعادة والتمتّع بالصحة النفسية والعقلية وأنّ نقص معدّلاتها لدى الفرد يرتبط بزيادة الاضطرابات النفسية والمشكلات السلوكية[5] .

(1) Paulhan ; Bourgeois, 1995 : 37
(2) Laireiter & al, 1997 : 124.
(3) محمد محمد بيومي خليل ، 1996 : 100.
(4) هناء أحمد شويخ ، 2007 : 91.
(5) علي عبد السلام علي ، 2005 : 97.

بالنسبة لهذه الدراسة تعرف المساندة الاجتماعية إجرائيا في كلّ ما يقدّم لمريضات سرطان الثدي من دعم مادّي أو معنوي أو كليهما معا من طرف الأسرة أو خارجها بقصد رفع من روحهنّ المعنوية ومساعدتهنّ على مجابهة المرض كما يظهر من خلال الدرجة التي تحصل عليها المريضة على مقياس المساندة الاجتماعية لـ « عفاف عبد الفادي دانيال »(2008) الذي تتراوح درجته بين(42) و(168) درجة ، فكلّما ارتفعت العلامة عن (126) درجة فما فوق اعتبرت من اللّواتي تتلقّين قدر مناسب من المساندة الاجتماعية أقلّ من ذلك يعني أنّها تتلقّى قدر محدود من المساندة الاجتماعية .

ثانيا : قلق الموت Death Anxiety

يعتبر قلق الموت حسب **فاروق السيد عثمان**[1] أحد أنظمة القلق التي هي أساس كلّ قلق ، لذا وجب علينا التعرّف أوّلا على مفهوم القلق يليها قلق الموت ، ومنه يعرف القلق عند **محمد حامد زهران**[2] **:** « بأنّه انفعال مكتسب واستجابة انفعالية غير سارّة لخطر فعلي أو رمزي يهدّد أمن الشخص وطمأنينته ، يتميّز بالتوتّر والشعور بالكدر والخوف الغامض من المجهول يصحبه إثارة الجهاز العصبي التلقائي ، ويصاحبه بغض التغيّرات الفيزيولوجية خاصة عندما تكون نوبة القلق حادّة » .

في حين يعرف قلق الموت حسب « تمبلر » (1974) Templer : « بأنّه حالة انفعالية غير سارّة يعجّل بها تأمّل الفرد في وفاته هو »[3] .

أما **أحمد محمد عبد الخالق**[4] فيعرّفه على النحو التالي : « بأنّه نوع من القلق العام يتركّز حول موضوعات متّصلة بالموت والاحتضار لدى الشخص أو ذويه » .

و بالنسبة لـ « محمد إبراهيم عيد »(1993) يتمثّل قلق الموت : « في شعور الفرد الدائم بأنّ الموت يتربّص به حيثما كان وأينما اتجه في يقظته ومنامه ، في حركته وسلوكه وتفكيره الأمر الذي يجعله حزينا ومحسورا ومتوجّسا[5] .

أخيرا نختم بوجهة نظر[6] التي ترى : « بأنّ قلق الموت يشير إلى حالة

(1) فاروق السيد عثمان ، 2001 : 74.
(2) محمد حامد زهران ، 2000 : 71.
(3) أحمد محمد عبد الخالق ، 1987 : 38.
(4) 1987 : 38.
(5) سلطان بن موسى العويضة ، 2001 : 133.
(6) هناء أحمد الشويخ ، 2007 : 118.

انفعالية مكدّرة ومشاعر شك وعجز وخوف تتركّز حول موضوعات متّصلة بالموت والاحتضار لدى الشخص المصاب بالأورام السرطانية » .

أما في الدراسة الحالية فيتحدّد قلق الموت إجرائيا بالدرجة التي تحصل عليها المريضة بسرطان الثدي من خلال استجابتها على مقياس قلق الموت لـ « أحمد محمد عبد الخالق » (1987) .

ثالثا : سرطان الثدي Breast Cancer

يعتبر السرطان مرض القرن والذي يمكن أن يهاجم أيّ جزء من أجزاء الجسم ، ويتشكّل به تكاثر مرعب للخلايا والذي يزيد من مخاوف الناس هو فشل العلم في معرفة كلّ أسبابه العضوية رغم النجاح الجزئي في إيقاف خطره المميت جراحيا ، إشعاعيا ، كيميائيا وهرمونيا .

و اشتقّ اللّفظ الإنجليزي للسرطان من الكلمة اليونانية « كارسينوما » (Carcinomas) أي « السلطعون البحري » وهو حيوان يتّسم بضخامة في وسط جسمه وامتداد مخالبه وهو أوّل شكل ملاحظ لذلك المرض[1] .

و ينجمّ السرطان عن خلل في المادّة الوراثية الجينية (DNA) التي تمثّل في خلايا الإنسان الجزء المسؤول عن السيطرة على نموّ الخلايا وتكاثرها ، فخلايا جسم الإنسان تتكاثر بشكل منتظم وبطيء ، لكن في حالة السرطان يحدث الخلل في المادّة الوراثية الجينية ممّا يؤدي إلى تسارع زائد في نموّها وانتشارها ومن المعروف أنّ الخلايا السرطانية بعكس خلايا الجسم الأخرى لا تفيد الجسم وإنّما تستنزف طاقاته وإمكانياته[2] .

فسرطان الثدي مثلا يعدّ من الأورام الخبيثة ، فهو عبارة تشوّه نسيجي غير طبيعي حيث يفلت نموّه عن المراقبة المناعية العضوية وذلك لكون الخلية تخضع للتغيّر في مورّثها تحت تأثير العوامل المولّدة لانقسام الخلوي في العضوية[3] .

و بالنسبة للدراسة الحالية فقد تمّ تحديد مريضات سرطان الثدي بالرجوع إلى الملف الطبي للمريضة بقسم الأورام السرطانية « بيار ماري كوري » مصلحة أورام الثدي لسنة (2010) بالمركز الجامعي « مصطفى باشا » للجزائر العاصمة .

(1) هناء أحمد شويح ، 2007 : 31.
(2) شيلي تايلور ، 2008 : 811.
(3) سارة روزنتال ، 2001 : 117.

الدراسات السابقة

إنّ الموت بالنسبة للعديد من الناس يأتي فجأة ، إلاّ أنّ معظم الذين يعـانون من الأمراض الخطيرة كمرض السرطان يدركون بأنّهم يموتون قبـل مـوتهم الفعلـي بفترة من الزمن ، فالأمراض المستفحلة يصاحبها عادة وعي تدريجي بـالموت ممّـا يؤثّر سلبا على الصحة الجسمية والنفسية للمرضى ، لذلك فهم بحـاجة ماسـة إلى المساندة الاجتماعية من قبل المحيطين بهم وفي هذا الصدد يرى « رودين » Rodin (1985) أنّه في بعض الظروف التي يشعر فيها الأفراد بالخوف والشـك وفقـدان الثقـة وعندما يتهدّد إحسـاسهم بالـذات ، كنتيجـة لـذلك فـإنّ العديـد مـنهم يمـرّ بخـبرة الحـاجة الشديدة لإيضاح مـا يحـدث لـه والحصـول علـى مسـاندة الآخـرين لكـي يطمئنوا ويهدءوا[1] .

نفس الشـيء بالنسـبة لــ « سـباكابان » وآخـرون Spacapan & al (1988) فهـم يجدون في المساندة الاجتماعية بأنّها تملـك القـوّة بجعـل الفـرد يغيّـر مـن إدراكـه للموقف الضـاغط كما تمنحه القوّة والقدرة على الـتحكّم والتعامـل مـع الضـغوط ، لأنّها تعمل على إضعـاف من قوّة الضاغط وفي المقـابل تزيد من قوّة الفرد بجعلـه أكثر إدراكا لقدراته[2] .

هذا ما تؤكّده لنا دراسـة[3] الـتي أجراهـا علـى عيّنـة قوامهـا (120) مـريض بمرض مفضي إلى الموت حيث توصّل إلى وجود علاقة موجبة دالّة بين المسـاندة الاجتماعية للمرضى في صورها المختلفة طمأنـة المـريض علـى حالتـه الصـحية ، تقوية أمله في الحيـاة وتقبّلـه والترويـح عنـه إلى غـير ذلـك وخفـض قلـق المـوت وتقوية إرادة البقاء لديه .

نفس الشيء توصّـل إليـه « أجيـؤورم » وآخـرون Hageoorm & al (2000) في محاولة منهم لمعرفة طبيعة الدعم الذي يقدّمه المقرّبون ومدى تأثيره على مسـتقبل مرضى السرطان وحياتهم حيـث وجـدوا أنّ الانخـراط في حـوارات مـع المـريض حول السرطان وإيجاد الطرق البناءة لحلّ المشـكلات كانـت مفيـدة للغايـة ، بينمـا اتّضح أنّ انزواء المريض وابتعـاده عن الآخـرين بـل واختفـاءه عـن المجتمـع كلّهـا أمورا تزيد من درجة قلقه وتخوّفه[4] .

(1) معتز سيد عبد الله ، 2000 : 25.
(2) Paulhan ; Bourgeois, 1995 : 39.
(3) محمد محمد بيومي خليل ، 1996 : 166.
(4) شيلي تايلور ، 2008 : 822.

كذلك أظهرت دراسة « ألفري » وآخرين Alferi & al (2001) والتي أجريت على عيّنة قوامها (51) مريضة بأورام الثدي إلى أنّ المساندة الوجدانية تعدّ من أهمّ أنماط المساندة التي يحتاجها مرضى الأورام السرطانية سواء من الأصدقاء أو الأزواج أمّا المساندة الأدائية فتعدّ أفضل عندما تقدّم من الأزواج وكلاهما يسبّبان خفضا في المشقة بعد الجراحة ويخفّفان من وطأة المشاعر السلبية المرتبطة بقلق الموت لدى المرضى ، نفس الشيء أسفرت عنه دراسة « بلافيا » Bellavia (2002)[1] .

بهذا القدر نصل إلى حقيقة مفادها أنّ المساندة الاجتماعية ليست بالأمر الهيّن فهي تخدم أغراضا متعدّدة منها مساعدة المريض على التكيّف مع المرض وتوفير تغذية راجعة حول سلوكاته ومكافأة السلوك المناسب وإعطاء معلومات يحتاجها المريض من أجل طمأنته وتحسين درجة تكيّفه مع المرض ومن ثمّ تقوية رغبته في الشفاء .

إجراءات الدراسة

منهج الدراسة

اعتمدت الدراسة الحالية على المنهج الوصفي الذي يقوم حسب[2] على مجموعة من الإجراءات البحثية التي تتكامل لوصف الظاهرة أو الموضوع اعتمادا على جمع الحقائق والبيانات وتصنيفها ومعالجتها وتحليلها تحليلا كافيا ودقيقا لاستخلاص دلالتها والوصول إلى نتائج أو تعميمات عن الظاهرة أو الموضوع محل البحث .

عيّنة الدراسة

فيما يخصّ عيّنة الدراسة الحالية فقد تمّ استخراجها بالطريقة القصدية أو الهدفية وهي نوع من العيّنات التي يتمّ فيها انتقاء الأفراد بشكل مقصود من قبل الباحث نظرا لتوفر بعض الخصائص في أولائك الأفراد دون غيرهم ولكون تلك الخصائص هي من الأمور الهامة بالنسبة للدراسة وفي هذا الصدد يشير « ديلون » وآخرون Dillon & al (1992) إلى أنّ هذا النوع من العيّنات الغير الاحتمالية قد تكون في بعض أنواع البحوث ممثّلة لمجتمع الدراسة الأصلي وتعطي نتائج جيّدة

(1) هناء أحمد شويخ ، 2007 : 162.
(2) بشير صالح الرشيدي ، 2000 : 59.

وتخدم أهداف البحث بشكل أفضل من العيّنة العشوائية[1] .

و بهذا تكوّنت عينة الدراسة الحالية من (48) مريضة بسرطان الثدي بمتوسط عمر (45ـ50 سنة) كما جاء اختيارهنّ على أساس حالتهنّ الاجتماعية حيث تمّ الاحتفاظ بالمتزوّجات التي لديها أطفال احتراما لعبارات مقياس المساندة الاجتماعية المطبّق في هذه الدراسة .

أدوات الدراسة

تماشيا مع موضوع دراستنا تمّ الاعتماد على الأدوات التالية :

مقياس المساندة الاجتماعية

قام بإعداد هذا المقياس « سيندر » (2001) Sender وقامت « عفاف عبد الفادي دانيال »(2008) بترجمته وإعداده للبيئة العربية ويتكوّن المقياس من (42) بندا مقسّمة على بعدين بعد المساندة الاجتماعية داخل إطار الأسرة وبعد المساندة الاجتماعية خارج إطار الأسرة ويقوم المبحوث باختيار الإجابة من أربع إجابات (موافق تماما ، موافق بصفة عامة ، موافق إلى حدّ ما ، غير موافق) ، ويتمّ الحصول على درجة كلية للمقياس تتراوح بين (42 ـ 162 درجة) .

أما فيما يخصّ ثباته استخدمت معدّة المقياس ثبات التجزئة النصفية وثبات ألفا كرونباخ حيث توصّلت إلى معامل ثبات مقداره (0.86) بالنسبة للتجزئة النصفية و(0.84) بالنسبة لألفا كرونباخ ، يتّضح من النتائج أنّ معاملات ثبات عالية ومرتفعة تشير إلى مدى ما يتمتّع به المقياس من قدر عالي ومرتفع من الثبات .

أما الصدق فقد تمّ حسابه بطريقتين الصدق العاملي والصدق الاتّساق الداخلي ، فبالنسبة للصدق العاملي فقد أظهرت النتائج تشبّع بعدي المقياس بالخاصية التي وضع لقياسها ، نفس الشيء بالنسبة لنتائج معاملات صدق الاتساق الداخلي بين الدرجة على البعد الفرعي وبين الدرجة الكلية حيث تراوحت بين (0.89 ـ 0.91) وهي معاملات ارتباط مرتفعة تشير مدى ما يتمتّع به المقياس من قدر عالي ومرتفع من الصدق[2]

أما في **الدراسة الحالية** فبالنسبة **للثبات** فقد حسب بأسلوب التجزئة النصفية لسبيرمان ـ براون على عيّنة قوامها (30 مريضة بسرطان الثدي) حيث بلغ معامل

(1) محمد عبيدات وآخرون ، 1999 : 94.
(2) عفاف عبد الفادي دانيال ، 2008.

الثبات (0.90) وهو معامل مرتفع يشير إلى تجانس النصفي في المقياس وهو مؤشّر على ثباته . في حين **الصدق** فقد تمّ حسابه بطريقة المقارنة الطرفية (الصدق التمييزي) على نفس عيّنة الثبات) .

جدول رقم (1) : يوضّح دلالة الفروق بين متوسّطي درجات الربع الأعلى (27٪) والأدنى (27٪) للبعدين والدرجة الكلية لمقياس المساندة الاجتماعية.

البعد	الربع الأعلى		الربع الأدنى		قيمة «ت» ودلالتها
	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	
داخل إطار الأسرة	77	3.54	44.87	8.14	★ 10.23
خارج إطار الأسرة	71.87	3.18	47.87	7.82	★ 8.72
الدرجة الكلية للمساندة الاجتماعية	143.87	7.95	92	15.05	★ 8.63

★ دالة عند مستوى (0.01) .

يتّضح من الجدول رقم (1) أنّ قيم «ت» كلّها إحصائيات عند مستوى (α : 0.01) وهذا يشير إلى أنّ المقياس له القدرة على التمييز بين المجموعتين المتطرّفتين ممّا يدلّ على صدقه .

مقياس قلق الموت

أعدّ هذا المقياس «تمبلر» Templer (1967) وقام[1] بترجمته للبيئة العربية ويعكس هذا المقياس مدى واسعا من الخبرات المتعلّقة بقلق الموت وهي : التفكير المستمر بالموت ، سيطرة فكرة الموت ، وتكرار فكرة الموت . ويتكوّن المقياس من (15) عبارة يجيب عليها الفرد حسب سلّم متدرّج من احتمالين (نعم) أو (لا) .

أمّا فيما يخصّ ثباته استخدم «أحمد محمد عبد الخالق» ثبات الإعادة وكان الفاصل الزمني بين التطبيقين أسبوع واحد وقد وصل المعامل إلى (0.70) للذكور (ن : 44) و(0.63) للإناث (ن : 56) وتعدّ هذه المعاملات جميعها مقبولة ، أما فيما يخصّ الصدق فقد ثبت أنّ هذا المقياس صادقا عربيا وعالميا حيث

(1) أحمد محمد عبد الخالق ، 1987 : 67 ، 117.

استخرج له الصدق العاملي في البيئة العربية في مصر في دراسة « عبد الخالق »(1986) ، وكذلك استخرج له الصدق العاملي على طلبة الجامعات البريطانية في دراسة « مالتبي » (Maltby 1999) حيث كان تشبّع جميع الفقرات على أبعادها الثلاث أكثر من (0.40)[1] .

أما في **الدراسة الحالية** فبالنسبة **للثبات** فقد تمّ حسابه عن طريق معادلة ألفا كرونباخ حيث بلغت قيمته (0.91) وهو معامل ثبات عال يشير إلى مدى ما يتمتّع به المقياس من قدر مرتفع من الثبات . أما **الصدق** فقد اعتمدنا على الصدق التمييزي على عيّنة من (30) مريضة .

جدول رقم (1) : يوضّح دلالة الفروق بين متوسّطي درجات الربع الأعلى (27 ٪) والأدنى (27 ٪) للأبعاد الثلاثة والدرجة الكلية للمقياس قلق الموت.

البعد	الربع الأعلى		الربع الأدنى		قيمة « ت« ودلالتها
	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	
التفكير المستمر بالموت	6	0.75	3	1.06	★ 6.52
سيطرة فكرة الموت	3.50	0.53	0.85	0.35	★ 11.95
تكرار فكرة الموت	2.87	0.35	0.85	0.35	★ 11.76
الدرجة الكلية لقلق الموت	11.12	0.83	5.12	0.99	★ 13.33

★ دالة عند مستوى (0.01) .

يتبيّن من الجدول أعلاه أنّ جميع الفروق دالّة عند (0.01 : α) مما يدلّ على مدى ما يتمتّع به المقياس من قدر عال ومرتفع من الصدق .

نتائج الدراسة ومناقشتها

أوّلا : النتائج المتعلّقة بالفرضية الأولى

تشير الفرضية الأولى إلى أنّه توجد علاقة بين درجات المصابات بسرطان

(1) عبد الناصر عبد للرحيم القدومي وآخرون ، 2003 : 30.

الثـدي في مقيـاس المسـاندة الاجتماعيـة ودرجـاتهنّ في مقيـاس قلـق المـوت ، ولاختبار صحة هـذه الفرضـية أو نفيهـا تمّ حسـاب معامـل الارتبـاط « بيرسـون» (Pearson) بين المتغيّرين المساندة الاجتماعية وقلـق المـوت وقـد جـاءت النتـائج كما هو موضّح في الجدول الموالي :

جدول رقم (3) : نتائج معامل الارتباط بين درجات المصابات بسرطان الثدي في مقياس المساندة الاجتماعية ودرجاتهنّ في مقياس قلق الموت.

المتغيّر	معامل الارتباط بيرسون (r)	الدلالة الاحصائية
المساندة الاجتماعية / قلق الموت	- 0.44	دالة عند مستوى (0.05 : α)

يبيّن الجدول (3) أنّ هناك ارتباطا بين درجات المصابات بسـرطان الثـدي في مقياس المساندة الاجتماعية ودرجاتهنّ في مقياس قلق المـوت حيـث بلغـت قيمتـه (0.44 -) وهي قيمة دالة عند مستوى الدلالة (0.05 : α) حيـث بلغـت القيمـة المجدولـة (0.28) ودرجـة حريـة (46) ، غـير أنّ هـذه العلاقـة جـاءت سـالبة أي عكسـية بـين المتغيّـرين ومـن ثـمّ فـإنّ المصـابات الـتي تكـون درجـاتهنّ بمقيـاس المسـاندة الاجتماعية مرتفعة تميل درجـاتهنّ بمقيـاس قلـق المـوت إلى أن تكـون منخفضـة والعكس صحيح ، بمعنى آخر أنّ المصابات اللّواتي تتلقّين على قدر غـير مناسـب من المساندة الاجتماعية يملن إلى أن يكون قلق المـوت عنـدهنّ أكثـر ارتفاعـا في حين المصابات اللّواتي تتلقين على قدر مناسب من المساندة الاجتماعية يملـن إلى أن يكـون شـعورهنّ بقلـق المـوت أقـلّ ارتفاعـا وبهـذا تكـون الفرضـية الأولى قـد تحقّقت .

ثانيا : النتائج المتعلّقة بالفرضية الثانية

تشير الفرضية الثانية إلى وجود فروق بين منخفضـات ومرتفعـات المسـاندة الاجتماعيـة في درجـة شـعورهنّ بقلـق المـوت لـدى المصـابات بسـرطان الثـدي ولاختبـار هـذه الفرضـية ، تمّ حسـاب المتوسـط الحسـابي والانحـراف المعيـاري لـدرجات المصـابات بسـرطان الثـدي علـى مقيـاس قلـق المـوت للمجمـوعتين منخفضات ومرتفعات المساندة الاجتماعية وبعد ذلـك تمّ تطبيـق معادلـة الاختبـار التـائي للمجموعتين ثمّ قورنت بنظيرتها المجدولـة عنـد مسـتوى الدلالـة (0.05 : α) ودرجة حرية (46) ، وقد جاءت النتائج كما هو موضّح في الجدول رقم (4) .

جـدول رقـم (4) : نتـائج اختبـار (ت) لحسـاب دلالـة الفـروق في الشـعور بقلـق الموت بـين

منخفضات ومرتفعات المساندة الاجتماعية لدى المصابات بسرطان الثدي.

المتغيّر	المجموعات	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة =ت=المحسوبة	الدلالة الاحصائية
درجة الشعور بقلق الموت	منخفضات المساندة	20	8.7	2.67	3.44	دالة إحصائيا عند مستوى الدلالة (α : 0.05)
	مرتفعات المساندة	28	6.32	2.16		

يتّضح من الجدول أعلاه أنّ هناك فرقا دالا إحصائيا عند مستوى الدلالة (α : 0.05) لدرجات قلق الموت بين منخفضات ومرتفعات المساندة الاجتماعية لدى المصابات بسرطان الثدي حيث بلغت قيمة « تّ المحسوبة (3.44) وهي أكبر من قيمة « ت» المجدولة والبالغة (2.01) هذا إن دلّ على شيء وإنّما يدلّ على أنّ درجة الشعور بقلق الموت يزداد أكثر عند المجموعة الأقلّ حظا من حيث المساندة الاجتماعية وبهذا تحقّقت الفرضية الثانية .

ثالثا : النتائج المتعلّقة بالفرضية الثالثة

لاختبار الفرضية الثالثة التي تشير إلى وجود اختلاف بين منخفضات ومرتفعات المساندة الاجتماعية في أبعاد قلق الموت (التفكير المستمر بالموت ، سيطرة فكرة الموت ، تكرار فكرة الموت) لدى المصابات بسرطان الثدي ولاختبار صحة هذه الفرضية أو عدمها تمّ معالجتها عن طريق اختبار « ت» لدلالة الفروق بين المتوسطين وجاءت النتائج كما هو مبيّن في الجدول (5) .

جدول رقم (5) : نتائج اختبار =ت=لحساب دلالة الفروق بين منخفضات ومرتفعات المساندة الاجتماعية في أبعاد قلق الموت لدى المصابات بسرطان الثدي.

المتغيّر	المجموعات	العدد	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	قيمة (ت) المحسوبة	الدلالة الاحصائية
التفكير المستمر بالموت	منخفضات المساندة	20	4.75	1.47	1.80	غير دالة إحصائيا عند مستوى الدلالة (α : 0.05)
	مرتفعات المساندة	28	4.03	1.29		
سيطرة فكرة الموت	منخفضات المساندة	20	2.25	1.29	3.59	دالة إحصائيا عند مستوى الدلالة

	مرتفعات المساندة	28	1.10	0.87		(α : 0.05)
تكرار فكرة الموت	منخفضات المساندة	20	1.70	0.86	1.96	غير دالة إحصائيا عند مستوى الدلالة (α : 0.05)
	مرتفعات المساندة	28	1.17	1.05		

يظهر الجدول (5) من جهة أنّه لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين منخفضات ومرتفعات المساندة الاجتماعية فيما يخصّ بعدي التفكير المستمر بالموت وتكرار فكرة الموت حيث جاءت القيم التائية المحسوبة والمقدّرة بـ (1.80) و(1.96) أصغر من نظيرتها المجدولة والبالغة (2.01) عند مستوى الدلالة (α : 0.05) ودرجة حرية (46) .

و من جهة أخرى سجّلنا فروقا ذات دلالة إحصائية بين منخفضات ومرتفعات المساندة الاجتماعية فيما يتعلّق بالبعد الخاص بسيطرة فكرة الموت حيث جاء الفارق لصالح منخفضات المساندة الاجتماعية ، إذ بلغت قيمة « ت » المحسوبة (3.59) وهي أكبر من نظيرتها المجدولة والمقدّرة بـ (2.02) عند مستوى الدلالة (α : 0.05) ودرجة حرية (40.33) وبهذه النتيجة تمّ قبول جزئي للفرضية الثالثة .

مناقشة عامة

تعدّ المساندة الاجتماعية مفيدة لحياة الإنسان ولصحّته الجسمية والنفسية بصرف النظر عمّا إذا كان يمرّ بخبرة شاقة أم لا ، لأنّها ببساطة هي التي تنقل إلينا الإحساس بأنّنا لسنا بمفردنا في مجابهة مطالب الحياة فكما يقول المثل « الفرد قليل بنفسه كثير بالآخرين » وفي هذا الصدد يقرّ « ساراسون » و« ساراسون » Sarason & Sarason (1986) أنّه بمجرّد إدراك الفرد إمكانية الركون إلى شخص ما للمساعدة ، فإنّ هذا من شأنه أن يخفض الضغوط الواقعة عليه[1] .

كما يضيف لنا كل من « هوس » وآخرين House et al (1988) و« ستيبتو » Steptoe (1991) أنّ المساندة الاجتماعية ترتبط إلى حدّ كبير بالصحة والرفاهية أمّا غيابها يرتبط بزيادة التعرّض للأمراض المزمنة وزيادة معدّلات الوفاة[2] .

(1) حسين علي فايد ، 2000 : 339.
(2) Servant, 2005 : 16.

في ضوء ما سبق نستنتج أنّ المساندة الاجتماعية ضرورية بالنسبة لنا جميعا فهي تحمينا من المحن والشدائد وتزيد من قوّتنا في مواجهة الضغوطات خاصة عندما نشعر أنّ طاقتنا قد استنزفت وأرهقت وأنّنا في أشدّ الحاجة إلى من يساعدنا من الخارج .

هذا ما حاولنا أن نكتشفه من خلال هذه الدراسة التي جاءت لتبحث عن حقيقة العلاقة بين المساندة الاجتماعية ودرجة الشعور بقلق الموت لدى المصابات بسرطان الثدي خاصة ونحن ندرك مدى أهمية المساندة الاجتماعية بالنسبة لمثل هذه الأمراض التي تضع المريض في مواجهة دائمة مع فكرة الموت هذا ما كشفت عنه دراسة « كوتاري» وآخرين Kothari & al (1998) حيث وجدت أنّ قلق الموت يكون شائعا بدرجة جوهرية بين مرضى الأورام السرطانية وذلك بالمقارنة بكل من مرضى القلب ومرضى الضغط[1] . في مثل هذه الحالات تصبح المساندة الاجتماعية أكثر من ضرورة لهؤلاء ، هذا ما أسفرت عنه نتائج الدراسة الحالية حيث بيّنت أنّ هناك علاقة عكسية بين هذين المتغيّرين ، أي كلّما كانت درجات المريضات على مقياس المساندة الاجتماعية مرتفعة تميل درجاتهنّ على مقياس قلق الموت إلى أن تكون منخفضة والعكس صحيح انظر إلى الجدول رقم (3) . ليس هذا فقط بل توصّلنا أيضا إلى وجود فروق جوهرية ذات دلالة إحصائية بين مرتفعات ومنخفضات المساندة الاجتماعية في الشعور بقلق الموت لصالح منخفضات المساندة الاجتماعية ، هذا يعني أنّ المريضات اللّواتي يتمتّعن بقدر مناسب من المساندة الاجتماعية هنّ أقلّ شعورا بقلق الموت انظر إلى الجدول رقم (4) وهذا ما يتّفق مع ما أسفرت عنه دراسة[2] التي توصّلت إلى وجود علاقة موجبة دالة بين المساندة الاجتماعية للمرضى بمرض مفضي إلى الموت وإرادة الحياة ، كما تعمل على خفض من قلق الموت لديه وتقلّل من مخاوفه المرتبطة بالمرض .

فالدعم الفعّال لمرضى السرطان ليس مهما فقط بسبب ما يجنيه المريض من تحسّن في درجة تكيّفه مع المرض وإنّما لأنّه يحسّن من الاستجابات المناعية للسرطان أيضا ، ففي هذا السياق أظهرت دراسة « لاي» وآخرين Lai & al (1999) حقيقة فوائده حيث وجدت أنّ المرضى المتزوّجين تمكّنوا من البقاء بدرجة تفوق المرضى من غير المتزوّجين أو من المنفصلين عن شركائهم أو المطلّقين

(1) هناء أحمد شويخ ، 2007 : 161.
(2) محمد محمد بيومي خليل ، 1996.

أو الأرامل[1] ، فالمساندة الاجتماعية تقوّي رغبة المريض في الشفاء وتقبّل مرضه .

كما كشفت الدراسة الحالية أيضا أنّه لا توجد فروق ذات دلالة إحصائية بين مرتفعات ومنخفضات المساندة الاجتماعية لدى المريضات بسرطان الثدي فيما يخصّ بعدي التفكير المستمر بالموت وتكرار فكرة الموت في حين سجّلنا فروقا ذات دلالة إحصائية في البعد المتعلّق بسيطرة فكرة الموت الذي جاء لصالح المريضات الأقلّ حظّا من حيث المساندة الاجتماعية انظر الجدول رقم (5) ، هذا إن دلّ على شيء وإنّما يدلّ من جهة على أنّ طبيعة المرض تفرض على المريضات العيش في حالة من الذّعر والرعب الداخلي خوفا من الموت ، خاصة ونحن نعلم أنّ مثل هذه الأمراض تجعل صاحبها يتعرّض لجولات متكرّرة من العلاج قد تشعره باليأس من جدوى أية معالجة جديدة ، ومن جهة أخرى تبيّن أن سيطرة فكرة الموت تظهر أكثر عند المريضات اللّواتي لا يتمتّعن بقدر مناسب من المساندة الاجتماعية فهناك من الدلائل ما يشير إلى أنّ المساندة الاجتماعية التي يقدّمها المقرّبون قد تؤثّر على مستقبل مرضى السرطان وحياتهم وفي هذا الصدد وجد « هاجيؤورن » وآخرين Hageoorn & al (2000) أنّ الانخراط في حوارات مع المريض حول السرطان وإيجاد الطرق البناءة لحلّ المشكلات كانت مفيدة للغاية بينما اتّضح أنّ انزواء المريض وابتعاده عن الآخرين بل واختفائه عن المجتمع كلّها أمورا تزيد من درجة قلقه وتخوّفه[2] .

و في الخلاصة نصل إلى حقيقة مفادها أنّ المساندة الاجتماعية يمكن اعتبارها من أهمّ المتغيّرات المعدّلة للعلاقة بين الأمراض المزمنة ونخصّ بالذكر السرطان وقلق الموت ، ولهذا علينا الاهتمام أكثر بهذا البعد النفسي الاجتماعي فهو يعدّ على حدّ تعبير[3] مصدرا هاما من المصادر الأساسية التي تؤدّي إلى إحساس الفرد بالأمن النفسي في البيئة الاجتماعية التي تحيط به ، وأنّها تخفّف عنه ما يمكن أن تحدثه الصعوبات والأخطار التي تهدّده .

توصيات ومقترحات الدراسة

في خضمّ ما قدّمته هذه الدراسة من معطيات تمّ التوصّل إلى مجموعة من التوصيات والاقتراحات نوجزها في هذه النقاط :

(1) شيلي تايلور ، 2008 : 822.
(2) شيلي تايلور ، 2008 : 822.
(3) علي عبد السلام علي ، 2005 : 5.

ـ وجوب الاهتمام بهذا البعد النفسي الاجتماعي المتمثّل في المساندة الاجتماعية للدّور الحيوي والإيجابي الذي تلعبه في حياتنا وحياة المرضى بالتحديد .

ـ فتح ودعم قنوات الاتصال التي يحتاجون إليها المرضى للحصول على المعلومات ومشاطرتها كون الأشخاص يؤثرون بعضهم البعض كمصادر للمساندة ممّا يسمح لهم بالتكيّف الجيّد مع المرض .

ـ توعية النساء وتعريفهنّ بمرض سرطان الثدي لأنّه كلّما كان تشخيصه مبكّرا كلّما كانت نتائج العلاج فعّالة .

ـ إجراء دراسات أخرى تبحث عن أثر أو دور المساندة الاجتماعية في الصحة النفسية والجسمية أو في التوافق النفسي الاجتماعي لدى المرضى .

ـ قيام بدراسات تكشف عن حقيقة العلاقة بين كل من المساندة الاجتماعية والاكتئاب ، اليأس أو العكس الرغبة في الشفاء وإرادة الحياة لدى المرضى .

المراجع المستعملة

1 ـ أحمد محمد عبد الخالق ، (1987) ، قلق الموت ، الكويت : سلسلة عالم المعرفة .

2 ـ بشرى إسماعيل أحمد ، (2004) ، ضغوط الحياة والاضطرابات النفسية ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية .

3 ـ بشير صالح الرشيدي ، (2000) ، مناهج البحث التربوي رؤية تطبيقية مبسّطة ، الكويت : دار الكتاب الحديث ، الطبعة الأولى .

4 ـ حسين علي فايد ، (2000) ، الدور الدينامي للمساندة الاجتماعية في العلاقة بين ضغوط الحياة المرتفعة والأعراض الاكتئابية ، في حسين علي فايد ، دراسات في الصحة النفسية ، الإسكندرية : المكتب الجامعي الحديث ، الطبعة الأولى ، 330 ـ 384 .

5 ـ سارة روزنتال ، (2001) ، سرطان الثدي ، ترجمة : مركز التعريب والبرمجة ، لبنان : الدار العربية ، الطبعة الأولى .

6 ـ سلطان بن موسى العويضة ، (2001) ، المقارنة بين المتقاعدين وغير المتقاعدين من المسنين في قلق الموت وسمة القلق ، مجلة علم النفس المعاصر والعلوم الإنسانية ، جامعة المنيا ، مجلّد 12 ، رقم 2 ، 129 ـ 155 .

7 ـ شيلي تايلور ، (2008) ، علم النفس الصحي ، ترجمة : وسام درويش بريك ، فوزي شاكر وطعمية داود ، عمان : دار حامد ، الطبعة الأولى .

8 ـ عبد الناصر عبد الرحيم القدومي ، غسان حسين الحلو وعلي عادل الشكعة ، (2003) ، أثر انتفاضة الأقصى في مستوى الشعور بقلق الموت لدى طلبة الجامعة ، مجلة رسالة الخليج العربي ، فصيلة تربوية محكمة ، س 24 ، ع 88 ، 13 ـ 39 .

9 ـ عفاف عبد الفادي دانيال ، (2008) ، مقياس المساندة الاجتماعية ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية .

10 ـ علي عبد السلام علي ، (2005) ، المساندة الاجتماعية وتطبيقاتها العملية ، القاهرة : مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى .

11 ـ فاروق السيد عثمان ، (2001) ، القلق وإدارة الضغوط النفسية ، القاهرة : دار الفكر العربي ، الطبعة الأولى .

12 ـ محمد حامد زهران ، (2000) ، الإرشاد النفسي المصغّر للتعامل مع المشكلات الدراسية ، القاهرة : عالم الكتب ، الطبعة الأولى .

13 ـ محمد خليفة بركات ، (1975) ، علم النفس التربوي ، الكويت ، دار القلم ، الطبعة الأولى .
14 ـ محمد عبيدات ، محمد أبو نصار وعقلة مبيضين ، (1999) ، منهجية البحث العلمي القواعد والمراحل والتطبيقات ، عمان : دار وائل للنشر ، الطبعة الثانية .
15 ـ محمد محروس الشناوي ومحمد السيّد عبد الرحمان ، (1994) ، المساندة الاجتماعية والصحة النفسية مراجعة نظرية ودراسات تطبيقية ، القاهرة : مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى .
16 ـ محمد محمد بيومي خليل ، (1996) ، المساندة النفسية الاجتماعية وإرادة الحياة ومستوى الألم (لدى المرضى بمرض مفض إلى الموت) ، مجلة علم النفس ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، العدد السابع والثلاثون ، السنة العاشرة ، 92 ـ 119 .
17 ـ معتز سيد عبد الله ، (2000) ، بحوث في علم النفس الاجتماعي والشخصية ، المجلّد الثالث ، القاهرة : دار غريب .
18 ـ هناء أحمد شويخ ، (2007) ، أساليب تخفيف الضغوط النفسية الناتجة عن الأورام السرطانية : (مع تطبيقات على حالات أورام المثانة السرطانية) ، القاهرة : إيتراك للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ،
19 ـ Bouzid, K.(2005).Cancer du sein.Le fascicule de la santé, n° 1, 6_ 15.
20 _ Laireiter, A_ R., Baumann, U., Perkonigg, A.and Himmelbauerm, S.(1997).Social Support Resources in Interpersonal Relationships (Social Net Works) during stressful life conditions : Results from two pilot studies.Revue Européenne de psychologie Appliquée, Vol 47, 2ème trimestre, 123_ 128.
21 ـ Paulhan, I., Bourgeois, M.(1995).Stress et coping : les stratégies d'ajustement à l'adversité.Paris : PUF, 1ère édition.
22 ـ Servant, D.(2005).Gestion du stress et de l'anxiété.Paris : Masson.

الإدارة بين الاتجاهات التقليدية والحديثة

أ . الحسين مصطفاوي *

الملخص :

تم التطرق في هذه الدراسة إلى الإدارة بصفة عامة ، والتي تعني هذه الأخيرة تحقيق الأهداف المسطرة لأي منظمة كانت باستغلال كل الموارد البشرية والمادية المتاحة بأسلوب علمي يوفر أقل جهد بأقل تكلفة .

كما تم التطرق إلى مختلف الاتجاهات والنظريات التي تناولت الإدارة والانتقادات الموجهة لها ، انطلاقا من الاتجاه التقليدي الذي ينصب اهتمامه على العمل والإنتاج دون الاهتمام بالعامل ، ثم الاتجاه الإنساني الذي اهتم بالعامل كفرد مرتبط بالحوافز المادية وإشباع حاجاته الذاتية مع الإشارة إلى بعض نظريات الدوافع والتي ساهمت في تدعيم الاتجاه الإنساني ومن بينها :

أولا : نظرية « ماسلو » لترتيب الحاجات فقد أكدت هذه النظرية على ضرورة إشباع الحاجات المتنوعة للفرد ، وبمقدار إشباعها تكون زيادة فاعلية الفرد وإنتاجيته .

ثانيا : نظرية « ماكريجور دوجلاس » التي أكدت على ضرورة التعرف على طبيعة الأفراد ، واستخدام الأسلوب المناسب لدافعيتهم وتفعيلهم في ضوء طبيعة الموقف وأن نجاح التنظيم الإداري إنما يعتمد على تحرير الطاقات الكامنة لدى الأفراد ، وإظهارها في خدمة أهداف المؤسسة .

ثالثا : نظرية « هيرزبرج » التي أكدت على عوامل الدافعية والمحفزات والإنجاز ، والتقدير ، ونوعية العمل نفسه ، والمسؤولية ، والتقدير الشخصي ، وذلك لدفع العاملين للعمل وحفزهم وتوفير ظروف عمل جيدة لضمان جدية العمل .

رابعا : نظرية التوقع « لفيكتور فروم » التي أكدت على ضرورة توفير البدائل المختلفة للفرد وتوفير الحوافز الكامنة فيه لمحاولة التوفيق بين ما يتوقعه الفرد وما يحصل عليه .

---

* كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة أكلي محند أولحاج ، بالبويرة.

بالإضافة إلى الاتجاه التنظيمي الذي جاء كوسيط بين الاتجاه التقليدي والإنساني للإدارة .

واتجاه النظم الذي نظر إلى الإدارة على أنها نظام مفتوح يتفاعل مع الظروف والبيئة الداخلية والخارجية على حد سواء .

إضافة إلى الاتجاه التوافقي الذي ركز على طبيعة الموقف وظروفه ، فطبيعة العمل ونوع التكنولوجيا والظروف المحيطة وطبيعة العاملين ، هو الذي يحدد الأسلوب الأمثل للإدارة .

ثم الاتجاهات الحديثة للفكر الإداري وتتلخص في نظرية (z) لـِ « وليام أوتشي» والتي تنص على التوظيف المتخصص مدى الحياة ، وجماعية اتخاذ القرارات وتحمل المسؤولية ، والثقة والعناية بجميع العاملين .

الكلمات المفتاحية : إدارة ـ اتجاهات ـ تقليدية ـ حديثة ـ

ـ مقدمة :

أصبح نجاح أي عمل ، أو أي مشروع حكومي أو خاص ، ويهدف إلى الربح أو يهدف إلى أبعاد أخرى اجتماعية مثلا . أو ثقافية ، أو دينية أو غيرها يتطلب الإدارة السليمة ، والإدارة علم وليست مجرد اجتهاد أو فطرة ، أو إدعاء أو مكابرة كما أنها استعداد وقدرة من الموهبة ثم السلوك ، ثم خبرة وممارسة وتطبيق وبذلك تصبح إدارة فعالة تؤدي إلى تلافي أو معالجة المشكلات ، وحسن استخدام موارد المشروع ومن ثمة تعظيم العائد والأهداف الاقتصادية من ناحية ، والإنسانية من ناحية أخرى ، وقد اهتمت بهذه الأخيرة اتجاهات عديدة تراوحت بين اتجاهات تقليدية وأخرى حديثة ، وهذا ما نسعى إلى توضيحه في هذه الدراسة .

1 ـ **مفهوم الإدارة العامة :** إن علم الإدارة شأنه شأن العلوم الأخرى ، يصعب إيجاد تعريف محدد له . خاصة أن الظروف التي نشأت فيها الإدارة العامة وتطوراتها قد زادت من المشكلة صعوبة في التوصل إلى تعريف جامع ومحدد على أساس علمي للإدارة العامة ، ولذلك نرى أن الكثير من العلماء والكتاب أفاضوا في ذكر تعريفات هذا العلم . فيشتق مفهوم الإدارة من فعل يدير ، أو يحرك ، وتعني تقديم خدمة ، أو القيام بعمل من الأعمال ، والقائم بهذه الإدارة هو بصدد تقديم خدمة للآخرين . وتعني أيضا التنسيق وتنظيم الجهود البشرية وذلك من أجل تحقيق هدف معين أو غاية ما[1] .

(1) أحمد محمد الطيب ، الإدارة التعليمية ، أصولها ، وتطبيقاتها المعاصرة ، ط1 ، المكتب الجامعي الحديث ،

ويمكن القول بأن الإدارة بهذا المفهوم ليست نشاطا جديدا على الإنسان بل سعى الإنسان إلى تنظيم نشاطاته والتنسيق بين جهود الأفراد لتحقيق الأعمال ، وما بقاء الانجازات الضخمة للحضارات القديمة إلا دليلا على وجود سياسات وتنظيم لتلك الجماعات[1]

ولقد عرف مفهوم الإدارة تطورا بتطور المجمعات وخاصة في المجال الاقتصادي ، والصناعي ، ويعتبر« من فودور لسون» من الأوائل الذين حاولوا دراسة الإدارة كعلم قائم بذاته ، وذلك سنة 1887 . بحيث يعرفها بأنها العماليات المتعلقة بتحقيق أهداف الحكومة بأكبر قدر من الكفاءات وبما يحقق الرضا لأفراد الشعب .

في حين يعرفها « تايلور» بأنها «جميع العمليات التي من شأنها تنفيذ السياسة العامة وتحقيق أهدافها »[2] .

ويعرفها « أنجلش» على أنها توجيه ومعالجة الأمور التي تسهل تحقيق الأهداف أو الغايات أو النتائج التي يجب رسمها أو وضعها ، وقد يشير مصطلح الإدارة إلى الأشخاص الذين يقومون بهذا العمل بصورة جماعية وتشمل الإدارة بهذا المعنى الوظائف الإدارية التنفيذية أيضا[3] .

ويعرفها «عبد الفتاح دياب حسين» على أنها «فن تنسيق عناصر الإنتاج بشكل منظم من أجل تحقيق هدف المنظمة ، وهي عبارة عن تضافر جهود بشرية ومادية وآلية وإجرائية من أجل تحقيق هدف معين . . .» ويضيف على أن الوظيفة الإدارية في حد ذاتها ما هي إلا أسلوب لتحقيق الغايات .

ويعرفها «محمد السويلم» بأنها« نشاط خاص بقيادة ، وتوجيه وتنسيق الجهود الإنسانية وتخطيط وتنظيم ومراقبة العمليات الخاصة بالعناصر الرئيسية في المشروع» .[4]

وبعدما كان الهدف من الإدارة هو تحقيق الغايات والأهداف وتقديم خدمة ، تطورت وظائف الإدارة وأصبحت تشمل التخطيط والتوجيه والإشراف والتنسيق والرقابة والمتابعة لإنجاز الأعمال ، وفي هذا الصدد يعرفها «القربوني» على أن

الإسكندرية ، 1999 ، ص19.

(1) أحمد محمد الطيب ، مرجع سابق 1999 ، ص20.

(2) عبد الرحمن محمد عيسوي ، دراسات في علم النفس الاجتماعي ، مكتبة القاهرة ، ط1 ، 1974 ، ص25 ، 24.

(3) عبد الفتاح دياب حسين ، مرجع سابق ، 1996 ، ص11.

(4) محمد سويلم ، أساسيات الإدارة ، جامعة المنصورة ، د ، ب ، 1991 ، ص 8.

«الإدارة ليست استغلال الموارد وتنظيم الجهود الجماعية ، بل تسعى الإدارة إلى تحسين الأداء بوسائل إنسانية مما يسهم في تحسين حياة الإنسان سواء كان عضوا في التنظيم أومن خدماته» وفي نفس السياق يعرفها «قاسم القضاة» ، و«سلمى الناشف» أنها العملية التي تشمل التخطيط والتوجيه والإشراف والتنسيق والتنظيم والتنفيذ والمتابعة من أجل تحقيق أهداف المؤسسة بكفاءة وفعالية(1).

وذكر «رالف دافيز» Ralf Davisأن الإدارة وظيفة قيادية تتكون من أنشطة رئيسية هي : التخطيط والتنظيم والتنسيق والرقابة على المديرين والمنفذين .

ويعرفها ' أليفر شلدون ' Oliver Sheldon على أنها الوظيفة المتعلقة بتحديد سياسات المشروع والتنسيق وظائفه المختلفة وإقرار الهيكل التنظيمي والرقابة على أعمال التنفيذ(2).

ويعرفها 'خيري خليل الجميلي' على أنها : النشاط الخاص بكل الجهود والإجراءات التي تقوم بها الجماعات لتحقيق الهدف ، ومن أهم وظائفها التخطيط ، اتخاذ القرارات والرقابة والتقويم(3).

ولما كانت الإدارة علما قائما بذاته ، يعرفها «أحمد مصطفى خاطر»على أنها «أسلوب تطبيق المبادئ العلمية والأسس الإدارية المتفق عليها في النشاط الحكومي بما يحقق أهداف المجتمع . . .» ويؤكد أن تحقيق الأهداف يرتبط بشروط خاصة من بينها الكفاءة والتوفير في الوقت والجهد(4).

ومن خلال كل هذه التعريفات يمكننا أن نستخلص بأن الإدارة تتكون من ثلاثة عناصر أساسية هي كالتالي : العنصر البشري ـ العنصر المادي ـ الهدف وأسلوب العمل . والإدارة المثلى هي التي تأخذ كل هذه العناصر بعين الاعتبار ، وتسعى لاستغلالها استغلالا أمثلا لتحقيق الأهداف .

2 ـ **تطور الإدارة :** لقد نال موضوع الإدارة حظه الوافر من الاهتمام والدراسة من قبل العديد من العلماء والباحثين ، وتبلورت كل هذه البحوث على شكل نظريات ووجهات نظر مختلفة قصد فهمها وتحسينها ووضع الأسس الجديدة التي

(1) قاسم قضاة وسلمى الناشف ، اتجاهات المسئولين الإداريين نحو استخدام الأسلوب العلمي في اتخاذ القرارات في وزارتي التربية والتعليم ، والتعليم العالي في الأردن ، مجلة رسالة المعلم ، العدد3 ، المجلد 38 ، 1997 ، ص104.

(2) هدى سيد لطيف ، الأسس العلمية للإدارة ، الشركة العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1995 ، ص12.

(3) خيري خليل الجميلي ، الاتصال ووسائله ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، 1997 ، ص112.

(4) أحمد مصطفى خاطر ، الإدارة وتقويم مشروعات الرعاية الاجتماعية ، المكتب الجامعي الحديث ، مصر ، 1990 ، ص12.

تسير عليها . ويلاحظ أن هذه الدراسات والنظريات قد تأثرت بالمناخ السائد لوقتها والحاجيات والتحديات التي يقتضيها التقدم التكنولوجي والتقني ولهذا نجد أن النظريات لم تختلف في مفهوم الإدارة من حيث أهميتها والهدف منها وإنما حاولت كل نظرية تحسين نقائص الأخرى . ومن أهم النظريات التي تناولت دراسة الإدارة على أساس علمي مالي : الاتجاه التقليدي ـ الاتجاه نحو العلاقات الإنسانية ـ الاتجاه نحو السلوك التنظيمي ـ اتجاه النظم ـ الاتجاه التوافقي .

أ ـ الاتجاه التقليدي : ظهر هذا الاتجاه في أواخر القرن19 التاسع عشر وامتدت تأثيراته إلى ما بعد منتصف العشرينيات من القرن العشرين ويتميز هذا الاتجاه بأنه اعتمد على مساهمات المهندسين الصناعيين ويعتبر « فريدريك تايلور » Fréderic Taylor من الأوائل الذين أسسوا للإدارة العامة وذلك في كتابه Scientific Management Principes Of (1909)[1].

وكان اهتمام تايلور منصبا على دراسة كفاءة الأداء ، وكذا توفير الجهد المبذول في العمل الجسمي نتيجة لدراسته وخبرته توصل إلى مجموعة من المبادئ شكلت المبادئ الأساسية لوظائف الإدارة[2] ومن بين الأمور التي يهتم بها تايلور أيضا ، هي تحليل العمل في أدنى مستويات الإدارة ، ويرى أن العمل يجب أن يكون موزعا بطريقة محددة وحسب التخصص . والمنظمة حسب تايلور

هي مجموعة آلية ميكانيكية تسييرها طريقة واحدة ، والعمال عبارة عن عناصر منتجة[3].

إلى جانب تحليل العمل ، قام تايلور بدراسة وتحليل الوقت والحركة واعتمد في ذلك على الساعة الميقاتية التي يستغرقها تنفيذ العمل ، كما نادى أيضا بضرورة تدريب العمال وتطوير كفاءتهم لأنه يفترض أن العاملين في المستويات الدنيا في السلم الإداري غير مسؤولين ولذا فهم بحاجة إلى التوجيه والرقابة والإشراف وكذا الاهتمام بالحوافز المادية للعامل وذلك قصد تحسين أدائهم[4].

ويرى تايلور أن مبدأ المنافع متبادل على أساس أن مصلحة رب العمل تكمن في الحصول على أعلى منفعة ، وأما مصلحة العامل تكمن في الحصول

(1) محي الدين الأزهري ، الإدارة ودور المديرين ، أساسيات وسلوكيات ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1993 ، ص27.

(2) محمد منير مرسي ، الإدارة التعليمية ، أصولها وتطبيقاتها ، عالم الكتب ، القاهرة ، 1993 ، ص22.

(3) Bouvier, A.management et projet, Eds, hachette éducation.paris France

(4) أحمد محمد الطيب ، مرجع سابق ، 1999 ، ص151.

على أعلى أحسن أجرة ممكنة[1].

أما فيما يخص الإداريين ، فحسب تايلور ، فهم مسئولون عن عملية التخطيط والتنظيم والتنسيق ، وعلى العمال التنفيذ[2].

أما إسهامات مهندس المناجم الفرنسي « هنري فايل » Hanry Fayol في هذا الاتجاه هو تحديد ولأول مرة في تاريخ الإدارة المبادئ الإدارية القابلة للتطبيق وذالك في أي بيئة تنظيمية كانت . والوظائف التي حددها في الإدارة هي : التخطيط ، التنظيم ، التنسيق ، إصدار الأوامر ، والضبط والتحكم .[3]

والى جانب الوظائف الإدارية ، حدد Fayolالمبادئ التي يجب أن تستخدم في إدارة المنظمة ومن بينهما : تقسيم العمل ، السلطة والمسؤولية ، الانضباط ، وحدة الأمر ، وحدة الاتجاه والتوجه ، تسلسل السلم الإداري ، ومثل هذه المبادئ لا تزال قائمة إلى يومنا هذا[4].

وعلى عكس تايلور فإنه لا يؤمن بأن المستويات الدنيا في السلم الإداري لا يمكنها تحمل المسؤولية والمقدرة على التوجيه الذاتي ، وإنما القضية هي قضية تقسيم العملية الإدارية وكل مسئول بالقدر الذي يتناسب مع وظيفته[5].

ويركز على السلطة ، لأن السلطة الثانية كثيرا ما تكون مصدرا دائما للصراع داخل المنظمة ، ووحدة السلطة تضمن أكثر فعالية في العمل[6].

إلى جانب Henry Fayol وFrédéric يعتبرMax Weber من أقطاب الفكر التقليدي للإدارة ، ومن المتخصصين في العلوم الاجتماعية . ومن بين الأمور التي أتى بها « فيبر » مفهوم Hierarchy أو التنظيم الهرمي ، والذي يعتبر المضمون الأساسي لمصطلح البيروقراطية ويقتضي هذا المفهوم ترتيب الأفراد على أساس القوة الإدارية ، فكل موظف داخل المنظمة له مركز معين ورئيس مباشر وللرئيس حق إصدار التعليمات للموظف ، وتتجنب ثنائية الرئاسة لكي لا تتعارض الأدوار[7].

(1) محمد رفيق الطيب ، مدخل للتسيير ، أساسيات ، وظائف ، تقنيات ، ج1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د ، ب ، 1995ص57.
(2) محمد سويلم ، مرجع سابق ، 1991 ، ص28 ـ 27.
(3) إسماعيل المصلح ، مديرو الفكر الإداري وانعكاساته التربوية ، دراسة تحليلية نقدية ، مجلة حوليات كلية التربية ، السنة 10 ، العدد10 ، د ، ب ، 1994 ، ص190.
(4) محي الدين الأزهري ، مرجع سابق ، 1993 ، ص85.
(5) محمد رفيق الطيب ، مرجع سابق ، 1995 ، ص60.
(6) Bouvier, A.Ibid, 1994.P37
(7) محي الدين الأزهري ، مرجع سابق ، 1993 ، ص 64.

ـ نقد الاتجاه التقليدي للإدارة : من خلال ما سبق نستنتج أن اهتمام الاتجاه التقليدي للإدارة كان يركز بالدرجة الأولى على المخرجات وحسب Alain Bouvier ، فإن التطبيق الصارم للأسس التسلطية التي اعتمدها هذا الاتجاه جعلت من العامل آلة داخل المنظمة ، متجاهلة إلى حد كبير العوامل النفسية والإنسانية التي تلعب دورا كبيرا في تكييف الفرد داخل أي منظمة[1].

فالإدارة بمفهوم هذا الاتجاه هي التي تحدد الأسلوب الذي يعمل به العامل وبالتالي يحقق منه إنسانا نمطيا لا مجال عنده للإبداع والابتكار ، كما ركز هذا الاتجاه أساسا على مفهوم الرقابة كمعيار في تحقيق أهداف المنظمة[2].

كما يعتقد « Andre Fraysse » أن الجانب الإنساني في الاتجاه التقليدي هو عنصر ذاتي ويجب مراقبته بصرامة ، وهذا يقتضي احترام الخط الهرمي ، ويبقى أيضا الأجر هو الحافز الأساسي الوحيد لهذا الاتجاه التقليدي[3] .

ورغم الانتقادات اللاذعة لهذا الاتجاه التقليدي من طرف العديد من العلماء والباحثين ، إلا أنهم لم يهملوا ما لهذا الاتجاه من فضل في إرساء الأسس والقواعد العلمية للعمل والمنظمة ، وأصبحت قاعدة لكل بحث ، ودراسة قصد تطوير النقائص ، وتعزيز ما هو مفيد .

ب ـ الاتجاه الإنساني للإدارة : يتلخص الاتجاه الإنساني للإدارة في بعض النظريات والتي تسمى عموما نظريات الدوافع .

ـ نظريات الدوافع : لقد عرفت النظريات الأولى للدافعية الإدارية سواء ما تعلق منها بحركة الإدارة العلمية أو حركة العلاقات الإنسانية بأنها نماذج وصفية حيث تعمل على توجيه المدير إلى كيفية تحفيز ودفع العاملين ، ولقد ظهر العديد من النظريات المختلفة التي عالجت طبيعة الفرد وتصرفاته ودوافعه السلوكية ، ومن أهم النظريات الرائدة ، نظرية « أبراهام ماسلو » Maslo في هرمية الحاجات ، ونظرية هيرزبرج Herzbreg ، ونظرية ماكريجور دوجلاس . McGregr Douglas ، ونظرية فيكتور فروم Victor Vroom .

1 **ـ نظرية ماسلو :** Maslo . Abraham لترتيب الحاجات ارتبطت هذه النظرية

(1) Jumentier, J. la gestion dés ressources humaines dans lés Systems éducatifs : séminaire de la MAFPEN et de L'IVFM.De l'académie de Lyon.Novembre.1995.Avril.1997.CNPP.Lyon.France.1999.p10

(2) Luk, B.et autres.Administration scolaire et efficacité dans les organisations.Eds, agence d'ARC.Canada.1991.p50

(3) Jumentier, J.Ibid.1999.p10

باسم « أبراهام ماسلو Hierarchy theory Maslo Need (1954/1943) حيث يرى أن المحرك الأساسي والدافع الرئيسي للإنسان هو الحاجة ، وصنف هذه الحاجات إلى حاجات أساسية كالأكل والشرب ، والأمن والطمأنينة ، وثانوية كالانتماء والمكانة والتقدير ، وتحقيق الذات وهي حاجات تخضع للتدرج حسب الأولوية ، والإنسان يسعى لإشباع هذه الحاجات وعلى المنظمة أن تراعي هذه الحاجات لدى الأفراد لتحفزهم على العمل[1].

ووفقا لنظرية « ماسلو » فإن الحاجات غير المشبعة تولد عند الأفراد نوعا من التوتر أو عدم التوازن ، الأمر الذي يقودهم إلى ممارسة سلوك يهدف إلى خفض حالة التوتر هذه ، لإعادة حالة التوازن الداخلي ، وقد أوضحت بعض الدراسات التطبيقية « لـِ ماسلو » على العاملين بالأجهزة الإدارية الحكومية بالسودان ، أن هناك علاقة مباشرة بين تلبية احتياجات العاملين وانحرافهم[2].

ويرى « ماسلو » أن دراسة حاجات الفرد لا بد أن تتم من وجهة نظره ، وتعتبر الحاجة مركب نقص يعانيه الإنسان ، وهو فراغ يجب إشباعه وعليه فإن الإنسان يحس بالرضا عند الإحساس بإشباع هذه الحاجات ويمكن القول بأن الرضا الوظيفي يتحقق للفرد إذا ما أشبعت حاجاته المختلفة[3].

2 ـ **نظرية ماكريجور دوجلاس (نظرية x ونظرية y) :** حيث تمثل (نظرية x) أسلوب الإدارة التقليدية وهو أسلوب يقوم على أربعة مبادئ وهي :

أ ـ إن الإنسان العادي يكره العمل بطبيعته ويحاول تجنبه كلما وجد السبيل إلى ذلك .

ب ـ يجب دفع وإجبار أغلب الأفراد على العمل ومراقبتهم مراقبة دقيقة مع وجود نظام واضح للجزاء والعقاب يدفعهم إلى بذل الجهد من أجل تحقيق الأهداف .

ت ـ إنه يقاوم التغيير أساسا ، وأن أي تغيير يعتبر عبئا عليه .

ث ـ إن الإنسان العادي يفضل أن يكون تحت توجيه ورقابة الآخرين[4].

في حين يعتقد « ماكريجور » أن الإدارة يجب أن تقوم على فروض مغايرة

(1) Woycikowska.C.prendre lés fonction de diréction dans un collège ou un lycée.Eds.Hachette éducation.Parise.France.1999.p96,97

(2) أحمد إبراهيم أحمد ، الجوانب السلوكية في الإدارة المدرسية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1998 ، ص 35 ، 36.

(3) عبد الرحمان إبراهيم المحبوب ، أبعاد القيادة الإدارية كما تراها مديرات المدارس الابتدائية ، المجلة العربية.

(4) محي الدين الأزهري ، مرجع سابق ، 1993 ، ص95.

للاتجاه التقليدي وهو ما يسميه (بنظرية y) وهي تنص على ما يلي :

ـ إن بذل الجهد الجسمي أو العقلي في العمل إنما هو شيء طبيعي مثل الراحة واللعب .

ـ إن الفرد يمارس التوجيه والرقابة الذاتية من أجل خدمة الأهداف التي التزم بها ويعمل على تحقيقها .

ـ إن الثواب الناتج عن الإنجاز سيؤدي إلى تعزيز الالتزام بالأهداف .

ـ إن الإنسان العادي في ظل المتابعة يتعلم كيف يتحمل المسؤولية .

ـ إن القدرة على الابتكار والتصور والذكاء في حل المشكلات التنظيمية تتوزع بين الأفراد ولكن على نطاق واسع[1].

وعلى ضوء ما سبق ، يمكن أن نبرز أهم المساهمات للإدارة في العلاقات الإنسانية وهي :

الاهتمام بالعامل كإنسان وليس كآلة . والاعتناء والاهتمام بالحوافز المعنوية والحوافز المادية[2].

3 ـ **نظرية الدافعية والصيانة عند هيرزبرج :** Herzberg, **f . Motivation hygiene** وضع هذه النظرية فريديرك هيزبرج Frediric . Herzberg 1960 على أساس سلوك العاملين ، تدعمها المنظمات التي ينتمون إليها وذلك بتصميمها لنظم الحوافز التي تقوم على نوعية معينة من المحفزات ، وبين نوعين من العوامل التي يرى لها علاقة بدوافع سلوك العاملين ، وقد توصل « هيرزبرج » من خلال دراساته إلى مجموعة من النتائج على النحو التالي :

ـ إن هناك مجموعة من العوامل التي تسبب عدم رضا الفرد عن عمله أو عن وظيفته وشعوره بعدم الإشباع الوظيفي ، وهي تتعلق بمحيط الوظيفة أي الظروف الخارجية عن الوظيفة Job contex مثل الأجور ، وظروف العمل ـ إن هناك مجموعة من العوامل هي التي تسبب وجود الرضا والإشباع الوظيفي وهي تدفع إلى العمل والأداء الجيد ، والتجديد والالتزام والارتباط وهي تتعلق بالوظيفة نفسها أي بمحتويات الوظيفة Job content ، المسؤولية ، والتنمية الشخصية ، وقد

سميت هذه العوامل بالدوافع لأنها هي فقط التي تدفع إلى تحسين الأداء والعمل

(1) أحمد محمد الطيب ، 1999 مرجع سابق ، ص158 ، 159.
(2) إسماعيل المصلح ، مرجع سابق ، 1994 ، ص198.

واستمرار هذا التحسين[1].

4 ـ **نظريـة التوقـع لفيكتـور فـروم :** **Expectqncy's theory . Victor vroom**وتقوم هذه النظرية على أساس أن الفرد يختار النمط السلوكي الذي يتوقع أنه أقوى من غيره على تحقيق العائد الذي يأمل تحقيقه[2].

ـ **نقد الاتجاه الإنساني للإدارة :** رغم كل الإسهامات التي جاء بها هذا الاتجاه ، ورغم أنه كان مدافعا على الأفراد العاملين إلا أنه لم يسلم من بعض العيوب والتي تتمثل في المغالاة في تحقيق حاجيات العاملين والاهتمام بالدوافع التي تدفع الفرد للعمل ، وأهمية العلاقات الرسمية في تحقيق النتائج ، ويؤكد Alain Bouvier أن العلاقات بين هذه العوامل ورفع الإنتاج لم يتم التحقق منها[3].

ت ـ الاتجاه نحو السلوك التنظيمي : ويعتبر هذا الاتجاه وسيط بين المدرسة الكلاسيكية ومدرسة العلاقات الإنسانية ، وحاول الباحثون والدارسون لهذا الاتجاه سد وتطوير النقائص التي أفرزتها كلتا المدرستين ، وبهذا فقد ركز هذا الاتجاه على استخدام البحث العلمي بملاحظة ووصف تفسير السلوك الإنساني . ولقد ركز هذا الاتجاه على الإنسان نفسه باعتباره العنصر الأساسي في بناء التنظيم ، وقد أكد Harold . M . F . Rusch أن العلوم السلوكية هي الدراسة المنتظمة للسلوك وذلك بدراسة المحيط الاجتماعي .

ث ـ اتجاه النظم : ومن الأمور التي تناولها هذا الاتجاه نجد طبيعة الأهداف ، نوع العمل الذي يمارس داخل المنظمة ، ماهية التكنولوجيا التي يستخدمها مستوى نضج العاملين بها ومدى استقرار البيئة المحيطة بها . ومصطلح النظم يطلق على أي مجموعة منظمة ومتكاملة من العناصر أو الأجزاء التي ترتبط فيما بينها بعلاقة تبادلية ترابطية توافقية ومن خلال هذا المفهوم يقسم الباحثون المنظمات إلى قسمين ، نظم مغلقة ، ونظم منفتحة .

1 ـ **النظام المغلق :** هو الذي لا يتفاعل مع البيئة ويمكن اعتبار أن المدارس الثلاثة السابقة تناولت دراسة الإدارة كنظام مغلق وبالتالي افترضت على ما هو داخلي للمنظمة متجاهلة بذلك البيئة المحيطة بها .

2 ـ **النظام المفتوح :** على عكس النظام الأول ، فهو يتفاعل مع البيئة ولقد اشتق هذا المفهوم من النظرية العامة للباحث في علم الأحياء Ludwig Vowber

(1) أحمد إبراهيم أحمد.مرجع سابق.1998.ص37 ، 38
(2) مرجع نفسه ، ص38.
(3) Bouvier, A.ibid.1994.p41

Talanffy حين وصف أن الكائن الحي هو نظام متكامل تتوافق فيه الأعضاء والوظائف وتتفاعل مع المحيط الخارجي[1].

يؤكد أنصار هذا الاتجاه أن الإدارة نظام مفتوح وأن المنظمة ليست معزولة على البيئة وهي بدورها تتكون من أنظمة مختلفة اقتصادية ، تكنولوجية اجتماعية ، إنسانية ، قانونية وثقافية ، وكل هذه الأنظمة تؤثر في المنظمة ولذا وجب على المنظمة أن تتفاعل مع المحيط لتحقيق الأهداف[2].

ج ـ الاتجاه التوافقي : يرى أصحاب هذا الاتجاه أن إقرار تقييد الإدارة بمبادئ وأسس عامة وثابتة كما نادت به المدارس السابقة يجمد هذه الأخيرة ويجعلها عاجزة عن مواجهة المشاكل والمواقف الجديدة التي تفرزها الظروف البيئية المحيطة بها . وعلى هذا الأساس ، فإن المشاكل تختلف من منظمة إلى أخرى وكذا الظروف المحيطة بها ، ويؤكد هذا الاتجاه أن تحقيق الأهداف والتنظيم يتطلب من المنظمة مراعاة الأوضاع الداخلية لها ، من إمكانيات وهياكل والأوضاع الخارجية ، وما قد يترتب عليها من تحديات وتأثيرات[3].

ح ـ الاتجاهات الحديثة للفكر الإداري : إن التقدم الهائل الذي عرفه العالم في الثمانينيات وخاصة في الجانب الصناعي والاقتصادي زاد من المنافسة في الأسواق العالمية ، واحتكار الاقتصاد العالمي علاقة مباشرة في تطوير الإدارة . وتأتي اليابان على رأس بلدان العالم لما حققته في مجال الصناعة والتجارة ، وأصبحت المنظمات الاقتصادية اليابانية محور اهتمام ودراسة من قبل الكثير من الباحثين قصد تحليل وتفسير الأساليب الإدارية المستعملة في هذه المنظمات واستنتاج الخصائص المميز لها . وفي دراسات عديدة قام بها « وليام أوشي » استنتج أهم السمات للأسلوب الإداري الياباني والذي أطلق عليه اسم (نظرية z) ومن أهم خصائصها ما يلي :

ـ الاعتماد على التوظيف مدى الحياة ـ شبه التخصص في الوظيفة ـ التأني في الترقية .

ـ جماعية اتخاذ القرارات وتحمل المسؤولية ـ الثقة والعناية بجميع العاملين[4].

(1) إسماعيل المصلح ، مرجع سابق ، 1994 ، ص212.

(2) Bouvier, A.ibid.1994.p48,49

(3) أحمد محمد الطيب ، مرجع سابق ، 1999 ، ص169.

(4) إسماعيل المصلح.مرجع سابق.1994.ص230

وعرف اليابان كيف يستفيد من أفكار «الترشيورات «المتعلقة بفكرة الإدارة ، الجودة الكلية كتنظيم لرفع مستوى الأداء والإنتاج ، وكذا مبادئ الجودة العلمية للإدارة للباحث والمنظر للفكر الإداري «ديمنج»Demming ولقد حظيت هذه المبادئ باهتمام كبير من قبل صناعي اليابان ويرتكز مفهوم الجودة العالية للإدارة حسب «بونستينجل» Bonnstingl على فلسفة إجرائية مفادها أن الجودة هي عملية تحسين تتصف بالاستمرارية في كل مراحل العمل وعلى نحو متواصل وهي فلسفة يلتزم بها جميع الموظفين داخل المنظمة وليس القائد فقط(1).

وفي نفس الإطار بينت الدراسات التي قام بها «توماي بيترز وروبرت وترمن» Peters, Robert et Terman حول خصائص الإدارة للشركات الضخمة في الولايات المتحدة Bechtel (i b m) أن هذه الشركات تتميز إدارتها بـ : الدنو من الزبائن ـ تشجيع الاستقلالية والروح القيادية ـ التوجه نحو العاملين ـ بساطة البنية التنظيمية ـ الجمع بين الشدة واللين والمركزية واللامركزية(2). ويؤكد الباحثان من خلال الدراسات التي أجرياها على المنظمات أن العمال يلحون على أن يعملوا في منظمات حية نشيطة وأن يقوموا بأعمال ذات قيمة ، ويرفضون الإيديولوجيات ، والأنظمة الجامدة ويودون المشاركة في بناء البيئة المحيطة بهم وتحسين ظروف حياتهم(3).

ـ خاتمة :

ويستخلص من كل ما سبق أن التنظير للفكر الإداري متواصل ، قصد الوصول إلى أحسن السبل لتحقيق الغايات والأهداف المرجوة من قبل الإدارات في كل المجالات ، لأن هذا العنصر لم يقتصر على التكنولوجيات فقط ، بل تعدى ذلك إلى الإدارة التي أصبحت سبب تطور أي مجال أو تخلفه .

.قائمة المراجع :

1.المراجع العربية : أ.الكتب :

ـ أحمد مصطفى خاطر ، الإدارة وتقويم مشروعات الرعاية الاجتماعية ، المكتب الجامعي الحديث ، مصر ، 1990.

ـ أحمد إبراهيم أحمد ، الجوانب السلوكية في الإدارة المدرسية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1998.

ـ أحمد محمد الطيب ، الإدارة التعليمية ، أصولها ، وتطبيقاتها المعاصرة ، ط1 ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، 1999 .

ـ خيري خليل الجميلي ، الاتصال ووسائله ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، 1997 .

(1) مرجع نفسه .

(2) مرجع نفسه .

(3) Quirion, C.l'approche service appliquée à l'cole.Eds la chenelière.Québec.Canada.1994.p115.

ـ عبد الرحمن محمد عيسوي ، دراسات في علم النفس الاجتماعي ، مكتبة القاهرة ، ط1 ، 1974 .
ـ عبد الفتاح دياب حسين ، التخطيط والرقابة طريقك إلى الفعالية الإدارية أساس نجاح الإدارة ، سلسلة مطبوعات المجموعة الاستشارية العربية ، ط2 ، القاهرة ، 1996 .
ـ محمد رفيق الطيب ، مدخل للتسيير ، أساسيات ، وظائف ، تقنيات ، ج1 ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د ، ب ، 1995 .
ـ محمد سويلم ، أساسيات الإدارة ، جامعة المنصورة ، د ، ب ، 1991 .
ـ محمد منير مرسي ، الإدارة التعليمية ، أصولها وتطبيقاتها ، عالم الكتب ، القاهرة 1993 .
ـ محي الدين الأزهري ، الإدارة ودور المديرين ، أساسيات وسلوكيات ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، 1993 .
ـ هدى سيد لطيف ، الأسس العلمية للإدارة ، الشركة العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1995 .

ب. المجلات :

ـ أحمد سعيد درياس ، إدارة الجودة الكلية ، مفهومها ، تطبيقاتها ، مجلة رسالة الخليج العربي ، السنة 15 ، العدد 15 ، 1994 .
ـ إسماعيل المصلح ، مديرو الفكر الإداري وانعكاساته التربوية ، دراسة تحليلية نقدية ، مجلة حوليات كلية التربية ، السنة 10 ، العدد10 ، د ، ب ، 1994 .
ـ عبد الرحمان إبراهيم المحبوب ، أبعاد القيادة الإدارية كما تراها مديرات المدارس الابتدائية ، المجلة العربية للتربية ، العدد الأول ، مجلد 16 ، 1996 .
ـ قاسم قضاة وسلمى الناشف ، اتجاهات المسئولين الإداريين نحو استخدام الأسلوب العلمي في اتخاذ القرارات في وزارتي التربية والتعليم ، والتعليم العالي في الأردن ، مجلة رسالة المعلم ، العدد3 ، المجلد 38 ، 1997 .

2ـ المراجع الأجنبية :

- Bouvier, A.management et projet, Eds, hachette éducation.Paris.1994.
_ Jumentier, J.la gestion dés ressources humaines dans lés Systems éducatifs séminaire de la MAFPEN et de L'IVFM.De l'académie de Lyon.Novembre.1995.Avril.1997.CNPP.Lyon.France.1999.
_ Luk, B.et autres.Administration scolaire et efficacité dans les organisations.Eds, agence d'ARC.Canada.1991.
____ Quirion, C.l'approche service appliquée à l'école.Eds la chenelière.Québec.Canada.1994.
__ Woycikowska, C.prendre lés fonction de direction dans un collège ou un lycée.Eds.Hachette éducation.Parise.France.1999.

إشكالية تطور العلم في فلسفة توماس كون Thomas Kuhn

أ . حياة مشاط *

ملخص :

تستمد هذه الدراسة البحثية أهميتها الخاصة من أهمية موضوعها وراهنيته في الفكر المعاصر ، إذ يعد العلم الظاهرة الأبرز التي خيمت بظلالها على القرن العشرين ، قرن العلم والثورة العلمية بامتياز ، فقد استقطب جلّ اهتمام الفلاسفة والمفكرين والعلماء ، ومنهم فيلسوف العلم الأمريكي توماس كون Thomas Kuhn (1922 ـ 1996م) الذي اهتم بالمسار الديناميكي للعلم ، وبحث عن ميكانيزمات إنتاج المعرفة العلمية ، وأكد أن العلم يتطور عن طريق ثورات ، فوظف مفهوم الثورة في التغيرات البنيوية التي تطرأ على العلم ، واتخذ منها أساسا لنمو المعرفة العلمية . .

على ضوء ذلك يكون لهذه الدراسة أهمية مزدوجة : فهي من جهة مقاربة إجمالية عن نظرية **توماس كون** ومفاهيمها و أهدافها و نتائجها ، ومن جهة أخرى تعد هذه الدراسة محاولة للكشف عن أثر نظرية كون ، وما فتحته من آفاق منهجية واستبصارات جديدة لتفسير ظاهرة المعرفة العلمية في بنيتها الداخلية وتحولاتها الثورية .

الكلمات المفتاحية : الثورات العلمية ، العلم العادي ، الأزمة ، جماعة العلماء ، النموذج

مقدمة :

يعد **كون** من أبرز فلاسفة العلم في القرن العشرين ؛ وذلك لما أثاره كتابه الشهير **بنية الثورات العلمية** من جدل عاصف في الدوائر الثقافية والأكاديمية الأورو ـ أمريكية والعالمية ، لا سيما نظريته في النموذج ، وما كان لها من تأثيرات قوية في الوسط الفلسفي العلمي .

كان كتاب بنية الثورات العلمية **لكون** الذي تضمن نظريته الكاملة عن العلم من الدراسات المتمردة على فلسفات العلم السابقة ، كونها لم تعبر عن الآلية

* كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة أكلي محند أولحاج ، بالبويرة.

الحقيقية لتطور العلم ، لأنها فلسفات لا تحتمل مواجهة التحليل التاريخي . فحاول **كون** دراسة إشكالية تطور العلم بربطها بسياقها التاريخي مع التركيز على الطابع الثوري للتقدم العلمي ، لأنه رأى في تاريخ العلوم الوسيلة الفعالة والوحيدة لفهم ميكانيزمات إنتاج العلم ، فعاد إلى تاريخ العلوم للبحث عن الإستراتيجية الفعلية التي من خلالها ينمو ويتواتر العلم . وانطلاقا من هذا التصور يمكننا التساؤل عن وضع تطور العلم في فلسفة **كون** . **فكيف يتطور العلم عبر التاريخ ؟ أو كيف يتم إنتاج المعرفة العلمية وما هي العوامل المتحكمة في نموها ؟**

كانت هذه الإشكالية المهمة الأساسية التي أخذ **كون** على عاتقه تحقيقها من خلال كتابه السابق الذي كان يمثل هجوما صارما ضد المذاهب الفلسفية آنذاك ، إذ أحدث ضجة كبيرة وجدلا حادّا في الوسط العلمي ، لأنه أثار الانتباه إلى الكثير من الأخطاء المرتكبة في تحليل العلم ، وقدم الكثير من الانتقادات الصائبة فيما يخص العوامل التي تبرر التحول العلمي .

حاول **كون** في هذا الكتاب أن يغير النظرة إلى تطور العلم ، ويقدم صورة جديدة عن العلم وتاريخه ، فأقر بضرورة ربط العلم بتاريخه ، وألح على ضرورة استحضار الوعي التاريخي في تحليل بنية العلم ، وأكد على أن الظاهرة العلمية لا تفهم إلا في إطارها التاريخي .

أحدث **كون** بنظريته في العلم تحولا في مجرى فلسفة العلم ، ليس من حيث نظرته الجديدة إلى تطور العلم ، بل من حيث تصوره للمشكلات العلمية وطرق حلها ومعايير الممارسة العلمية . فحاول أن يقدم بديلا معرفيا يحيط بالعملية الفعلية لتطور العلم ، واستحدث لذلك مفاهيم جديدة أدت إلى تفسير جديد للعلم وتاريخه ، فكان مفهوم النموذج والثورة العلمية من المفاهيم القاعدية في نظريته ، بحيث وظفهما في تحليله لبنية العلم ، وبيّن دور كل منهما في إنتاج المعرفة العلمية

مفهوم النموذج :

لم يقدم **كون** مفهوما واحدا لفكرة النموذج لكن غالبا ما يستعمل المصطلح بمفهوم النظرية وذلك في معظم نظريته ، إذ يعتبره تلك النظريات المعتمدة من قبل جماعة من الباحثين العلميين في مرحلة معينة . فالنموذج هو « مخطط صحيح تلتزم به الجماعة العلمية ، وهو الذي يؤسس النشاط العلمي ويحدد له

الأبحاث المسموحة »[1].

إن وجود العلم مرتبط بوجود نموذج إرشادي . وممارسة البحث تتطلب انخراطا فكريا في النموذج وانخراطا اجتماعيا في الجماعة العلمية ، لأن الانخراط في نظريات النموذج هو الذي يفتح ذهن الباحث على الظواهر التي تتطلب الحل ويجب أن يكون هذا الأخير مقبولا من طرف النموذج .

يرى **كون** أن النموذج الإرشادي عموما « يعبر عن مجموع المعتقدات والقيم المتعارف عليها والتقنيات المشتركة بين أعضاء مجتمع بذاته »[2] ، هذه القيم المشتركة تتمثل في القواعد والمبادئ التي يتبناها أعضاء جماعة علمية متخصصة في ميدان معين ، إذ يسود إجماع بين أعضائها حول سبل الفحص وطريقة البحث ، وتكون لدى أعضائه طريقة موحدة في النظر إلى الأشياء وذلك بتوفير منهج سليم يتبعه الباحثون في إنجاز أبحاثهم ، فالنموذج هو الذي يؤدي إلى توحيد أعضاء البحث .

النموذج هو مفتاح المعارف عند **كون** إذ يعد من المقومات الأساسية لبناء العلم ، بحيث يحد المشكلات المشروعة ويقصي التي ليست موضوع اهتمامه ، لذا على الباحث أن يهتم بالظواهر التي يمكن استيعابها في إطار النموذج المعمول به ، لأن هذا الأخير لا ينفتح لوقائع غريبة عنه . كما نجد **كون** يربط مفهوم النموذج بفكرة المجتمع العلمي « فالنموذج الإرشادي هو قاسم مشترك بين أعضاء جماعة علمية والعكس بالعكس فالجماعة العلمية تتألف من رجال يشتركون معا في نموذج إرشادي واحد »[3]

أولى **كون** اهتماما خاصا لفكرة المجتمع العلمي لأن هذا الأخير شرط مسبق لإمكان قيام العلم ، ويرى من الضروري دراسة بنيته لأنه هو الوحدة التي تنتج المعارف العلمية وتصححها عندما تنحرف عن الصواب ، ويجب علينا الاهتمام بسلوك أفراده حيال . فالنموذج الإرشادي وكيفية تعاملهم معه . النموذج هو من وضع الجماعة العلمية ، وهي هيئة منسجمة متفقة حول لغة خاصة وأدوات تقنية محددة وقواعد إجرائية صارمة تسير الممارسة العلمية وتحدد معيار النشاط المشروع للباحث العلمي الذي ينشط داخل هذه الهيئة وإليها توجه أعماله . وبالتالي **كون** يركز على الطبيعة الاجتماعية للنشاط العلمي .

---

(1) Petreski,Z . 2000 . p . 221.
(2) **كون ، ت .** 1992 **، ص**244.
(3) **مرجع نفسه ، ص**245.

استعان **كون** كثيرا بفكرة المجتمع العلمي في تحليله لبنية العلم ، مما أضفى طابعا سوسيولوجيا على نظريته وقد كان أشد فلاسفة العلم إدراكا للطابع الجماعي الذي لازم العلم منذ نشأته ، وهو الذي رفع لواء سوسيولوجا العلم[1] وبذلك انتهت صورة العالم المنعزل بأبحاثه ، وحلت محلها هيئة علمية تعكف على إنجاز الأبحاث .

يلعب النموذج الإرشادي عند **كون** دور الإيديولوجية لأنها تصنع تماسك المجتمع العلمي وتجانسه . وإن إجماع العلماء على النتائج هو الذي يجعل العلم متميزا ، مادام هذا الإجماع لا يحدث في سواه هذا ما جعل الناس يتصورون أن العلم هو الشكل الوحيد للمعرفة الحقيقية ، ويرى أن تفسير التقدم العلمي لا بد أن يرسو على عوامل سوسيولوجية ، لهذا لقيت نظريته قبولا كبيرا من قبل علماء الاجتماع الذين تلاءموا مع وصفه للجماعة العلمية وقيمها .

يمثل النموذج خريطة عن الطبيعة وما تحويه من كيانات ، والطبيعة شديدة التعقيد ويستعصي اكتشافها عشوائيا ، فالنموذج أداة فعالة تساعدنا على فهمها وتفسيرها بحيث يحدد أسرارها التي تثير التحدي ويزودنا بمفاتيح حلها . كما يقدم التوجيهات اللازمة التي تضمن السير الحسن للممارسة العلمية ، وعندما يتبنى الباحث نموذجا إرشاديا فهو يكتسب نظرياته ومعاييره ومناهجه ، لأنها تساعده على حل المشكلات التي تواجهه ـ وهذا هو دور النموذج ـ . فيفوز هذا الأخير بمكانة في الوسط العلمي لكونه أنجح من سواه من النماذج المنافسة له من حيث القدرة على حل المشكلات العلمية وخاصة الحادة منها . يمثل النموذج الإطار الذي يتم فيه النشاط العلمي ، ولا يوجد علم إلا في حضن نموذج وهو يمثل « النظارات التي نرى عبرها العالم »[2].

جعل **كون** مفهوم النموذج أداة لتحليل أحوال العلم وميكانيزماته ، فهو الذي يحدد الملامح العامة لحقل علمي معين وعلى ضوئه يفهم النظام المعرفي السائد . وإن التطور الذي يحققه العلم إنما يعود إلى قدرة النموذج على استقطاب المستجدات التي أفرزها العلم ، وإلى توجيهه الفعال للجماعة التي تتبناه ، لأن المعرفة العلمية هي نتاج تقليد بحث موجه والنموذج هو الذي يتحكم في آفاق البحث العلمي وما تاريخ العلم إلاّ سلسلة من تعاقب النماذج الإرشادية .

(1) **طريف الخولي** ، 2000 ، ص420
(2) **Robert,S .** 1993 **. p .** 13 .

مراحل تطور العلم :

يرى كون أن العلم في تطوره يمر بمرحلتين :

1 . المرحلة الأولى : مرحلة العلم العادي :

أ . مفهوم العلم العادي :

العلم العادي هو « بحث تراكمي »[1] أي ذو طابع تراكمي هدفه الزيادة في محتوى المعرفة العلمية لكنه يتميز بندرة الاكتشافات والإبداعات . يكون العلم في هذه المرحلة في حالة استقرار وثبات لأن النموذج المعتمد يكون متمسكا بزمام النشاط العلمي .

يعرف **كون** العلم العادي بأنه« البحث الذي رسخ بنيانه على إنجاز أو أكثر من انجازات الماضي العلمية »[2] والمعترف بها في الوسط العلمي في مرحلة زمنية معينة ، وهو النشاط الذي يهتم بحل المشكلات العلمية بالطرق التي يحددها النموذج المعمول به .

يربط **كون** العلم العادي بمفهوم النموذج لأنه لا ينتج إلاّ في حضنه ، فالنموذج هو الموجه والمنظم للممارسة العلمية ، فهو الذي يحدد معيار النشاط المشروع فيه بحيث يضبط قواعده الإجرائية وأدواته التقنية ويجعلها فعّالة ، فتساهم في تقديم الحلول للمشكلات المطروحة ويحدد حتى نوع المشكلات التي يتناولها بالبحث ، ويوجه الفريق العلمي إلى المشكلات الأكثر تخصصا وتحديدا من تلك المشكلات العامة التي تستغرق قرونا من البحث دون إجابة واضحة ومحددة .

يماثل **كون** بين مشكلات العلم العادي وبين الألغاز ، ويرى أنهما تشتركان في أن كل منهما : تمتلك حلولاً مؤكدة ـ خاضعة لقواعد تحدد طبيعة الحلول المقبولة والخطوات المودية إلى هذه الحلول . تمثل تحدياً لمهارة اللاعب وتتركز جاذبيتها في طريقة الوصول إلى الحل . ويقارن **كون** بين عمل العلماء في العلم العادي وبين عملية حل الألغاز ؛ إذ يعتبر أن بناء مشكلات العلم العادي يشبه بناء الألغاز ، ويهيئ الحلول المناسبة والقواعد التي يجب إتباعها للوصول إلى الحل . هذه المشكلات هي ألغاز لأنها تهيئ لكل باحث فرصة لإثبات قدرته الإبداعية وبراعته في وضع الحلول .

---

(1) **كون ، ت .** 1992 **، ص**148

(2) **مرجع نفسه ، ص**41

عندما يكتسب العلم نموذجا يتغير مسار العلم وفق أفكار ومعتقدات هذا النموذج الجديد ، « هذا العلم السوي[العادي] الذي إذا ما تأملناه سواء من الإطار التاريخي أو من النظرة المعاصرة لبدا كمحاولة لإجبار الطبيعة لإدخالها في إطار مسبق زودنا به النموذج المعاصر »[1] . لفهم الطبيعة لابد من إدخال ظواهرها في إطار نموذج محدد يتعين عليه تفسيرها .

إن هدف العلم العادي ليس البحث عن وقائع جديدة بل توضيح الظواهر التي يقدمها النموذج الإرشادي ، أما تلك التي لا تتلاءم معه فتغفلها الأنظار وتقصيها من الاهتمام . والعلم العادي لا يكتفي بالوقائع كوقائع خامة ، لأنها لا تكتسب معناها إلا بانخراطها في شبكة من العلاقات المفهومية الموجودة في النموذج .

فليس هدف العلم العادي اكتشاف وقائع غير متوقعة ، بل إن الشيء غير المتوقع يعتبر فشلا بالنسبة إليه ، فالنجاح هو الحصول على نتائج أمكن تنبؤها لأن هذا يدلّ على تحكم النموذج بزمام الطبيعة .

نستخلص مما سبق أن وجود النموذج شرط ضروري لقيام العلم العادي ، ولا يمكننا الحديث عن هذا العلم في غياب نموذج يوجهه ، فالنموذج هو معيار تمييز العلم عن اللاعلم .

عندما يسود نموذج إرشادي معين فإنه يمارس نوعا من الهيمنة على فئة من الباحثين ، بحيث يحدد لهم المواضيع التي تتم معالجتها والإشكالات المشروع طرحها والتقنيات والطرق المستعملة لإيجاد حلول لها . والنموذج يفيد في إعداد الطالب ليكون أهلا للعضوية في المجتمع العلمي ويحضره للممارسة المهنية ، وذلك عن طريق التكوين الذي يتلقاه غالبا من المجلدات العلمية والكتب المدرسية .

تعد هذه المجلدات العلمية وسيلة لتنشئة الباحث على مبادئ العلم العادي ، لأنها تتضمن الأسس والقواعد التي يقوم عليها هذا العلم ، وتعرض المشكلات العلمية التي تم حلها والنظريات الجاهزة التي سبقت صياغتها ، فالباحث في العلم العادي مهيأ لحل الألغاز في إطار التقليد الذي تحدده له هذه الكتب .

إن الباحث في العلم العادي يعالج مشكلات تشبه تلك الواردة في هذه المجلدات ، فممارسة هذا العلم تعتمد على الخبرة المكتسبة من حل هذه الأمثلة

(1) **كون ، ت** . 1992 ، **ص**58.

النموذجية ، لكن هذه المجلدات تهيئ الباحث لنوع محدد من المشكلات فقط ولا يمكنه أن يواجه مشكلات من نوع آخر .

يرى **كون** أن هذه المجلدات تسعى إلى ترسيخ العلم العادي وتعد وسيلة فعالة لتلقين نوع خاص من المعارف ، إذ يتلقى منها الباحثون الأسس التي يقوم عليها تخصصهم ، فيلتزمون بذات القوانين والقواعد والمعايير ، ونادرا ما نجد تعارضا بينهم بشأن المبادئ الأولية لأنهم « قد مروا بمرحلة متماثلة من حيث التعليم والتنشئة المهنية »(1) ، لذلك نجدهم يتحدثون عن نفس الأشياء وبنفس العبارات ويتبنون نفس المواقف ، فيسود بينهم إجماع في الرأي وهو من الشروط الأساسية والمقدمات الضرورية لقيام العلم العادي .

هذه المجلدات البيداغوجية هي الوسيلة المعتمدة في التنشئة العلمية للباحثين ، ومنها يستمدون نوع المشكلات وطريقة معالجتها ، فهي تساهم في تكوينهم لكنها تحد من نطاق تفكيرهم بحيث تقيد الباحث بحصره في النظريات التي صاغتها ، فهو مضطر لرؤية الطبيعة على النمط الذي تحدده هذه الكتب وذلك لتكريس العلم العادي وضمان استمراريته . لقد أضحى التراكم صورة العلم العادي ، ومصدر هذه الفكرة هي التقنيات المستعملة في المجلدات العلمية والكتب الدراسية التي تعرض العلم على شكل سلسلة منسجمة من النظريات العلمية .

ب . أهمية العلم العادي :

يشغل العلم العادي الجزء الأكبر من تاريخ العلوم ، وتكمن أهمية هذا العلم في أنه يتيح للعلماء فرصة تعميق نظرية علمية معينة وذلك بالدخول في أدق عناصرها بمحاولتهم وضع الطبيعة في أطر النموذج الذي يمثل « مجموعة من الحقائق اليقينية التي تسير العلم العادي »(2).

يرى **كون** أن النموذج يتطور في أحضان العلم العادي بحيث يزيد من محتواه المعرفي بإثرائه بحقائق علمية كثيرة ، النتائج التي نصل إليها من خلال العلم العادي تعتبر هامة في نظر العلماء على الأقل لأنها تضيف جديدا من حيث نطاق ودقة النموذج . فكلما كان النموذج أكثر دقة وضبطا كلما ازداد تحكمه في زمام البحث العلمي . لكن غالبا ما يكون العلم العادي سببا في هدم نموذجه لأنه يكشف عن ظواهر متمردة عن النموذج وهنا تكمن خصوبته ، إذ يسمح بتجاوز

(1) **كون ، ت .** 1992 ، **ص**247.
(2) Lecourt . D . 1993 . p . 35

المعطى الراهن من معارف سائدة ويفتح المجال لظهور نموذج آخر يتوج بعلم جديد . إن العلم العادي لا يعيق تطور العلم ، فعند انتهاء فعاليته يفسح الطريق أمام معارف جديدة .

2 . المرحلة الثانية : مرحلة الثورة العلمية :

سبق وأن أشرنا إلى أن العلم العادي يهدف إلى توسيع المعرفة العلمية ، من حيث المحتوى والدقة ، ولا يسعى إلى اكتشاف إبداعات جديدة لا في مضمون النظريات ولا في الوقائع ، وإن ظهر فيه جديد يكون حدثا غير متوقع ، فهذه المستجدات هي نتيجة غير متعمدة تظهر سهوا واستيعابها يتطلب استحداث طرق جديدة ، لان النموذج القائم يقف عاجزا أمامها ، نسمي هذه المستجدات شذوذا .

تبدأ مرحلة الثورة العلمية بظهور حالات شاذة يتعذر استيعابها في إطار النموذج القائم ، لأنه غير مهيئ لهذا النوع من الوقائع ، فيؤدي إلى أزمة . إن الأزمة تمثل النقطة التي فشلت عندها قواعد العلم العادي فشلا ذريعا بعد أن استحال على ضوئها استيعاب الشذوذ . إن الشذوذ الذي يؤدي إلى أزمة لا يمكن حله بضبط النموذج وتوسيع نطاقه ، لأن الأمر يتطلب أكثر من ملاءمة وتعديل ، إنه يحتاج إلى نموذج جديد ، وعليه فإن الأزمة تعني قد آن الأوان للخروج من سياق العلم العادي إلى علم جديد يحيط بجوانب المشكلة التي أدت إلى أزمة .

إن حالة شاذة ما تكون خطيرة عندما تصير محاولات حل المشكلة جذرية وتفقد قواعد النموذج القديم صرامتها . هذا النوع من الشذوذ هو الذي يكون مصدرا لأزمة حادة تستلزم تدميرا واسع النطاق في العلم العادي ومشكلاته ، وتقوض الثقة في النموذج الذي كان سائدا من قبل . « ويعني تحول العلم العادي أن الحالات الشاذة قد أصابت النموذج في صلبه » . 1993[1] .

فيفقد زمام التحكم في الممارسة العلمية ، ويتيح الفرصة لظهور نموذج جديد يستقطب المستجدات العلمية .

عندما يواجه العلماء حالات شاذة نجدهم يفكرون في نظريات بديلة ، ولا يتخلون عن النموذج الذي أدى إلى الأزمة رغم معرفتهم أن هذه الحالات الشاذة تناقضه ، بحيث يضعون له صيغا عديدة ويدخلون عليه تعديلات كثيرة أملا في إيجاد حل في إطاره ، فظهور الشذوذ يتبعه محاولة المواءمة بينه وبين النموذج القائم وذلك باستحداث طرق وتقنيات جديدة ، وإذا باءت هذه المحاولة بالفشل

(1) **Besnier,J . M** . 450 **p** .

تحدث أزمة تهدد التقليد الراسخ للممارسة العلمية . تعبر الأزمة عن انتقال غير منتظر إلى نموذج جديد ، لأن استقطاب المستجدات يقتضي طريقة عمل جديدة ، فظهور هذا النموذج يمثل أمرا ضروريا لفهم هذه الظواهر الشاذة وهو الذي يخرجنا من حالة الاضطراب والخلل التي يعيشها النموذج القديم إلى حالة الاستقرار وذلك بتقديم تفسير موضوعي للشذوذ . وتبدأ البحوث غير المألوفة التي تؤدي إلى بروز أساس جديد للعلم .

يعتبر الشذوذ عاملا محرضا لتقويض الثقة في النموذج السائد بإظهار مشكلات دقيقة تبين عجزه ، فعندما تكثر الحالات الشاذة تزداد الأزمة تفاقما ، لأن تكاثر الوقائع المتمردة تفقد النموذج فعاليته وثقة المجتمع العلمي التي كانت سببا في اعتماده وفقدان الثقة فيه من أهم أسباب ظهور النموذج الجديد . إن هذه الحالات الشاذة التي تخلق أزمة تمثل شواهد مناقضة للنموذج المعرفي السائد ، لكنها لا تثبت زيف النظريات التي بنيت في إطاره .

عند فشل القواعد التقليدية في أداء دورها يبدأ البحث عن قواعد جديدة للخروج من الأزمة ، فظهور الأزمة يعد مؤشرا بأن المناسبة قد حانت لتغيير الأدوات ، طالما أن الأدوات التي يزودنا بها النموذج القائم أضحت عاجزة عن مواجهة المشكلة التي أدت إلى أزمة . أي أن هذا النموذج عاجز عن فهم الطبيعة أو بالأحرى الطبيعة ترفض التعبير عن نفسها بلغة هذا النموذج ، فيتأزم الوضع إلى درجة تجعل « كل الجهود العلمية تكرس لأجل البحث عن لغة جديدة للطبيعة »[1]

إن عملية رفض النموذج القديم لا تتم إلا بعد أن تبلغ النظرية الجديدة مرتبة النموذج ، ولا تقصى النظرية القديمة إلا إذا توفرت نظرية أخرى بديلة تأخذ مكانها ، لأن « رفض النموذج دون إحلال غيره محله في ذات الوقت بمثابة رفض للعلم نفسه »[2] . لأن البحث لا يستمر إلا في إطار نموذج ، ولا نصرح بعدم صواب نظرية النموذج القديم التي تم استهلاكها قبل ظهور النظرية الجديدة التي ستكون قادرة على استيعاب الحالات الشاذة التي أدت إلى أزمة في العلم القديم .

عندما يدخل النموذج في الأزمة ، يظهر نوع جديد من الأبحاث لا يخضع لمعايير البحوث السابقة ، ، وتعود بعض المشكلات المقصاة إلى الواجهة العلمية

(1) Progogine,I,et Stengers,I . 1979 . p . 288

(2) **كون ، ت** . 1992 ، **ص**127 ـ 128

باعتبارها مشكلات مشروعة يمكن حلها بالتقنيات الحديثة ، فالأزمات يمكن أن تقود إلى التحول لأنها تنتج عن فشل التوقعات وتتبع غالبا بثورة علمية . فهي تعبر عن انتقال غير متوقع في من تقليد بحث إلى نمط معرفي جديد مخالف للقديم ، أي أن الأزمات هي التي تمهد السبيل لظهور العلم غير العادي .

لكن هذه الأزمات هي عوامل نمو وتقدم بل محرك أساسي لنمو العلم ، لأن بإمكانها أن تفجر ثورة علمية ينتج عنها ميلاد نموذج آخر . فالأزمات تنبثق عنها نظريات علمية جديدة تغير تقاليد البحث القديم وتحدث ثورة العلمية تتوج بعلم جديد . لا تقدم لنا الأزمة نظرية جاهزة أو بديلا معرفيا منجزا بل تعبر عن أهم ملامح النموذج القادم ، ويمكنها أن تتنبأ بما ستكون عليه الممارسة العلمية المقبلة ، لأن وظيفة الأزمة في العلم هي الإشارة إلى ضرورة الإبداع وتوجيه انتباه العلماء إلى المجال الخصب الذي يمكن أن يظهر فيه الإبداع فالأزمة تلفت الانتباه إلى موضع الإشكال ، وبالتالي يصبح موضوع اهتمام وبحث إلى أن يكتشف الحل ، وهي حافز للإبداع والبحث الخلاق .

وظيفة الأزمة هو تسليط الضوء على المشكل الغامض ، وإثارة الانتباه إلى مشكل غير مألوف يحتاج إلى حل عاجل ، واستيعاب هذا النوع من المشكلات لا يمكن أن يتم في إطار النظرية المعتمدة رغم تعديلها أو توسيع نطاقها ، فالأمر يتطلب ما هو أكثر من تكملة تضاف إلى النظرية القائمة أو ضبط للنموذج . وفي هذه الحالة يتعين على رجل العلم أن ينظر إلى الظاهرة بنظرة مغايرة لأن فهمها يقتضي الانتقال إلى نموذج آخر . هذا الانتقال لا يتم بتوسيع البناء ألمفهومي القائم بل يستلزم إعادة النظر في كل أسس البناء . وغالبا ما تؤدي حل الشذوذ إلى بروز نظريات جديدة تحدث تحولات حاسمة في الممارسة العلمية فتؤدي إلى ثورة في العلم ، إذن يمكن اعتبار الأزمة اللبنة الأولى لانطلاق الثورة العلمية ،

١ ـ مفهوم الثورة العلمية :

تبدأ الثورة العلمية شذوذ يتعذر على النموذج القائم استقطابه ، فتتولد أزمة لا يتم تجاوزها إلاّ بانبثاق نموذج جديد ، هذا الانتقال من النموذج القديم على الجديد يمثل ثورة علمية . ويعرفها **كون** أنها« سلسلة الأحداث التطورية غير التراكمية التي يبدل فيها نموذج إرشادي قديم كليا أو جزئيا بنموذج إرشادي جديد متعارض معه »[1] ، فالثورة العلمية هي مرحلة غير تراكمية من تطور العلم ، والتي يعني بها الانتقال الحاصل من نموذج إلى آخر وما يصحبه من تحولات في

(1) **كون ، ت** . 1992 ، **ص**143.

الممارسة العلمية ، لأنه إثر انبثاق نموذج إرشادي جديد يحدث تغير مفهومي شامل في شبكة العلاقات بين الأشياء وفي المشكلات المعالجة والأحكام والمعايير المشروعة ، لأن البناء الجديد يقدم معلومات لم يكن باستطاعة النموذج القديم أن يزودنا بها ، لهذا يأخذ النموذج الجديد مهام النموذج السابق ، ويحضى بالقبول في الأوساط العلمية أنه يتلاءم مع الوضع العلمي الجديد . يعد هذا النموذج الجديد البديل المعرفي الذي سيوجه البحث العلمي ، لأن هذا الأخير لا يمكن أن يستمر في فراغ مفهومي .

إن الانتقال إلى النموذج الجديد هو تحول حقيقي في رؤية العالم ، ذلك أن الأشياء تبدو في حلة جديدة ، لأن هذا النموذج يزودنا بوسائل مغايرة للمعهودة يتم هذا الانتقال بقطع الصلة مع التقليد القديم والانخراط في تقليد آخر مؤسس على قواعد جديدة .

إن الثورة العلمية هي تحول واسع النطاق في جملة المفاهيم والأسس ، يتمخض عنها تجديد عميق للمعارف العلمية ومواضيعها ومعاييرها ، وتصاغ مفاهيم جديدة لتؤسس علما جديدا يقدم صورة أخرى عن العالم . يستعمل **كون** الثورة العلمية حسب **شالمرز** بمفهومها الإيجابي إذ « تدل عن التخلي عن بنية نظرية لأجل إحلال بنية جديدة محلها »[1] ، فهي ثورة من أجل البناء ، من أجل تأسيس مجال معرفي أكثر انسجاما مع الواقع . . ليبرر **كون** تصوره عن الثورة العلمية استعان بتاريخ العلوم ، ففي كتابه الثورة الكوبرنيكية يوضح الثورة التي أحدثها (**كوبرنيك** Copernic : 1473ـ 1543) في علم الفلك بإثباته لحركة الأرض والتي غيرت النظرة إلى الكون .

الثورة تفسر الظواهر المتمردة عن النموذج القديم ، ولا تكتفي بتفسير المعطيات بل تحدث انقلابا كبيرا في سلطة القواعد التي تتحكم في سير الأبحاث ، وتبني العلم على أسس جديدة وتوفر له وسائل وتقنيات أفضل لاستيعاب أكبر قدر من الوقائع ، وخاصة تلك التي استعصت عن الحل بواسطة الوسائل التقليدية .

يماثل **كون** بين معنى الثورات العلمية والثورات السياسية ، إذ يرى أن الثورات السياسية تبدأ عن طريق إحساس مطرد بأن المؤسسات القائمة قد أخفقت في مواجهة المشاكل التي تعززها الحياة الاجتماعية ، وبالمثل تبدأ الثورات العلمية عن طريق إحساس مطرد النمو بأن النموذج الإرشادي قد توقف عن تأدية الدور

(1) **شالمرز ، أ** . 1991 ، **ص**94

المنوط به في الكشف عن إجابات للمشكلات العلمية ، ففي كل من العلم والسياسة يكون الإحساس بالأزمة شرطاً أساسياً للثورة ، هكذا تشترك الثورات سواء السياسية منها أو العلمية بمراحل تكوينية واحدة ، هي : أنها مسبوقة بإدراك خطأ في النظام السائد ، ثم محاولة رصد هذا الخطأ وتشخيصه وتحديده بدقة ومن ثم تصحيحه . تكون نتيجة إزالة الخطأ تغيرات ثورية قد تكون على نطاق ضيق مثل تعديل بعض المفاهيم (المؤسسات) وقد تكون شاملة مثل قلب النموذج (النظام بأكملة) .

لا توجد ثورة إلا عندما يحدث تحول في النموذج . هذا التحول يعبر عن وجود عجز أو خطأ في النموذج القديم ، إذ أصبح لا يعين على التنبؤ حيال بعض الظواهر غير المهيأ لها ، وبالتالي يجب إحداث تغيرات فيه من أجل توسيع إطاره ، لأن النموذج في صورته القديمة كان عاجزا عن استيعاب الشذوذ . تظهر كفاءة النموذج ومدى قوته إذا تمكن من تجاوز المأزق الذي وقع فيه بموجب التصحيحات التي أجريت عليه أو وفق الصياغة الجديدة التي تحلى بها ، فيستمر في توجيه الممارسة العلمية ويصبح أكثر قدرة وخصوبة من صيغته الأولى . وهذا هو التحول الجزئي في النموذج الذي سبق وأن أشار إليه **كون** واعتبره أيضا ثورة . لكن إذا باءت كل محاولات تصحيح النموذج بالفشل ، هنا يتأسس بناء علمي جديد ويحدث تغير كلي في النموذج ، وتوضع أسس وقواعد جديدة مخالفة للقديمة وأحكام ومقاييس أخرى للنشاط العلمي وهذا هو التحول الكلي في النموذج . **فكون** يقصد بالثورة التحول الجزئي أو الكلي الذي يطرأ على النموذج ، لذا فهو لم يحدد مفهومها بدقة ، تارة يقصد بها التحول الكلي وتارة أخرى التحول الجزئي . أي أن كون يميز بين نوعين من الثورات في العلم . ثورات صغرى ويقصد بها تلك الاكتشافات الثورية التي لا تدخل ضمن توقعات النموذج السائد ، وتحدث باجراء تعديلات على هذا النموذج لإعادة صياغته صياغة جديدة .

والثورات الكبرى : ويقصد بها تلك الابتكارات النظرية الجديدة التي تؤسس تقليداً بحثياً جديداً وتفرض رؤية جديدة وتهدم النظام السابق عليها ويتجاوز تأثيرها المجال الذي حدثت فيه إلى مجالات أخرى من النشاط الإنساني ، مثل الثورة الكوبرنيكية التي غيرت النظرة الكلية للإنسان إلى الكون والحياة والمجتمع وإلى ذاته ومثل ثورة النظرية النسبية ، والكوانتم

إن التخلي عن النموذج القديم لصالح نموذج آخر متعارض معه يكشف عن تحول في الأفكار والمناهج ، لأن النموذج الجديد يعتمد قيما ومعايير غير

متقايسة مع العلم السابق . فعندما يتحدث **كون** عن الثورة كقطيعة مع القديم ، فهو يقول ذلك من منطلق أن كل نموذج هو تمثيل فريد وخاص لعالم معين ، لأن المشكلات التي يعالجها والتفسيرات التي يقدمها ، والمعايير التي يزن بها الحقيقة هي من خصوصياته التي لا يشترك فيها مع نماذج أخرى . فالتفسير الفيزيائي الحديث يختلف اختلافا جذريا عن فيزياء الفكر القديم أو العصر الوسيط . فالثورة في الفيزياء استلزمت استحداث طريقة جديدة من التفكير ، وكشفت عن مجالات جديدة للبحث . إن الثورة لا تقوم فقط بتخليص النظرية السابقة من تناقضاتها ، بل تؤدي أيضا إلى تغيير القيم المشتركة بين أعضاء الجماعة العلمية وتقطع تلك الصلة الوثيقة بينهم .

ب. الثورة باعتبارها تحول النظرة إلى العالم :

عندما تتغير النماذج الإرشادية يتغير معها العالم ذاته[1] ، ذلك أن عقب كل ثورة علمية يظهر عالم جديد كأنه طبيعة ثانية ، يتعذر فهمها على ضوء المفاهيم السائدة التي أصبحت عاجزة عن أداء دورها في هذا العالم الغريب ، وذلك للتغيير الحاصل في خصائص الأشياء وعلاقاتها فيما بينها ، أي إن التحولات التي طرأت على النموذج هي التي تجعل العلماء يرون العالم في صورة مغايرة .

بعد كل ثورة علمية يجد العلماء أنفسهم أمام عالم غريب عنهم ، فتتغير بذلك تصوراتهم وفقا للمفاهيم الجديدة التي انبنى عليها العالم الجديد الذي انتقلوا إليه ، هذا الانتقال يشبه الإنسان الذي يرحل إلى مجتمع أجنبي يتداول لغة غريبة عنه ، ولكي يفهم هذا المجتمع ويتجاوب ويتكيف معه عليه أن يتعلم لغته ، لأنه إذا بقي متمسكا بلغته الخاصة سيتعذر عليه التفاعل معه .

أثناء الثورات تتغير تقاليد العلم العادي وتظهر تقاليد جديدة ، ومن ثمة فإنه يتعين على الباحث أن يتدرب عليها كي تتجلى له رؤية العالم الجديد . فاستيعاب الجديد يقتضي تحولا في الرؤية العلمية .

على الرغم من أن العالم حولنا لا يتغير بتغير النموذج الإرشادي ، إلا أن الباحث العلمي يعمل بعد ذلك في عالم مغاير . فالعالم من حيث هو ظواهر فيزيقية ثابت رغم تغير النماذج الإرشادية التي تتناوله بالدراسة ، فهو عالم ثابت بالنسبة إلى الإنسان العادي لكنه متغير بالنسبة إلى الباحث العلمي . حين يتكلم **كون** عن عالم مغاير يريد أن يبين مدى اختلاف النموذج الجديد عن القديم ، فهذا

(1) كون ، ت . 1992 ، ص165.

البناء العلمي الجديد يقتضي أسسا جديدة ولا يشترك مع البناء القديم لا في مبادئه ولا في معاييره .

أما فريقا العلماء اللذان يعملان في عالمين مختلفين ، فإنهم يرون أشياء متباينة عندما ينظرون من نفس النقطة وفي نفس الاتجاه ، تبدو هذه الأشياء مختلفة رغم النظر إليها من نفس المواضع ، لأنه ينظر إليها من زوايا فكرية مختلفة ومفاهيم علمية متباينة تضع بين الأشياء علاقات جديدة ، فتبدو على غير صورتها الأولى .

على سبيل المثال يرى الأرسطيون أن الجسم المعلق بخيط يتحرك بحكم طبيعته الذاتية من وضع أعلى إلى وضع أدنى إلى أن يستقر ويتوقف عن الحركة ، أما **غاليلي Galilei** (1564ـ 1642) فقد رأى فيه نواسا ، أي جسما يتحرك ذات الحركة مرارا إلى ما لا نهاية . هذا يعني أن **غاليلي** نظر إلى الظاهرة من زاوية مختلفة عن تلك التي نظر منها الأرسطيون ، فأحدث بذلك انقلابا في الرؤية ، وأعطى فهما جديدا لحركة الأجسام . هذا الاختلاف في النظر إلى نفس الظاهرة يعود إلى اختلاف المفاهيم المعتمدة لدى الطرفين في تفسيرها ، فالأرسطيون اعتمدوا مقولات العلم الأرسطي التي تقوم على اعتبار الحركة « رجوع إلى الثبات »(1) . هذا التصور يرفضه **غاليلي** لأن الحركة بالنسبة إليه ليست تحولا نحو السكون بل هي معادلة للسكون ، وعلى هذا التصور بنى الجزء الأكبر من نظريته في الديناميكا .

ج . الثورة ليست بالضرورة قطيعة :

هل القول بنموذج جديد يتضمن بالضرورة رفض النموذج القديم؟

إن ابتكار الجديد لا يتم بالقطيعة التامة مع المعارف السابقة ، إذ لا يمكن أن يتم الاكتشاف من فراغ معرفي بل يتم بنقل العلاقات القديمة إلى المجال الجديد ، فتشكل بذلك علاقات أخرى تعطي فهما جديدا للوقائع ، ويستغل البناء الجديد خبرات التقليد العلمي القديم بتزويده بأدوات وآليات الاستدلال ، فيحقق نتائج أكثر دقة . في الكيمياء على سبيل المثال أسهمت نظرية الفلوجستون رغم ما تضمنته من أخطاء في تفسير الكثير من الظواهر الكيميائية ، إذ جاهد الكثير من الكيميائيين في تفسير العديد من التفاعلات الكيميائية ، تمخضت عن هذه الأعمال مفاهيم ومعارف كيميائية استعان بها **لافوازييه** في وضع نظرية الاحتراق بواسطة

(1) **بالبار ، ف** . 1993 ، **ص**14 ـ 15.

الأوكسجين . إن النظريات القديمة أسهمت بأعمال كثيرة ، وكانت الخلفية المعرفية في بناء العديد من النظريات لكن للحفاظ عليها يجب تحديد مجال فعاليتها ، أي حصرها في نطاق الظواهر التي تفسرها .

حقيقة أن ظهور نموذج جديد يصحبه تغييرا في المناهج والمعايير القديمة وفي المشكلات وطرق حلها ، وتغيير النموذج لا يتم إلا بإلغاء بعض المعتقدات السابقة بتبديل مكونات النموذج السابق بغيرها ، لكن هذا لا يعني إحداث قطيعة تامة ، إذ يمكن أن تكون الثورة تغييرا في جانب من جوانب هذا التقليد ، فيعاد تشكيله وفق صيغة جديدة ، لأن الأفكار العلمية تشكل تقاليد حية تنتقل من جيل إلى آخر لكن بعد أن تطرأ عليها تغييرات ثم تدمج في التقليد الجديد فينتج التطور في العلم . ومهما يكن من أمر فإن كل نظرية علمية جديدة حسب **كون** « تحتفظ بالنواة الصلبة للمعرفة التي كانت تقدمها النظرية التي سبقتها وتضيف إليها »[1] . بحيث عندما تحدث ثورة تنتقل بعض مكونات النسق القديم إلى النسق الجديد وهي النواة الصلبة للنظرية العلمية ، أما المكونات الأخرى فتترك مكانها لغيرها ، لأن هذه الأخيرة لا تدخل في صميم بنية النظريات العلمية لذا تزول لتفسح المجال لظهور أفكار جديدة تكون أكثر ضبطا وخصوبة .

يتضح من خلال هذا أن **كون** لا يقيم صراعا حادا بين الجديد والقديم ، ولا يقول برفض الماضي لأجل استيعاب الحاضر أي الجدة العلمية ، إذ يمكن أن تكون الثورة العلمية مجرد تصحيح لمعارف سابقة وتوسيع نطاقها .

إن انبثاق نظرية ثورية لا يعني بالضرورة ابتكار نظرية جذرية جديدة جدة مطلقة ، بل هو أيضا انتقال من نظرية قديمة إلى نظرية جديدة ، ستحتفظ هذه الأخيرة بلغة النظرية التي أزيحت وببديهياتها ، على شرط أن تكون هذه البديهيات تعبر عن طريقة جديدة واضحة وملائمة لفهم المستجدات . بعد حدوث الثورة تتغير طريقة معالجة المشكلات ، إذ تصبح بعض الأساليب القديمة غير ملائمة وتستبدل بغيرها لكنها ليست تغيرات شاملة ، فحتى إن تغيرت نظرة العالم إلى الظواهر إلا أن الجزء الأكبر من الأدوات العلمية السابقة لا يزال يستعملها ، وبالتالي يحوي علم ما بعد الثورة العلمية على بعض جوانب علم ما قبل الثورة . يقول **كون :** الثورة . . . ليس من الضروري أن تكون تغيرا هائلا »[2] . فالثورة العلمية عند **كون** لا تعني بالضرورة تحولات جذرية في كل أسس ومبادئ العلم ،

---

(1) **Kuhn,T .** 1957 **. p .** 3

(2) **كون ، ت .** 1992 **، ص**251.

بل يمكن أن تنحصر في تغيرات جزئية لبعض مفاهيم العلم السابق ، بحيث لا تتغير آليات البناء والاستدلال تغيرا عميقا ، فالثورة تقوم بتوحيد مجالي المعرفة السابقة واللاحقة ، وبالتالي لا تطور الأفكار العلمية يتم بشكل متصل ولا التجديد في العلم يتم بإحداث قطيعة مع المعارف السابقة لأن التجديد لا يحدث في فراغ مفهومي .

د . التحول الثوري في العلم :

إن التحول الثوري في العلم « أشبه بالتحول الجشطالتي »[1] . . فالانتقال من نموذج إلى آخر لا يتم عبر مراحل بل يحدث دفعة واحدة ، فالتحولات الثورية التي تطرأ على العلم تدرك برمتها وليس جزئيا . يعتمد **كون** على النظرية الجشطالية في تفسير تغيرات العلم .

إن الانتقال بين نموذجين هو انتقال فجائي من نظام إدراكي إلى آخر ، هذا التحول ذو طابع جذري يؤدي إلى تحول رؤية رجل العلم إلى العالم . وهذا التحول يتم بطريقة سريعة مفاجئة لكنها تستغرق وقتا طويلا لتفوز بولاء المجتمع العلمي . أن نظرية **نيوتن** لم تقبل على مدى نصف قرن من صدور كتاب **أسس الرياضيات** إلا أن التحول إلى النموذج الجديد سيحدث رغم عناد العلماء المتشبثين بتقاليد العلم العادي .

كل تفسير جديد للطبيعة سواء كان اكتشافا أو نظرية جديدة سيجد صداه في الوسط العلمي ، لأن أعضاء الجماعة العلمية هم أول من يستطيع أن يرى العالم على نحو مختلف . وغالبا ما يتم الانتقال إلى هذا العالم الجديد بفضل اهتمام أهل الاختصاص العلمي بالمشكلات التي أثارت أزمة وخاصة من طرف حديثي عهد بالمجال العلمي ، لأن الممارسة العلمية لم تصل بهم بعد إلى حد التشبث بالتقليد القديم .

كل نموذج إرشادي جديد يستغرق وقتا ليجد أنصارا ، لأنه يلقى في البداية مقاومة من طرف الجيل القديم ، هذه المقاومة مصدرها الثقة في النموذج القديم وفي قدرته على حل الكثير من المشكلات ، أما أنصار النموذج الجديد فيتبنون هذا الأخير ليس لأنه قد حل الكثير من المشكلات بل لثقتهم في قدرته على مواجهة كل الصعاب التي فشل فيها النموذج القديم . هذا الصراع بين الجيل الجديد والجيل القديم في الحقيقة يتعلق بالقدرة على حل المشكلات وأي نموذج

(1) **كون ، ت** . 1992 ، **ص**213.

ستكون له السلطة في تسيير الحياة العلمية . وقرار كهذا يحسم بالاستناد إلى الآفاق المستقبلية للنموذج وليس إلى الإنجازات الماضية له .

إن إحداث الثورة العلمية ليس أمرا سهلا بل تستغرق وقتا طويلا لتفوز بولاء المجتمع العلمي ، ويتم ذلك عندما يفقد النموذج القديم سلطته ، ويظهر نموذج جديد يفرض نفسه كقوة جديدة في الوسط العلمي ، فيتسع مجال البحث الذي يؤطره ، وتتضاعف أدواته التقنية ويقوى نفوذه في الحقل العلمي ، فيتحكم في الممارسة العلمية . وهذا ما يجعل الجزء الأكبر من أعضاء الجماعة العلمية يتحولون إليه ، ويقل عدد الرافضين له وخاصة عندما يكشف هذا النموذج الجديد عن مدى خصوبته وقدرته على حل كل الصعاب والإحاطة بجوانب المجال المعرفي الذي ينشط في إطاره .

الحجة الأكثر شيوعا وفعالية في تبرير التحول الثوري هي أن النموذج الجديد بإمكانه حل المشكلات التي قادت النموذج القديم إلى أزمة ، فعندما يظهر النموذج الجديد تجرى تجارب لاختباره . هذه التجارب هي التي تفرز النموذج الأفضل . فإذا ما أبدى النموذج الجديد قدرا كبيرا من الدقة والإحكام كان له النجاح والحظوة ، . إن الممارسة العلمية المتحررة من قيود العلم العادي ينشأ عنها بديل احتياطي للنموذج الإرشادي يساهم في بداية الأمر في حل عدد محدود من المشكلات ، لكن عندما يحقق نضجه يحل بطريقة فعالة الكثير من الصعاب ، كما يكون بإمكانه التنبؤ بظواهر جديدة لم تلاحظ عندما كان النموذج القديم سائدا .

ه . أهمية الثورة العلمية :

يكمن دور الثورة في إزالة الحواجز التي أعاقت مسيرة البحث في العلم السوي ، بحيث نجد النظريات الثورية تفسر المشكلات التي بقيت عالقة وتحيط بالنتائج السابقة للعلم الذي ولى وتضيف إليها . إن الوظيفة الجوهرية للنظرية الجديدة هي توحيد مجالات المعرفة السابقة واللاحقة لتشكل علما جديدا ، فالنظريات الجديدة تقدم طريقة جديدة للتفسير وتحمل تصورا جديدا عن الطبيعة .

العلم عند **كون** يتطور عبر ثورات علمية يصحبها ظهور نماذج ونظريات جديدة ، فالنظرية الجديدة تنبثق عن النموذج وتستمد قوتها منه ، وتكون ملمة بجميع المشكلات الرئيسية التي كانت موجودة من قبل في مجال البحث ، وتضيف أفكارا علمية ثمينة إلى الحقل المعرفي بحلها لمشكلات على درجة من

الصعوبة والأهمية .

يصحب الثورة العلمية ظهور مفاهيم علمية جديدة ، فالمفاهيم القديمة تكتسب مع النظريات الجديدة دلالة مغايرة عن القديمة ، لأن النظرية الجديدة تستلزم تحولا في المفاهيم ، ومعنى كل مصطلح يرتبط بالمضمون أو السياق النظري الذي يرد فيه ذلك أن المصطلحات لا تعني شيئا بمفردها ، فهي تكتسب معناها داخل النظرية ، وعندما تتغير النظريات تتغير معها مفاهيمها .

إن الثورة العلمية تأتي بمواضيع جديدة ومناهج بحث مستحدثة ومعايير حل مخالفة للقديمة ، فبعض المشكلات قد تحال إلى تخصص آخر أو قد تعتبر غير علمية ، كما يمكن أن تصبح تلك المشكلات التي اعتبرت مبتذلة في السابق البراعم الأولى لإنجاز علمي هام . مع تغير المشكلات يتغير أيضا المعيار الذي يميز الحل العلمي عن اللاعلمي .

بعد كل ثورة علمية يحدث تحول في مجرى العلم ، فالخاصية المميزة لهذه الثورة هي جدتها بالمقارنة مع المراحل السابقة للعلم ، رغم أن خلالها يتم توحيد مجالات المعرفة السابقة والجديدة إلا أنها تصاغ صياغة جديدة ، فتظهر في صورة جذرية غير معهودة . إن هذا الانتقال من نموذج إلى آخر هو الذي يسمح بتطور العلم ، فلو كان جميع المشتغلين بالعلم ملتزمين بنماذجهم لبقي العلم أسير حدود هذا النموذج ، وهذا يعني إعاقة العلم ، فالمعرفة الثابتة تؤدي إلى استحالة قيام أي طريقة جديدة للفكر ، وهذا ما يسمى بالنظرة السكونية إلى العلم وهي تعيق العلم أكثر مما تخدمه . إن العلم يتطور عن طريق الثورات العلمية تطورا نوعيا .

رغم اختلاف نمط تطور العلم في هاتين المرحلتين ، إذ نلمس تطورا تراكميا في مرحلة البحث العادي وقفزات نوعية في مرحلة البحث الثوري ، إلا أن **كون** يرفض أن يكون تعارضا بينهما ، بل كل مرحلة تؤدي إلى الأخرى ، فمرحلة العلم العادي تنتهي بظهور ثورة علمية وتدخل بذلك في مرحلة العلم الثوري الذي يتوج بظهور نموذج جديد يسير الحياة العلمية ، وهذا العلم الثوري بمرور الزمن يصبح علما عاديا إلى أن يواجه ثورة علمية أخرى . في فكر **كون** لا نجد الحدة في الثنائية «علم عادي» و«علم ثوري» ، فالعلم العادي يتميز بنوع من المرونة وقابلية التغيير بحيث عندما يواجه لونا جديدا من المشكلات لم يسبق حلها يفسح المجال لظهور العلم الثوري .

كون لا ينكر التطور التراكمي للعلم الذي يمثل البعد الأول من تطور العلم ،

وذلك في مرحلة العلم العادي ، ولا يراه مناقضا للتطور السريع الذي يميز العلم الثوري ، بل حاول أن يوفق بينهما لأنه يرى أن العلم نشأ من تراكمات وثورات . فتطور العلم خاضع للتصور التراكمي والثوري ، وما العلم السوي والثورة العلمية إلا مرحلتان متكاملتان لإنتاج المعرفة العلمية . **فكون** في نظريته حاول أن يوفق بين النظرية الاتصالية التراكمية والنظرية الانفصالية و« يصور التطور العلمي في صورة مراحل متعاقبة مبنية على التقليد وموسومة بفواصل غير تراكمية »(1) .

دور تاريخ العلم :

« التاريخ إذا ما نظرنا إليه باعتباره شيئا آخر أكثر من الحكايات وسير أحداث الزمان في تتابع الأحقاب يمكن أن يؤدي إلى تحول حاسم في صورة العلم »(2) ، لأن تاريخ العلم ليس مجموعة من الأحداث العلمية المتسلسلة كما تعرضها المصادر والمراجع العلمية هذه المصادر تترك انطباعا في الذهن مفاده أن العلم قد وصل إلى وضعيته الراهنة عن طريق تسلسل النظريات العلمية . أي تعتبر العلم مثل عملية البناء التي تضع فيها لبنة فوق أخرى ، وكل يوم تضاف حقائق إلى هيكل المعلومات الموجودة . موضوع هذه المصادر هو الناتج الثابت والمستقر للعلم .

إن هدف هذه المصادر هو تكريس التصور الاتصالي للعلم ، حتى وإن كان العلم يتطور وفق الطريقة التراكمية وهذا في مرحلة العلم العادي ، لكن يعرف العلم مرحلة أخرى هي الثورة العلمية ، وفيها تظهر أحداث ثورية تغير نمط الممارسة العلمية ، هذه الأحداث تغفلها هذه الكتب تماما ، فالتصور التراكمي لا يعكس التطور الفعلي للعلم . إن هذه الكتب تقود في اتجاه مضلل لأنها لا تقدم المفهوم الحقيقي للعلم بإخفائها لأحداثه الثورية ، وتقوم بوأد الحس التاريخي عند الباحث العلمي فلا يمتد فكره إلى هذه الثورات لعدم إثارتها الانتباه إليها ، ويبدو له العلم ذا طابع تراكمي يسير في خط مستقيم ، وتخفي الأحداث المهمة التي أدت إلى ثورات علمية .

إن مفهوم العلم لن يكشف عن نفسه إذا استمرينا في البحث عن معطياته التاريخية في هذه الكتب ، لأن الطريقة التي تعرضها ليست هي النهج الذي يتطور به العلم ، فأغلب المشكلات العلمية الحادة لم تحل إلا عقب ثورات علمية . لهذا يقول **كون** بضرورة إعادة كتابة هذه الكتب كلما تغيرت لغة العلم ، أي كلما

(1) **كون ، ت** . 1992 ، **ص**283.
(2) **مرجع نفسه ، ص**29 .

تغيرت مشكلاته ومناهجه ومعاييره التي «لا تصدر إلا كحصاد مترتب عن ثورة علمية»[1]، لأن كل ثورة علمية تتضمن مفاهيم ونظريات جديدة، غالبا ما تكون متعارضة مع العلم الذي ولّى.

يهدف **كون** من هذه الدراسة إلى إعطاء مفهوم جديد للعلم وتاريخه مخالف تماما لما هو شائع فمفهوم العلم نستقيه من النشاط العلمي ذاته، وليس من هذه الكتب البعيدة عن الحقيقة التاريخية للعلم والتي هيمنت طويلا على الممارسة العلمية، وأضلت الكثير عن الصواب. يجب أن تكون الكتابة التاريخية خاضعة للحقيقة العلمية، وهذه الكتب العلمية ما هي إلا وسيلة في يد النشاط العلمي الذي يجب عليه أن يتحكم فيها ويهيمن عليها وليس العكس، وإلا أساءت إلى العلم وشوهت مفهومه وأعاقته عن التطور. فتاريخ العلم هو عملية إعادة بناء مستمر، يتواصل مع المستجدات التي تطرأ على العلم وليس صيغة نهائية ثابتة أو نسقا منجزا ومنته.

يتصدى **كون** في هذه الدراسة للمفهوم المألوف عن تاريخ العلم وهي دعوة صريحة لتغيير نظرتنا إليه. فلا نعتبره وعاء لإنجازات علمية متراكمة بل فعالية ونماء مستمرا وليس مجرد تراكم للاكتشافات العلمية، ويجب أن نحيط بمفهومه الرؤية الباحثة عن ثوراته. إن تغيير النظرة إليه يحدث تحولا جوهريا في صورة العلم، فالصورة الحقيقية للعلم تستخرج من التاريخ النزيه وليس من تلك المراجع العلمية التي تفتقد إلى البعد التاريخي.

أولى **كون** الاهتمام بتاريخ العلم لأنه يعتبره الإطار الأنسب لفهم الظاهرة العلمية، ودراسة هذا التاريخ يعد وسيلة أساسية لتحليل بنية العلم لتطوير إمكاناته المعرفية، لأن معرفة العوامل المتحكمة في حركية العلم تقتضي الاسترشاد بالبحث التاريخي.

يرى **كون** ضرورة استحضار الوعي التاريخي لفهم حركية العلم، وكانت تصوراته عن طبيعة العلم مستقاة من دراسته لتاريخ العلم، فأضفت عروضه التاريخية مزيدا من المصداقية على نظريته. ولعل أبرز العوامل التي جعلته يستحضر هذا البعد التاريخي هو معرفته الواسعة بهذا التاريخ والتي وظفها في تحليله لبنية العلم، وهذا ما تعكسه خطوط نظريته، إذ جعل المعرفة العلمية تنقسم إلى مراحل تاريخية متعاقبة هي مرحلة العلم العادي ثم مرحلة الثورة العلمية.

(1) **كون، ت**. 1992، **ص**205.

يرفض **كون** تطرف النظرة التراكمية لتأكيدها على استمرارية المعرفة العلمية واعتبارها خطا متصلا اتصالا متناميا . وهذا رأي مؤرخي العلم الكلاسيكيين أمثال **جورج سارتون وإميل ميرسون** ورأي الإستقرائيين جميعا . كما يرفض النظرة الراديكالية الثورية التي ترى أن تقدم العلم يتم كسلسلة متصلة من الثورات والقطائع ، فهو ضد تطرف **بوبر** و**باشلار** .

جاءت فلسفة **كون** توفيقية بين التيارين السابقين ويرى أن العلم يخضع لتصور جدلي ، إذ يؤدي التطور التدريجي للعلم إلى ظهور قفزات نوعية تصبح بدورها نقطة بدء لتراكم كمي جديد ، بحيث ينتهي العلم السوي بظهور حالة شاذة تنتج عنها أزمة تتوج بظهور العلم الثوري الذي يصير بمرور الوقت علما سويا . إن جدلية **كون** تجمع بين الاتصال والانفصال في العلم ، ويكون بذلك قد أغلق باب النظرة السكونية إلى العلم كمنجز راهن وباب النظرة الثورية إلى العلم كقطائع مستمرة ، وهو تصور استقاه من معرفته بتاريخ العلوم . وقد أثبتت الدراسة مدى نجاعة نظرية النموذج في تفسير الظاهرة العلمية ونموها .

كانت نظرية **كون** من النظريات التي أحدثت تغييرا في ركائز فلسفة العلم ، وذلك لتسلحها بالوعي التاريخي ، فبعد أن غير النظرة إلى تاريخ العلم لم يعد الوسط العلمي يرحب بالنظريات التي تفشل في التفاعل مع التاريخ ، وأصبحت كل فلسفة لا تاريخية هي فلسفة عاجزة عن أداء دورها في استيعاب الوضع العلمي ، وهي خاوية من المضامين العلمية ، لأن النظريات والمفاهيم العلمية مرتبطة بإطارها التاريخي ، ولكل نظرية علمية موقع خاص في تاريخ العلم وفي سياقه تدرس . وعلى فلسفة العلم أن تقوم بتوضيح هذا التاريخ ، وتجعل منه أداة لتحليل بنية العلم وتنقد مفاهيمه ونظرياته ومعاييره .

إذا ما حاولنا إيجاز فحوى نظرية **كون** يمكننا القول إن المشكلة التي تصدى لها هي كيف يمكننا تفسير ظاهرة العلم وتقدمها التاريخي ، وقد كان كتاب **بنية الثورات العلمية** جوابا عن هذا الإشكال .

تمثل نظرية **كون** رؤية جديدة بحيث تضمنت تفسيرا لوظيفة مختلف مكونات العلم ، وحملت أفكارا جديدة خاصة فكرتي « النموذج » و« الثورة العلمية » اللتين كان لهما وضعا مركزيا في تحليله لبنية العلم ، وتناولت إشكالية تطور العلم ضمن أسس ابستيمولوجية جديدة ألقت الضوء على أشياء كثيرة في فلسفة العلم . إذا كانت المذاهب القديمة في فلسفة العلم قد ركزت على النظر إلى العلم من الداخل ، **فكون** كان من الذين درسوا إنتاج المعرفة العلمية في إطار نفسي

اجتماعي وتاريخي ، وأثار الاهتمام إلى تدخل عوامل خارجية في فهم الظاهرة العلمية . كان هدف **كون** من دراسته هو وضع نظرية تقدم لتقليد البحث وجهته .

رغم الانتقادات الكثيرة التي وجهت إلى نظرية **كون** إلا أنها بقيت النظرية أكثر شهرة ورواجا ، إذ لقيت قبولا كبيرا في أوساط فلسفة العلم والعلوم الاجتماعية والإنسانية .

وفي الأخير نقول : أن هذه الدراسة ونتائجها لا تدّعي الإحاطة الشاملة بموضوعها ولا تغني عن القراءة المتعمقة لفكر **كون** وما كتب عنه من دراسات وأبحاث . كل ما نطمح إليه هو أن نثير اهتمام الباحثين العرب بهذه الموضوعات الجديدة المثيرة والمفيدة . لأن من بين الأسباب التي حفزتنا للكتابة في هذا الموضوع ، هو ما لاحظناه من ندرة الدراسات العربية عن **توماس كون** ، إذ أنه على شهرته الواسعة لم يعط حقه من الدراسة والبحث الذي يستحقه في حقل الثقافة العربية .

قائمة المصادر والمراجع

1. المصادر

1 ـ كون ، توماس ، بنية الثورات العلمية ، ترجمة وتقديم.جلال شوقي ، الكويت : مطابع السياسة ، 1992.

2 ـ Kuhn,Thomas, the copernican revolution, Cambridge and London : Harvard University press, 1957.

المراجع :

أ. بالعربية :

3 ـ بالبار ، فرونسواز ، انشتين ، غاليليو ونيوتن : المكان والنسبية ، تر سلمى أدهم ، بيروت : المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، 1993.

4 ـ شالمرز ، آلان ، نظريات العلم ، تر.الحسين سحبان وفؤاد الصفا ، ط1 ، المغرب : دار التوبقان للنشر ، 1991.

5 ـ الخولي ، يمنى طريف ، فلسفة العلم في القرن العشرين ، الكويت : مطابع الوطن ، 2000.

ب. بالفرنسية :

6 _ Besnier . J . Michel, histoire de la philosophie moderne et contemporaine, Paris : Grasset et Fasquelle, 1993.

7_ Lecourt, Dominique, a quoi sert donc la philosophie Paris : puf, 1993.

8_ Petreski, Zora, et al, d'un paradigme à l'autre in philosophie de notre temps, Paris : puf ,2000 .

9_ Prigogine, I et Stengers, Isabelle, la nouvelle alliance : métamorphose de la science, France : Gallimard, 1979

10_ Robert, Serge, les mécanismes de la découverte scientifiqu Canada : presse de l'université d'Ottawa, 1993.

المسيرة النظالية للحركة النقابية في الجزائر قراءة سوسيولوجية

أ . موسى كاف *

العمل النقابي اليوم قد شغل فكر العديد من الباحثين والمفكرين وحتى المسئولين ، فهو لا يقتصر فقط على الباحثين السوسيولوجيين فحسب ، بل أضحى من اهتمامات كل التخصصات في العلوم الإنسانية والاجتماعية ، كون الظاهرة واحدة إلا أن نظرة العلماء تختلف باختلاف تخصصاتهم واهتماماتهم وأهدافهم .

وتبرز أهمية الحركات النقابية من خلال اعتبارنا أن كل من الطرفين ـ الحركة النقابية والإدارة ـ الممثلين على خشبة المسرح ، والطرف الأخر الممثل في الفئات العمالية ، تنظر للحركة العمالية بأنها تلعب أدوارا مختلفة ضمن هذا النسق ، فتتأثر بالبيئة الخارجية وتتفاعل فيما بينها من أجل الحفاظ على توازنها واستمراريتها ، إلا أنه يحتمل النظر إلى هذا التفاعل المتبادل على أنه أقل بناء وأنه يتأثر بسلسلة عريضة من الاستراتيجيات المتاحة للمشاركين .

فالحركة النقابية ليست وليدة الصدفة بل هي نتيجة تضحيات قدمتها الطبقة الشغيلة عبر التاريخ ، كون الحياة الاجتماعية ليست إلا نتاجا للإرادة المتفردة للأفراد الذين طوروا مهارتهم وثقافتهم ولغتهم وفهمهم وفرص حياتهم(01) . وما زاد من نموها وتشكلها ظهور الثورة الصناعية وتطور الفكر الإنساني ، مما أدى إلى ظهور العمل النقابي واحتلاله مكانة اجتماعية ما بين الفئات العمالية ، فبفضل فعاليتها الإستراتيجية استطاعت أن تثبت ذاتها وقوتها على خلق ديناميكية اجتماعية ، ومنها الحصول على إعترف كجزء ضروري في عملية تحول المجتمعات ، وكان ذلك بعد صدور قانون ـ فالداك روسيارـ بتاريخ : 21 مارس 1884 .

وخلال حقب زمنية متتالية أضحى التمثيل النقابي يترسخ شيئا فشيئا في ثقافة وسلوك العمال ، كما يرى **إميل دوركايم** والذي يعد أول من طرح هذه الفكرة عام 1893 ، والذي اعتبر الوعي الجماعي أنه ظاهرة نفسية دفينة تتبلور من خلال حالات من الوعي في الحياة العملية والاجتماعية ، وكل هذه المسائل

* كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر 2.

تشكل الوعي الجماعي الذي يغرف منه الجميع تصوراته وأفكاره ومسالكه ، علما أن إرث الوعي الجماعي هذا يرتبط بإرث الجيل السابق وهكذا دواليك(02) .

هذا النجاح الذي توجت به الفئات العمالية ، يرجع إلى الوعي الجماعي الذي تشكل من خلال التجارب والمهارات المكتسبة

وقد اقتصرت إستراتيجيات الحركات النقابية في البداية على حماية الفئات العمالية من كل أشكال القهر والاستغلال والعبودية ، وعملت على حمايتها والدفاع على حقوقها المشروعة ، وبعد التطورات التي عرفتها الحركات النقابية على المستوى المحلي والدولي ، بفضل إسهاماتها في إحداث الاستقرار المهني ، والعدالة الاجتماعية من حل النزاعات وتفكيكها ، وتحقيق التضامن الاجتماعي ، وتعزيز أسس الحوار وتنظيم مشاركة النقابة في المؤسسة ، التمثيل الديمقراطي للمتعاملين الاجتماعيين ، الحرية في إنشاء التنظيمات النقابية . . . وذلك باعتمادها على أساليب عقلانية رشيدة لتفعيل القاعدة العمالية من جهة ، والعمل على التأثير في القرارات الإدارية من جهة أخرى من خلال الضغط عليها لتلبية مطالبها ، فهي تعتبر من بين الأدوات الضاغطة والفعالة التي تساهم في إنتاج وإعادة إنتاج الواقع المهني والاجتماعي للفئات العمالية ، وذلك بتبنيها استراتيجيات عقلانية .

وقد لعبت الحركات النقابية في الجزائر أدوارا مختلفة في الماضي والحاضر حسب الأوضاع السياسية والسوسيو- اقتصادية التي مرت بها الجزائر في العديد من المراحل ، فالحركة النقابية في الجزائر ليست وليدة الصدفة بل هي ثمرة كفاح مرير تأسست في خضم ثورة التحرير ، نتيجة تشكل ونمو الوعي السياسي والاجتماعي والنقابي والثوري لدى الشعب الجزائري عموما والفئات العمالية على وجه الخصوص ، وهي حتمية فرضتها التغيرات السوسيولوجيا .

فما هي المسيرة السوسيولوجيا للحركات النقابية في الجزائر من التأسيس الى يومنا هذا ؟ متى وكيف ظهرت الحركات النقابية في الجزائر؟ وهل ظهورها كان من أجل حماية العامل الجزائري من الاستغلال والعبودية وكل أشكال القهر التي فرضت عليه من طرف الاستعمار الفرنسي أم هناك أسباب أخرى؟ وما هي الإستراتيجيات التي لعبتها الحركات النقابية أثناء وبعد الاستقلال وصولا إلى يومنا هذا؟ .

الحركات النقابية في الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي :

لقد ورثت الجزائر تشريعات عمالية مع صدور القانون الاجتماعي المؤرخ في 22مارس 1841 والمتعلق بعمل الأطفال ، فقد حدد سن العمل بثماني سنوات

على الأقل ، كما منع أرباب العمل من تشغيل الأطفال الصغار وهذا القانون كما يلاحظ من محله محدود التأثير على علاقات العمل ، ويكتفي فقط بالجوانب الإنسانية لهذه العلاقة ، ويعود ذلك لانصياع الدولة إلى رغبة الصناعيين الفرنسيين الذين أبدوا مقاومة لأي تدخل منها في تنظيم علاقات العمل .

وقد استمر الوضع على حاله إلى غاية صدور القانون المؤرخ في : 1884/03/21 والذي اعترف بحرية العمل النقابي ، كما اعترف القانون المؤرخ في 1906/07/13 بالحق في الراحة الأسبوعية . بعد نهاية الحرب العالمية الأولى شرعت السلطة في العمل بنظام ثماني ساعات في اليوم ، كما بدأ العمل بنظام الضمان الاجتماعي الذي تكرس بصفة قانونية مع صدور قانون الحماية الاجتماعية في1928/09/05 ضد مخاطر حوادث العمل والأمراض المهنية والشيخوخة .

إلا أن العامل الجزائري لم يكن معنيا بهذه القوانين بحسب ما يرى **رونيه** RENE لسببين هما : عدم وجود إطار نقابي يجمع ويدافع عن مصالح العمال المحليين من جهة ، وعدم رغبة الإدارة الفرنسية في منح الحماية الاجتماعية للعامل من جهة أخرى(03) .

ولم يكن للعمال الجزائريين اختيار آخر تحت الاستعمار إلا أن يناضلوا في صفوف النقابات الناشطة آنذاك ، كالكنفدرالية العامة للعمل والكنفدرالية العامة للعمل الوحدوي ، وقد شاركوا في هذا الإطار في عدة إضرابات خاصة في سنتي 1920،1936 ، حركوها للمطالبة بالحقوق التي كانت ترفضها لهم القوة الاستعمارية .

بدأ الانخراط الفعلي للجزائريين في هذه النقابات منذ سنة 1932 ، خاصة بالنسبة إلى عمال الموانئ والبلديات الذين انضموا إلى النقابة العامة الفرنسية للشغل ، والتي استعانت بهم في إضرابها سنة 1936 ، أين تحالف كافة العمال من كافة الأعراق على تبني الإضراب تلبية لنداء هذه النقابة ، ومنها استفاد العمال الجزائريون من الحق في المشاركة بعد صدور قانون يمنحهم حق النشاط في الجمعيات ، لكن العمال لم يتحملوا ضعف التمثيل في المنظمات النقابية والقيادية ، فأسسوا سنة 1947 لجنة التنسيق للنقابات المتحدة بالجزائر التي كانت لها لجنة تنفيذية ومكتب وأمانة .

وتعتبر الحركة الوطنية ممثلة في حزب حركة انتصار الحريات الديمقراطيةMTLD/PPA هي التي فكرت ابتداء من نهاية الأربعينيات في إنشاء تنظيم نقابي وطني يكون مستقلا عن التنظيمات النقابية الفرنسية ، ويكون وسيلة لتجنيد

العمال الجزائريين من أجل الأهداف الوطنية الكبرى وعلى رأسها الاستقلال الوطني التي طالبت به مبكرا وبطريقة واضحة ، عكس الكثير من الفئات السياسية الأخرى التي كانت أكثر مهادنة للأوضاع الاستعمارية(04) .

في هذه الفترة بدأت فكرة تشكيل نقابة مستقلة عن النقابات الفرنسية تتبلور في أذهان النقابيين المحليين ، وقد شكلوا في سنة 1948 لجان عمل بقيادة « عيسات ادير » تتولى مهمة إنشاء مركزية نقابية معترف بها دوليا ، غير أن هذه اللجان فشلت في تحقيق هذا الهدف .

ففكرة النقابة تبلورت بسبب الوعي النقابي ، السياسي والثوري الذي اكتسبته الفئات العمالية الجزائرية من جراء الاضطهاد والاستبداد والحرمان والاستغلال الذي مارسه الاستعمار الفرنسي ضدهم من جهة ، ومن جهة أخرى تأثر الوعي النقابي المحلي بتجربة النقابيين التونسيين والمغاربة . هذا الوعي الذي اكتسبه النقابيون الجزائريون من هذه التجارب مهد نحو الانفصال عن الكنفدرالية العامة للعمل الفرنسية ، وتجزأت الهياكل المنشأة منذ بداية الخمسينيات ، وعملت المنظمة النقابية الجزائرية كمركزية مستقلة ، وتكرست هذه الاستقلالية بمشاركاتها في مؤتمر الكنفدرالية النقابية العالمية سنة 1953 بفيينا .

وبالفعل تم الإعلان عن ميلاد الاتحاد العام للعمال الجزائريينUGTA بقيادة النقابي **عيسات ادير** يوم 24 فيفري سنة 1956والتي تمت بعد عدة لقاءات ما بين **عبان رمضان** و**عيسات ايدير** ونقابيين من الرعيل الأول ، الذي التحق به العمال الجزائريون بسرعة وبقوة لاعتبارات سياسية في المقام الأول ، عكس الاتحادين الآخرين، الأول الاتحاد العام للنقابات الجزائريةUGSA في جوان 1954 ، والثاني التيار المصالي USTA اتحاد نقابات العمال الجزائريين ، وقد قال **عيسات ادير** كلمة سجلها له التاريخ : « إن الاتحاد العام للعمال الجزائريين يحمل بذرة الحياة ، ولا يمكن توقيع شهادة وفاته ، مادامت شهادة ميلاده مخطوطة وموقعة بالدماء »(05) .

وقد لعبت الحركات النقابية منذ تأسيسها دورا فعالا إلى جانب حزب جبهة التحرير الوطني من أجل التحرر من سيطرة الاستعمار الفرنسي ، وبالتالي إنتاج واقع اجتماعي جديد . ومن بين الأدوار التي ساهمت بها الحركات النقابية ، هي المشاركة في تعبئة الجماهير والفئات العمالية لإنجاح الثورة المباركة ضد الاستعمار من جهة ، والعمل على إيصال القضية الوطنية إلى المحافل الدولية ـ الأمم المتحدة ـ من جهة أخرى .

إلا أن الرد كان سريعا وموجعا من طرف الاستعمار الفرنسي الذي قام بقتل سبعة قيادات نقابية في أقل من سنة واحد ة ، بالإضافة إلى وضع قنبلة استهدفت مقر المركزية النقابية الجزائرية في 30جوان 1956 ، لكن النشاط النقابي بقي مستمرا وفي سرية تامة ، وقبل مغادرة القيادات الأخرى نحو تونس على غرار قيادات حزب جبهة التحرير ، نظمت عدة إضرابات سياسية ناجعة ، كان أهمها إضراب 05 جويلية 1956 و15 أوت من نفس السنة ، وخاصة إضراب 1957 بالتنسيق مع قيادة جبهة التحرير الوطني .

وخلال هذه الفترة الممتدة ما بين 1957ـ 1962 تبنت النقابة إستراتيجية جديدة متمثلة في لعب **دور دبلوماسي** لكسب تأييد المنظمات النقابية الدولية لصالح القضية الوطنية .

ومن أهم نشاطاتها النقابية(06) :

ـ 5جويلية 1956 إضراب وطني للعمال بمشاركة باقي السكان .

1 ـ نوفمبر 1956 باتفاق مع اتحاد العام التونسي للعمل والاتحاد المغربي للعمل نظم ا ع ع ج يوما للعمل الموحد ، وقد تمت الاستجابة للإضراب مع كل من المغرب وتونس .

ــ ديسمبر 1956 : المشاركة في مؤتمر لنقابات شمال إفريقيا في الدار البيضاء بالمغرب .

ــ 28جانفي إلى 03 فيفري1957 : إضراب الثمانية أيام بمناسبة مناقشة القضية الجزائرية في الأمم المتحدة .

ـ فيفري 1957 : تأسيس الودادية العامة للعمال الجزائريين في فرنسا .

توج نضال الشعب الجزائري بالاستقلال وذلك يوم 05 جويلية 1962 ، أما عن الحركات النقابية فقد استفادت من ممارساتها النضالية بعد النجاحات التي حققتها من خلال العديد من الاستراتيجيات التي تبنتها في هذه المرحلة ، والسؤال المطروح ما هي الاستراتيجيات التي تبنتها الحركات النقابية بعد الاستقلال؟ .

الحركة النقابية من الاستقلال إلى التعددية النقابية :

وافق الاتحاد العالمي لنقابات العمال قبل الاستقلال على انتساب الاتحاد العام للعمال الجزائريين اليها ، بعد الاستقلال مباشرة بقي الاتحاد العام للعمال الجزائريين مستمر في مواصلة مسيرته النضالية ، حيث وجه نداء إلى العمال يحثهم على مواصلة العمل ، والبقاء في مناصبهم ورفع التحدي أمام أعمال

المنظمة العسكرية « OAS » « organisation armée secrète » ، كما اتخذ موقفا تجاه كل تحرك برجوازي يحاول المساس بمكتسبات العمال المقرر في برنامج طرابلس وميثاق الجزائر ، اللذان يكرسان خيار الاشتراكية .

غير أن الاتحاد العام للعمال الجزائريين واجه في البداية بعض التحديات نتيجة فقره في التنظيم ، حيث برز تيار داخله يسعى إلى فصله عن الحزب ، بحجة حماية الحق النقابي من التأثيرات السياسية ، إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل بحجة المهام الوطنية المستعجلة والضخمة الناتجة عن حرب التحرير ، كبناء الاقتصاد الوطني ، والتكفل بالقضايا الاجتماعية الخطيرة (أيتام ، أرامل الشهداء وأبناؤهم ، معطوبين لاجئين . . . الخ) (07) .

في هذه المرحلة عمل الحزب كل ما في وسعه للسيطرة على المنظمات النقابية باعتبارها قوة اجتماعية وسياسية هامة ، ولقد اكتشفت بعض القيادات النقابية بمناسبة المؤتمر الأولUGTA سنة 1963 صعوبة أو استحالة الخروج بمخرجات جديدة تتمثل في استقلالية النقابة عن الحزب السياسي بل على العكس ، فالنظام السياسي لم يكتف بالهجوم على فكرة كل استقلالية ، بل وزيادة على هذا الهجوم التي تعرضت له القيادات النقابية من مراكز القرار السياسي ، كانت تعرف ضغوطا من نوع آخر مصدرها هذه المرة القاعدة العمالية وكان على شكل إضرابات عمالية مطلبية لم تستطع النقابة تدعيمها ، هذا ما أدى إلى إحداث شبه قطيعة بين الحركة العمالية المطلبية والقمة النقابية .

تعمقت هذه القطيعة بعد الانقلاب السياسي عام : 19جوان 1965 وانطلاقة مشاريع اقتصادية واجتماعية كبيرة بعد الاستقرار الذي عرفه النظام السياسي ، هذا ما زاد من ضعف وتابعية الممارسة النقابية . ومن أهم التطورات والانجازات التي قامت بها الحركة النقابية الممثلة في الاتحاد العام للعمال الجزائريين في الستينيات ، منها في 17ـ20 جانفي 1963 انعقاد المؤتمر الأول في 23 فيفري 1963 بروز صحيفة « الثورة والعمل »أما بين 23 ـ 25 مارس 1965 انعقاد المؤتمر الثاني ، ثم انعقاد المؤتمر الثالث يوم : 5 ـ 9 مارس 1969 ، كل هذه الانجازات التي تبنتها الحركة النقابية ساهمت في بناء الاقتصاد الوطني .

وقد عرفت الوضعية الاقتصادية للفئات العمالية في الفترة الممتدة ما بين 1969 ـ 1978 تدهورا على كل المستويات ، زيادة على مشكل السكن ، النقل . . الخ . كما تميزت أيضا بضعف القدرة الشرائية بسبب التضخم الذي عرفته الجزائر خلال السبعينيات والثمانينيات ، ففي الوقت الذي كانت فيه الأجور العمالية مجمدة

أو تزيد ببطء فإنّ الأسعار قد عرفت ارتفاعا كبيرا مست حتى ذوي الدخل المتوسط والمرتفع (08) .

وقد صادفت سنة 1978 وفاة قائد المشروع السياسي الاقتصادي الجزائري الرئيس **هواري بومدين** ، هذا ما أدى إلى تحول نوعي في الأشكال المطلبية ، وأصبحت الحركات الاحتجاجية والإضرابات العمالية هي السائدة .

والشيء الأكيد هنا من خلال دراسة الإضرابات وخاصة مطالبها أن هذه التجربة التي يسميها البعض الاشتراكية ، لم تستطع التوصل إلى خلق نموذجها العمالي المثالي فالوضعية الاقتصادية والاجتماعية التي يعيشها العامل في هذا القطاع كلها تؤكد فشل هذه التجربة . ·

وبسبب الشرخ الذي حدث ما بين مصلحة المؤسسة العمومية ومصلحة العامل والذي رأى بعد تجربته مع التسيير الاشتراكي للمؤسسات أن مصالحه المهنية والاجتماعية تتعارض مع مصلحة مؤسسته ، وللدفاع عنها لم ير مانعا من اللجوء إلى الإضراب ومثل هذا الأخير يحقق له ما يريد حتى وإن لم ينل رضا السلطة .

وإن سبب المنازعة داخل المؤسسة الاشتراكية ، هي ذاتها المتعارف عليها في الأنظمة الليبرالية ، وكأننا بهذه الملاحظة نحكم بفشل هذا التسيير في تحقيق الاشتراكية ، وهذا ما يبين لنا أيضا بأن العامل دوما في صراع مع أرباب العمل من أجل تحسين ظروف استغلاله ، وحماية حقوقه .

الحركات النقابية في الجزائر من سنة 1988**إلى سنة** 2010 **:**

لقد أقر دستور 1976 ممارسة الحق النقابي في المادة 60 منه ثم أكده وكرسه دستور 1989 في المادة 53 منه وكذلك دستور 1996 في المادة 56 منه ، هذا ما يجعلنا نتساءل : ما هي الاستراتيجيات التي وظفتها الحركات العمالية والنقابية في هذه المرحلة ـ التعددية النقابية ـ ، للحفاظ على ذاتها واستمراريتها؟ .

وفي ظل التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي مست الجزائر في فترة الثمانينيات وما نتج عنها من إقرار دستور 1989 ، منها التعددية الحزبية والنقابية هذا ما أدى الى بروز العديد من التغيرات على مستوى الحركة النقابية ، انتقلت شأنها شأن الحركة السياسية من الأحادية إلى التعددية ولكن كان ذلك وفق نقطتين أساسيتين هما :

ـ الحفاظ على الصيغة القديمة لتمثيل العمال ، وهي نقابة الاتحاد العام للعمال الجزائريين .

ـ بروز وبشكل متسارع عدة تنظيمات نقابية مستقلة تماما عن الاتحاد العام للعمال الجزائريين بعدما تيقنت من عدم صلاحيته لتحقيق المصالح المادية والمعنوية للعمال وتمثلت هذه النقابات عموما في نقابة العمال الأجراء وأصحاب العمل ، ولا بأس أن نعرج إلى المؤتمر الثامن للاتحاد العام للعمال الجزائريين وما أتى به من قرارات والتي نذكر منها ، ولأول مرة يعلن هذا التنظيم أنه منظمة مستقلة عن كل وصاية .

كما شهدت الجزائر موجة من الإضرابات والتي لجأت إليها الحركات العمالية المطلبية خلال هذه الفترات 92/88 ، مثلا : 1933 إضرابا سنة 1988 ، مقابل 648 إضراب فقط سنة 1987 ، و2023 إضرابا في 1990 ، وأخيرا 1034 إضرابا في سنة 1991 ، لتعرف الحركة العمالية انكماشا في عدد الإضرابات سنة 1992 بوصول عدد الإضرابات إلى نفس حجمها السابق 496 إضرابا والذي يميز بأن الحركة العمالية استفادت من هذا الربيع الديمقراطي الذي عرفته الجزائر خلال هذه الفترة 92/89 والذي تميز ببروز قوي للحركات العمالية (النقابات العمالية) المطلبية بمختلف فئاتها المهنية والاجتماعية تحت أشكال تعبيرية غاية في التنوع كالمسيرات ، المظاهرات ، الإضرابات ، الاعتصامات . . (09) .

أمام حجم التحولات التي عرفها عالم الشغل بفعل برنامج التعديل الهيكلي اتجهت إرادة السلطة نحو البحث عن حليف اجتماعي يؤمن لها الانتقال السلمي إلى مشروع المجتمع الجديد ، لهذا تبنت الجزائر إستراتيجية جديدة في التعامل مع الحركات النقابية من خلال إعادة النظر في خارطة الممارسة النقابية ، فما هي التغيرات التي عرفها العمل النقابي في هذه المرحلة ؟ وما هي الإستراتيجيات الجديدة التي تبنتها الحركات النقابية في تعاملها مع الواقع المهني والاجتماعي في ظل التغيرات السوسيو ـ اقتصادية ؟ وكيف يمكننا أن نفسر هذا الكم من الحركات النقابية هل هو مؤشر على وعي الفئات العمالية بأهمية هذه التنظيمات في حماية حقوقهم والدفاع على مصالحهم؟ .

انتهزت الدولة حالة الطوارئ بعد تدهور الوضع الأمني لتعيد النظر في مبدأ التعددية النقابية حيث بادرت إلى حل النقابة الإسلامية للعمل **SIT** بحجة انتهاكها للقانون رقم 14/90 المؤرخ في 1990/12/21المعدل والمتمم بموجب القانون رقم 30/91 المؤرخ في1991/12/21 والمتعلق بكيفية ممارسة الحق النقابي ، حيث يتعارض وجودها مع نص المادة الخامسة منه والتي تنص على : « أن التنظيمات النقابية مستقلة في تسييرها وتتمايز في هدفها وتسميتها عن أية جمعية ذات طابع

سياسي»(10) ، وفي حالتنا هذه فإن مثل هذا التنظيم مرتبط عضويا ووظيفيا بالجبهة الإسلامية للإنقاذ وبالتالي يشكل امتداد لهذا الحزب داخل عالم الشغل . وعلى هذا الأساس بادرت السلطة إلى الحل القضائي لهذا التنظيم وفقا لنص المادة27 من قانون ممارسة الحق النقابي وقد نجم عن هذا الحل توقيف نشاطه وحجز ممتلكاته ، ولقد تم ذلك بعد إنشاء لجنة إنقاذ الجمهورية بتاريخ 1992/01/05 المكونة من السلطات والاتحاد العام للعمال الجزائريين بدعوى معرفته لتشريعات الممارسة النقابية حيث برر الأمين العام آنذاك ــ عبد الحق بن حمودة ـ هذا التدخل بمتطلبات حماية مصلحة الطبقة العاملة التي لا يمكن فصلها عن المصلحة العليا للجمهورية . كما تم إصدار بيان مشترك في أوت 1994 يتضمن تنسيق وضعية الشركاء الثلاث (الجهاز التنفيذي المركزية النقابية وممثلي أرباب العمل) .

كما كشف الأمين العام للمركزية النقابية بشكل واضح غداة انعقاد ندوة الوفاق الوطني أيام 14و15 سبتمبر 1996عن تحالفها المعلن مع السلطة عندما صرح على أن العمال مستعدون لوضع كامل طاقات الاتحاد لخدمة المصالح الحيوية للوطن . . . وأضاف أن الحركة النقابية في بلادنا ارتبطت تاريخيا بتاريخ الحركة الوطنية ، وأن النضال النقابي لم ينشأ من أجل رغيف خبز ولكن على أساس مشروع أول نوفمبر ٠ .

وفي 28 جانفي1997 فقدت الحركة النقابية المركزية أبرز إطاراتها النقابية والممثل في الشهيد عبد الحق بن حمودة ، الذي اغتيل عند خروجه من المركزية النقابية ، ومن أبرز كلماته المعبرة على إيديولوجياته الوطنية وحرصه على المصلحة الوطنية :

« في الجزائر ولدنا ، وفيها نحيا ، ومن أجلها، ومن أرواحنا سلما يرقى بها إلى المجد ومن دموعنا وضلوعنا وجراحنا وآلامنا جسورا نعبر فوقها من مأساة حاضرنا إلى غد يحقق آمال الشعب في السلم والعدالة والتقدم ، فنحن نحيا في هذا الوطن وهذا الوطن يحيا فينا ، ولا بيت ولا سقف ولا ظل ولا تاريخ ولا هواية ولا ديمقراطية ولا حرية ولا سيادة إلا بين أحضان هذا الوطن ، فمتى يفهم بعض الناس أن الوطن أكبر من الزعامات ، متى يفهمون أن الجزائر فوق كل الحسابات والأنانيات هذه رسالة العمال الجزائريين» . (11)

بعد استشهاد عبد الحق بن حمودة قد تولى سيدي السعيد قيادة الاتحاد العام للعمال الجزائريين ، إلا أن الأسلوب الذي تبناه الاتحاد العام بتدخله في

الأمور السياسية أثار حفيظة بعض النقابيين الذين بادروا إلى تشكيل نقابات مستقلة عن الاتحاد العام للعمال الجزائريين ، بلغ عددها سنة 1998 حوالي خمس نقابات مستقلة تنشط في المؤسسات ذات الطابع الإداري والاقتصادي .

وقد استطاعت الحركات النقابية المستقلة أن تنال إعجاب الفئات العمالية بسبب مواقفها الراديكالية التي تبنتها تجاه الحكومة ، مستغلة في الوقت ذاته تدهور الجانب الاجتماعي للعمال حيث بادرت إلى تنظيم عدة حركات احتجاجية ، تطورت لاحقا إلى حركة إضرابات منظمة مست مختلف قطاعات النشاط ، بالمقابل عرف الاتحاد العام للعمال الجزائريين بعض التراجع ، وسبب تراجعه كونه أصبح في مرتبة الحليف المتواطئ مع السلطة وليس كهيئة مطالبة تدافع عن مصالح العمال ، ولم تجد المركزية النقابية إلا أن تراجع ذاتها بسبب التراجع الذي عرفته في هذه الفترة ، ولم تجد النقابة المركزية من أداة لاسترجاع دورها التقليدي ، غير معارضة أدوات التعديل الهيكلي وعلى رأسها **الخوصصة** والتي اتخذت منها كسند لاسترجاع مكانتها ودورها النقابي .

ونظرا للدور الفعال الذي أصبحت النقابات المستقلة تلعبه على الساحة الوطنية ، سارعت الدولة إلى تعديل القانون رقم 14/90 لقطع الطريق أمامهم ، وتم هذا التعديل بمقتضى الأمر رقم 12/96 المؤرخ في 1996/06/10 الذي عدل نص المادة 35 من قانون ممارسة الحق النقابي حيث أصبحت كالتالي : « تعتبر تمثيلية داخل المؤسسة المستخدمة الواحدة التنظيمات النقابية للعمال التي تضم 20٪ على الأقل من العدد الكلي للعمال الأجراء الذين تغطيهم القوانين الأساسية لهذه التنظيمات النقابية التي لها تمثيل 20٪ على الأقل في لجنة المشاركة إذا كانت موجودة داخل المؤسسة المستخدمة ويتعين على منظمات النقابة المذكورة أعلاه إبلاغ المستخدم ، أو السلطة الإدارية بكل العناصر التي تمكنت من تقدير تمثيلية هذه المنظمات ضمن الهيئة المستخدمة ولاسيما عدد منخرطيها واشتراكات أعضائها »(12) .

ومن أجل استرجاع النقابة المركزية مكانتها ، وتدعيم مركزها الريادي لدى الطبقة العاملة شنت إضرابين شهيرين ، الإضراب الأول وتم الإعلان عنه من 5 الى8 ماي 1997 يرمي إلى الاحتجاج ضد عملية التسريح وغلق المؤسسات والتي تسببت في تسريح أكثر من 300 ألف عامل وغلق أكثر من 1200 مؤسسة عمومية محلية ، والإضراب الثاني المؤرخ في 28 جويلية 1997 وأدى إلى شل المنطقة الصناعية بالرويبة والتي تعد أكبر تجمع عمالي في الدولة ، وقد استجابت السلطة

لانشغالات المركزية النقابية حيث رفعت الحد الأدنى للأجر بموجب المرسوم التنفيذي رقم 152/27 المؤرخ في 10 ماي1997 .

كما حاول الاتحاد العام للعمال الجزائريين تبني لغة جديدة وأساليب عقلانية للحفاظ على ذاته ، فأدخل العديد من التعديلات في إستراتيجيته النضالية كالاهتمام بالقضايا الراهنة ، التي تواجه الحركات النقابية الجزائرية ومعاناة العمال خاصة الشباب ، وأكد على ضرورة القيام بخطوات فعلية من أجل تحسين أوضاع الفئات العمالية ، مؤكدا على أن الحركة النقابية مطالبة بالانخراط أكثر في النضال من أجل تحسين الخدمات الصحية ، التربية وتوفير الرفاهية ، وهي مدعوة أيضا لبذل مجهودها قصد تقليص الفقر والرفع من القدرة الشرائية للأجراء وتحسين ظروف المعيشة ، ودعا إلى الاتفاق ـ عقد اجتماعي ـ مشيرا إلى ضرورة أن يشكل العقد الاقتصادي والاجتماعي مسارا في ذات الوقت اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ووسيلة قوية للضبط ، وإطارا حيويا لضمان السلم وتقليص الفوارق واللاتوازن .

وقد أبرز الأمين العام سيدي السعيد ـ لاتحاد العام للعمال الجزائريين ــ أن العقد الاقتصادي والاجتماعي لا يخص المنظمة العمالية لوحدها ، بل لا بد أن يشكل بعدا جماعيا ومجتمعيا مؤكدا أن القيادة المركزية للاتحاد العام لعمال الجزائر تدعو إلى هذا العقد الاجتماعي عن قناعة واعية بالتحديات القادمة وحجم الأعمال التي تنتظرها مع ما لديها من قدرة للاستماع ، ومن إيمان في فضائل الحوار من خلال التأكيد على تفاؤلها في كون الذكرى الـ50 ستنفتح على عهد جديد من توحيد صفوف العمال والثقة والأخوة من أجل العدالة والمساواة الاجتماعية . كما تناول قضايا الخصخصة وما تقوم به الحكومة من مجهود كبير من أجل إرضاء المنظمات العالمية ، مثل منظمة التجارة العالمية والبنك الدولي . . لإرضاء قوى رأس المال بالقيام بالاستثمار في الاقتصاد الجزائري ، بدلا من الاعتماد فقط على النفط . لقد جاء الخطاب بمثابة عرض شامل للمعاناة التي تتعرض له الدولة الجزائرية بعد الحرب الأهلية التي استنزفت دماء أبناء شعبها وخيراته ، حيث دفع العمال الثمن الباهظ لهذا الجرح النازف ، بانتشار البطالة والفقر . . . ، وقد ظهر ذلك في المعطيات الاقتصادية الكثيرة التي جاءت في نص الخطاب الرئاسي ، ومنها أن معدل دخل الفرد في الجزائر ارتفع ، بل تضاعف خلال فترة حكم الرئيس بوتفليقة من 1621 دولار أمريكي للسنة في العام 1999 إلى معدل 3114 دولار في العام 2005 .

ويمكننا القول بأن الحركة النقابية في الجزائر اليوم يتنازعها تياران

أساسيان : تيار يبني نضاله على لغة الحوار والتشاور ممثلا في الاتحاد العام للعمال الجزائريين ، يتخذ من رصيده التاريخي والنضالي حجة لتمثيل العمال ، إضافة إلى الاعتراف التام به من قبل الدولة كونه الشريك الاجتماعي الوحيد الممثل للفئات العمالية ، وهذا ما أكده وزير العمل والحماية الاجتماعية طيب لوح أثناء انعقاد المؤتمر التأسيسي للاتحاد شهر مارس 2008 . في مقابل هذا نجد تيار النقابات المستقلة التي عادت مؤخرا إلى الساحة الوطنية ، والتي تعتمد على الإضرابات الأداتية والتعبيرية والحركات الاحتجاجية ، للضغط على الدولة للاعتراف بها من جهة وتحسين الأوضاع المهنية والاجتماعية والاقتصادية للفئات العمالية ، أمام تدهور القدرة الشرائية للعامل من جهة أخرى .

المراجع :

01ـ أنتوني جيدنز : قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع ، نقد ايجابي للاتجاهات التفسيرية في علم الاجتماع ، تر : محمد محي الدين ، مر : محمد محمود الجوهري ، المجلس الأعلى للثقافة ، 2000 ، ص13

02 ـــDr fredrik . Maatouk : dictionary of Sociology . English –french – Arabic , AACADEMIA,Bierut ; lebanon; 1998; pp 98 99 ـ.

03ـ عجة الجيلالي : الوجيز في قانون العمل والحماية الاجتماعية « النظرية العامة للقانون الاجتماعي في الجزائر » ، دار الخلدونية ، القبة ، الجزائر ، 2005 ، ص ص 8 ـ 9 .

04ـ الاتحاد العام للعمال الجزائريين ، الذكرى الخمسون 24 فبراير 2006 ، ص 08 .

05_ U G T A Document Edite par la cellule de communication du secrétariat Général de l' UGTA , février 2006, p09 .

06ـ لوفران جورج : الحركة النقابية في العالم ، تر : اليأس مراعي ، منشورات عويدات بيروتـ باريس ، ط2 ، 1980 ، ص ص 164 ـ 165 .

07ـ عبد الناصر جابي : الجزائر من الحركات العمالية إلى الحركات الاجتماعية ، نشر المعهد الوطني للعمل ، الجزائر ، 2001 ، ص87 .

08ـ عبد الناصر جابي : مساهمة في سوسيولوجية النزاعات العمالية : الإضرابات العمالية في الجزائر (1969ـ 1986) ، أطروحة لنيل الدكتورة الحلقة الثالثة في سوسيولوجيا العمل ، قسم علم الاجتماع ، الجزائر ، 1988 ، ص114 .

09ـ . عبد الناصر جابي : الجزائر من الحركات العمالية إلى الحركات الاجتماعية ، مرجع سابق ، ص53 .

10ـ عجة الجيلالي ، مرجع سابق ، ص276 .

11ـ الاتحاد العام للعمال الجزائريين ، الذكرى الخمسون 24 فبراير 2006 ، ص06 .

12ـ عجة الجيلالي ، مرجع سابق ، ص278 .

13ـ كاف موسى : « إستراتيجية العمل النقابي في ظل التغيرات السوسيوـ اقتصادية ، دراسة ميدانية حول المؤسسة الصناعية الكهروـ منزلية ENIEM بواد عيسي تيزي وزو » ، رسالة ماجستير ، جامعة الجزائر02ـ ، قسم علم الاجتماع ، بوزريعة ، 2010 ، ص314 .

أهمية الثقافة الفنية عند المراهق

أ . نسيمة بوفاتيت *

ملخص :

لقد أصبح الشاب المراهق يحظى بامتيازات إعلامية وضعتها له وسائل الإعلام التي تلعب دورا في عملية التنشئة الاجتماعية إلى جانب المؤسسات الأخرى كالأسرة ، المدرسة ، الشارع . . . الخ ، ومن بين الوسائل الإعلامية التي يجدها متوفرة لديه الجرائد ، المجلات ، الكتب ، القصص والتلفزة التي تعد سلاحا ذو حدين إما أن تلعب دورا إيجابيا في تربية النشىء ، دور التوعية ، والتثقيف والتعريف بالثقافات الأخرى ، أما الدور السلبي يتمثل في هدم القيم من خلال إبراز الثقافة المضادة لتدعيمها وتبنيها . هذه الوسائل الإعلامية تعرض باستمرار وبدون انقطاع مجالات إعلامية متنوعة ومختلفة في مضمونها وكميتها ، ومن المجالات التي تعرضها لترفيه عن الفرد الثقافة الفنية والتي يقصد بها كل المعارف والمعلومات التي تمس عالم الفن والنجومية والمشاهير من الموسيقى ، الغناء ، التمثيل ، السينما والمسرح . . إلخ ، فهي أحد نتاجات الأفراد التي تعكس أوجه الحياة الاجتماعية ومراحل تطورها ، وبالمعنى الخاص الفن ينطلق من جملة الوسائل التي يستعملها الإنسان لإثارة الشعور بالجمال ، مما ينتج عنه تفاعل المراهق مع الرسالة الفنية التي يرسلها الفنان .

و من الثقافة الفنية نجد الموسيقى والغناء العربي المتصف بالعاطفة الدافئة والجياشة والكلمات العميقة في تعبيرها عن اللوعة والشوق والتفاني في سبيل الحبيب أو الذوبان في مشاعره كقيمة غنائية ، ينجذب إليها المراهق فيميل إلى طابع غنائي خاص به لتلبية حاجاته العاطفية الاجتماعية ، ويصبح مهتما بجمع المعلومات حول الثقافة الفنية من خلال الوسائل الإعلامية المختلفة المرئية ، المسموعة والمقروءة ، وهذا ما نود اكتشافه في هذه المقالة على أهمية الثقافة الفنية لدى المراهق .

---

* كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة الجزائر 2.

مقدمة

إن تقدم المجتمع يستند إلى مقومات إنسانية واقتصادية وسياسية وثقافية ، بالإضافة إلى توفير الخدمات التعليمية والثقافية بأشكالها كافة ، ولما كانت المجتمعات في حركة مستمرة من أجل تطوير حياتنا والارتقاء بها فإن من الطبيعي أن تواكب الثقافة حركة المجتمع وأن تنفعل بها وتؤثر فيها . فالثقافة مهما كانت وسيلتها وتنوع أدائها تبقى إنتاجا اجتماعيا تهدف إلى تكوين الفرد تكوينا علميا وثقافيا وتزويده بالقدر المناسب من القيم والمقومات التي تحقق إنسانيته وتزويد قدراته للإسهام بكفاءة في عمليات الإنتاج والخدمات من أجل تنمية دوره في المجتمع وتحقيق تقدمه .

و يدور موضوع هذا المقال حول **« أهمية الثقافة الفنية عند المراهق» ،** ويقصد بالثقافة الفنية هنا عالم النجومية والشهرة من عالم الغناء والتمثيل والتي يجدها المراهق متوفرة في القنوات الفضائية المتنوعة التي تتميز بعرضها لمختلف البرامج والحصص الفنية من الغناء والرقص . فهي تزوده بمعلومات وأخبار ليست بسياسية ولا برياضية . . . إلخ ، وإنما ثقافية فنية اجتماعية ، يطغى عليها الطابع الفني الجمالي ، هدفها رصد أخبار تخص عالم الفن والفنانين ، سواء أكانوا مطربين أم ممثلين أو غيرهم من المجالات الفنية ، كما تعمل على نشر أحداث واقعية لحياة المشاهير الفنية والاجتماعية منها والعاطفية في أغلب الأحيان .

1. الإشكالية

تعد وسائل الإعلام إلى جانب كل من الأسرة والمدرسة مؤسسة اجتماعية ضخمة ، تهدف إلى التنشئة الاجتماعية ، فهي مكملة لهاتين المؤسستين وذلك بما تحمله من مزايا تسعى من خلالها إلى غرس اتجاهات ومواقف معينة ، يتبناها الطفل ثم المراهق لكي يتسنى له القيام بسلوكيات وأدوار اجتماعية معينة ، فهي نظم للاتصال الجماهيري تتناول كل جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والتعليمية والثقافية ولها دور حيوي هام في التأثير على الأفراد وتوعيتهم وتوجيههم وربطهم بمجتمعهم وتشكل الرأي العام وتوجيهيه .

و من الوسائل الإعلامية نجد التلفزة و الإذاعة و المجلات و الكتب والصحف ، ويرجع أهمية التلفزيون كوسيلة إعلامية إلى الاعتماد على السمع والصورة ويمتد تأثيره إلى جميع الفئات الموجود في المجتمع على اختلاف مستوياتهم التعليمية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، فهو قناة من بين عدة قنوات تنقل وتوصل إلى ذهن المراهق مفاهيم وأفكار متنوعة ومتعددة تنخرط مع ما تنقله

القنوات الثقافية الأخرى لتشكل معا في النهاية عالم المراهق الثقافي الفكري .

فالثقافة هي أداة تصويرية رئيسية يمكن بواسطتها تنظيم المعرفة عن الحياة الاجتماعية وما يرتبط بها من قضايا ، فهي ترسم الحدود لتصرفات ونشاط الأفراد في كل مجتمع ولكنها في نفس الوقت تترك له نوعا ما من الحرية في تقرير تصرفاته ونشاطه وعلاقاته في نطاق الحدود التي رسمتها له ، فتحدد بعض المظاهر العضوية للفرد كطريقة الجلوس وعادات النوم وأساليب التفكير وإدراك العالم الخارجي وطرق التعبير عن المشاعر ولها أهمية في تزويد الفرد بالمعرفة وأساليب العمل وأنماط السلوك المختلفة والمعتقدات والمعدات والأدوات التي تساعده على فهم العالم من حوله وتفسيره والسيطرة عليه والتحكم في حدود إمكانيته .[1]

كما أن الثقافات الناهضة اعتبرت الفن عنصرا أساسيا من عناصر الثقافة وتم التعبير عنه من خلال وسائل عديدة مثل الموسيقى والسينما والتلفزيون والمسرح والمجلات والأزياء ، كلها تعكس مراحل تطور الحياة المعاصرة وكيفية تبادلاتها وتحولاتها ، هذه الأفكار في الواقع تتجاوز الحدود الثقافية ، إذ تنتشر بين الفنانين والمبدعين بسرعة من أجل توصيل رسالته الفكرية والفنية إلى المجتمعات كافة عبر وسائل اتصالية متنوعة . فالفن كمؤسسة اجتماعية يفترض أن يضم إنتاجات جمالية متنوعة بضمها الفنون المرئية والموسيقية والدراما والأدب وإزاء هذا النوع الفني ينظم الأفراد حوله من أجل تحقيق إشباع حاجاتهم الفنية والإبداعية . إذ إن المراهقين الذين يهتمون بالفن والموسيقى والغناء ويشاهدون عن طريق البث التلفزيوني المباشر عبر الأقمار الصناعية البرامج والمسلسلات والأغاني فيديو كليب التي تتهاطل على رأس المشاهد خاصة المراهق بمختلف الأشكال والألوان واللغات ، مع ما يحمل من أفكار وقيم وعادات وثقافات وأخلاق وسلوكيات وأنماط عيش تختلف في معظمها وتتناقض في الكثير منها مع أفكار وقيم وعادات وتقاليد وسلوكيات وثقافة المراهق. هذه القنوات الغنائية الفضائية تغلب عليها أغاني الفيديو كليب الهابطة في كلماتها وألحانها وأصوات مؤديها والتي تفرض بأسلوب الإثارة الجنسية الرخيصة ، فالموسيقى والغناء يمثلان احد الأنماط المهمة في السلوك البشري لأنهما وسيلتي التواصل ، إذ يستطيع المراهق أن يميز بسرعة الإنجازات اللامعة ويحدد نوعية الآلات العازفة فيها والموسيقى ترتبط بالغناء وكلاهما مرتبطان بتطور الثقافة . فهما بذلك يمثلان قوة اجتماعية مؤثرة ترجع جذورها إلى أساليب أدائها الذي يشترك فيها عدة عازفين وملحنين وكتاب

(1) سميرة احمد السيد ، علم اجتماع التربية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط3 ، 1998 ، ص 113.

الأغاني والمغني ، كل منهم متخصص بعمل فني متميز ، يشتركون في لحن واحد يهيمن على معنويات الناس ونشاطهم وحيويتهم فضلا على أن عبارات الأغنية ومعانيها تعكس شروحات وتعابير جدلية أخذت من العمليات الاجتماعية معبرة عن مواقف إنسانية أو عاطفية أو اجتماعية أو خلقية أو دينية والتي تتفاعل مع الوسط الاجتماعي الذي يعيشون فيه .

هذه الخلفية الإيديولوجية تؤثر وتعكس على المراهق بصورة مباشرة وغير مباشرة ، فتؤثر على أخلاقه وقيمه وعلى سلوكه وتصرفاته التي قد ينتج عنها اضطراب في العقائد والأفكار والسلوك والأخلاق .

إلى جانب العروض التلفزيونية السينمائية المتدنية في سواها وكل هذه المضامين تهدف إلى الانحطاط الأخلاقي وانعدام الذوق والإبداع الذي أصبح مرادفا للإعلام وثقافة الشباب ، فهو يحول الفكرة إلى حركة ويجسد القيم والاتجاهات التي تعمل عملها في الحضارة ، فهو جامع للفنون كلها ، مهمته شد الجمهور بهرهم ليملوا على الناس آرائهم بأسلوب جذاب يؤثر نحو الوجهة التي يريدونها أو يشاركوهم معهم عن طريق الإيحاء النفسي .

كما أن هذه المواضيع والبرامج نجدها مصورة في الصحف الفنية التي ظهرت في مجتمعنا كتغيرات عديدة طرأت على جميع المستويات الاجتماعية ، السياسية والاقتصادية منها ميدان الإعلام ، فهي ذات طابع اجتماعي فني غني بالمواضيع الفنية المتنوعة وذلك بما تنقل من واقع المشاهير بمزاياهم وعيوبهم ، فتحرك شعور وأحاسيس المراهقين . إذ يحاولون الدخول إلى عالم مميز ، عالم النجومية والإثارة من خلال بضعة دقائق من حياتهم وما يجري لهم من أحداث ومغامرات على مختلف أنواعها ، فتثير عواطفهم ، كما أن متابعة أخبار الفن والفنانين تولد لديهم رغبة دائمة في التجديد وتقبل الحديث من الأفكار ، فينجذبون إلى هذا العالم الفني من أجل التجديد ومتابعة أخبار المشاهير من السينما والتلفزيون من مغنيين وممثلتين على اختلاف ألوانها ، وتغطي أخبار نجوم الفن ، هذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن مدى أهمية الثقافة الفنية عند المراهق ، أين يكتسب الأخبار حول الثقافة الفنية والذوق الفني الذي يميل إليه المراهق .

2. فرضيات البحث

الفرضية الأولى :

يكتسب الشاب المراهق الثقافة الفنية (عالم الغناء والتمثيل) من الوسائل الإعلامية المسموعة والمرئية والمقروءة .

الفرضية الثانية

يميل المراهقون إلى ذوق غنائي واحد وهو طابع الرأي .

الفرضية الثالثة :

يتأثر المراهقون بنمط الحياة الاجتماعية (الخارجية والداخلية) للفنانين .

الفرضية الرابعة :

يتفاعل الشاب المراهق مع الرسالة الفنية التي يرسلها الفنان .

3 . تحديد للمفاهيم :

3 . 1 الأثر (التأثير) :

هو ما يمكن أن يحدث من تغيير في المواقف والسلوكيات والآراء والمعلومات والمعتقدات من جراء انتقال الرسالة الإعلامية إلى المتلقي . فالرسالة الإعلامية قد تلفت إنتباه المتلقي فيدركها وقد تضيف إلى معلوماته معلومات جديدة وقد تجعله يكوّن اتجاهات جديدة أو يعدل من إنتاجه السابق وقد تجعله يتصرف بطريقة جديدة أو يعدل سلوكه السابق[1]

و يمكن أن يكون الأثر انيا وهو ما يؤكد نموذج الحقنة تحت الجلد Hypodermique ، أقدم نماذج التأثير على الإطلاق وكان أصحاب هذا النموذج يرون أن لوسائل الإعلام القدرة على التأثير المباشر والآني والقوي في كل من يتعرض للمسألة الإعلامية[2].

و يتضح هذا النموذج أكثر في التأثير على القيم المادية التي تدعمها الروح التجارية للأفراد مما يؤثر على أسلوب الحياة وأنماط البشر ويمكن وضع هذه الظاهرة تحت عنوان « نقل التذوق ». وهناك شكلان ليتأثر وفق هذا النموذج ، أو كليهما : التأثير المادي التجاري نفسه والثاني تأثير الملابس والماديات وأسلوب الحياة العام الذي يتضح من خلال البرامج التلفزيونية ، كما يمكن للأثر أن يتجسد بصفة تدريجية عبر الزمن .

و هو ما يتأكد في نموذج التأثير المحدد . EFFET LIMITES ، والتأثير المعتدلEFFET MODERNE وفي نظرية الفجوة المعرفية . وهذه النماذج كما يؤكد جوزيف كلابر (J . KLAPPER) تحقق التأثير في الأفراد بطرق وأشكال غير

(1) عبد الله وجلال ، « أثار التلفزيون على الأطفال » ، مجلة بحوث ، جامعة الجزائر ، العدد 1 ، 1992ـ 1993 ، ص 64 .

(2) JUDITH ,Lazar, La science de la communication, Ed dahleb H . DAY Alger, 1993,p 115

مباشرة ومن خلال عوامل أخرى كثيرة .

إن تأثير الثقافة الفنية على الشباب المراهق يتعدى تدرجيا إلى التأثير في القيم الثقافية ككل والمشكلة من العادات والتقاليد والأعراف وعوائد أخرى من المشاهدة والاستماع وعادات الأكل والشرب واللباس، كل المقومات الأخرى التي اكتسبها الفرد من قبل كعضو في المجتمع وما يهمنا في هذه المقالة هو محاولة معرفة الأثر أو التأثير الذي يمكن أن تحدثها الثقافة الفنية على الشاب المراهق .

2.3 المراهقة :

تشير المراهقة إلى مرحلة محددة من الارتقاء النفسي ذات خصائص معينة ، وتمتد من نهاية الطفولة إلى سن الرشد ، تبدأ عموما من بدء البلوغ الجنسي أي مع بدء نضج الأعضاء التناسلية الذي يصاحبه أعراض جسمية لدى الذكور والإناث . فيظهر في منتصف الثانية عشر تقريبا ، وتمتد عند المراهقة نحو ثماني سنوات إلى سن العشرين[1].

و المراهقة تحديدا هي مجموعة التغيرات النفسية والجسدية والاجتماعية ، التي تحصل بين نهاية الطفولة الثانية (12ـ 13) سنة وسن الرشد (18ـ 19) . غير أن هذا التحديد لا يعني أن المراهقة مرحلة انتقالية من الطفولة إلى الرشد ، إنما هي بالأساس مرحلة عاصفة لها عقليتها وأصالتها . صحيح أنها مسيرة باتجاه النضوج العاطفي والذهني والجسمي لكنها أزمة ولادة ثانية كما سماها روسوا : « أزمة يمتاز بها الإنسان المتحضر بشكل خاص لما تمثله من ابتعاد عن عالم الطفولة وإتكاليتها من أجل مواجهة عالم الكبار بقيمه ومؤسساته مع ما يتطلب ذلك من استقلالية وتسيرذاتي ، إنها مرحلة التفاوت بين الطموحات المثالية والإمكانيات لمقابلة بين الإنجاب الشديد للجنس والحشمة منه ، بين رغبة الأنوثة النرجسية والتضحية في سبيل الآخرين ، إنها أزمة اكتساب الذات ومحاولة تأكيدها وإيجاد الموقع المناسب لها .

ينبغي التمييز عموما بين « البلوغ » Puberté ، والمراهقة L'adolescence والشباب La jeunesse فالبلوغ يركز على الأبعاد الفيزيولوجية والجسمية والصفات الجنسية الثانوية والمراهقة L'adolescence التي تركز على الأبعاد النفسية ، (التكيف مع الذات) والشباب La jeunesse يركز على النواحي الاجتماعية (التكيف مع المحيط) يبقى لفظ المراهقة التعبير الأعم والمشتمل على

(1) نخبة من الأساتذة ، معجم العلوم الاجتماعية ، الهيمنة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1975 ، ص 531.

هذه المفاهيم مجتمعة .[1]

3ـ 3 الذوق الغنائي :

يقصد به النوع والطابع الغنائي الذي يتحسس ويتفاعل معه المراهق كون الموسيقى والغناء موجودة عند المراهقين الذين يهتمون لهذه الأمور وكل واحد يميل إلى ذوق غنائي معين ، إلا أن معظم المراهقين يميلون أكثر إلى طابع غنائي معين عن غيره فاللحن الرخيم يتذوقه المراهق لأنه يعبر عن الرموز المعنوية التي تقوم بتفعيل وتوافق إيقاعات الحياة اليومية فضلا عن كونها أحد عناصر البنية الثقافية للمجتمع ، لأنها وسيلة التواصل . إذ يستطيع المستمع أن يميز سرعة الإنجازات اللامعة ويحدد نوعية الآلات العازفة فيها . فضلا على أن عبارات الأغنية ومعانيها تعكس شروحات وتفسيرات جدلية أخذت من العمليات الاجتماعية في البني الفوقية للحالات الحيوية والأنشطة أو استقيت من الخبرات الاجتماعية والوجدانية لأجيال ماضية معبرة عن مواقف إنسانية أو عاطفية أو اجتماعية أو خلقية أو دينية .

3ـ 4 الرسالة الفنية :

الرسالة الفنية هي الإنتاج الفني للمسلسلات والأفلام على الشاشة الصغيرة والكبيرة وما يبديه الممثل في الدور الفني الذي يقوم به وما بلغه من عمق وتأثير في تصوير أزمة العصر الحديث بكل أبعاده الفردية والأسرية والاجتماعية باعتباره جامعا للفنون كلها الكلمة والحركة والصورة والتعبير والموسيقى بعد أن هيأت له التكنولوجيا الحديثة من وسائل مكنته من أداء مهمته على وجه يشد الجمهور ويبهرهم أسلوب جذاب ومؤثر ويوجههم نحو الوجهة التي يريدونها أو يشاركوهم عن طريق الإيحاء النفسي في خيراتهم وقلقهم ومعاناتهم .

3ـ 5 الثقافة الفنية :

مفهوم الثقافة من المفاهيم المشدودة بين طرفين متقابلين ، الفرد والمجتمع كلاهما له دور في إنتاج الثقافة وكلاهما ينظر إليها نظرة تعبر عن شواغل مميزة .[2]

يشير الأنتربولوجي الأوروبي الشهير **« إدوارد تايلور»** إلى مفهوم الثقافة الذي

(1) عبد الغني الديدي ، التحليل النفسي للمراهقة . ظواهر المراهقة وخفاياها ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ط 2 ، 1995 ، ص 8 .

(2) الشاذلي القليعي ، الثقافة رهان حضاري ، دار التونسية للنشر ، تونس ، 1978 ، ص 119.

ورد في كتابه « الثقافة البدائيةعلى أن الثقافة أو الحضارة بمفهوم الواسع هي ذلك الكل الركب الذي تشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعادات وغيرها من القدرات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في مجتمع . كما أشار في موضع آخر أن الثقافة تشمل أيضا الأشياء والعناصر المادية المختلفة كالفأس والرمح والقوس ، كما تشمل على الفنون العملية كالصيد وإشعال النار وصناعة الحرب . . . الخ .

و من الاستخدامات الأوروبية لمفهوم الثقافة ، استخدام عالم الاجتماع الألماني « **هيجل** »الذي يرى أنها سوى عملية ترقي الذات الفردية بحيث تتسامى إلى مستوى الأنا الكل أو للأنا الإنسانية وهو ذلك الأنا الشامل الذي يستوعب في ثناياه كل روح العصر .[1]

فالثقافة الفنية تهتم بعالم الغناء والتمثيل لمشاهير الفن والفنانين من الأخبار الاجتماعية والفنية وعرض مشاريعهم المستقبلية .

4. الاقتراب النظري للدراسة :

خصوصية البحث الذي نحن بصدد دراسته تفرض علينا الاستعانة بالنظرية الوظيفية والتي من خلالها نتمكن من تحليل العلاقة والدور الوظيفي الذي تحمله الثقافة الفنية ، لكون المدرسة الوظيفية تعتقد بأن المجتمع يتكون من نظم ومؤسسات وعمليات وظواهر مهنية ، تساعد على إشباع حاجات الأفراد والجماعات وتحقيق أغراض وأهداف المجتمع الكبير ودور هذه الوظائف في تحقيق التكامل الاجتماعي وإشباع أهداف الأفراد والجماعات ، وبالاستعانة بهذه النظرية يمكننا الكشف عن الدور الوظيفي للثقافة الفنية التي تحاول من خلالها إشباع الحاجات الأساسية لأغلبية الأفراد الشابة وتحقيق طموحاتها .

5. المنهج

خصوصية إشكالية بحثنا تدفع بنا إلى الاستعانة بالمنهج التحليلي الوصفي وفقا لعدة اعتبارات منها تشخيص الظاهرة والإحاطة بها وتحليليها تحليلا دقيقا ، فنتمكن من استقصاء الحقائق والمعلومات والبيانات الشخصية المرتبطة بالمحيط الأسري والشخصي الخاص بالمراهقين ومعرفة الحالة الاجتماعية والاقتصادية وكشف الاهتمامات القرائية للمراهقين .

(1) الملتقى (هيام) ، ثقافتنا في مواجهة الانفتاح الحضاري ، دار الشروق لنشر والتوزيع ، ط1 ، 1983 ص 119.

6. التقنيات

أول خطوة قمنا بها هو البحث الاستطلاعي الذي يمكننا من خلاله اكتشاف الميدان وبلورة الفرضيات واعتمدنا على تقنية استمارة المقابلة التي تضم مجموعة من الأسئلة التي توجه للأفراد أثناء المقابلة ، بغية الحصول على بيانات معينة عبر الأسئلة والتي تندرج ضمن أسئلة مغلقة ومفتوحة ، ونشير إلى أن الاستمارة شملت إجماليا (107) سؤالا ، يندرج ضمن المحاور مختلفة .

تم توزيع 300 استمارة على عينة ، مكونة من 7 صفحات [متضمنة 6 محاور : بيانات شخصية ، حول الثقافة الفنية ، حول أوقات الفراغ ، اهتمامات المراهقين وحول الأسرة] .

كما استعملنا تقنية الملاحظة وهي التي مكنتنا من التعرف على سلوكيات وعلاقات وتفاعلات المبحوثين والإطلاع على أنماط وأساليب معيشتهم وعلى المشكلات التي يتعرضون إليها . وتسمح لنا بملاحظة المحيط الذي يتحرك فيه المبحوثين على ظروفهم المادية ، هيئتهم الخارجية ، على ردود أفعالهم وإلى استجابتهم للأسئلة على كل ما له علاقة وتأثير على ظروف تلقي وتأويل المبحوثين . وبتوظيف هذه الأداة يمكن الكشف عن العلاقات والتناقضات التي قد توجد بين ما تعبر عنه المشاهدات لفظيا وما يظهر من خلال سلوكهم .

7. العينة وكيفية اختيارها

تم اختيار العينة المقصودة والتي تشكلت من 260 تلميذ ، مستهدفين الذين يهتمون بالثقافة الفنية . وقد تم توزيع عدد عينتنا على مستوى 3 ثانويات ، اخذين بعين الاعتبار التمثيل محاولين إعادة توزيع بعض المتغيرات المهمة في العينة على الشكل الذي توجد فيه هذه التوزيعات في المجموعة السكانية لموضوع الدراسة . فهي تتميز بشكل عام تبعا لبعض الخصائص البسيطة مثل السن ، الجنس ، والفئة الاجتماعية . . . إلخ . ونحتفظ بالدرجة الأولى بهذه المتغيرات لأننا نستطيع معرفة توزيعها في المجموعة السكانية[1].

يتراوح سن أفراد العينة بين 14 و21 سنة من فئة المراهقين الثانويين ، موزعة العينة على 260 مراهق ، وصلت النسبة إلى (49.74%) التي تمثل المراهقين ذات المستوى الدراسي أولى ثانوي ، يتراوح متوسط عمرهم (16سنة) . في حين المستوى الثاني ثانوي بلغ (30.03%) . إذ يتراوح متوسط عمرهم (17سنة) ، بينما

(1) غليغليون رودولف وماتالون (بنيامين) ، البحث الاجتماعي المعاصر : مناهج وتطبيقات ، منشورات مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ط1 ، 1986 ، ص 3 .

المستوى الثالث ثانوي بلغت النسبة (12.23%) بمتوسط عمر يتراوح بـ (18سنة) .

8. نتائج الدراسة :

أظهر نتائج الدراسة على أن :

أولا : : يكتسب المراهق الثقافة الفنية من خلال الوسائل الإعلامية المرئية والمسموعة والمقروءة ، من التلفزة ، المجلات والجرائد الفنية من أجل توسيع دائرة وعيهم حول المحيط الثقافي الفني الذي يعيشون فيه ، المراهقون لديهم معلومات فنية حول عالم الفن الشرقي والجزائري أكثر من غيره . فهم متعودون على متابعة الأخبار الفنية ويبحثون على آخر المستجدات الفنية سواء كانت عن حياة المشاهير الشخصية أو على آخر مشاريعهم الفنية بأسلوب يكون شيقا ومسليا ، وذلك من خلال جهاز التلفزيون ، والذي يعتبر من المصادر الرئيسة التي يتعرض لها الطفل والمراهق في تكوين وبلورة الفكرة من خلال إعطاء صورة عامة وانطباعا عن المجتمع ، خاصة وأنه يصبح يشاهد البرامج والحصص والمسلسلات والأغاني بإعجاب شديد وجذاب خاصة مع ما توفره الأقمار الصناعية اليوم من قنوات لا تعد ولا تحصى الخاصة بالأفلام ، المسلسلات والأغاني خاصة القنوات **« روتانا»** وما توفره هذه الأخيرة من نشرات وبرامج فنية : آخر الأخبار ، النشرات الفنية ، وحصة Top Ten وأيضا من القناة الجزائرية الثالثة وحصصها الفنية (ليلة النجوم ، DJ ، لقاء ، ألحان وشباب) وحصة سكوب ، كلام نواعم ، العراب من قناةMBC . هذه القنوات التلفزيونية التي تعرض باستمرار بدون انقطاع الأغاني والكليبات بكل أنواعها العربية سواء كانت الشرقية المصرية والخليجية والتي تحمل في طياتها سلاحا ذ ي حدين ، فهي تعمل على إشباع الحاجات النفسية الاجتماعية من المعلومات والتسلية والترفيه والاخبار والمعارف الثقافية الفنية .

إن الغناء والموسيقى يعتبران وسيلتين من وسائل التواصل والتفاعل ، يتذوقه المراهقون لكونهما يحملان بذاتهما معاني معنوية مؤثرة ويملكان قوة تثير المشاعر والأحاسيس تعكس شروحات وتعابير حاملة معهما قيم ثقافية . فالأغنية هي تعابير جدلية أخذت من العمليات الاجتماعية معبرة عن مواقف إنسانية عاطفية واجتماعية ، وهي منبثقة من مشاعر الناس ، تجمع المراهقين مع جماعة ، تعايشهون في محيط اجتماعي ، على الرغم من اختلافهم في العمر والجنس والهواية . إذ إن المراهق يبحث ويركز على البرامج التي تسد حاجاته وتنطبق مع ميوله واتجاهه ، فهي بالنسبة إليه وسيلة لدفع الملل في أوقات الفراغ الطويلة خلال جهاز التلفزيون الذي يعد وسيلة هامة من وسائل الغزو الثقافي .

ويهدفون إلى مسايرة أحداثهم وامتلاك الرصيد الأوفر منها لتقديمها للآخرين من الأصدقاء . فالفن بذاته يلعب دور مهدئ لإضطراب المراهق أو المستمع النفسية من خلال متابعته وترويح مشاعرهم أثناء مشاهدتهم لفيلم كان أو مسرحية أو قصة سينمائية أو معاناة عاطفية .

كما تأكد على أنهم يطالعون على كل من المجلات **زهرة الخليج ، سيدتي ، الشاشة الصغيرة ودزيريات** التي تهتم وتعالج مختلف المواضيع الفنية الشيقة المثيرة للإنتباه من خلال عرض مقابلات فنية حول حياتهم الشخصية الاجتماعية والفنية من مشاريعهم وأهدافهم وطموحاتهم الاجتماعية والفنية . وأيضا من خلال الجرائد الفنية المتنوعة **بانوراما والجميلة ، سيدتي ، . . .** إلخ التي تتميز بطابع فني اجتماعي يطغى عليها عنصر الإثارة من خلال العناوين البارزة والصور الملونة ، هذه الأخيرة التي ظهرت في مجتمعنا نتيجة لتغيرات عديدة طرأت على جميع المستويات اجتماعية سياسية واقتصادية ومنها ميدان الإعلام ..[1]

ثانيا : أشارت النتائج على ميل المراهقين إلى طابع غنائي واحد وهو طابع « الرأي» لأنه يعبر عن واقع عاطفي اجتماعي يعيش فيه المراهق . فالمراهقون الذين يملكون معلومات حول الثقافة الفنية الجزائرية والشرقية ينجذبون إلى عالم الغناء والموسيقى . فهم بذلك بحاجة إلى استماع للموسيقى والأغاني لإشباع حاجاتهم الذوقية وتطمئن بها راحتهم النفسية ، لكون الغناء نتاج اجتماعي ثقافي يتذوقه المراهق وهي تعبر عن ذوقهم النفسي وتحقق استرخاءهم فضلا على كونها أحد الذخائر الثقافية . فالمراهقين متأثرين بطابع غنائي خاص بهم سواء كان بالملحن أو بالمغني أو بكلمات الأغنية ، فهو يتأثر باللحن والعازفين وكلمات الأغنية ، فيتشكل بذلك جسرا يوصل بين مكونات النسق الثقافي والاجتماعي بما فيه من معايير وقيم ورموز وإشارات ودلالات ويكوّنون بذلك تفاعل فني اجتماعي تعمل الأغنية على تنشيط وتحريك عواطفهم . وإزاء ذلك تنتعش نفوسهم وتطرب مشاعرهم فيشعر بمتعة في وسطه الاجتماعي وتتلاشى بذلك فوارقهم ، فهي عامل موحد للمراهقين لا مفرق لهم .

هذا التذوق يكون ناتجا من خلال تفاعل الملحن والعازفين مع أحاسيس هذا الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه المراهق ، آياته التعبير عن مشاعر وذوقهم

(1) دوران برادلي ، الجريدة ومكانها في المجتمع الديمقراطي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط 1 ، 1977 ، ص 9 .

الفني المترجم على شكل كلمات الأغنية عاكسة صورة العلاقة الاجتماعية أو الوجدانية القائمة بينهم ، فضلا على أن الذوق الفني والأداء الموسيقى والعبارات العاطفية والوجدانية لم يتداولها الفنانون جزافا أو اعتباطا ، بل ينتقوها انتقاء من النسق الثقافي الاجتماعي القائم في مجتمعهم يستخدمونها من أجل الأداء الفني لأن المراهق يتأثر بالغناء والموسيقى على حساب كلمات الأغنية وعلى نبرات صوته وقوته أكثر من الموسيقى في تأثيرها على مشاعر المتلقي ، فهي تتبدل وتتطور مع تغيرات وتطورات الأحداث وأذواق الناس ، فهي أقوى آلية ثقافية . هذا التفضيل للأغنيات يرتبط بإنتمائهم لشلة الأصدقاء ، حيث يكون انتماؤهم إليها اقوى في مرحلة المراهقة ، إذ يتحول الانتماء الاجتماعي من الأسرة إلى جماعة الأصدقاء بحثا عن الاستقلال ، فيسمعون أو يشاهدون الأغنيات خلال التسجيلات الصوتية التي تنتشر فيما بينهم ، فيقومون بحفظ أغنية وكلماتها وألحانها ، وإنشادها .

ثالثا : يظهر تأثر المراهقين وتقليد نمط حياتهم الاجتماعية للفنانين الخارجية والداخلية ، فهم يهتمون بالشكل الخارجي أي بالمظهر الخارجي من أزياء من الملابس ذات الماركات العالية والقيمة الباهظة والأحذية وتسريحات الشعر المختلفة فهم يهتمون بآخر صيحات الموضة التي تكون سائدة أكثر من غيرها .

و من جهة باتوا يهتمون بكشف خفايا أسرارهم ونمط حياتهم الاجتماعية الاقتصادية والخاصة والعلاقات الاجتماعية التي تجمع بين محيطهم الاجتماعي ، فهم ينظرون إلى نمط حياة النجوم من قيمهم وأفكارهم مثلا يقتدون به ويتشكل بذلك تطبيع من خلال تطلعهم وانجذابهم وتأثرهم بعاداتهم وطقوسهم الاجتماعية والأخلاقية . وهذا التأثير يرجع إلى ميولهم واتجاهاتهم النفسية الاجتماعية .

رابعا : كما تأكد تفاعل الشباب المراهق مع الرسالة الفنية التي يرسلها الفنان ، فهم يتابعون بصورة منظمة لمسلسلات وأفلام ، لكونهم في الحقيقة مهتمون بالفنان بحد ذاته وما يبديه من إبداع فني وجمالي ، فهم ينجذبون لما ينتج ويعرض من مسلسلات وقصص الدرامية المسموعة والمرئية للفنان الذي يميلون إليه باختيار برامجهم ومسلسلاتهم وأفلامهم ، فهم يستجيبون لما يشاهدون من مسلسلات وتتحدد استجابتهم بدرجة إدراكهم واستيعابهم لما يتلقون من الرسالة الفنية ، مما يؤدي بالمراهق إلى تنقل إلى آفاق أوسع من المعرفة . فهنا يظهر تأثير المسلسلات والأفلام على المراهق ويكون أقوى وأعمق من تأثير أية وسيلة أخرى نظرا لإرتباط الصوت بالصورة وعدم الحاجة لإتقان القراءة والكتابة . فمن خلال هذا يمكن المراهق أن يكوّن اتجاهات جديدة أو يعدّل من اتجاهاته القديمة ، وقد

تجعله يتصرف بطريقة جديدة أو يعدّل سلوكه السابق من خلال تفاعله مع ما يقدم له الفنان من رسالة فنية .

كما أن للتقليد والمحاكاة تأثير على المراهق عندما يصور الفنان شخصيات معنية من خلال مسلسل أو فيلم ويبين مشاعرهم ويقدم قيمهم بأسلوب درامي ، فإن المراهق يكون على استعداد لاستيعاب الأفكار والقيم عاطفيا ، كما أن المحتوى الفني قد يكون قائما على فنون شعبية تربط بين الأفراد في مجتمعهم .

و قد يكون محتوى الرسالة الفنية جيدا أو رديئا أو مثيرا مما يثير في نفسه قيما عالقة منه ، قد يتأثر المراهق بالرسالة الفنية التي يبديها الفنان في مسلسل أو فيلم مما يؤدي إلى اكتساب نمط اجتماعي يلبي به من خلال حاجاته النفسية والاجتماعية من المعلومات والتسلية والترفيه والمعارف والثقافة عامة . إلا أن المراهقين لا يبدون اهتماما بالمسرح ولا يترددون إليه ، بل يشاهدون المسرحيات من أجل إمتاع أنفسهم بقصص المسرحية ، فيتفاعل معها المراهق بصفة خاصة ويتحاور معها لتصبح بحق أداة لرفع مستوى الجماهير كافة بدون تميز لا من الناحية الاجتماعية ولا من الناحية الجغرافية ، ينظرون إلى المسرح نظرة تسلية وإمتاع النفس من خلال مشاهد ها المختلفة ، تمتص هذه الأخيرة تقلبات مزاجهم واضطراب عواطفهم وحالتهم الاجتماعية ، فالمسرح هو وسيلة من وسائل النشر الثقافي قوية جدا ومتصلة اتصالا مباشر ومكانيا بالجمهور ، وهو لا وجود له ولا معنى إلا بالاتصال بالجمهور ، فهو يكتسي بذلك أهمية بالغة في نظرنا وهو حوار دائم بين المؤلف والجمهور عن طريق الممثل .

كما أظهرت النتائج أن المراهقين يعجبون بطريقة تمثيل البطل من طريقة تفكيره ، قوته وشكله وشخصيته التي يقوم بتمثيلها في الفيلم ، فهم في الحقيقة يتفاعلون مع قصة الفيلم وشخصية البطل ، فيشاركونه بذلك أحاسيسه ومشاعره الفنية ويعيشون معه للحظات الحياة الاجتماعية التي يمثلها الفنان أو البطل في الفيلم . وهذا يدل على وجود تفاعل بين الرسالة الفنية التي يرسلها الفنان من خلال تمثيله للفيلم والمتلقي الذي هو المراهق ، والتي ينتج من هذا التفاعل انفعالات وأحكام عقلية إزاء موضوع وبطل الفيلم . كل هذه النتائج تفسر لنا مدى أهمية الثقافة الفنية عند المراهق في النقاط التي تم ذكرها .

الخاتمة

من المنظور السوسيولوجي ، الفن لم يتبلور من الفراغ بل من وسط الأحداث الاجتماعية القائمة وطالما الأخيرة في حالة تبدل وتغير فان اتجاهات

الفن وطبيعته تتغير تباعا حاملا صفاتها وخواصها وقوة الفعل الاجتماعي أو ضعفه وماله من الارتباطات بالحياة الاجتماعية .

و هنا تظهر الوظيفة المتبادلة بين الفن والمجتمع ، لأن كل علاقة بينهما تولد تأثير بينهما بحيث يبلور نمط جديد في الفن . إذ إن استجابة الفن للأحداث الاجتماعية يؤدي إلى تغير في بعض أحداث المجتمع الثقافية ، موضحا تأثير الفن على سلوكية أفراد المجتمع وذوقهم الفني وطراز معيشتهم ورؤيتهم للحياة وتقلباتها وتطورها وتغيرها ، حيث تولد التغيرات الاجتماعية على صعيد السلوك والفكر والذوق ونمط العيش داخل المجتمع ، فهي علاقة تبادلية وذات تأثير متبادل . إننا لا نستطيع أن نصل إلى الطرف الآخر بسبب تأثير الجانبين على بعض ، ومن هذه الزاوية تكون العلاقة بين الفن والمجتمع ممثلة سلسة تأثيرات مترابطة لا يمكن كسرها أو فصلها أو عزلها . إذ إن المجتمع يتبدل بواسطة الفن الذي هو نتاجه والأخير (الفن) يواجه ويتحدى البناء الاجتماعي الذي يعكس عددا من صفاته لكنه يشترك في تغير الطرف الآخر ويساهم في تغير النسق الذي يتأصل فيه التغير ، وبهذه العملية تظهر حالات متزايدة ومتضاعفة من كثافة الحوافز تشكل دائم ومزدحم وقاسي شديد التنافس بين القوى الفنية والاجتماعية بأسلوب جدلي ، إنما لا يحصل صراع حقيقي بينهما إنما هناك تناقص داخلي يد فعهم نحو الاستمرار في التجاذب وإيقاعهم في الصورة الجدلية الباحثة عن الاستقرار .

الحقيقة الواضحة هي وجود تأثير المجتمع على الفن بذات الوقت هناك تأثير الفن على المجتمع لا يعني أن التغير الذي يحصل عند أحدهم يتطابق أو يتوافق أو ينسجم مع التغير الذي يقع عند الآخر ، حيث إن الفن والمجتمع موجودان في شقين متميزين غير منفصلين بعضهما عن البعض و منه يمكن لنا أن نتسال على مدى تأثير الإعلام الفني الاجتماعي على المراهقين .

المراجع

المراجع باللغة العربية

01ـ أبو عرجة تيسير ، دراسات في الصحافة والإعلام ، دار مجدلاوي ، عمان ، ط1 ، 2000 .
02ـ الشاذلي القليعي ، الثقافة رهان حضاري ، دار التونسية للنشر ، تونس ، 1978 .
03 ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، الإعلام العلمي والجمهور ، إدارة الثقافة والقوى البشرية ، في الخطة الشاملة للثقافة العربية ، تونس ، 1957 .
04ـ جواد عبد الستار ، فن كتابة الأخبار ، مجدلاوي ، عمان ، ط1 ، 1999 .
05ـ زيدان عبد الباقي ، قواعد البحث الاجتماعي ، مطبعة السعادة ، ط2 ، 1974 .
06ـ دوران برادلي ، الجريدة ومكانها في المجتمع الديمقراطي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط 1 ، 1977 .
07ـ سميرة احمد السيد ، علم اجتماع التربية ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ط3 ، 1998 .

08ـ عجوة علي ، دراسات في العلاقات العامة وعالم الكتب ، القاهرة ، 1985 .
10ـ علام عبد الخالق ، رعاية الشباب ، مكتبة القاهرة الحديثة ، مصر ، 1962 .
11ـ عبد الحميد العناني حنان ، الطفل والأسرة والمجتمع ، دار صنعاء للنشر والتوزيع ، عمان ، ط 1 ، 2000 .
12ـ عبد الله وجلال ، « أثار التلفزيون على الأطفال» ، مجلة بحوث ، جامعة الجزائر ، العدد 1 ، 1992ـ 1993 .
13ـ عبد الغني الديدي ، التحليل النفسي للمراهقة . ظواهر المراهقة وخفاياها ، دار الفكر اللبناني ، بيروت ، ط 2 ، 1995 .
14ـ عبد اللطيف صلاح ، الصحافة المتخصصة ، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية ، القاهرة ، ط1 ، 2002 .
15ـ عبد الرؤوف كمال ، نظريات وسائل الإعلام ، الدار الدولية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، 1999 .
16ـ غريب سيد احمد ، علم الاجتماع الاتصال والإعلام ، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، 1996 .
17ـ ـ غليغليون رودولف وماتالون (بنيامين) ، البحث الاجتماعي المعاصر : مناهج وتطبيقات ، منشورات مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ط1 ، 1986 .
09ـ نزة فاطمة ، عبد الله (محمود) ، الصحافة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1987 .
18ـ نخبة من الأساتذة ، معجم العلوم الاجتماعية ، الهيمنة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، 1975 .
19ـ الملتقى (هيام) ، ثقافتنا في مواجهة الانفتاح الحضاري ، دار الشروق لنشر والتوزيع ، ط1 ، 1983
20ـ ميتشل دينكن ، معجم علم الاجتماع ، ترجمة أحسان محمد الحسن ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ط1 ، 1998 .
21ـ ياسر الفهد ، الصحافة العربية المعاصرة وآفاقها الثقافية النقد والتوثيق . مطبعة الإنشاء ط1 ، 1980 .

المراجع باللغة الفرنسية

(01) _BORDIEU Pierre et Passeron Jean Claude, la Reproduction , élément pour une theories du système d'enseignement , edition d Ligue e Minuit, 1970 .
(03) _COMBESSIE Jean Claude, la méthode en sociologie, Ed . Casbah, Alger , 1998 .
(04) _JUDITH ,Lazar, La science de la communication, Ed dahleb H . DAY Alger, 1993 .
(02)_ PLUVINAGE Anne ,L'adolescent et sa presse : analyse de continue des publications destinés aux jeunes,éditions de l'institut de sociologie , sans date .

التغير الاجتماعي في الجزائر وتأثيره على السلوك الإنجابي

أ . حياة بوتفنوشات *

مقدمة :

إن المجتمع في تغير دائم وتختلف درجة التغير من مجتمع لآخر ، فبعض المجتمعات تتغير بسرعة وأخرى ببطء . وظاهرة التغير الاجتماعي ليست ظاهرة حديثة ، فهناك درجات وأنواع من التغير حدثت في الخبرة الإنسانية[1] .

ففي التعريف الذي وضعه « **جي روشي** » ، قام بتحديد أربع صفات للتغير الاجتماعي هي :

ـ التغير الاجتماعي ، ظاهرة عامة ، توجد عند أفراد عديدين ، وتؤثر في أسلوب حياتهم وأفكارهم .

ـ يؤثر التغير الاجتماعي على هيكل البناء الاجتماعي في الكل أو الجزء ، فالتغير الاجتماعي هنا يصيب عمق المجتمع ويؤثر فيه .

ـ يكون التغير الاجتماعي محددا بالزمن ، يبدأ في فترة زمنية ما ، وينتهي عند فترة زمنية معينة ، لأجل مقارنة الحالة الماضية بالحالة الراهنة ، وكذا الوقوف على مدى التغير .

ـ أن يتسم التغير الاجتماعي بالديمومة والاستمرارية ، لأجل إدراك التغير والوقوف على أبعاده ، إذ إن التغير الذي ينتهي بسرعة لا يمكن فهمه ولذلك يكون التغير واضحا من خلال ديمومته[2] .

فالتغير الاجتماعي في ضوء ما سبق وحسب تعبير « **جي روشي** » هو كل تحول في البناء الاجتماعي ، يلاحظ في الزمن ولا يكون مؤقتا ، سريع الزوال ، يوجد لدى فئات واسعة من المجتمع ويغير مسار حياتها .

إن التغير الاجتماعي هو ظاهرة نلتمسها في مختلف المتغيرات الاجتماعية

---

* قسم علم الاجتماع والديموغرافيا ، جامعة سعد دحلب ، البليدة .

(1) عادل مختار الهوا ري ، التغير الاجتماعي واالتنمية في الوطن العربي ، دار الجامعية ، الإسكندرية ، 1999 ، ص44.

(2) Rocher Guy, Le changement social : introduction a la sociologie générale, édition HMH , Paris, 1968, pp.21 ـ 22.

والجوانب الحياتية المرتبطة بالأفراد والجماعات على حد سواء مؤثرة في أفكارهم وسلوكاتهم من حال إلى حال آخر مغاير تطبعه الظروف والعوامل الاجتماعية الحالية والمتحولة في زمن طغت عليه العصرنة الحديثة والأمثلة كثيرة على ذلك ، وعليه سنحاول أن نعالج في هذا المقال موضوعا هاما ورئيسيا وهو السلوك الإنجابي في الجزائر ومدى تأثره بمختلف التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، . . . الخ

1 . **التحضر والخصوبة :**

عرفت البيئة الحضرية تغيرات مرتبطة بعملية التنمية والتصنيع وما تقتضيه من تغيرات في أنماط الحياة ، ومن هذه التغيرات التغير الذي حدث في مركز الأطفال ، إذ تكاد تنعدم مساهمتهم الاقتصادية في المدينة بعكس الحال في الريف ، حيث يساهمون في سن مبكرة في الأعمال الزراعية .

إن المهن المنتشرة في البيئة الحضرية تحتاج عادة إلى قدر من التعليم وعلى ذلك ينتشر التعليم في الحضر أكثر منه في الريف ، مما يضع أعباء إضافية على عاتق الآباء الذين يضطرون إلى إعالة أبنائهم طوال سنوات الدراسة ، وعليه يمكن القول إن ارتفاع تكاليف الأطفال في الحضر من ضمن العوامل التي تدفع الآباء إلى الحد من الإنجاب . وقد يرجع ارتفاع التكاليف إلى طبيعة البناء المهني في الحضر .

وإلى جانب ذلك ، فالبناء الاجتماعي للأسرة يختلف في الحضر عنه في الريف . إذ غالبا ما ينتشر في المدن نمط الأسرة النووية التي تقتصر على الوالدين والأطفال ، على العكس النمط المنتشر في الريف وهو نمط الأسرة الممتدة . فانتشار نمط الأسرة النووية من شأنه أن يضع عبء تربية الأطفال على عاتق الوالدين وحدهم ، الذين يرون أنفسهم محرومين من مساعدة أعضاء الأسرة الممتدة في القيام بهذه الوظيفة ، فيحجمون عن تكوين الأسر الكبيرة ، ولاسيما إذا كانت المرأة تعمل وتقضي بعض الوقت أو أغلبيته خارج المنزل ، وهذا ما يعكس استجابة الحضريين في تأجيل سن الزواج والاستجابة أيضا إلى تنظيم الأسرة من خلال انتشار استخدام وسائل منع الحمل .

وفي هذا الصدد أظهرت نتائج عدة دراسات أن الخصوبة مرتفعة في الريف أكثر من الحضر نتيجة التطور الاقتصادي السريع وارتفاع معدل التعليم لدى النساء ونسبة العاملات ، هذان العاملان اللذان يعملان في الوقت نفسه على تأخير سن الزواج ، ومنه تقليص فترة الإنجاب . ففي الوسط الحضري خصوبة النساء المتزوجات في الفئة العمرية 20 ـ 24 سنة انخفضت تدريجيا منذ 1970 حتى فترة

الثمانينيات . بينما في الوسط الريفي لم تنخفض خصوبة النساء المتزوجات في أول اقتران بين سنتي 1970 و1986 إلا قليلا وهي تخص النساء من الفئة العمرية 20 ـ 24 سنة ، والفئة 30 ـ 34 سنة في سنة 1986 .

أما الفئة العمرية 35 ـ 39 سنة فكانت خصوبة النساء تقريبا مماثلة لكلا التاريخين ، وانطلاقا من سن الأربعين ، فالخصوبة ارتفعت قليلا في 1986 مقارنة بمثيلتها في سنة 1970 .

يعد منحى الانخفاض معتبرا بالوسط الحضري عنه من الوسط الريفي في كلتا الفترتين ، وهذه الفروقات هي نتيجة الانتشار الواسع لاستخدام وسائل منع الحمل ، حيث بلغت نسبة اللواتي تستخدمن وسائل منع الحمل) (46٪ بالوسط الحضري و29٪ بالوسط الريفي)في 1986 مقابل)17٪ بالوسط الحضري و4٪ بالوسط الريفي)في 1970 ، ويعود هذا إلى تراجع سن زواج النساء ، حيث انتقل متوسط الزواج من 19.3 سنة في 1970الى 23.7 سنة في 1987/1986 ، أي بفارق 4.4 سنوات منذ 1970 .

فالتحقيق الخاص بالخصوبة سنة 1986 ، أكّد الانخفاض في الزواج المبكر ، والملاحظ منذ سنوات السبعينيات ، والعوامل التي أثرت بشكل رئيسي على خصوبة المرأة هي المستوى التعليمي والنشاط النسوي .[1]

الجدول رقم(1) : متوسط النسل للنساء المتزوجات حسب السن ووسط الإقامة بين 1970 و1986.

(طفل لكل امرأة)

السن	1970		1986		المجموع	
	حضري	ريفي	حضري	ريفي	1970	1986
19 ـ 15	0.60	0.60	0.62	0.71	0.68	0.67
24 ـ 20	2.32	2.03	1.48	1.74	2.12	1.66
29 ـ 25	4.14	4.01	2.94	3.69	4.05	3.30
34 ـ 30	5.40	5.72	4.53	5.53	5.61	5.07
39 ـ 35	7	7.09	6.20	7.24	7.09	6.66
44 ـ 40	7.73	8.25	7.67	8.67	8	7.96
49 ـ 45	8.18	8.66	8.39	8.96	8.50	8.34

Source : Chebab Thamany ,Niveau, tendances et déterminants de la fécondité en Algérie de 1970 à 1992 , CENEAP , Alger, 1999 , p 67

(1) Chebab Thamany, Niveau, tendances et déterminants de la fécondité en Algérie de 1970 à 1992 , CENEAP , Alger, 1999 , pp.66 ـ 67.

الجدول أعلاه يظهر لنا الفارق بين الوسطين في متوسط النسل بالارتفاع الواضح بالريف في أغلبيته ، وقد تواصل هذا الفارق بين الوسطين في السنوات الموالية ، حيث عرفت نسبة استخدام وسائل منع الحمل ارتفاعا من 57.2٪ بالوسط الحضري و56.6٪ بالوسط الريفي سنة 1995 إلى 64.8 % بالوسط الحضري و62.9 %بالوسط الريفي سنة 2000 .(1)

وحسب التحقيق الوطني الخاص بمتابعة وضعية الأطفال والنساء بالجزائر سنة 2006 ، أظهرت أن هناك فروقات حسب وسط الإقامة ، حيث قدر المؤشر التركيبي للخصوبة ب 2.19 طفل لكل امرأة بالوسط الحضري مقابل 2.38 طفل لكل امرأة بالوسط الريفي ويسجل هذا الأخير أكبر خصوبة في الفئة العمرية 30 ـ 34 سنة كما يبينه الجدول الموالي .

الجدول رقم (2) : معدل الخصوبة حسب الفئات العمرية وحسب وسط الإقامة

السن وسط الإقامة	15 ـ 19	2024ـ	2529ـ	3034ـ	3539ـ	4044ـ	4549ـ
الحضر	4.7	50.3	110.1	121	105.5	45.9	1.9
الريف	4.1	52.6	12.31	139.8	113.8	50.5	3
المجموع	4.4	51.3	111.1	129.2	108.9	47.7	2.3

Source : Ministère de la sante, de la population et de la reforme hospitalière, ONS, **Suivie de la situation des enfants et des femmes, Rapport principal** , Alger , Décembre 2008, p110.

من خلال هذا المسح يظهر بجلاء أن اتجاه الخصوبة لا يزال يسير نحو الانخفاض وخصوصا بالوسط الحضري ، الذي يعرف انتشارا واسعا في عوامل الحداثة والعصرنة سواء على مستوى البناء الأسري أو البناء الاقتصادي والجتماعي على حد سواء .

2 . التعليم والخصوبة :

يعتبر التعليم من أكثر العوامل فاعلية في التأثير على الخصوبة وخاصة تعليم المرأة ، فهو إلى جوار ما يترتب عليه من ارتفاع السن عند الزواج وبالتالي نقص الخصوبة ، فهو أيضا يفتح أمامها مجالات العمل والاشتراك في الحياة الاجتماعية ، التي تفرض على الأسرة أن تكون صغيرة الحجم ، ويسمح باتساع المدارك ، وسرعة انتشار بناء من الأفكار الجديدة وزيادة دائرة الاهتمامات .

(1) وزارة الصحة والسكان وإصلاح المستشفيات ، السياسة الوطنية لآفاق 2010 ، تقرير اللجنة الوطنية للسكان ، الجزائر ، ديسمبر 2001 ، ص24.

فالتعليم يفتح أمام المرأة فرص العمل التي توجب بالضرورة الاحتفاظ بأسر صغيرة الحجم ، وترفع من مكانة المرأة في الأسرة وتغيير دورها من مجرد مصدر للإنجاب إلى مسؤول ومعين في تحقيق الاكتفاء لأفراد الأسرة .

فالمستوى التعليمي للزوجين من العوامل البالغة الأهمية في التأثير على الخصوبة ، إذ بينت كل الدراسات التي أجريت على نطاق واسع في البلدان النامية أن التعليم الذي تتلقاه المرأة يعد أهم المؤشرات التي يمكن الاعتماد عليها للتنبؤ بمعدل خصوبتها ، ففي دراسات أجرتها الأمم المتحدة ، أظهرت أن المرأة التي تستكمل سبع سنوات في التعليم المدرسي تنجب في المتوسط3 أطفال أقل من نظيرتها التي لم تلتحق بالمدرسة .(1)

فحسب التعدادات السكانية من 1966 إلى 1986 ، سجلت الجزائر مجهودات معتبرة في التعليم النسوي ، إذ انتقل معدل تمدرس الفتيات من 32.9٪ سنة 1966 إلى 73.5٪ سنة 1986 .(2)

وهناك عدة تحقيقات أظهرت تأثير المستوى التعليمي على الخصوبة ، إذ كلما كان المستوى التعليمي أعلى كلما انخفض معدل الخصوبة . والجداول التالية تظهر هذا بوضوح :

الجدول رقم (3) : متوسط النسل للنساء حسب السن والمستوى التعليمي (تحقيق1970)

المستوى التعليمي / السن	أمي	ابتدائي	ثانوي فما فوق	المجموع
15 ـ 19	0.66	0.5	0.6	0.58
20 ـ 24	2.2	2.0	1.5	2.02
25 ـ 29	4.1	4.1	2.7	3.82
30 ـ 34	5.7	4.7	3.5	5.21
35 ـ 39	7.1	6.1	ـ	6.27
40 ـ 44	8.1	6.3	ـ	7.24
45 ـ 49	8.6	ـ	ـ	7.50

Source : Chebab Thamany, op.cit, p73.

من خلال الجدول أعلاه يمكننا ملاحظة انخفاض متوسط النسل بارتفاع

(1) المختار الهراس وادريس بن سعيد ، الثقافة والخصوبة ـ دراسة في السلوك الإنجابي بالمغرب ـ ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1 ، 1996 ، ص22.

(2) Chebab Thamany, op.cit, p70.

المستوى التعليمي للمرأة .

الجدول رقم(4) : متوسط عدد الأطفال المولودين أحياء حسب المستوى التعليمي للمرأة)تحقيق 1986)

المستوى التعليمي	أمية	ابتدائي	ثانوي فمافوق
عدد الأطفال	5.49	3.75	2.25

Source : Makboul El Hadi et autres, **Mutation des structures familiales**, CENEAP, Alger, 2003, p87.

الجدول رقم(5) : متوسط عدد الأطفال المولودين أحياء حسب المستوى التعليمي للمرأة (تحقيق 1992)

المستوى التعليمي	أمية	ابتدائي	ثانوي فما فوق
عدد الأطفال	5.7	4.1	1.9

Source : Ibid, p88.

فمرة أخرى يظهر لنا تحقيق العلاقة العكسية بين مستوى الخصوبة والمستوى التعليمي وتؤكدها بقية المسوحات التي جاءت فيما بعد ، فالنتائج التي توصل إليها المسح الجزائري لصحة الأسرة سنة 2002 أظهرت أن متوسط ما تنجبه المرأة ذات المستوى الثانوي فما فوق يقدر ب : 1.8 طفل لكل امرأة ، في حين يرتفع هذا المتوسط بانخفاض المستوى التعليمي ، حيث سجل 2.3 طفل لكل امرأة ذات مستوى ابتدائي و3.8 طفل لكل امرأة تقرأ وتكتب و5.0 طفل لكل امرأة أمية .[1]

أما المسح الأخير لسنة 2006 الخاص بمتابعة وضعية الأطفال والنساء ، فقد أظهر أن هناك 17.8٪ من النساء ذوات المستوى التعليمي العالي من تستخدمن موانع الحمل قبل الولادة الأولى ومتبوعة ب 6.3٪ بمن لديهن مستوى ثانوي ، في حين وفيما يخص النساء دون أي مستوى تعليمي فتقريبا النصف ، أي 49.0٪ ممن لا يستخدمن وسائل منع الحمل إلا بعد ولادة الطفل الثاني ، و18.2٪ منهن من لا يستعملنها إلا بعد الطفل الرابع ، فهذا يظهر بجلاء ما للمستوى التعليمي من تأثير بليغ على الخصوبة .

(1) وزارة الصحة والسكان وإصلاح المستشفيات وجامعة الدول العربية ، المسح الجزائري لصحة الأسرة 2002 (النتائج الأولية) ، وزارة الصحة والسكان واصلاح المستشفيات ، الجزائر ، 2003 ، ص29.

3 . عمل المرأة والخصوبة :

لقد فرض خروج المرأة للعمل ظروفا جديدة على الأسرة ككل ، فقد كانت المرأة تشارك في العمل في الزراعة طالما كان المجتمع ريفيا ، إلا أن التطور التجاري ، الصناعي ، . . . الخ أعطى فرصا متزايدة للمرأة كي تشارك بالعمل في نطاق واسع وبصورة مستقلة عن زوجها وأفراد أسرتها ، ومن ثم خلق ذلك تغيرا اجتماعيا جديدا ، حيث أصبح السعي للعمل بهدف الارتفاع بمستوى معيشة الأسرة وإرضاء رغبة المرأة في إثبات وجودها وتدعيم مركزها .(1)

وقد انتهى فاروق بن عطية في دراسة له ، حول عمل المرأة في الجزائر وبناء على رصده التزايد المستمر لعدد النساء الجزائريات في العمل الخارجي بكل تصنيفاته ، إلى أن هناك بوادر ايجابية لازمت هذا الخروج ومهدت لظهور الأسرة الحديثة في هذا البلد ، بناء على تكسير قواعد تقليدية حكمت على الأسرة الجزائرية ، كالحق في استقلالية الأزواج ، لتشكل بذلك الأسرة النووية المخالفة للأسرة الممتدة ، واحتكاك هذه المرأة بالعالم الخارجي ، مكنها من استقراء المشاكل المطروحة ، وإيجاد حلول ملائمة لها ، بل مخالفة لرؤية المرأة داخل الأسرة التقليدية ، كما أن تزايد الوعي لديها بأهمية إنتاجيتها المجتمعية ، هو تعبير عن تنامي وعي وطني لدى هذه الشريحة النسائية .(2)

وبحديثنا عن عمل المرأة ، فهناك تحقيقات كثيرة تبين أن عمل المرأة من ضمن العوامل الرئيسية في خفض معدل الخصوبة ، إذ إن المرأة العاملة لا يقتصر دورها على الوظيفة الإنجابية وحصرها فيها فقط بل يتعدى إلى مهام أخرى من خلال المشاركة في ميزانية الأسرة هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فلديها مسؤوليات وآفاق في حياتها العملية وفي تحقيق ذاتها كما سبق ذكره ، فإلى جانب وظيفتها الرئيسية والنبيلة في تربية الأجيال فهي تعتبر عنصرا هاما وفعالا في التنمية الوطنية كونها مواطنة في المجتمع الذي تنتمي إليه .

فازدواجية الوظيفة لدى المرأة العاملة ، تجعلها تنجب أقل من المرأة الماكثة بالبيت وهذا ما أكدته عدة دراسات وتحقيقات ، فالتحقيق الوطني حول صحة السكان في 1970 بين أن المرأة العاملة تقدر خصوبتها ب 6.61 مقابل 7.22 للمرأة غير العاملة ، لكن مشاركة المرأة في هذا التاريخ لم تكن معتبرة وبالتالي

(1) سلوى عثمان صديقي ، قضايا الأسرة والسكان من منظور الخدم الاجتماعية ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، 2001 ، ص ص.83 ـ 84.

(2) شريفة حلمي ، المرأة العاملة وأساليب التنشئة الاجتماعية للطفل ـ دراسة حالة من المغرب ـ المجلس العربي للطفولة والتنمية ، القاهرة ، ط1 ، 1999 ، ص20.

تأثيرها على الخصوبة غير بالغ الأهمية . لكن التحقيق الوطني حول الخصوبة (ENAF) المقدم من طرف المركز الوطني للدراسات والتحاليل للسكان والتنمية (CENEAP) في 1986 ، سجل انخفاضا معتبرا للخصوبة الذي قدر ب 5.4 طفل .

والأسباب المؤدية لذلك حسب هذا التحقيق ، يعود أساسا إلى التراجع في سن زواج المرأة الذي انتقل من 18 سنة إلى 24 سنة ، والتقدم في استخدام وسائل منع الحمل (7 ٪ في 1970 و35٪ في 1986) خصوصا لدى النساء المتعلمات والعاملات منهن ، حيث تظهر أهمية استخدام موانع الحمل عند النساء اللواتي سبق لهن أن اشتغلن أو من كن يشتغلن وقت التحقيق ، حيث تم تسجيل 45.6٪ من النساء المستجوبات العاملات أثناء التحقيق بتصريحهن لاستخدام طريقة من طرق وسائل منع الحمل ، مقابل 60٪ من النساء من سبق لهن وأن اشتغلن و42.8٪ من لم يسبق لهن وأن اشتغلن .(1)

أما المسح الجزائري حول صحة الأم والطفل في سنة 1992 ، كشف أن معدل الخصوبة المكتملة (45 ـ 49 سنة) قد بلغ 6.48 طفل لدى المرأة العاملة مقابل 7.92 طفل عند المرأة الماكثة بالبيت ، أما متوسط وفيات الأطفال تحت الخامسة فقد بلغ معدل 52.4‰ عند فئة النساء العاملات مقابل 61.7 ‰ عند فئة النساء الماكثات بالبيت .(2)

وفي التحقيق الوطني حول مشاركة المرأة في النشاط الاقتصادي (ENPFAE) من طرف CENEAP في 1995 يوضح أنه أكثر من نصف النساء غير العازبات (53٪) اللواتي يزاولن نشاطات اقتصادية داخل أو خارج المنزل ولديهن أقل من 5 أطفال هن الأكثر انتشارا ، حيث يمثلن حسب نفس التحقيق تقريبا 82٪ من النساء المشتغلات غير عازبات . وهذا يدل على أن عمل المرأة له تأثير كبير على السلوك الإنجابي .(3) إذ إن نسبة النساء المشتغلات تبقى ضئيلة مما تتضاءل نسبة تأثير عمل المرأة على الخصوبة في الجزائر ، حيث قدرت نسبة النساء العاملات حسب المسح الجزائري لصحة الأسرة في 2002 ب 44.5٪ .(4) وبلغت 16٪ حسب إحصائيات الديوان الوطني للإحصائيات في 2008 .

فاشتغال المرأة في الأعمال خارج البيت يجعل من كثرة إنجاب الأطفال أمر غير مرغوب ، فالعامل الاقتصادي من أعظم العوامل أهمية كسبب أساسي

(1) Makboul El Hadi et autres, Op.cit, p115.
(2) وزارة الصحة والسكان وإصلاح المستشفيات وجامعة الدول العربية ، مرجع سابق ، ص16.
(3) Makboul El Hadi et autres, Op.cit, p117.
(4) وزارة الصحة والسكان وإصلاح المستشفيات وجامعة الدول العربية ، مرجع سابق ، ص56.

لعدم الرغبة في المزيد من الأطفال ، وقد ثبت من دراسة نسبة المواليد في الدول التي أخذت بأسباب التوسع الصناعي السريع منذ زمن بعيد ، أن الزيادة الطبيعية تأخذ في النقصان كلما زادت درجة التصنيع في هذه الدول .(1)

4. السن عند الزواج والخصوبة :

ترتبط الخصوبة بمدة الزواج ، بطول فترتها أو قصرها لدى الأزواج ، وهذه الأخيرة قد تتأثر بعوامل أخرى تؤثر فيها بشكل أو بآخر ، فحيثما يفضل الزواج المبكر وترتفع قيمة الزواج في حد ذاته ، قد نجد انتشار الولادات المرتفعة وكبر معدلاتها وتنخفض في الاتجاه المعاكس . كما أن الخصوبة العامة ستكون أيضا أكبر في الدول التي تحبذ فيها العائلات كبيرة الحجم من الدول الأخرى التي يفضل فيها نمط العائلة الصغيرة ، وينتشر استخدام وسائل منع الحمل .

فنلاحظ أن قصر مدة الزواج خصوصا بالنسبة للمرأة ينتج عنها قصر فترة الخصوبة ، مما لا يساعدها على إنجاب العديد من الأطفال ، وكما نعلم أيضا وما أكدته البحوث الطبية أنه كلما تقدم السن بالمرأة كلما اشتدت الخطورة على المرأة الحامل وعلى جنينها .

ويعرف المجتمع الجزائري اليوم تأخرا في سن الزواج ، فشدة العزوبة النهائية (أي نسبة العزاب عند 50 سنة) ارتفعت لدى النساء بحيث انتقلت من 1.4٪ في سنة 1987 إلى 2.53٪ في سنة 1998 .(2)

إن نسبة النساء العازبات في سن الإنجاب بين 15 و49 سنة انتقلت من 27.9٪ سنة 1977 إلى 49.58٪ سنة 1998 لتصل إلى 55.03٪ سنة 2002 ، حيث أكثر من امرأة واحدة من اثنين في سن الإنجاب عازبة في نهاية التسعينيات مقابل امرأة واحدة فقط من أربعة في السبعينيات ، والمسح الأخير الخاص بمتابعة وضعية الطفل والنساء في 2006 (EASME) يؤكد التسجيل في التأخر في سن الزواج ، قرابة امرأة واحدة من ثلاثة متزوجة في الفئة العمرية (15 ـ 19) سنة ، 41.5٪ بين 20 و24 سنة في حين امرأة واحدة فقط من بين خمس نساء متزوجة في سن 25 سنة أو أكثر . التقييم حسب الفئات العمرية في لحظة التحقيق يوضح تأثير الجيل عن تأخر الزواج في الدرجة الأولى ، ومنه فالنساء في الفئة العمرية 45 ـ 49 سنة هناك قرابة 43٪ من عقد أول اقتران لهن بين 15 ـ 19 سنة ، في حين هذه النسبة لم تمثل

(1) حسن الساعاتي ، التصنيع والعمران ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط3 ، 1980 ، ص24.
(2) وزارة الصحة والسكان وإصلاح المستشفيات ، مرجع سابق ، ص21.

سوى 21.7٪ للنساء في الفئة العمرية 30 ـ 34 سنة .[1]

وعليه فإن ظاهرة التأخر في سن الزواج قد ترتبط بعوامل عدة ، منها طول فترة التدريس التي تمضيها الفتاة مع إجبارية التعليم المنتهجة بعد الاستقلال بالجزائر ، والدخول إلى سوق العمل والتطلع إلى آفاق كبيرة في بناء مستقبل باهر من النجاحات وإثبات الذات ، وبالتالي فالمرأة لم يعد همها الوحيد هو الإنجاب وتربية الأطفال ، فوظيفتها قد اتسعت النطاق وخرجت من النطاق الضيق التي عرفته الأجيال السابقة إلى النطاق الواسع .

الخاتمة :

تتسع عمليات التغير الاجتماعي لتشمل التحضر ، فضلا عن اشتمالها على التغير التكنولوجي والتصنيع ، فالتحضر والتصنيع على علاقات اجتماعية بالتغير . وتدخل في عملية التحضر التغيرات التي تحدث في طباع وعادات وطرق المعيشة أو أسلوب حياة الذين هجروا القرية أو الريف إلى المدينة واستقروا فيها ، وكذلك التغيرات الناتجة عن التحضر وما يصاحبها من نتائج اجتماعية وثقافية أخرى كالتصنيع وتقسيم العمل الجماعي ، وما هو متفق عليه بين الاجتماعيين الاعتراف بأن الحياة الحضرية تحبذ التعدد وفردية السلوك . والاهتمام بالتحضر هو الاهتمام بالمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية للمدن .[2]

إن التحولات الحاصلة في مجتمعنا الراهن والمتعلقة بعمل المرأة خارج البيت وتمدرس الفتاة وبمدى قبول الزوجات والأزواج لموانع الحمل عمل على نشر وترسيخ المفاهيم المرتبطة بالعقلنة والتخطيط ، كل هذه التغيرات الحاصلة تسير في اتجاه التقليص من معدل الخصوبة اعتبارا للتطور الحاصل في بنية القيم وفي سيرورة الاقتصاد .

وفي هذا السياق ، حدد « **هارفين لينشتين** » بعض أسباب الاتجاه التنازلي في الخصوبة في معظم المجتمعات والذي جاءت كنتيجة أولية لعمليات اجتماعية واقتصادية فيمايلي :

- ارتفاع درجة تعليم النساء والتغير الواضح في دورهن وقيمهن .
- التزايد في المشاركة النسائية في قوة العمل غير الزراعية .
- التناقص الواضح في وفيات الأطفال .

(1) Ministère de la sante, de la population et de la réforme hospitalière, ONS, Op.cit, P104.

(2) سناء الخولي ، مرجع سابق ، ص41.

ـ انهيار المعتقدات التقليدية التي تؤيد معايير الخصوبة المرتفعة .
ـ نمو التعليم الإجباري والانهيار في استخدام قيمة عمل الطفل .
ـ تزايد حقوق النساء والتغير في أدوارهن خارج المنزل
ـ ضعف نسق الأسرة الممتدة .
ـ إتاحة وسائل منع الحمل الكيماوية والآلية الفعالة» .[1]

و غيرها من الأسباب الأخرى التي تتدخل بشكل أو بآخر في تقليص مستوى الخصوبة .

قائمة المراجع

1ـ قائمة المراجع باللغة العربية :

1ـ حسن الساعاتي ، التصنيع والعمران ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ط3 ، 1980.
2 ـ سلوى عثمان صديقي ، قضايا الأسرة والسكان من منظور الخدمة الاجتماعية ، المكتب الجامعي الحديث ، الإسكندرية ، 2001.
3 ـ شريفة حلمي ، المرأة العاملة وأساليب التنشئة الاجتماعية للطفل ـ دراسة حالة من المغرب ـ المجلس العربي للطفولة والتنمية ، القاهرة ، ط1 ، 1999.
4 ـ عادل مختار الهوا ري ، التغير الاجتماعي والتنمية في الوطن العربي ، دار الجامعية ، الإسكندرية ، 1999.
5 ـ المختار الهراس وإدريس بن سعيد ، الثقافة والخصوبة ـ دراسة في السلوك الإنجابي بالمغرب ـ ، دار الطليعة ، بيروت ، ط1 ، 1996.
6 ـ وزارة الصحة والسكان وإصلاح المستشفيات ، السياسة الوطنية لآفاق 2010 ، تقرير اللجنة الوطنية للسكان ، الجزائر ، ديسمبر 2001.
7 ـ وزارة الصحة والسكان وإصلاح المستشفيات وجامعة الدول العربية ، المسح الجزائري لصحة الأسرة 2002 (النتائج الأولية) ، وزارة الصحة والسكان وإصلاح المستشفيات ، الجزائر ، 2003.

2ـ قائمة المراجع باللغة الأجنبية :

1 _ Chebab Thamany, Niveau, tendances et déterminants de la fécondité en Algérie de 1970 à 1992 , CENEAP , Alger, 1999.
2 ـ Makboul El Hadi et autres, Mutation des structures familiales, CENEAP, Alger, 2003.
3 _ Ministère de la sante, de la population et de la reforme hospitalière, ONS, Suivie de la situation des enfants et des femmes, Rapport principal , Alger , Décembre 2008.
4 _ Rocher Guy, Le changement social : introduction à la sociologie générale, édition HMH , Paris, 1968.

(1) نفس المرجع ، ص229.

العولمة والتربية المدرسية

أ . زهـرة بودهديـر*

مقدمـة

مع نهاية الألفية الثانية وبداية الألفية الثالثة يتزايد الإدراك بأن الجنس البشري يمر على أعتاب مرحلة جديدة من التحولات الاقتصادية والاجتماعية ، والثقافية والسياسية ، وتعتبر ظاهرة العولمة Globalisation من أكثر الظواهر إثارة للجدل والنقاش خلال هذه التحولات على جميع المستويات ، سواء على مستوى الدوائر العلمية الأكاديمية أو على مستوى المحافل السياسية والدبلوماسية والاقتصادية وغيرها . لذا فليس بالإمكان اختزال العولمة في مفهوم سياسي أو إعلامي أو اقتصادي أو حتى تاريخي ، فهناك من لا يرى فيها أي جديد ، وإن بدت ظاهرة حديثة إلا أنها ذات جذور قديمة ترتبط بعصر النهضة والاكتشافات الجغرافية في القرنين الخامس والسادس عشر ، ونشوء الرأسمالية والنشاط الاستعماري في القرن السابع عشر ، والثورة الصناعية في القرن الثامن عشر ، وتاريخ العلاقات الدولية في القرن الحالي . وهناك من يراها ظاهرة إنسانية جديدة تماما لم تعهد البشرية مثلها من قبل ، تمثل إيديولوجيا تطرح حدودا أخرى غير مرئية ترسمها الشبكات العالمية بقصد الهيمنة على الاقتصاد و الأذواق و الفكر و السلوك .

و لقد أصبح التحدي الذي يواجه العالم في ظل العولمة أكثر حدة ، فإن للعولمة التي وصفت بحافلة دون سائق عواقب خطيرة وأثار غير محدودة .

و من خلال هذه المعطيات حاولنا في هذا المقال التعرف على معنى العولمة والإحاطة بجوانبها الثقافية والاجتماعية ، وبالتالي البحث والكشف عن العلاقة الموجودة بين التربية والعولمة من خلال التكنولوجيا التي أفرزتها ، ومن هنا حاولنا الإلمام بالآثار الإيجابية والسلبية للعولمة ، وبالتالي أدرجنا تكنولوجيا الاتصال والمعلومات وأهميتها في التربية والتعليم .

1 . مفهوم العولمة :

العولمة مفهوم مراوغ ومتعدد الدلالات ومختلف المعاني ، وعمومية

---

* قسم علم الاجتماع والديموغرافيا ، جامعة سعد دحلب ، البليدة .

استخدام المصطلح تجعل من الصعب إيجاد مفهوم خاص له يتمتع بالقبول الجماهيري شائع الاستخدام والاستعمال وبالتالي فإن نظرة الذاتية لهذا المفهوم المراوغ لا يجب أن تقتصر على كينونة المصطلح واعتبارها كينونة ذاتية مغلقة بل يجب أن تتجه إلى طبيعة المصطلح وانفتاحه ، أي بمنطق انفتاحه على الاتجاهات الأخرى ، وتنامي مضمون العولمة مع حركة الفكر وتصاعد الحوار والدراسات عبر الزمن واتجاهات الجغرافيا مع التاريخ .

إن مفهوم العولمة أكثر تداولا في نهاية القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين ، وقد استخدم في القطاعات الاقتصادية والسياسية والثقافية والتعليمية ، ومصطلح العولمة يستخدم للدلالة على التطور المتزايد لاندماج وتكامل النظم والعلاقات ، وهو أبعد من حدود الدولة والأمة جغرافيا وانتماء . وبهذا يمكن تعريفها بأنها التداخل الواضح لأمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة لدول ذات السيادة والانتماء إلى الوطن المحدود أو الدولة المعنية ودون الحاجة إلى إجراءات حكومية[1] .

فالعولمة ثمرة طبيعية برغبة الكيانات الكبرى في التوسع ، والسيطرة والهيمنة ، وإملاء الإرادة ، وبسط النفوذ ، وهي نتيجة منطقية لزيادة احتياجات المشروعات الكبرى إلى أسواق مفتوحة تنمو بشكل دائم ومستمر . ومن ثم فإن أنماط العولمة :

- الإنتاج الكبير للمنتجات سواء سلع أو خدمات أو أفكار .
- التسويق الواسع الذي يضمن تصريف كامل الإنتاج .
- التمويل المتوازن الذي يحقق الاستقرار التمويلي للمشروع .
- التوظيف الشامل الذي يستوعب كل طالبي العمل في الاقتصاد ومن ثم

فإن « العولمة/Globalisation » تجعل الذهن يتجه إلى الكونية ، أي إلى الكون الذي نعيش عليه ، ومن ثم فإن المصطلح يعبر عن حالة من تجاوز الحدود الراهنة للدول إلى أفاق أوسع وأرحب تشمل العالم بأسره[2].

2 . العولمة وثورة المعرفة :

نلاحظ في كتاب د . حسين كامل بهاء الدين « التعليم والمستقبل » أمثلة

(1) Michel (D) , Olivier (D) , la mondialisation les mots et les choses , édition kartahala , paris , 1999 , p 207

(2) د . مي العبد الله سنو ، الإتصال في عصر العولمة ، الدور والتحديات الجديدة ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، مصر ، 1999 ، ص 64

مبهرة للمجالات الجديدة للثورة المعرفية التكنولوجية ، سواء في الإنتاج أو الخدمات ، بل وفي استمرار تدفق الأبحاث العلمية بإنتاج معارف جديدة ويكفي أن نشير على سبيل المثال ، إلى ما يحدث من تخليق مواد جديدة بديلة عن الخامات التقليدية وظهور تطبيقات جديدة لها ، وإلى نظم الإنتاج الآلي (عن طريق الروبوت) ومجالات الإلكترونيات الدقيقة وصناعة الإتصالات وثورة الجينات وتطبيق نتائج العلوم البيولوجية ، حيث أمكن إنتاج أنواع من المحاصيل بلا زارع تقليدي ، ولا مزارع أرضية ، وتقرأ صحف مصر وغيرها من صحف الأقطار العربية الأخرى على شاشات الكمبيوتر في و. م . أ ، كما تقرأ مصر الصحف الأجنبية يوم صدورها ، والقائمة طويلة ومتشابكة لمنجزات عصر المعلومات في مطلقاتها العلمية والتكنولوجية ، وفيما قد لا نتوقعه من مجاهلها في مقبل الأيام »[1].

إن تفجر قطاع الإعلامية أو المعلوماتية وغزوه لكامل قطاعات النشاط الإنساني بما في ذلك الشؤون المنزلية يرجع جانب كبير منها إلى الثورة التي أحدثها ظهور الحاسوب الشخصي (Personale Computer) وقد مكنت المعلوماتية من إيجاد لغة واحدة للتخاطب تكمن في اللغة الرقمية الثنائية (صفر أو واحد) وهذه الظاهرة لها انعكاسات جوهرية وعميقة على تدفق المعلومات وعلى إشكالات سير العمل نحو مجتمع واحد منمط ولكن توحيد هذه اللغة له انعكاسات أخرى من حيث جودة الإشارة وضمان وصولها أو نسخها دون فقدان تلك الجودة ، بثها من خلال شبكات متعددة ومتنوعة من حيث الأنظمة المستعملة ، تخزين وادخار المعلومات ومعالجتها والنفاذ لها بأسرع الطرق وفي الوقت المناسب .

و قد عرف قطاع المعلوماتية تطورا مذهلا في السرعة وفي إمكانات المعالجة من ناحية وفي تقليص حجم الأجهزة من ناحية أخرى .

فقد أبرزت الثمانينات أن مركبات الإلكترونية لا يمكن مقارنتها بما سبقها من مركبات (Composants) وهي بنفسها مكنت من استنباط هندسات جديدة للأنظمة (RISC , SIMS , MIMD) ، ستمكن من توفير السرعة وطاقة المعالجة الفائقة ، الأمر الذي فتح الغوص حتى في مجال الذكاء الاصطناعي ، قدرة المعالجة المتوفرة ، هذا فيما يخصلية التعليمية ، كما أثر في طريقة أداء المعلم

(1) حامد عمار ، دراسات في التربية والثقافة ، مواجهة العولمة في التعليم والثقافة ، القاهرة ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، ط 1 ، 2000 ، ص 38 .

والمتعلم ، وإنجازاتها في غرفة الصف ، كما يمكن للمعلم بمساعدة طلبته أن يبدع في إيجاد وثائق تركز على التعليم الضروري ، كما يمكنه الحصول على رأي العلماء والمفكرين والباحثين المتخصصين في مختلف المجالات في أي قضية علمية .

أما من حيث تخزين المعلومات فالإمكانات في هذا المجال أصبحت مذهلة بإستعمال النظام الرقمي والأسطوانات الضوئية الرقمية (Digital Optcal Disc) وهذا يسهل خزن كل أنواع المعلومات بما في ذلك الصور الثابتة والمتحركة .

3 . الأثار الإيجابية والعولمة :

تكتسب العولمة دينامية حركية جيدة قائمة على التنظيم الشبكي الذي يحققه أعلى درجة من الارتباط والترابط الاتصالي بين الأفراد الذين يعيشون المجتمع العالمي الواحد حيث يرفع مؤيد وحركة العولمة شعار الحلم الجميل الذي طالما سعت إليه كافة الشعوب وحلمت به في كافة مراحل تاريخها ، وبخاصة أن العولمة ما هي إلا تطويرا واستعدادا لحركة المصالح الدولية ، وتوحيد لأسواق العالم يتم فيه تجاوز كافة الصدوع والحواجز الفاصلة بين الأمم عبر معابر من المصالح المشتركة .

إن المحور الاقتصادي للعولمة هو المحور الرئيس ، وأهم أدواتها الفعالة الشركات عالمية النشاط متعددة الجنسيات ، تلك القدرة النفاذة العالمية ، والتي تمتلك مزايا التفوق التنافسي الفائق ، ومن ثم فإن العولمة تقوم على الانتخاب الانتقائي للمتفوقين[1] .

إن فتح الأسواق أمام المتفوقين سوف يزيد من كفاءتهم وفي الوقت ذاته يعمل على تحفيز الآخرين من أجل تحقيق مزيد من التفوق ، كما أنه من ناحية أخرى فإن التكنولوجيا والتقنية الحديثة سوف تدفع إلى أبعاد غير مسبوقة في الإنتاج وفي الإنتاجية وفي تدنية التكلفة ، وفي خفض أسعار المنتجات ، مع تحقيق أرباح مناسبة . . . إلخ . إذ أن هذا بالفعل تترجمه عوامل الرغبة والنزوع الطبيعي نحو الأرقى والأفضل ، وما تمليه اعتبارات البنية الكلية التي تجاوز عند تكاملها واتساعها كل ما هو قائم ومعروف الآن إن العولمة سوف تعمل على تسريع تطبيقات التكنولوجية الحديثة بتطوراتها السريعة المتلاحقة فهي تؤكد أن

(1) محسن أحمد الخضيري ، العولمة ، مقدمة في فكر واقتصاد وإدارة عصر الدولة ، مجموعة النيل العربية ، مصر ، 2004 ، ص52

في كل لحظة وكل دقيقة يكتشف عالم ما وفرد ما في هذا العالم عبقرية شيئا جديدا ، بل إن كل لحظة يولد فيها جديد مبتكر ، وهي فرصة هائلة من أجل الاستفادة من هذا الجديد وبفاعلية كاملة ، بل يمكننا القول أن العولمة مليئة بالفرص ، مثلما هي مليئة بالتهديدات وأهم الفرص التي تتيحها ، تلك الكامنة في إمكانية الوصول إلى المعرفة الشاملة ، أي إلى البيانات والمعلومات التي يحوزها الآخرين والبناء عليها ، تطويرها في المجالات الرئيسية التالية :

ـ المجال الاقتصادي والذي من خلاله يتم إعادة تشكيل العالم إنتاجا وتسويقا وتمويلا وتنمية بشرية ، ومن خلال مؤسسات اقتصادية عالمية بالغة الضخامة لدرجة غير معهودة ، وتشرف على الجانب الاقتصادي للعولمة وتقوم بانتهاج سياسات يكون من شأنها تعزي وتنمية ثروة العالم وسبيلها إلى ذلك هو :

ـ وحدة أسواق المال العالمية ، وحدة مقاييسه النقدية ، ووحدة العملة العالمية ، ووحدة السياسات المالية والنقدية المطبقة في جميع أنحاء العالم ، بحيث يصبح العالم وحدة واحدة .

ـ تطوير الصناعة والزراعة والخدمات الإنتاجية على مستوى جميع مناطق العالم امتصاصا للفوارق القائمة الآن وتوحيدا وتطبيقا لنظم الإنتاج والتسويق والتمويل والإطارات البشرية .

4 : تكنولوجيا الإتصال والمعلومات :

يصعب الفصل بين مضامين تكنولوجيا الاتصال والمعلومات وبين العولمة ، بعد أن بات واضحا تدخلا دول غرب العالم المولدة للعولمة بشكل واسع النطاق كي تجعل من هذه التكنولوجيا وسيلتها لإمتلاك قدرة تنافسية قابلة لتوظيف من أجل إكساب القوة وفرص الهيمنة ولإخضاع الآخرين لمصالحها أو التحكم فيها من أجل الحفاظ على الهوية والثقافة الوطنية بالنسبة للدول النامية

نعيش الآن في عصر المعلومات وثورة تكنولوجيا المعلومات الهائلة فقد تحقق تطورا كبيرا في التقدم العلمي والتكنولوجي مما يشجع على القول بأن ذلك يعتبر قفزات لم تحققها البشرية من قبل[1] .

5. شبكة الإنترنت والتربية والتعليم

شبكة الإنترنت نظام لتبادل الاتصالات ، والمعلومات اعتمادا على

(1) إبراهيم محمد عبد المنعم ، التعليم الإلكتروني في الدول النامية ، الموقع www . maharty . com 05/14

الحاسوب ، وذلك بالربط المادي الفيزيائي لجهازين أو أكثر معا ، وتشتمل على معلومات ، صور وجميع عوامل الوسائط المتعددة ، ويعد برنامج الشبكة العالمية (www) (world wide web) أحد التطبيقات العملية على الإنترنت إضافة إلى ذلك يمكننا إرسال رسائل إلكترونية ، أو تشغيل حاسبات مركزية أو إعداد نشرات إخبارية علمية أو البحث باستخدام (gopher , archi – wais) حيث يمكن إرسال الصوت والصورة في الوقت نفسه[1] .

نلاحظ أن التعليم من مجالات استخدام شبكة «الإنترنت» ، حيث يمكن من خلال البريد الإلكتروني تبادل رسائل إلكترونية سريعة من جميع أرجاء العالم ، ويمكنك نقل الملفات الحاوية على المعلومات (نص ، برامج ، صور ، موسيقى) من وإلى جهاز حاسوب آخر ، ويمكنك أيضا استخدام الأجهزة اللامركزية بفاعلية أعلى ، والحصول على معلومات عن المناهج والتطوير التربوي والأكاديمي ، وطرائق التعليم من خلال (ERIC) مركز مصادر المعلومات التعليمية[2] .

يحتوي نظام الشبكة العالمية على ملايين الصفحات المترابطة عالميا ، حيث يمكن الحصول على الكلمات والصوت ، أفلام الفيديو ، الأفلام التعليمية ، ملخصات رسائل الدكتوراه ، الماجستير أو ملخصات الأبحاث العلمية ، المرتبطة بهذه المعلومة من خلال الصفحات المختارة ويمكن التحرك بين هذه الصفحات باستخدام فأرة الحاسوب ، وبذلك يمكن تشبيه شبكة «الإنترنيت» بما توفره من معلومات أكاديمية وتربوية بالمشاكل ، أداة تحوي قطعا زجاجية متحركة وملونة وتتحرك أشكالها وأوضاعها عند تحريك الوعاء الموجودة» .

حيث تتكون الجدران الداخلية له من مرايا مستوية) فالإنترنت تعكس المظاهر المتغيرة للمجتمع ، لذلك استطاع النظام الواسع لهذه الشبكة أن يدهش كل المتعلمين من جميع الأعمار من خلال توفير المعلومات التي يبحثون عنها والوسائل المتعددة .

إن استخدام شبكة الإنترنيت في التعليم أدى إلى تطور مذهل وسريع في العملية التعليمية كما أثر في طريقة أداء المعلم والمتعلم في غرفة الصف .

أوضح كوفيني وهايفيلد ، أن استخدام الأنظمة المتعددة في الإنترنت سوف

(1) محمد رضا محمود البغدادي ، تكنولوجيا التعليم والتعلم ، دار الفكر العربي ، مصر ، ط1 ، 1998 ، ص37 .

(2) مصطفى عبد السميع محمد ، تكنولوجيا التعليم ، مركز الكتاب للنشر ، مصر ، ط1 ، 1999 ، ص 8 .

يغير الطريقة التي تؤثر بها التكنولوجيا في الحياة والعمل ، لا تتعامل شبكة الإنترنت مع المعلومات فقط وإنما تتعامل مع الصورة والصوت والخرائط والفيديو والأحداث العالمية والسياسية والموسيقى والخرائط الحديثة واليومية للطقس وتعرض جميعها أمام أعين الطلبة ، كما تقدم لهم الوثائق والمعلومات المتطورة ، لكل ذلك أصبحت الإنترنت أداة للبحث ، والاكتشاف من قبل مستخدميها وتوفر شبكة الإنترنت للمتعلمين القدرة على الاتصال مع المدارس والجامعات ومراكز البحوث ، والمكتبات والمجتمعات الأخرى ، وتساعدهم على نقل المعلومات واستخدامها ، والمشاركة ونشر للمعلومات للآخرين[1] .

و مع تطور هذه الشبكة ، وانتشارها عالميا ، أصبحت « الإنترنت « أداة لحفظ المعلومات وحولت التعليم من الطرق التقليدية إلى التعليم الفردي ، ومع ذلك على المعلمين مراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين عند استخدام شبكة الإنترنت في التعليم ، وعليهم إيجاد طرق تفعل دور الإنترنت في التعليم فعلى المعلم أو المشرف أن يفهم ويقوّم مواطن الضعف ومواطن القوة في البرنامج ، ثم يربط أجزاء البرنامج مع بعضها لتحقيق الأهداف التعليمية التعلمية .

وقد توصل العالمان « يرلي» و« كينمان» لى أن قواعد الاتصالات في الحاسوب تشبه شبكة الإنترنت ، ونستطيع مساعدة المتعلمين لتحقيق الأهداف التعليمية الآتية[2] :

- تطوير التفكير الخلاق والإبداعي .
- تنمية إستراتيجيات حل المشكلات .
- تنمية مهارات التفكير العلمي .
- تحقيق التعلم الطويل الأمد .

و بالنظر إلى أبعد من هذه الأهداف ، يمكن للمعلم القيام بتطوير إستراتيجيات خاصة لاستخدام شبكة الإنترنت للوصول إلى الأهداف التعليمية ، وبدلا من وجود شبكة الإنترنت في متناول أيدي المتعلمين ، يمكن للمعلم ، بمساعدة طلبته ، أن يبدع في إيجاد وثائق ترتكز على المتعلمين والذين يطلق عليهم « العاملين المصممين »والذين يشاركون في عملية البحث وإيجاد مصادر جديدة للمعلومات بعد تطوير وثائق الإنترنت ، حيث يمكن للمتعلمين أن

(1) عبد المالك ردمان الدناني ، الوظيفة الإعلامية لشبكة الإنترنت ، دار الراتب الجامعية ، بيروت ، ط 1 ، 2001 ، ص 52 .

(2) محمد لعقاب ، الانترنت وعصر ثورة المعلومات ، دار هومة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1999 ، ص

يتجاوزوا صفحة معينة في الشبكة لا يحتاجون إليها تحقيقا لهدف معين في عقل المعلم ، مثلا ، يمكن لمعلم الأدب الأمريكي أن يخطط لتعليم وحدة عن الشاعر (ايدجر ألان بو) ، حيث يقوم المتعلمين وتحت إشراف معلمهم ، بالبحث في شبكة الإنترنت عن المواضيع ذات العلاقة بحياة ذلك الشاعر تلخص جميع المعلومات التي يحتاجون إليها عنه لاستخدامها في أبحاثهم[1] .

و تستخدم شبكة الإنترنت في التعليم ، كما في الحاسوب للتمرين والممارسة ، ولحصول على برامج تعليمية بحتة وللعب وللمحاكاة التعليمية ولحل المشكلات العلمية . إضافة إلى الحصول على أحدث ما توصل إليه العلم وتكنولوجيا المعلومات ، واستخدامه كمكتبة .

أما أهم الأسباب الرئيسية التي تجعلنا نستخدم الإنترنت فقد ذكر « ويليامز » المشار إليه في الحيلة أن هناك أربعة أسباب رئيسية هي :

1 ــ الإنترنيت مثال واقعي للقدرة في الحصول على المعلومات ، من مختلف أنحاء العالم .

2 ـ تساعد الإنترنيت على التعلم التعاوني الجماعي ، نظرا لكثرة المعلومات المتوافرة عبر الإنترنيت ، فإنه يصعب على الطالب البحث في كل القوائم ، لذلك يمكن استخدام طريقة العمل الجماعي بين الطلبة ، حيث يقوم كل طالب بالبحث في قائمة معينة ثم يجتمع الطالب لمناقشة ما تم التوصل إليه .

3 ـ تساعد الإنترنت على الاتصال بالعالم بأسرع وقت وبأقل تكلفة .

4 ـ تساعد الإنترنت على توفير أكثر من طريقة في التدريس ، ذلك أن الإنترنيت هي بمثابة مكتبة كبيرة تتوفر فيها جميع الكتب ، سواء أكانت سهلة أم صعبة كما أنه يوجد في الانترنيت بعض البرامج التعليمية باختلاف المستويات . إذ استخدام الإنترنت في التعليم يحقق الإيجابيات الآتية :[2] .

ـ إمكانية الوصول إلى عدد أكبر من الجمهور والمتابعين في مختلف العالم
ـ سرعة تطوير البرامج مقارنة بأنظمة الفيديو والأقراص المدمجة (Rom ـCD) .
ـ سهولة تطوير محتوى المناهج والمعلومات الموجودة عبر الإنترنت
ـ إعطاء التعليم الصبغة العالمية والخروج من الإطار المحلي .
ـ سرعة التعليم ، وبمعنى آخر فإن الوقت المخصص للبحث عن موضوع

(1) محمد محمود الحيلة ، المرجع السابق ، ص 376 .
(2) المرجع نفسه ، ص 376 .

معين باستخدام الإنترنيت يكون قليلا مقارنة بالطرق التقليدية .

ــ الحصول على أراء العلماء والمفكرين والباحثين المتخصصين في مختلف المجالات في أي قضية علمية .

ـ سرعة الحصول على المعلومات .

ـ وظيفة المعلم في الصف بمثابة الموجه والمرشد وليس الملقي .

ـ إيجاد صفوف بدون جدران .

إن التخطيط لكيفية تقديم المعلومات عبر شبكة الإنترنت أشارLaurie إلى مجموعة من الخطوات يجب إتباعها وهي[1]:

1 ـ تحديد احتياجات المتعلمين : على المعلم تحديد احتياجات المتعلمين أولا ، ثم يقوم بتنظيم المعلومات بناء على الاحتياجات ويطور طريقة لتقديم هذه المعلومات عبر شبكة الإنترنت .

2 ــ تطوير الأهداف والأنشطة التعليمية : من خلال معرفة احتياجات المتعلمين يتوقع المعلم مخرجات العملية التعليمية ، وبذلك تصبح الأهداف المتوقع تحقيقها من البرنامج ، وهي التي تقود المعلم للبحث عن الأنشطة المناسبة لتحقيق تلك الأهداف عبر شبكة الإنترنيت .

3ـ تنظيم المحتوى : يقوم المشرف في الإنترنت بمساعدة (أو عدم مساعدة) المتعلمين بإيجاد وثائق في الإنترنيت تشمل المعلومات الضرورية عن الموضوع ، وتربط أو تدمج هذه الوثائق مع وثائق أخرى سعيا لتحقيق الأهداف ، وبإمكان المعلم أن يزود صفحة الإنترنت المذكورة بقائمة من الأمثلة أو أن يوجد علاقات توضح المفاهيم والأشكال التي قد يستخدمها المتعلمون في كتابه الأسئلة والتعليمات أو الإجابات التي يبعثونها إلى المشرف على عنوانه في شبكة الإنترنيت .

4 ـ تنظيم المعلومات وترتيبها : في البيئة المعلوماتية لشبكة الإنترنت تصبح النظرة الكلية إلى الإنتاج مهمة جدا ، لذلك يجب أن تحتوي الإنترنت على جدول للمحتوى يوضح الأهداف العامة ، كما يوضح العلاقات بين المفاهيم المختلفة باستخدام الأشكال والرسومات ، إذ هذه التصاميم والمخططات تساعد المتعلمين على التحكم في المعلومات والحصول على ما يريدون منها .

(1) قنديلجي عامر إبراهيم ، مصادر المعلومات من عصر المخططات إلى عصر الإنترنت ، دار الفكر عمان ، 2000 ، ص 345 .

طريقة تقديم المعلومات التعليمية عبر شبكة الإنترنت ، هناك العديد من القواعد لتقديم المعلومات عبر شبكة الإنترنت ، ومع هذا التقدم الهائل أصبح بإمكان المتعلمين أن يستخدموا

صفحاتهم الخاصة في الإنترنت ليستفيدوا من قاعدة العمل الرئيسية فيها ، وليستخدموها كأداة للاتصال مع بعضهم بعضا ، حيث أصبحت صفحات المتعلمين في الإنترنت عملية وفعالة لتزويد الآخرين بمعلومات كافية عن المواضع .

6 . دور المعلم في مجابهة العولمة :

لما كان لظاهرة العولمة هذا الجانب الخطير فإن للمعلم دورا بارزا في مجابهتها باعتبار :

1 ـ دوره القيادي بين طلابه .

2 ـ دوره الاجتماعي في كونه عنصرا في العملية التربوي .

3 ـ دوره في بيئته لكونه عاملا لرفع مستوى المهنة .

4 ـ دوره في تحقيق أهداف أمته ودينه ، ولذلك كله فإن لهم دورهم أيضا في مواجهةالهجمة التربوية ، الثقافية ، السياسية ، الصناعية ، الاستهلاكية للعولمة من خلال :

ـ فهمه للتخصصات العلمية والفنية التي يدركها المعلم من خلال مهنته .

ـ إتقانه لعمليات الإرشاد والتوجيه التربوي الذين يمثلون القيادة والإقناع والتنظيم والتي

تستطيع تهذيب الدافعية نحو التعليم .

ـ تشكيله الحضور الدائم في كل رقعة من أرض وطنه ، (حيث تنتشر المدارس في كل مكان) .

ـ العلاقة التي يشكلها مع الأسر عامة ، فهو عامل اتصال مع كل أسر البيئة من خلال تعليمة لأولادها ، فهو إذن مكتمل لحياة كل أسرة دون استثناء سواء في التربية أو التعليم ومن خلال ذلك كله فإن بإمكان المعلم أن يساهم في[1]:

ـ تثبيت مفاهيم الإرادة الوطنية للأمة مجابهة للعولمة التي تسلب لتلك الإرادة .

(1) زياد القاضي وآخرون ، مقدمة في الانترنت ، دار الصفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، 2000 ، ص 6

ـ المساهمة في الدفع للحفاظ على الخصوصية للأمة عن طريق التمسك بالهوية الثقافية لها وحماية الذات القومية والدينية دون جمود أو انسلاخ عن التأثيرات التربوية العالمية المتبادلة والتي إن استخدمت بصورة علمية فإنها تخدم الأمة ولا تضرها وذلك عن طريق :

أ ـ استيعاب الحضارة العالمية حتى يبنى تحركاته عن معرفة لا عن جهل .

ب ـ عن طريق استيعابه أثر تنشيط التفاعل والحوار الثقافي مع الأمم الأخرى .

ج ـ تفهمه لمخاطر قبول فكرة العولمة القائمة على منطق الصراع الحضاري والثقافي في مقابل تقبله لتثقيف نفسه وتطوير تعليمه ليكون أهلا لهذا الموقف .

د ـ تعرفه باستخدام التقنيات العلمية الحديثة حتى لا يكون متخلفا أمامها ، فدول العولمة لا تملك ذاتية خصوصية ، وإنما وعي إيديولوجية يستند على السوق الاقتصادية بينما يتسلح المعلم بإيديولوجية ثقافية وتربوية عميقة الإمتداد .

خاتمة :

نستنتج من خلال هذا المقال أن العولمة ثمرة طبيعية تسعى إلى تعميق مستويات التفاعل والاعتماد المتبادل بين الدول والمجتمعات التي تشكل المجتمع العالمي ، كما تمثل العولمة تحديا ثقافيا غير مسبوق ، وتمثل إعادة تنظيم الإنتاج وتداخل الصناعات غير المحدودة . ويتضح لنا جليا أن العالم في تطوره وتحوله بفعل ظاهرة العولمة يتجه إلى كونية جديدة ، تفوق كافة الأشكال التقليدية المعروفة والتي عرفها العالم من قبل .

كما مكنت المعلوماتية من إيجاد لغة واحدة للتخاطب تكمن في اللغة الرقمية ، كما عرف قطاع المعلوماتية تطورا مذهلا في السرعة وفي إمكانات المعالجة ، وهذا له إيجابيات وسلبيات على الساحة الاجتماعية ، الثقافية والاقتصادية .

و من الملاحظ أن شبكة الإنترنت هي أضخم شبكة حاسوب في العالم التي تضم الملايين من نظم الحاسوب وشبكاتها على امتداد العالم وبذلك يمكن تشبيه شبكة الإنترنت بما توفره من معلومات أكاديمية وتربوية بالمشاكل فالانترنت تعكس المظاهر المتغيرة للمجتمع ، لذلك استطاع النظام الواسع لهذه الشبكة أن يدهش كل المتعلمين من جميع الأعمار من خلال توفير المعلومات التي يبحثون عنها .

كما أن استخدام شبكة الانترنت في التعليم أدى إلى تطور مذهل وسريع في العملية التعليمية ، كما أثر في طريقة أداء المعلم والمتعلم وإنجازاتها في غرفة الصف ، كما يمكن للمعلم بمساعدة طلبته أن يبدع في إيجاد وثائق تركز على التعليم الضروري ، كما يمكنه الحصول على رأي العلماء والمفكرين والباحثين والمتخصصين في مختلف المجالات في أي قضية علمية .

المراجع :

1ـ ابراهيم محمد عبد المنعم ، التعليم الالكتروني في الدول النامية ، WWW . maharty . com . 14 : 00 : 14 /05/ 2001

2ـ حامد عمار ، دراسات في التربية والثقافة ، مواجهة العولمة في التعليم والثقافة ، مكتبة الدار العربية للكتاب ، القاهرة ، ط 1 ، 1 ، 2000 .

3ـ زياد القاضي وآخرون ، مقدمة في الأنترنت ، دار الصفاء للنشر والتوزيع ، عمان ، 2000 .

4ـ عبد المالك ردمان الدناني ، الوظيفة الاعلامية لشبكة الأنترنت ، دار الراتب الجامعية ، ط1 ، 2000 .

5ـ محسن أحمد الخضيري ، العولمة ، مقدمة في فكر واقتصاد وإدارة عصر الدولة ، مجموعة النيل العربية ، مصر ، د ت .

6ـ مصطفى عد السميع محمد ، تكنولوجيا التعليم ، مركز الكتاب للنشر ، مصر ، ط1 ، 1999 .

7ـ محمد لعقاب ، الأنترنت وعصر ثورة المعلومات ، دار هومة للنشر والتوزيع ، الجزائر ، 1999 .

8ـ محمد رضا محمود البغدادي ، تكنولوجيا التعليم والتعلم ، دار الفكر العربي ، مصر ، ط1 ، 1998 .

9ـ مي العبد الله سنو، الأتصال في عصر العولمة ، الدور والتحديات الجديدة ، الدار الجامعية للطباعة والنشر ، بيروت ، 1999 .

10 _ Michel (D) , Olivier (D) , la mondialisation; les mots et les choses , edition kartahala , paris , 1999 .

العلاقات التونسية الجزائرية 1830/1954 جوانب من التواصل النضالي

أ . سعيد جلاوي*

العلاقة بين تونس والجزائر عريقة في التاريخ ولا يمكن أن نتحدث عن سائر أطوارها وأثارها ونتائجها بالدقة التي ينبغي توخيها في هذا المقام لان البحث في جذورها وأعماقها يحتاج إلى إسهاب من شانه أن يتطلب المجلدات الضخمة وحسبنا في هذه العجالة أن نعرج على بعض جوانب من التواصل بين القطرين والبحث عن مدى استمراره في الفترة الاستعمارية وما نتج عنه لنستخرج العبرة ونجدد الذكرى والذكرى تنفع المؤمنين .

هذا التواصل بين الشعبين التونسي والجزائري لم يكن وليد ظروف عابرة بل يعود إلى فجر التاريخ ، فقد فرضته وحدة الجغرافيا ، وعززه التاريخ المشترك ، ووفر له دخول الإسلام إلى المنطقة أسباب الاستمرار ، كما لم تفتأ عوامل مختلفة كالكيانات السياسية المتعاقبة والوشائج الاجتماعية المتداخلة وكثافة التعامل التجاري . . . تزيده متانة إلى أن ظهرت الأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر والتي انتهت باحتلال البلدين ، وكانت الجزائر أول ضحية لهذا الاحتلال ، عام 1830 . ثم تونس 1881 . فإلى أي مدى تمكن هذا الأخير من شل هذا التواصل النضالي بين الشعبين وكيف كانت مظاهره وأشكاله؟ .

بدخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر هب الشعب الجزائري للمقاومة المسلحة في مختلف أنحاء القطر وعلى فترات متتالية بداية من مقاومة الأمير عبد القادر1832الى انتفاضة الاوراس 1916 . . . فتح الشعب التونسي بلاده للثوار الجزائريين وقدم لهم كل ما أمكنه من دعم رغم معارضة حكامه أحيانا . فعلى سبيل المثال لا الحصر لجأ إلى تونس خلال مقاومة الأمير عبد القادر واحمد باي في الثلاثينات والأربعينات من القرن 19 عدد كبير من المقاومين كالشيخ « محمد الحسناوي »[1]. . . وكما نزح الثوار الذين نجوا من الاستعمار بعد تخريب واحة الزعاطشة سنة 1849 إلى إقليم الجريد التونسي فآواهم السكان وقدموا لهم العون والمساعدة ، ونفس الشيء حظي به الشريف محمد بن عبد الله ورفاقه وعندما جاء الدور على

---

* كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة أكلي محند أولحاج ، بالبويرة.

(1) محمد الحسناوي : من قادة المقاومة الوطنية على الحدود الجزائرية (الاوراس إلى الكاف) في الأربعينات .

تونس ووقعت هي الأخرى فريسة للاستعمار الفرنسي وقف الجزائريون بمختلف فئاتهم ضد هذا الاحتلال ، لاسيما وأنهم كانوا يعتبرون تونس وطنهم الثاني الذي يلتجئون إليه عندما يطاردهم جيش الاحتلال ، فأعلنوا غضبهم ، وحملوا السلاح مع إخوانهم التونسيين في مختلف جبهات القتال وعلى طول منطقة الحدود ، وفي أعماق البلاد التونسية بل وداخل الجزائر نفسها قصد إشغال جزء من القوات الفرنسية وتمكين إخوانهم التونسيين من الكر والفر [1] ففي وشتاته والهمامة والجريد ـ مثلاـ نظم المهاجرون الجزائريون حركة جهاد واسعة مع إخوانهم التونسيين ، واقتنوا الأسلحة والبارود والدواب ولوازم الحرب المختلفة ووظفوها في حركة الجهاد والمقاومة في البلدين وخلقوا جوا من الرعب للسلطات الاستعمارية[2] .

غير أن هذه الأخيرة ومع مرور الزمن تمكنت من التغلب على هذه الثورات وإخمادها بالقوة مما اضطر الشعبين التونسي والجزائري إلى البحث عن أسلوب نضال جديد أكثر تلاؤما مع الظروف المستجدة ، فكان الكفاح الثقافي والسياسي الذي أخذ منذ مطلع القرن 20 يفرض حضوره أكثر فأكثر ، خاصة وأن الاستعمار الفرنسي لم يكتف باغتصاب الأرض والاستحواذ على خيراتها وإنما شرع أيضا في فصل الشعب عن أصوله الحضارية بالقضاء التدريجي على لغته وثقافته والاستعاضة عنها بنشر ثقافة المستعمر وفرض لغته[3] .

وفي هذا المجال ، كان وضع تونس أفضل بكثير من وضع جارتها الجزائر التي تعرضت لمحنة ثقافية بالغة القسوة ، إذ فكك الاستعمار كل مؤسساتها العلمية والثقافية ولم يبق أمام الجزائريين إلا الهجرة إلى الخارج لطلب العلم ، فكانت تونس ـ بطبيعة الحالـ قبلتهم الأولى ، فأخذ جامع الزيتونة يستقبل منذ مطلع القرن 20م طلاب العلم الوافدين من الجزائر وفي طليعتهم العلامة « عبد الحميد إبن باديس »[4] الذي وفد على تونس سنة 1908 ولما رجع إلى الجزائر في 1912 نذر حياته وسخر علمه للدفاع عن وطنه وهويته العربية الإسلامية ، فتفرغ للتدريس تطوعا بجوامع ومساجد قسنطينة ، وجمع حوله ثلة من العلماء . . . بيد انه لم يقنع بذلك حيث راح يجند كل إمكانياته لوصل اللحمة بين الجزائريين

(1) يحي بوعزيز ، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ص263 .
(2) يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص263 .
(3) نفس المرجع ، ص 265 .
(4) عبد الحميد ابن باديس (1889 / 1940) من رواد النهضة الإصلاحية في الجزائر صاحب جريدة المنتقد 1925 والشهاب مؤسس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 .

وجامع الزيتونة؛ فكان يطوف قرى وأرياف الجزائر حاثا الأهالي على إرسال أبنائهم إلى جامع الزيتونة بعد تلقي المرحلة الأولى من التعليم بالجزائر . وبرعاية وتشجيع منه وصلت إلى تونس أول بعثة تعليمية سنة 1913 أي بعد عودته إلى الجزائر بسنة واحدة ، إلا أن ظروف الحرب العالمية الأولى لم تمكن أولئك الطلبة من البقاء في تونس ، فاضطروا للعودة إلى بلادهم حتى وضعت الحرب أوزارها ، وعندها استأنفت البعثات طريقها إلى تونس ، وتوالت تباعا في سلسلة متصلة طيلة نصف قرن؛ من 1913 إلى 1962 .

وتدعمت مساعي ابن باديس في هذا المضمار بجهود نخبة من أفاضل بني ميزاب الذين دفعهم الحرص والغيرة على اللغة والدين إلى إنشاء مدرسة ابتدائية على النمط العصري من ريع تبرعاتهم وأسموها المدرسة الصديقية ، فما كان من السلطات الاستعمارية إلا أن عطلتها وأغلقت أبوابها فدفعهم التحدي إلى إرسال أبنائهم إلى تونس للتعلم في مدارسها ومعاهدها وبخاصة جامع الزيتونة وأشرف على أول بعثة من هذا النوع في ماي 1914 عالمان من بني ميزاب هما المصلح الشيخ « إبراهيم بن الحاج عيسى »[1] والحاج عمر العنق . وحظيت البعثة المذكورة بالرعاية من تجار بني ميزاب المقيمين في تونس الذين جمعوا لها الأموال وأجروا لها دارا للإقامة أصبحت فيما بعد (دار البعثة) ، توفر للقادمين المأوى والطعام والإشراف والمتابعة .

وسرعان ما أتت هذه الجهود ثمارها بعد سنوات قليلة حيث تخرجت بداية من سنة 1924 أول دفعة من هذه البعثات وأفرزت ثلة من خيرة علماء الجزائر ومصلحيها ومفكريها من أمثال « محمد السعيد الزاهري »[2] ، و« صالح بن يحي »[3] و« مبارك الميلي »[4] و« أحمد توفيق المدني »[5] . . . الذين عادوا إلى

(1) هو أبو اليقظان : (1883 ـ 1973) ولد بمدينة (القرارة) جنوب الجزائر ، درس بالزيتونة بداية من سنة 1912 ، عرف بنشاطه الوطني والصحفي على الخصوص ، اصدر ثمانية صحف بين 1926و 1939 ، كما كان له مساهمات متعددة في الصحف التونسية ، وتألق بمقالاته الوطنية وقصائده الحماسية .

(2) محمد السعيد الزاهري : (1899 ـ 1965) من مواليد بسكرة جنوب شرق الجزائر ، درس بقريته ثم بمدينة قسنطينة على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس ثم درس بالزيتونة ، من ابرز الشعراء وأكثرهم وطنية في العشرينات . أنشا عددا من الصحف منها (الجزائر) و(الوفاق) .

(3) صالح بن يحي : من مواليد وادي ميزاب ، من الوطنيين البارزين الذين شاركوا في (الحزب الدستوري التونسي) وتعرضوا بسبب مواقفهم إلى السجن .

(4) مبارك الميلي : توفي سنة 1945 من رجال الإصلاح المعروفين ، درسي بالزيتونة وتخرج منها سنة 1924 ، من أعضاء ـ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين . ومن مؤرخي الجزائر المعروفين .

(5) توفيق المدني : (1966 1984) من عائلة جزائرية هاجرت إلى تونس عام 1870 درس بالزيتونة شارك في الحزب الدستوري التونسي سنة 1920 تعرض للسجن م للنفي عرف بمقالاته المميزة ومؤلفاته « حياة كفاح ».

الجزائر ووظفوا علمهم وجهودهم في النضال العلمي والتربوي ، والكفاح الثقافي بصفة عامة . وتتابعت بعد ذلك أفواج المتخرجين الذين لعبوا دورا بارزا في مختلف مستويات التدريس والإنتاج الأدبي والفكري ، والكتابات الصحافية والبحث العلمي ، وكان لهم حضور مكثف في الحياة الاجتماعية والثقافية في الجزائرلا سيما بعد الاستقلال أمثال الدكتور أبو القاسم سعد الله وصالح الخرفي و« عبد الله الركيبي » و« أبو العيد دودو » و« الجنيدي الخليفة » و« الأخضر السائحي » وعبد الحميد بن هدوقة والطاهر وطار فضلا عن الآلاف من ذوي الثقافات والاختصاصات والميول الأخرى من مهندسين وأطباء وقادة عسكريين ممن تكونوا في رحاب الزيتونية وكانوا من خيرة خريجيها ، وأدوا رسالتها الحضارية على أكمل وجه .

وتتضمن شهادات الكثير من هؤلاء إقرارا بما لجامع الزيتونة من إسهام فعال في الإبقاء على ثقافة الجزائر الأصيلة وحمايتها من عبث المستعمر واستهتاره ويقول الشيخ السعيد الزهاري أنا مدين لكلية جامع الزيتونة . . . وما تراه في الجزائر من حركة العلم والأدب والإصلاح الديني هذه أيضا مدينة لجامع الزيتونة ، فكثيرا من رجال هذه الحركة الإصلاحية قد تخرجوا من الزيتونة وأحرزوا على شهاداتها العلمية « . وذات الحقيقة يؤكدها الشاعر صالح الخرفي احد خريجي الزيتونة حيث كتب يقول « لو أعطينا الأولوية للبيئة العلمية التي تحرجت فيها الطليعة لجاءت تونس في الدرجة الأولى ، ففي (جامع الزيتونة) درس وتخرج أغلب شعرائنا الأوائل ولم يكن يكتفي الشاعرالجزائري في تونس بدور الطالب الذي يتلقى الدرس ثم يتأبط كتبه صوب مسكنه ، وإنما يساهم مساهمة فعالة فيما كانت تزخر به تونس . . . من نشاط فكري وديني وسياسي »[1] .

ولم يقتصر دور جامع الزيتونة على تكوين الطلبة الجزائريين في رحابها بل تعدى ذلك إلى توفير الحماية القانونية والأدبية لمعاهد ومدارس جمعية العلماء المسلمين في الجزائر وهذا ضمن خطة ذكية ترمي إلى الحيلولة دون غلق الاستعمار هذه المعاهد التي كانت تشكل في نظره خطرا مستقبليا ، وهو ما أدى إلى مشاورات بين علماء الزيتونة وعلماء الجزائر أفضت إلى أن تبسط الزيتونة رعايتها على معاهد جمعية العلماء ، وبالإضافة إلى مدها بالمناهج والمراجع ، والإشراف في نهاية كل موسم دراسي على امتحاناتها ، ومنح طلابها الشهادات

(1) خرفي صالح ، شعراء من الجزائر ، (معهد البحوث والدراسات العربية 1969 ، ج1) ، ص30 .

العلمية المعروفة بالجامعة الزيتونية .

لم يقتصر التلاحم الثقافي بين لقطرين على مجال التعليم وإنما شمل مجالات أخرى لا تقل أهمية عنه ، كالمجال الإعلامي . حيث فتحت الصحف التونسية أبوابها على مصراعيها أمام الأقلام لجزائرية ، وهو ما يجسده العدد الكبير من مقالات الجزائريين المنشورة في الصحف التونسية ، وذلك منذ مطلع القرن 20 حتى 1962 . مثل : التقدم ، ومرشد الأمة 1906 ، لمنير 1907 ، المشير 1911 ، العصر الجديد ، الوزير ولسان الشعب 1920 ، النهضة 1924 ، العالم الأدبي 1929 ، الزمان 1931 ، العمل 1934 ، الوطن والبوق ، الزيتونة 1936 ، تونس ، المباحث ، صبرة 1937 ، الأسبوع 1945 ، الصباح 1950 ، والندوة 1953 ، الفكر 1955 ، الإذاعة ، و1962[1] .

وأول من دشن تلك الرابطة القلمية بين الجزائريين والصحف التونسية هو « عمر راسم »[2] بمقالة نشرها سنة 1907 في جريدة التقدم التونسية . وحذا حذوه بعد ذلك كثيرون نذكر منهم « عمر بن قدور »[3] و« حمزة بوكوشة »[4] و« الطيب العقبي »[5] و« محمد العيد الخليفة » . . . إلى درجة أن أصبحت الصحف التونسية تتلقى المراسلات من مختلف جهات القطر الجزائري وتطورت في العديد من الحالات الصلة بين الصحافة التونسية والكتاب الجزائريين إلى علاقات ود وصداقة ، كتلك العلاقة التي ربطت عمر بن قدور والشيخ الطيب إبن عيسى صاحب جريدة « المشير » والتي نجد إشارات لها في بعض رسائل عمر أبن قدور ، وكذا الصلة التي جمعت الطيب العقبي واحمد « حسين لمهيري »[6]

(1) صالح الجابري ، الأدب الجزائري في تونس1900 / 1962 ، (تونس : بيت الحكمة ، 1991م ج1) ، ص 16 .

(2) عمر راسم : (1884 ـ 1959) من الكتاب الجزائريين البارزين في مطلع ق 20 ، عرف بآثاره الإصلاحية شارك في عدد من الصف التونسية ، انشأ مجلة « الجزائر » 1808 وجريدة « والقفار » سنة 1913.

(3) عمر بن قدور : (1886 ـ 1930) من ابرز المناضلين الجزائريين في مطلع القرن قلما وفكرا وعملا ، تعلم بالجزائر وتونس ومصر وكانت له مشاركات واسعة في عدد من الصحف التي صدرت بالأستانة ، تونس ، مصر .

(4) حمزة بوكوشة : مواليد ـ وادي سوف ـ جنوب الجزائر ، درس بالزيتونة وتخرج منها سنة 1930نشر قصائد عديدة بجريدتي ـ الوزير التونسية . ساهم في الحركة الوطنية بمقالاته الإصلاحية التي نشرتبجريدي الشهاب والبصائر في الثلاثينات ، يعمل بسلك القضاء في الجزائر .

(5) الطيب العقبي : (1880ـ 1960) من مواليد سيدي عقبة هاجر مع أسرته إلى الحجاز حيث درسثم عاد الى الجزائر سنة 1920 ، له نشاط متميز في مجال النضال الوطني والصحفي وكانت المراسلات مع جريدة ـ العصر الجديد ـ التونسية في سنة 1922.

(6) حسين لمهيري : من مواليد الجنوب التونسي ، درس بالزيتونة له مواقف نضالية من الاستعماراصدر جريدة (العصر الجديد) سنة 1920 التي صودرت سنة 1924 وأعيد إصدارها سنة 1936 كتب فيها الطيب العقبي.

صاحب جريدة «العصر الجديد» التي نجد لها صدى في عبارات الود التي كانت تزخر بها المراسلات بين الطرفين .

ولعل أهم الأسباب التي يفسر متانة تلك الأواصر وديمومتها ، انتشار الصحف التونسية في العديد من مناطق الجزائر واتساع مقروئيتها ويؤكد ذلك الشاعر التونسي «سعيد أبو بكر»[1] الذي زار لجزائر سنة 1927 وسجل لنا تواجد الصحف التونسية بقوة في أكشاك المدن الجزائرية والإقبال المنقطع النظير على مطالعتها .

ولا يجب أن يفهم مما سبق أن العلاقة بين أبناء القطرين في المجال الصحفي كانت ذات اتجاه واحد وإنما كانت إسهاما متبادلا ، وهو ما يتجلى من خلال مقالات التونسيين أمثال «البشير الفورتي»[2] و«حسين الجزيري»[3] و«الطيب بن عيسى»[4] و«محمد الفائز»[5] و«جلال الدين النقاش»[6] «محي الدين القليبي» و«عثمان الكعاك» و«محمود بورقيبة»[7] و«محمد المهدي بن ناصر» . . . الخ المنشورة في الصحف والمجلات الجزائرية بالأخص الفاروق 1915 والشهاب 1925 وصدى الصحراء 1925 والإصلاح 1927 وادي ميزاب 1929 والبصائر 1936 .

(1) سعيد أبو بكر : (1984/1899) من مواليد بلدة المكنين بالساحل التونسي ، زاول تعليما بسيطا في قريته وشارك في تحرير عدد من الصحف ، كما اصدر مجلةـ العالم ـ وتونس المصورة ـ ، له ديوانان هما ـ السعيديات ـ والزهرات ـ

(2) البشير الفورتي : (1882ـ 1954) من أوائل الصحفيين التونسيين درس بالزيتونة والخلدونية اصدر جريدة التقدم سنة 1907 وولد البلاد 1910 عمل في الطباعة والكتابة وفي الصحف والمجلات كالمنار وتونس والمذياع والزيتونية واهتم كذلك بتراجم بعض الصحفيين والأعلام التونسيين عين كرئيس تحرير مجلة الهدي سنة 1952 وفي الأخير عكف على تنشيط حركة النشر بإصدار عدة مؤلفات .

(3) حسين الجزيري : (1888ـ 1974) من عائلة جزائرية درس بالزيتونة ساهم في تحرير العديد من الجرائد التونسية والجزائرية كاللواء وراسل جريدة الفاروق واصدر جريدة النديم سنة 1921 وفية للحزب الدستوري واستمر بعد ح ع2 في العمل الصحفي وله مقالات ومحاضرات ومؤلفات روائية وإذاعية حتى توفي سنة . 1974.

(4) الطيب بن عيسى القرواوي : (1885 /1965) من أصل جزائري ، ولد بتونس ، وتعلم بالزيتونة وساهم منذ نشأته في تحرير عدد من صحف مطلع القرن ، في كل من تونس والجزائر ، كما انشأ في سنة 1912 «المشير» التي حولها في سنة 1920 إلى جريدة الوزير .

(5) محمد الفائز : (1902ـ 1953) من أعلام تونس درس في الزيتونة ساهم في تحرير جريدة القيروان ومجلة مكارم الأخلاق والثرايا.

(6) جلال الدين النقاش : (1913ـ 1989) كاتب تونسي درس بالزيتونة ساهم في الحركة المسرحية والفنية والشعرية نشر مقالاته وأشعاره في عدة صحف : الوزير ، النهضة ، العالم الادبي ، الزهرة ، الصباح ، العمل . . .

(7) محمود بورقيبة : (1882ـ 1928) درس بالزيتونة ساهم في حركة الشباب التونسي وفي جمعية الآداب اصدر جريدة اللسان ساهم في تحرير عدة جرائد كالمبشر والنهضة . . الخ.

لقد كان لهذا التلاقح الثقافي بين القطرين فضل كبير في ظهور بوادر نهضة أدبية وفكرية في الجزائر تجلت في الانتاجات الفكرية للعديد من المثقفين الجزائريين التي أخذ سناها يخترق الظلام الدامس الذي فرضه الاستعمار . بيد أنها لم تكن لتجد طريقها إلى القراء في معظم الأحايين لولا دور النشر التونسية التي تبنت طبع ونشر ذلك الإنتاج وعلى سبيل المثال كتاب «بذور الحياة» لرمضان حمود وديوان الصحفي لإبراهيم الحاج عيسى المعروف بابي اليقظان ، وشعراء الجزائر في العصر الحاضر لمحمد الهادي السنوسي ، و«الطالب المنكوب»[1] لعبد المجيد الشافعي و«نفوس ثائرة» لعبد الله الركيبي و«الأشعة السبع»[2] لعبد الحميد بن هدوقة و«دخان من قلبي»[3] للطاهر وطار وسائر المطبوعات الجزائرية التي ظهرت في تونس خلال النصف الأول من القرن العشرين .

وانعكس هذا التلاحم بين مثقفي القطرين في مرآة النشاط السياسي في صورة نضال مشترك ضد الاستعمار الفرنسي ، والتي ترجع بداياته إلى سنة 1920 ، تاريخ تأسيس أول حزب وطني تونسي وهو الحزب الدستوري الحر ، الذي ضم في هيئته القيادية الأولى ثلة من التونسيين والجزائريين الذين اقسموا على المصحف الشريف وفي سرية تامة ، «كما يرد ذلك الشيخ أبو اليقضان في مذكراته» على أن يعملوا من اجل تحرير المغرب العربي بأسره . ومن أبرز أولئك الجزائريين زعيم الحزب ذاته «عبد العزيز الثعالبي»[4] و«إبراهيم الطفيش» و«صالح بن يحي» و«أبو اليقظان» و«أحمد توفيق المدني» و«عبد الرحمان اليعلاوي»[5] و«الطيب بن عيسى» .

و لم يكن إسهام هؤلاء في نشاط هذا الحزب إسهاما عابرا وإنما كانوا أعضاء في لجانه العليا وهيئاته القيادية ، وبذلوا جهودا كبيرة في إرساء أركانه ومد قواعده .

كما لعب التجار الجزائريون وبالأخص المنحدرين من وادي ميزاب دورا

(1) الطالب المنكوب : من طلائع الرواية الجزائرية ، صدرت سنة 1951 وطبعت بمطبعة الشريف ، دار الكتب العربية بتونس .
(2) صدرت عن الشركة القومية للنشر والتوزيع تونس سنة 1962 .
(3) صدرت عن الشركة القومية للنشر والتوزيع تونس سنة 1962 .
(4) عبد العزيز الثعالبي : (1876 / 1944) من أصل جزائري درس في تونس . ونال الشهادة الابتدائية التحق التحق بجامع الزيتونة وتابع دراساته العليا في المدرسة الخلدونية أسس الحزب الدستوري القديم وكتب في الصحف داعيا إلى الاستقلال والحرية . ثم اصدر صحف «لمنتظر» و«المبشر».
(5) عبد الرحمان اليعلاوي : من أصل جزائري انخرط مع الرعيل الأول في الحزب الدستوري التونسي مارس مارس نشاطا سياسيا وصحفيا أبعده الاستعمار إلى الجزائر سنة 1925 ساهم في الثورة الجزائرية كمسؤول مالي.

رئيسيا في دعم الحزب المذكور ماليا كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

ونتيجة لهذا التضامن السياسي مع إخوانهم التونسيين تعرض الجزائريون لمختلف صنوف التنكيل والقمع ثم الإقصاء عن البلد الذي ترعرع فيه بعضهم وتعلم البعض الأخر بدعوى أن النشاط السياسي محرم على الجزائري سواء كان جزائري الجنسية أو جزائري الأصل ، وقد نال هذا الإبعاد ثلة من الوطنيين . كإبعاد الشيخ « الطفيش » إلى القاهرة سنة 1923 ونفي كل من توفيق المدني وعبد الرحمان اليعلاوي وصالح بن يحي إلى الجزائر .

غير أن ذلك لم يفلح في فصم العلاقة القوية بين أبناء القطرين وهو ما يتجلى في استمرار نضال الجزائريين في الحزب الدستوري الجديد وما إن ظهر في 2 مارس 1934 واختار قيادة شابة جديدة من وجوهها البارزة كالحبيب بورقيبة ومحمد الماطري حتى هرع نفر من الجزائريين يجددون صلاتهم بالحزب ، وينخرطون في عضويته ويتولون مهام إعلامية وتنظيمية في إدارته ، حتى بلغ في صفوفه العشرات بل الميئات منهم الشاعر « محمد العيد الجباري »[1] الذي سجن من سنة 1934 إلى 1939 بسبب تأييده للحزب وكذا « محمد لعريبي »[2] الذي أوقف سنة 1939 لذات السبب .

وبعد الحرب العالمية الثانية أخذ النضال الوطني ضد الاستعمار في القطرين يتجذر أكثر فأكثر وبالأخص في الجزائر التي شرعت في الإعداد للكفاح المسلح حيث أسس حزب الشعب الجزائري ابتداء من فيفري 1947م تنظيما سريا شبه عسكري خصيصا لهذا الغرض .

وانطلاقا من قناعة راسخة بان نجاح الكفاح التحرري على مستوى المغرب العربي مرتبط بدخول المعركة ضد الاستعمار في جبهة موحدة ، فقد سعى مسؤولو الحركة الوطنية في الجزائر إلى إقناع نظرائهم التونسيين بإنشاء جهاز عسكري مشابه للمنظمة الخاصة لحزب الشعب وتنسيق عملية التحضير للثورة .

وفي هذا الإطار تمت عدة زيارات لقادة جزائريين إلى تونس على غرار زيارة محمد بوضياف مع مجموعة من المناضلين منهم محمد عصامي وحامد روابحية سنة

(1) محمد العيد الجباري : (1911ـ 1942) أصيل الجزائر ساهم في الحزب الدستوري التونسي ـ منذ سنة وتعرض للسجن والإبعاد 07 مرات نشط في الصحافة التونسية له العديد من الأشعار والمؤلفات .

(2) حمد لعريبي : (1946 / 1971) أصيل مدينة ـ تيهرت ـ بالجزائر وفد منها على تونس . درس بالزيتونة وساهم في تحرير عدد من الصحف الصادرة في الثلاثينات مثل (الشباب) و(السردوك) و(صبره) و(تونس) و(الزمان) ونشر بها عدة قصص وإشعار ومقالات .

1948 وزيارة النائب « دردور »[1] رفقة أحمد بن بلة في جانفي 1949 . . . [2] .

والمعلوم أن مساعي الجزائريين هذه قوبلت بردود أفعال متباينة : فإذا كان السياسيون قد قابلوها باستعلاء إلى درجة أن احدهم لم يتحرج في نعتها بلعب الأطفال فان النشطاء التونسيون اتفقوا مع نظرائهم الجزائريين على التعاون في المجال العسكري ، ولوضع ذلك موضع التنفيذ وتقرر حسب العمودي عقد اجتماعات مشتركة بين الطرفين وبشكل منتظم . وكانت إحدى ثمرات هدا الاتفاق ، إرسال فريق من المختصين في المتفجرات التابعين للمنظمة الخاصة الجزائرية لتدريب التونسيين على صنع القنابل واستعمالها ودلك في ربيع 1949 [3] .

ومن مفارقات التاريخ الغريبة إن التونسيين شرعوا في العمل الثوري مند أواخر 1952 بينما انهمكت الحركة الوطنية الجزائرية في صراع داخلي عقيم . بيد أن هذا لم يمنع الثوريين الجزائريين من مد يد العون لأشقائهم التونسيين . حيث أعيد تشكيل بعض فرق المنظمة الخاصة التي حلت بعد أزمة 1950 وذلك في بعض المناطق كالاوراس وسوق أهراس ، وشرعت في تقديم الدعم للثوار التونسيين ، علاوة على التحاق العديد من الجزائريين بصفوف الثورة التونسية أمثال لزهر شريط ومبروك بن مسعود والعقبي الذي أصبح مسؤولا عن الفداء داخل تونس والعربي القمودي وحمي لخضر والجيلالي بن عمر . . .

وفي 18 أوت 1954 فتحت فرنسا المفاوضات مع التونسيين ، لكنها تميزت بالتماطل والتشدد من الجانب الفرنسي ، إلا أن الوضع سرعان ما تغير مع اندلاع الثورة الجزائرية إذ عمدت السلطات الفرنسية ـ في محاولة منها لتطويق الثورة الجزائرية ـ إلى تسريع تلك المفاوضات لتتوج في شهر جوان 1955 باتفاقيات الاستقلال الداخلي لتونس ، لكن أمام تعاظم الثورة الجزائرية واستمرار جيوب المقاومة التونسية ، عززت فرنسا موقف بورقيبة وأنصاره في مواجهة صالح بن يوسف وأتباعه الذين كانوا يسعون إلى تعميم النموذج الجزائري للمقاومة ، فاستجابت لمطلب الاستقلال التام لتونس في 20 مارس 1956 .

لم يؤد استقلال تونس إلى عزل الثورة الجزائرية ، كما كانت تخطط فرنسا ، بل

(1) دردور عمر : من مواليد 1913 بقرية حيدوس بباتنة تعلم في جامع الأخضر بقسنطينة على يد ابن باديس مارس التعليم انظم إلى الثورة عام 1956 كلف خلال الثورة التحريرية بجمع المساعدات وتوعية الجنود على الحدود الجزائرية التونسية .

(2) سعداوي مصطفى ، المنظمة الخاصة ودورها في الإعداد للثورة المسلحة 1947 / 1954 . ماجستيرغير منشورة جامعة جزائر . 2007 ، ص 190 .

(3) نفس المرجع ، ص 190.

على العكس ترتب عنه خلق قاعدة خلفية لهذه الثورة توفر لها الإسناد اللوجستي ومختلف أشكال الدعم السياسي والدبلوماسي والإعلامي . . . حيث نشطت عمليات تهريب الأسلحة نحو الجزائر والتحق بصفوف الثورة الجزائرية العديد من المتطوعين التونسيين . . . وراحت الأحزاب التونسية تندد بالقمع الاستعماري وتطالب فرنسا بالاعتراف بحق تقرير المصير للشعب الجزائري ، وجدت الهيئات والمنظمات القومية التونسية (الأطباء والمحامون والمهندسون) في حشد الدعم الجماهيري للثورة الجزائرية ، وتحركت الدبلوماسية التونسية في المحافل الدولية لخدمة القضية الجزائرية . . . علاوة عن الخدمات والمساعدات التي ما فتئت تقدمها تونس حكومة وشعبا للطلبة واللاجئين والجرحى والمساجين الجزائريين . . .

كما اضطلعت الصحافة التونسية بالدعاية لصالح الثورة الجزائرية داخليا وخارجيا ، وامتزجت بها ، واعتبرتها جزءا من نضالها ، وعاشت أحداثها بوعي وعمق يوما بعد أخر واحتفظت لنا بشهادات وذكريات ومواقف وإبداعات ، تجسم صورة من أروع صور التلاحم والتآخي والتآزر بين الشعبين الجزائري والتونسي ، ويقول أحد أعمدة الصحافة التونسية بهذا الصدد : « كان دعمنا للثورة الجزائرية دعما كاملا إذ خصصنا لها ساعة كحصة يومية في الإذاعة التونسية باللغة العربية والفرنسية ، كما أن الصحافة بكل أطيافها ساندتها دون تحفظ وكنا نرى أن لا استقلال لتونس بدون استقلال الجزائر »[1] .

و في الختام نقول إن التواصل النضالي بين تونس والجزائر كان قائما طيلة الاحتلال الأجنبي الذي عجز عن شله وقطع أواصره والتي باتت أعمق بكثير من روابط الأخوة الإنسانية ورابطة الجوار وهي أقوى وأعمق من رابطة التناصر التي ضلت تلتحم التحاما قويا خصوصا في أوقات الخطر ـ أي طيلة قرن ونصف لتثمر في الأخير تحرر البلدين واستقلالهما .

هوامش البحث

1ـ خرفي صالح، شعراء من الجزائر، معهد البحوث و الدراسات العربية 1969.
2 ـ سعداوي مصطفى، المنظمة الخاصة و دورها في الإعداد للثورة المسلحة 1947 / 1954. ماجستير غير منشورة جامعة جزائر. 2007، ص 190.
3 ـ صالح الجابري، الأدب الجزائري في تونس1900 / 1962 ، تونس : بيت الحكمة ،1991م .
4 ـ الطالب المنكوب : من طلائع الرواية الجزائرية، صدرت سنة 1951 و طبعت بمطبعة الشريف، دار الكتب العربية بتونس.
5 ـ لقاء خاص مع بشير بن سلامة في 2 سبتمبر 2007 بحي المنار بتونس العاصمة.
6 ـ يحي بوعزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية و الدولية ، ديوان المطبوعات الجامعية.

(1) لقاء خاص مع بشير بن سلامة في 2 سبتمبر 2007 بحي المنار بتونس العاصمة .

شمال السودان الغربي وخلفيات التسرب الأوروبي

د . أحمد الحمدي*

تمهيد :

إن المنطقة التي سأتحدث عنها هي ذلك الجزء المعمور بين السودان الغربي ، والصحراء الكبرى ، وبلاد شنقيط ، وبلاد الهوسا . وهي الوحدة الجغرافية ، والتاريخية ، التي عرفت مؤثرات تاريخية واحدة ، غير أنها لا تشكل وحدة بشرية ، حيث تسكنها العديد من القبائل ، والأجناس ، لكل منها لغته ، ولسانه .

المجال والجغرافيا :

يجعل بعض الرحالة شمال السودان ، ضمن الصحاري الواقعة بين نوميديا ، وأرض السودان ، حيث قال : « . . . وتوجد في هذه المناطق أمكن تحمل أسماء خاصة حسنة أو قبيحة بحسب حال البلاد . . . وهير[1] التي هي ، وإن كانت أيضا صحراء ، فإن هواءها طيب معتدل »[2]. وبلاد[3] السودان مجالها واسع عند الرحالة والجغرافيين . ومن القلائل الذين زاروها ليون الأفريقي[4] وكثيرا ما يصطدم الباحث عند قراءته للمراجع التاريخية ، والجغرافية ، بأسماء معالم ، أو قبائل ، أو مناطق جغرافية ، لا يتمكن من تحديد موقعها بدقة . حيث تشير تلك المراجع إلى مناطق يختلف امتدادها باختلاف الحقب التاريخية ، بحيث لا يتيح ذلك التعرف على المنطقة المعنية ، وعلى حدودها ببعض التفاصيل ، وينطبق هذا بشكل خاص على المنطقة مجال البحث ، والتي تتغير عبر مراحل التاريخ ، نظرا للتنقلات التي عرفتها القبائل إما لأسباب محلية ، أو لدوافع تتعلق بالممالك

---

* كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ، جامعة وهران .

(1) أهير : مدينة بالنيجر تقع إلى الغرب من أقدس ، وتضم عنصرين من السكان هم : الطوارق ، والسودان.وهي تنقسم إلى عدد من القرى ومساكنهم بعضها بالطوب والبعض الآخر عبارة عن أكواخ ، وقد بلغت المدينة أوج ازدهارها عام 926 هـ ، 1519 م ، عندما استولى عليها أسكيا الحاج محمد.ينظر : الهادي المبروك الدالي ، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما الصحراء ، مطابع الوحدة العربية الزاوية ليبيا ، ط الأولى 2000 ، ص 134.

(2) الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي بيروت والشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط ، ط الثانية 1983 ، ج 1 ، ص ص 32ـ33.

(3) الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي بيروت والشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط ، ط الثانية 1983 ، ج 1 ، ص ص 32ـ33.

(4) الوزان ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 76.

المجاورة وسياستها حيال تلك القبائل . فقد كان هذا المجال يتمدد عن طريق زحف بطيء أو بصفة مفاجئة تارة ، ثم يتقلص بحيث يصعب على الجغرافي ـ وبالتالي على المؤرخ ـ الذي يريد تتبع مراحل تنقل بعض القبائل ، من مطابقة اسم القبيلة مع مجالها .

وعند الرجوع للمصادر يمكن ملامسة حدود السودان ، والتي تدخل في إطار صحراء صنهاجة ، التي تمتد ـ حسب الحسن الوزان[1]ـ من المحيط غربا ، وتمتد شرقا إلى ملاحات تغزة[2]. وتنتهي شمالا في تخوم نوميديا ، أي إقليم سوس عند أقا ودرعه . وتسير جنوبا حتى مملكتي ولاته[3] وتنبكتو . والوزان يشير إلى الصحراء القاحلة التي توجد في تنزروفت ، والقرى الواقعة شمال السودان ، فهي فعلا خاوية من أي غطاء نباتي والطعام بها قليل[4]. كما تشتهر بقلة النقاط المائية ، بل انعدامها في كثير من الأحيان .

ويعثر الباحث عند أبي حامد الأندلسي على وصف لبعض المناطق ونماذج من الشعوب السودانية مثل : التكرور[5] ، ومالي[6]، وكوكو[7] . لكن وصفه يتسم يتسم بالسطحية ، ولعل عذر أبي حامد في ذلك ، كونه لم يتجول في تلك الأصقاع ، فهو يعترف بأنه رأى سهام السودان في المغرب[8]. غير أن معلوماته في في مجموعها دقيقة ، وصحيحة ، في الوقت نفسه .

(1) الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص 148ـ 149.

(2) تغزة : وتكتب أيضا تغازى وهي مكان مأهول فيه عدد من مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام. يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح ، ومنها يحمل إلى تنبكتو التي يعوزها الملح كثيرا.وليس للعاملين في ملح تغزة قوت إلا ما يحمل إليهم من تنبكتو ودرعة ، وكلاهما على مسيرة عشرين يوما من تغزة.ينظر : الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ج 2 ، ص ص 108 ـ 109.

(3) ولاته : لا يعلم بالضبط تاريخ تأسيسها ، ولكن يبدو أنها أنشأت قبل تنبكتو بسنوات وقد كانت مركزا تجاريا وحضاريا مهما حتى حدود القرن الثالث عشر الميلادي ، حيث بدأت تضعف لنمو وازدهار منافستها مدينة تنبكتو فهاجر إليها العلماء تاركين ولاته للانحسار.وهي تقع شمال غرب تنبكتو.ينظر : دريد عبد القادر نوري ، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من القرن 4ـ10 هـ ، 10ـ 16 م ، المكتبة الوطنية بغداد ، ط 1985 ، ص 302.

(4) محمد بن عبد الله بن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، تحقيق محمد عبد الرحيم ، مؤسسة الكتب الثقافية ودار الفكر بيروت ، ط الأولى 2003 ، ج 2 ، ص 380.

(5) التكرور : وهي تلي مدينة صنغانة وتقع ما بين الغرب والقبلة ، وأهلها سودان وكانوا على المجوسية ، وحتى وليهم وارجابي بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها ،

(6) مالي : تقع في شمال السودان الغربي ، وقد أسس بها شعب الماندنجو سلطنة.وهذا الشعب اعتنق الإسلام في آخر القرن الحادي عشر الميلادي ، في الحركة الدافعة التي صحبت قيام دولة المرابطين وعكوفهم على

(7) كوكو : وهي مدينة على نهر النيجر ، وسموا بذلك ، لأن الذي يفهم من نغمة طبولهم كوكو. ينظر : مجهول ، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، دار النشر المغربية الدار البيضاء ، ط 1985 ، ص 225.

(8) أبو حامد الأندلسي ، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، تحقيق إسماعيل العربي ، دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة المغرب ، ط الثانية 1993 ، ص 22.

وهذه المنطقة تتوفر على نقاط مائية كثيرة في الجهة الشرقية ، والغربية ، وبالإمكان الحصول عليها دون عناء بالخصوص في وادي تلمسي الرابط بين آدرار إفوغاس[1] وجاو ، وفي منطقة تاودني[2] في الشمال . وتنتشر في هذا المجال الواسع الحشائش الخضراء والغابات ، وكذا السهول الصخرية الملساء . وشمال السودان يمتد من صحراء تنزروفت شمالا إلى المناطق المحاذية لنهر النيجر جنوبا ، وبذلك فهي أرض شاسعة كبيرة ، وهي مما يلي أروان[3]. وهذا ما جعل بعض المستكشفين[4] يحددونها بخطوط الطول شمالا بكثبان عرق بورقبة ، والستلة ، ومناجم تاودني ، ما بين 18 و20 . 15^0 . وشرقا تحدد بآبار أبلبود ، وانشاق ألول ، وغربا بالعكلة . وتتشكل منطقة شمال السودان الغربي من : جاو[5] ، وجني[6] ، وكيدال[7] ، والسوق ، وأروان[8] ، وتاودني ، وولاته ، والمبروك[9]، والحلة[10]، وتنبكتو .

ويدخل هذا المجال ضمن نطاق ما يسمى ببلاد السيبة . وهذا ما يفهم من حديث صاحب تاريخ ولاته عند تناوله لهذه المنطقة : « . . . ونحن كثير زللنا قليل أدبنا مع الملوك ، لأننا نشأنا في السيبة ، وعدم الملك ، فلا يليق بنا إلاّ من يعرف

(1) آدرار أفوغاس : هي كتلة جبلية ومرتفعات تقع في أقصى شرق السودان الغربي ، وتقطن قبائل الطوارق هذه الجبال.ينظر : عبد العزيز بن عبد الله ، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية ، معلمة المدن والقبائل ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب ، ط 1977 ، ج 2 ، ص 19.

(2) تاودني : ملاحة تقع إلى الجنوب الشرقي من ملاحة تغازى ، وهي في الشمال الغربي من مالي.وقد بدأ استغلالها منذ القرن 8 م.ينظر : الناني ولد الحسين ، صحراء الملثمين ، دار المدار الإسلامي بيروت ، ط 2007 ، ص 433.

(3) أحمد بن الأمين الشنقيطي ، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء ومؤسسة ومؤسسة الخانجي بمصر ، ط الثانية 1958 ، ص 458 .

(4) من جملتهم : كورتيه ، وجوفر ، وبرييه ، ولاجي باري .

(5) جاو : هي المدينة التي اتخذت عاصمة بدولة الصنغاي منذ أيام الضياء الأول بعد أن كانت عاصمتها الأولى هي مدينة كوكيا وانتقلت العاصمة إلى جاو في سنة 400 هـ / 1009 م ، وبلغت جاو مجدها وأقصى شهرتها في أيام الأساكي فقد كانت قبلة التجار والقوافل التي تأتي من ناحية الشرق والقوافل القادمة من بلاد الهوسا وكلها تقصد جاو.ينظر : دريد عبد القادر نوري ، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء ، ص 293.

(6) جني : تقع إلى الغرب من تنبكتو ، وطولها يصل إلى تني وهي بلد في أرض سلطان كابر وراء جبال تنبلا ، وعرضها إلى دبوص وهي مجاورة لأرض ورن كي. ينظر : أحمد بابير الأروانى ، الجواهر الحسان في أخبار السودان ، مخطوط مكتبة الساحل بجاو ، بدون رقم ، و10 و.

(7) كيدال : مدينة شمال شرق تنبكتو ، وتقطن بها قبائل عربية عديدة أشهرها كنته ، وهي عاصمة الشمال في أزواد.

(8) أروان : وهي قرية مشهورة ، بينها وبين تنبكتو عشرة أيام ، واقعة في رمال ولا نبات فيها ، وليس بها شجر ولا زرع ولا نخل.ودورها مبنية من الطين فقط.ينظر : أحمد بن الأمين الشنقيطي ، المرجع السابق ، ص 458.

(9) المبروك : مدينة أسسها أفراد من قبيلة كنته وهي شمال جاو.ينظر : المختار بن حامد ، حياة موريتانيا الجغرافيا ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، ط 1994 ، ص 214.

(10) الحلة : وهي تعرف بحلة سيد المختار ، وهو المختار الكبير.والحلة هي كلمة مستعملة بالسودان على المكان الذي يقيم فيه الشيخ أو الأمير حيث يجير وينفق ويكسي مجموعة من الخيام.ينظر : محمد الخليفة ، الطرائف ، و7 ظ.

حالنا ويعذرنا في أول الأمر ، حتى ندخل على القانون ، ونتأدب بأدبه »[1]. ومن الذين استخدموا مصطلح البلاد السائبة الشيخ محمد بن المختار الكنتي ، الذي تحدث عن منطقته وعدّها من : « البلاد السائبة ، الخالية من سلطان ، أو أمير ، أو رئيس خيّر ، يدفع من ظلم الظلمة ، وجور الجورة ، وعدوان العادين »[2].

انتشار الإسلام بهذه المناطق :

انتشر الإسلام في شمال السودان الغربي ، وغيرها من مناطق الصحراء بعدة وسائل ، تمثلت : في حركات الفتح ، والتجارة ، ونشاط الدعاة . بالإضافة إلى الخدمات الجليلة التي قدمتها الزوايا ، لأجل إيصال المبادئ الإسلامية إلى سكان تلك البلاد .

دور الفاتحين :

إن الجهد العربي العسكري المكثف للقادة المسلمين الأوائل ، كعقبة بن نافع الفهري ، وغيره ، هو الذي أتاح لهم بلوغ صحراء ودان ، وفزان[3] ، إلى مدينة مدينة زويلة[4] (عاصمة فزان) في عام 22هـ/643م . ويشير صاحب الاستبصار ، أن عمرو بن العاص لما فتح : « برقة ، وجبل نفوسة ، بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وافتتحها » .[5] وهكذا صار ما بين برقة[6] وزويلة للمسلمين ، ودخل الإسلام الإسلام إلى حدود السودان الأوسط .

كما ارتبط اسم عقبة بمناطق الصحراء الغربية ، فقد وصل مع جنده إلى وادي درعة[7] (الحافات الشمالية للصحراء الغربية) ، وتبعه موسى بن نصير ، في

(1) مجهول ، تاريخ ولاته ، تحقيق رحال بوبريك ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ، مطبعة النجاح الجديدة الرباط ، ط الأولى 2002 ، ص 89.

(2) محمد الخليفة الكنتي ، الرسالة الغلاوية ، تحقيق حماه الله ولد السالم ، مطبعة كوثر الرباط ، ط الأولى 2003 ، ص 18.

(3) فزان : يسميها ابن مليح بلاد فزان ، وهي مرحلة هامة في طريق الحج.وتوصف بالحسن والجياد ، وأكثر لحومها الدجاج.ينظر : أبي عبد الله محمد بن مليح ، أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب ، تحقيق محمد الفاسي ، مطبعة محمد الخامس فاس المغرب ، ط 1970 ، ص 32.

(4) زويلة : وهي أكبر مدن فزان ، وهي تقرب من بلاد كانم ، وإليها يجلب الرقيق ، ومنها يخرج إلى بلاد إفريقية وغيرها من البلاد.ويوجد باب زويلة بالقاهرة وهو أكبر أبوابها.ينظر : ابن مليح ، المصدر السابق ، ص 35.

(5) مجهول ، كتاب الاستبصار ، ص 146

(6) برقة : وهي بالرومية الإغريقية بنطابلس وتعني خمس مدن ، وسكنتها لواتة وقد صالح عمرو بن العاص أهلها على ثلاثة عشر ألفا يؤدونها إليه جزية.ينظر : أبو عبيد البكري ، كتاب المسالك والممالك ، ج 2 ، ص ص 649 ـ 650.

(7) درعة : وتعرف درعة بواديها فإنه نهر كبير يجري من المشرق إلى المغرب ومنبعه من جبل درن ، وعليه عمارة متصلة نحو سبعة أيام وفيه أسواق كثيرة.ينظر : مجهول ، الاستبصار ، ص ص 206 ـ 207.

حملة إلى تلك الجهة[1] ، حيث قبائل صنهاجة الصحراء[2].

وتشير بعض الكتابات[3] ، أن فرقة صغيرة من جيش عقبة بن نافع ، وصلت وصلت إلى قرية ماشز[4]، ثم واستمرت في طريقها حتى مدينة كل السوق[5][6] ، السوق[5][6] ، وكان ذلك في عام 61 هـ/680م[7]. ومكثت هذه الفرقة ، مدة من الزمن الزمن بتلك النواحي . وكانت كل السوق ، تدين بالوثنية قبل الفتح ، وحمل أهلها لواء الإسلام ـ بعد ذلك ـ للمناطق المجاورة لها .

وحريّ بالقول إن الجهد العسكري المبكر للعرب المسلمين ، في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي ، فتح الطريق أمامهم للوصول إلى مناطق ببلاد السودان في القرون التالية . ومن الحملات الأولى التي قادها المسلمون إلى تلك النواحي ، الحملة التي أرسلها الوالي الأموي عبيد الله بن الحبحاب ، بقيادة حبيب بن عبد الله الفهري (حفيد عقبة بن نافع) وذلك عام 116هـ/ 734م ، فوصلت إلى الصحراء الغربية[8] ، وأداغست[9] . ومع أن هذه الحملة كانت استطلاعية ، إلاّ أنها أنها قادت المسلمين إلى مشارف نهر السنغال[10] .

(1) DE LA CHAPELLE (F), Esquisse d 'une histoire de Sahara occidental , Hesperis, année1913T Xp24

(2) إن بعض الدارسين يتحفظون على هذه الرواية الشائعة عن الحملات التي قام بها عقبة بن نافع في المغرب.ينظر :

PROVENÇAL (L), Un nouveau récit de la conquête de l' Afrique du nord par les arabe.Dans Arabica., T1.1954.pp.19-53.

(3) آمن بن بوغتو ، جوامع التواريخ ، مخطوط مكتبة دياكوزي بجاو ، رقمه 18 ، و8 و.

(4) ماشز : تقع إلى الغرب من مدينة كل السوق ، وقد أورد محمد المفتي أن العالم شعيب بن يوسف هو الذي أسسها ، فيكون عمرها ثمانمائة وأربعين سنة ويورد صاحب المخطوط أنه من أبناء القرن السادس

(5) كل السوق : تقع إلى الشرق من مدينة جاو ، وعرفت بأنها مدينة علم وصلاح ، كان بها عدد من العلماء ، العلماء ، منهم أبو عمر الداني ، تعرضت للتخريب زمن السلطان أسكيا داوود ، قبل مجيء الحملة المغربية.ينظر : الهادي المبروك الدالي ، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء ، ص ص 116 ـ 117

(6) كل السوق : تقع إلى الشرق من مدينة جاو ، وعرفت بأنها مدينة علم وصلاح ، كان بها عدد من العلماء ، منهم أبو عمر الداني ، تعرضت للتخريب زمن السلطان أسكيا داوود ، قبل مجيء الحملة المغربية.ينظر : الهادي المبروك الدالي ، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء ، ص ص 116 ـ 117.

(7) مجهول ، خبر السوق ، مخطوط خزانة بيت العود بأقبلي ، دون رقم ، و4 ظ.

(8) حماه الله ولد السالم ، « الإطار الفكري للحركة المرابطية » ، أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين ، من 15 إلى 17 أفريل 1996م ، جامعة نواكشوط ، قسم التاريخ ، 1999م ، ج2 ، ص 44.

(9) أداغست : وهي مدينة عظيمة آهلة وتوجد بين صحراء لمتونة وبلاد السودان.ينظر : مجهول ، الإستبصار ، ص ص 215 ـ 216.

(10) صباح الشيخلي ، « ملاحظات حول انتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقية جنوب الصحراء » ، مجلة أفاق الثقافة والتراث ، مجلة فصلية ثقافية تراثية تصدر عن قسم الدراسات والمجلة بمركز جمعة الماجد لثقافة والتراث ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، السنة العاشرة العدد 38 ، ربيع الآخرة 1423هـ ، يوليو2002م ، ص 20.

التجار ودوهم في نشر الإسلام :

وضع الإسلام أصولا أخلاقية لعملية التجارة ، كي تحافظ على الوشائج الأخوية التي تربط بين الناس . فقد أمر بالصدق ، والأمانة ، وعدم الغش في البيع . كما حثّ التجار على تخفيض الأسعار ، للتيسير على الناس ، بعد أن شجّع الجالب وحارب المحتكر . هذا بالإضافة إلى أنه أمر بحسن الكيل ، والميزان ، بعد تحريمه للتزييف ، وترويج البضاعة المغشوشة[1]. وكان على التاجر المسلم في بيعه ، وشرائه كله ، أن يذكر الله . ولذلك فالهدف العام من التجارة ، ليس تحقيق المصالح الشخصية فحسب ، وإنما إقامة المصالح الشرعية ، وبالتالي تحقيق المصالح العامة لمجموع المسلمين . وحصل بالسودان ، والصحراء ، نوع من « التوافق الغريب إلى درجة الاتحاد بين مهنة التجارة ، ومهنة الداعية إلى الله »[2].

وما يمكن ملاحظته أن التجار المسلمين وقوافلهم ، التي كانت تصل مناطق جنوب الصحراء ، كثيرا ما رافقها بعض الفقهاء ، والعلماء . وتلك القوافل بشكل عام ، كانت تحمل معها إلى جانب السلع التجارية ، أخبارا وأفكارا جديدة إلى السودان تتصل بواقع المسلمين ، وأحوالهم الاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية . بالإضافة إلى أن التجار كانوا بحاجة إلى توثيق الصلات التجارية باعتماد عملاء ، وممثلين لهم ، بين جماعات السكان[3] . ومنهم من تزوج بنساء سودانيات ، وهذا ما وطّد الأخوة الاجتماعية ، لعدم شعورهم بالطبقية ، والتعالي على الغير .

الزوايا مراكز لنشر الإسلام :

وبالنسبة للفترة موضوع البحث ، فإن الزاوية الكنتية والزاوية الفاضلية ، هي أهم المركز العلمية ، والدينية ، الأشهر بالمنطقة . حيث تزعم الأولى الشيخ المختار الكنتي ، بينما تزعم الثانية الشيخ محمد فاضل ، ونظرا لأهمية الزوايا من الناحية الدينية ، والتجارية ، فقد استمر تأسيسها على ربوع الصحراء الكبرى ، فصار طلاب العلم ، والرحلات ، ينتقلون من زاوية إلى أخرى طلبا للعلم ، إلى أن يبلغوا مكة المكرمة للحج والعلم معا[4]. وصار لفظ الزوايا علما على قبائل كثيرة ، لأن أغلب سيرتها في طلب العلم وتعليمه ، وتعمير الأرض ، وحفر الآبار ،

(1) عبد السميع المصري ، التجارة في الإسلام ، دار النهضة القاهرة ، ط 1976 ، ص ص 14ـ 25.
(2) TRIMINGHAM (J.S), the influence of Islam upon Africa, London, 1980 , p 39.
(3) دريد عبد القادر نوري ، المرجع السابق ، ص 129
(4) محمد الهيلة ، « الزاوية وأثرها في المجتمع » ، بحث منشور في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية تونس ، تونس ، عدد 40ـ 43 ، سنة 1975 ، ص 100.

وتسيير القوافل ، وقري الضيف . وكان للزوايا[1] الدور الرئيس في نشر الإسلام ، واللغة العربية ، في السودان ، وغيرها من المناطق المحيطة .

الكشف الجغرافي وبداية إخضاع السودان :

ازداد الاهتمام بهذه المناطق منذ سنة 1203 هـ/ 1788 م[2] ، بعد أن أسست بلندن مجموعة من الباحثين ، والتجار ، رابطة النهوض بكشف الأجزاء الداخلية من إفريقيا . وكان هدف هذه الرابطة في البداية ، وكما هو واضح من تسميتها تطوير الكشوفات الجغرافية إلى دواخل إفريقيا[3]، التي لم يكن أحد في أوروبا يعرف عنها شيئا ، باستثناء ما نقله عنها بعض الرحالة ، والعلماء ، وبعض الجغرافيين المسلمين ، من أمثال : ابن بطوطة ، الذي عبر الصحراء الكبرى في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وزار تنبكتو وأجزاء عديدة من السودان الغربي . وكذلك ما ذكره : البكري ، والإدريسي ، وابن حوقل وابن خلدون ، والحسن الوزان ، والسعدي . واستمرت هذه الرابطة ، في ممارسة عملها الخاص بجمع المعلومات . وبلغ التضليل والتدليس في جهودها إلى حد أنها جعلت من بين أهداف الاستكشاف الذي تنوي القيام به وتشجيعه ، مقاومة الرق ومحاربة التجارة في اللحم البشري في إفريقية نفسها . وهذه الفقرة من برنامجها ستضمن لها تأييد الكنيسة ومساندة الضمائر الحساسة ، التي لم تجعل في مخططها العام إلاّ الزاوية التي يروق لها أن تراها .

وفي هذه الفترة وقبل انقضاء القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ، تمكنت تلك الرابطة بلندن ، من الاتصال برجل عربي يدعى الحاج عبد السلام شعبيني[4] من سكان تطوان بالمغرب ، والذي كان يعيش يومها في تلك المدينة ، وهذا العربي زار تنبكتو ، وأحوازها ، مع والده عام 1202 هـ/ 1787 م ، وقدّم معلومات وافية عن تلك الزيارة للرابطة ، والتي كان من بينها : « أن تنبكتو ، هي من أغنى مدن السودان الغربي »[5]. بالإضافة إلى أن السكان يتعاملون

(1) حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ط الثانية 1963 ، ص 43.

(2) FOUREAU (F), mission chez les touareg, librairie maritime et colonial Paris., 1985.p.62

(3) إسماعيل العربي ، تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، ط 1986 ، ص 289.

(4) علي محمد عبد اللطيف ، تنبكتو أسطورة التاريخ ، دار الكتب الوطنية بنغازي ، ط الأولى 2001 ، ص ص 27ـ 28.

(5) محمد عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص 28.

بالذهب ، في كافة معاملاتهم التجارية . وتمكنت تلك الرابطة أيضا من الحصول على معلومات متتابعة عن وسط الصحراء الكبرى من رجل مغربي آخر يدعى ابن علي ، كان هو أيضا في لندن في تلك الفترة 1205 ـ 1208 هـ / 1790 ـ 1793 م ، وهي معلومات ضاعفت من اهتمام هذه الرابطة بمنطقة السودان ، وأدت إلى حثهم على مواصلة العمل بشكل أكبر بهدف اختراق الصحراء .

وفي السنة نفسها التي تشكلت فيها الجمعية الإفريقية في لندن ، ارتبطت بسائح اسمه ليديارد ، الذي سيقوم برحلة لحسابها ، ويخترق خلالها المجال الإفريقي ، غير أنه توفي قبل أن يبدأ ما سطّر له ، ضحية للحمى بمصر ، وذلك بعد أن أتم استعداداته للسفر . ويعتبر مونجو بارك الاسكتلندي ، أول من وصل إلى نهر النيجر في سنة 1211 هـ / 1796 م ، وعمره آنذاك لا يتجاوز 25 سنة . وكان هورنمان المتطوع التالي ، الذي ارتبطت معه الجمعية الإفريقية للقيام بعمليات استكشاف في الصحراء ، وبدأ رحلته في شهر سبتمبر 1213 هـ / 1798م[1] . ووصل إلى نهر النيجر ، بعدما استعان بالعديد من الأصدقاء ، وشبكة من العملاء .

وشكلت المناطق الممتدة من كيدال إلى تنبكتو الميدان الأساسي للفرنسيين للتوسع بعد فشل حملتهم على مصر ، لتكون أحد نقاط نفوذهم في الساحل الصحراوي[2]، وإفريقيا الغربية ، على اعتبار أن السياسة الفرنسية ، حكمتها لفترة طويلة نظرية (نقاط الارتكاز)[3] التي صاغها غيزو . وسلكوا لتحقيق أهدافهم ، مسلك التفريق بين القبائل الواقعة على حوض نهر النيجر ، والمناطق المتاخمة له ، وصولا إلى بحيرة تشاد .

ومنذ السنوات الأولى للقرن التاسع عشر بدأت تجارة القوافل في التدهور نتيجة لبدء اتضاح النوايا الاستعمارية الأوروبية في المنطقة ، وهو أمر تأكد فعلا بعد ذلك بسنوات بعدما وضع الفرنسيون أقدامهم على سواحل الجزائر ، مما أدى إلى تحول تجارة السودان باتجاه غدامس ، ومراكش[4] ، باعتبار أن الطرق المؤدية إليها أكثر أمنا . وضاعف من تزايد لجوء التجار إلى الطرق المذكورة ما فرضته فرنسا منذ الأيام الأولى لاحتلالها للجزائر من إجراءات جمركية مجحفة على طول الحدود الجنوبية للجزائر منذ سنة 1843 م ، الأمر الذي انعكس على تجارة القوافل عبر الطريق الذي كان يتجه نحو تلمسان وبقية الشمال الجزائري .

(1) إسماعيل العربي ، تاريخ الرحلة والاستكشاف ، ص ص 289ـ 292

(2) FOUREAU , Op.Cit.p.89

(3) YACONO (X), Histoire de la colonisation Française , 2 eme éd.Paris, 1988.p.354.

(4) علي محمد عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص 33.

وفي الفترة من سنة 1878 م إلى 1884 م ، أصيبت أوروبا بأزمة اقتصادية كبرى تركت أثرها الواضح على نشاط تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى ، وفي هذه الفترة أيضا ظهرت في طرابلس وبقية مدن الشمال الإفريقي أخبار بداية التحرك العسكري الفرنسي على نهر النيجر ونهر السنغال بهدف إخضاع تلك المناطق ، وعلى رأسها مدينة تنبكتو . وهو أمر أدى بالتجار إلى التحفظ عن الاستمرار في إرسال قوافلهم باتجاه السودان ، وأدى ذلك إلى تحويل تجارة المنطقة بكاملها باتجاه السواحل الغربية للقارة الإفريقية منذ تلك الفترة ليتم تصديرها بحرا إلى أوروبا .

وعلى الرغم من أن المستعمرين لم يحددوا بوضوح هدفهم الحقيقي ، إلا أن أنهم وفي نهاية القرن التاسع عشر وبعد تمكنهم من السيطرة على العديد من المواقع في منطقة غرب إفريقيا ، وتمكنهم من القضاء على أغلب جيوب المقاومة المحلية ظهرت غاياتهم من ذلك الزحف ، وأهمها الحصول على خامات تلك البلدان ، وإيجاد أسواق جديدة لتصريف منتجات أوروبا ، بالإضافة إلى فتح الطريق أمام الاستثمارات الغربية وشركاتها في تلك الأجزاء الهامة من إفريقيا .

مصادر البحث ومراجعه:

1ـ باللغة العربية:

1 ـ أبو حامد الأندلسي ، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، تحقيق إسماعيل العربي ، دار الجيل بيروت ودار الآفاق الجديدة المغرب ، ط الثانية 1993 .

2 ـ أبو عبد الله محمد بن مليح ، أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب ، تحقيق محمد الفاسي ، مطبعة محمد الخامس فاس المغرب ، ط 1970 .

3 ـ أبو عبيد البكري ، كتاب المسالك والممالك ، ج 2 ، ص ص : 649 ـ 650

4 ـ أحمد بابير الأرواني ، الجواهر الحسان في أخبار السودان ، مخطوط مكتبة الساحل بجاو ، بدون رقم ، و10 و.

5 ـ أحمد بن الأمين الشنقيطي ، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء ومؤسسة الخانجي بمصر ، ط الثانية 1958 .

6 ـ إسماعيل العربي ، تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، ط 1986 .

7 ـ آمن بن بوغتو ، جوامع التواريخ ، مخطوط مكتبة دياكوزي بجاو ، رقمه 18 ، و8 و.

8 ـ حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ط الثانية 1963 .

9 ـ الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي بيروت والشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط ، ط الثانية 1983 .

10 ـ حماه الله ولد السالم ، « الإطار الفكري للحركة المرابطية » ، أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين ، من 15 إلى 17 أفريل 1996م ، جامعة نواكشوط ، قسم التاريخ ، 1999م .

11 ـ دريد عبد القادر نوري ، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من القرن 4ـ10 هـ ، 10ـ 16 م ، المكتبة الوطنية بغداد ، ط 1985 .

12 ـ صباح الشيخلي ، « ملاحظات حول انتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقية جنوب الصحراء » ، مجلة أفاق الثقافة والتراث ، مجلة فصلية ثقافية تراثية تصدر عن قسم الدراسات والمجلة بمركز جمعة الماجد

لثقافة والتراث ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، السنة العاشرة العدد 38 ، ربيع الآخرة 1423هـ ، يوليو2002م .
13 ـ عبد السميع المصري ، التجارة في الإسلام ، دار النهضة القاهرة ، ط 1976 .
14 ـ عبد العزيز بن عبد الله ، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية ، معلمة المدن والقبائل ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب ، ط 1977 .
15 ـ علي محمد عبد اللطيف ، تنبكتو أسطورة التاريخ ، دار الكتب الوطنية بنغازي ، ط الأولى 2001 .
16 ـ مجهول ، تاريخ ولاته ، تحقيق رحال بوبريك ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ، مطبعة النجاح الجديدة الرباط ، ط الأولى 2002 .
17 ـ مجهول ، خبر السوق ، مخطوط خزانة بيت العود بأقبلي ، دون رقم ، و4 ظ
18 ـ مجهول ، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، دار النشر المغربية الدار البيضاء ، ط 1985 .
19 ـ محمد الخليفة الكنتي ، الرسالة الغلاوية ، تحقيق حماه الله ولد السالم ، مطبعة كوثر الرباط ، ط الأولى 2003 .
20 ـ محمد الخليفة ، الطرائف ، و7 ظ.
21 ـ محمد الهيلة ، « الزاوية وأثرها في المجتمع » ، بحث منشور في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية تونس ، عدد 40ـ 43 ، سنة 1975 .
22 ـ محمد بن عبد الله بن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، تحقيق محمد عبد الرحيم ، مؤسسة الكتب الثقافية ودار الفكر بيروت ، ط الأولى 2003 .
23 ـ المختار بن حامد ، حياة موريتانيا الجغرافيا ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، ط 1994 .
24 ـ الناني ولد الحسين ، صحراء الملثمين ، دار المدار الإسلامي بيروت ، ط 2007 .
25 ـ الهادي المبروك الدالي ، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما الصحراء ، مطابع الوحدة العربية الزاوية ليبيا ، ط الأولى 2000 .

2. باللغات الأجنبية:

1 __DE LA CHAPELLE (F), Esquisse d 'une histoire de Sahara occidental , Hesperis.,année1913T X
2 _FOUREAU (F), mission chez les touareg, librairie maritime et colonial Paris., 1985.
3 _PROVENÇAL (L), Un nouveau récit de la conquête de l' Afrique du nord par les arabe.Dans Arabica., T1.1954.
4 _TRIMINGHAM (J.S), the influence of Islam upon Africa.London., 1980.
5 _YACONO (X), Histoire de la colonisation Française , 2 eme éd.Paris., 1988.

تعامل معلمي المراحل الابتدائية مع أخطاء المتعلمين

أ . ميمون حدة *

1. الخلفية النظرية للمشكل

تواجه المدرسة اليوم تحديات التغير المستمر والسريع لعالم المعرفة والتكنولوجيا مما مما إظطرها الى تغيير مهامها وأهدافها ، لإمكانية خلق عقول مفكرة ، فانتقل دورها من مجرد تعلم الحقائق البسيطة واسترجاعها إلى تعلم القدرة على التعلم والتفكير، وإلى خلق أفراد يتعاملون مع ما يحيط بهم على أنها ظواهر متغيرة وليست حقائق ثابتة، وهذا لا يتأتى إلا باسترجاع المتعلم لدوره في عملية تعلمه، واعتباره مسئولا عن عملية تعلمه ومشاركته فيها بما يكسبه قدرة على التعلم(1).

فالمتعلم كان معزولا عن عملية تعلمه وعن القرار المتخذ فيها، فنتيجة التعلم هي الأهم، و الفشل فيه راجع إلى التلميذ وقدراته، ثم أصبح المتعلم في التربية الحديثة هو محور العملية التربوية، و تطوره هو الهدف الأول للعملية التعليمية التعلمية، وعملية التقويم تتجه أساسا إلى تعديل سيرورة تعلمه واتجاه تفكيره أكثر من نتيجته. ويكون ذلك بتحليل طريقة المتعلم في تعلمه، وهذا هو ميدان التقويم التكويني، ومن أهم استراتيجياته في تعديل عملية التعلم ، تحليل أخطاء المتعلمين والكشف عن منطقها، وتوفير الجو الدراسي الذي يحترم عقل المتعلم ويعترف بنبوغه وقدراته من جهة وبقصوره وأخطائه من جهة أخرى(2). وقد أكدت أبحاث رواد علم النفس المعرفي وخاصة Piaget(3) على الدور البنائي للخطأ في عملية التعلم،كما كشف الباحث Astolfi (4) أن عملية التعلم تعني

---

* كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة المسيلة .

(1) Favre, D. (1995) Conception de l'erreur et de la rupture épistémologique, Revue française de pédagogie, N° 11, Avril-Mai-Juin, p. 85.

(2) Favre, D. (1995) Conception de l'erreur et de la rupture épistémologique, Revue française de pédagogie, N° 11, Avril-Mai-Juin, p. 85.

(3) Favre, D. (1995) Conception de l'erreur et de la rupture épistémologique, Revue française de pédagogie, N° 11, Avril-Mai-Juin, p. 85.

(4) Astolfi J.P. (2004) L'erreur, un outil pour enseigner, Issy-les-Moulineaux, France, ESF Editeur, p. 15

تجاوزا تطوريا لمجموعة من الحواجز المعرفية وأن عملية تصحيح الخطأ تكون بالوعي المعرفي به وتعديل الأسلوب المعرفي الذي أدى إليه. الخطأ هو نتيجة إستيراتيجية تعلم وتفكير لها منطقها والتي يجب الكشف عنها عن طريق تحليل الخطأ وتفسيره وربطه بمسبباته لإيجاد مواطن الخلل واقتراح البدائل. وهناك عدة دراسات قاربت موضوع الخطأ في التعلم من عدة جوانب قريبة أو بعيدة. فدراسة Kulhavy (1) التي تناولت موضوع تصحيح أخطاء المتعلمين أو ما أسماه بالتغذية الراجعة التصحيحية وأكد أن هذه الأخيرة أكثر فعالية من التغذية الراجعة السلبية (أي تحديد الخطأ فقط دون تصحيحه)، و أنه عندما يحصل الخطأ يصبح الهدف ليس فقط حذف الإجابة الخاطئة ولكن إحلال الإجابة الصحيحة محلها. ودراسة Bloom (2)عن التغذية الراجعة المكتوبة التي لاحظ فيها أن 8.2 % فقط من عينة متكونة من 183 معلما يشخصون الخطأ ويوجهون التلاميذ في تصحيحه. كما أن دراسات(3) Cardinet تؤكد على اعتبار الخطأ مرحلة من مراحل حل المشكلة أو السؤال، فهي ليست نقطة ضعف أو عرضا مرضيا بل حادثا في طريقة التعلم، والخطأ ليس دائما دليلا على عدم الفهم أو عن إستراتيجية خاطئة، فجواب صحيح يمكن أن يخفي وراءه خطأ في التفكير(جواب احتمالي فقط) وإجابة خاطئة يمكن أن تنتج عن إستراتيجية ذكية أخفقت في الوصول إلى الهدف. كما أكدت دراسة أخرى(4)على تطبيق التقويم التكويني ودور عمليات التعديل التي محورها تحليل أخطاء وصعوبات التعلم. وفي إطار التجربة الكندية(5)صنفت الأخطاء النظامية وعرضت طرق تحليلها حسب أسبابها للكشف عن استراتيجيات التعلم وتعديلها.كل هذه الدراسات قد تناولت الخطأ داخل إطار التقويم التكويني، وأكدت جميعها على ضرورة التركيز على الدور البنائي للخطأ واستغلاله في تعديل استراتيجيات التعلم لدى المتعلمين و بالتالي تحسين مستوى أدائهم ورفع مستواهم المعرفي. والاستقصاءات والدراسات أكدت أن هناك صعوبات كثيرة

(1) Dyer, J.W. (1977 522) Yekovich, F.R Feedback and response confidence, Journal of Educational Psychology, 68(5), p.Kulhavy, R.W

(2) Bloom, R.B., Bourdon, L. (1980) Types of frequencies of teachers, written instructional feedback, the journal of educational research, 74(1), sept-oct, p. 5.

(3) Cardinet, J. (1988) Evaluation scolaire et mesure, p. 82

(4) Allal, L., Cardinet, J., Perrenoud, P. (1979) L évaluation formative dans un enseignement différenciée, actes de colloque à l'Université de Genève, mars 1978, Berne, Peter Lang, p. 130.

(5) Scallon, G. (1988) Evaluation formative des apprentissages : l'instrumentation, T.2, Québec, Canada, les presses Laval, p. 83.

يواجهها المعلمون والمتعلمون داخل المدارس الابتدائية الجزائرية سواء في اللغة أو الرياضيات [1].

بالإضافة إلى الأسباب السابقة الذكر فإن اعتقاد الباحثة بالدور البناء لتحليل الخطأ كعامل مساعد في عملية التعلم، وفي تعديل استراتيجيات التعلم، وبالتالي الكشف عن مواطن الخلل و اقتراح العلاج قصد تدارك الفشل وتحقيق النجاح، ولأن المعلم أحد الأطراف التربوية الأشد تأثيرا على المتعلم والأكثر تعاملا معه، ارتأينا القيام بهذه الدراسة التي تحاول الكشف عن أراء معلمي التعليم الابتدائي فيما يخص دور الخطأ في عملية التعلم وممارستهم له في ميدان عملهم، وهل طريقتهم في التعامل معه تقليدية (رفض للخطأ وإقصاء له) أم حديثة (تستغل الخطأ في تعديل مسار عملية التعلم).

2. تساؤلات البحث

بناء على الخلفية النظرية لمشكلة البحث التي حاولت فيها الباحثة استيفاء تطور الموضوع ومبررات دراسته، يمكن صياغة تساؤل البحث كما يلي: كيف يتعامل معلمو المدارس الابتدائية مع أخطاء المتعلمين؟ هل هو تعامل تقليدي أو تعامل حديث؟

3 . فرضيات البحث

اعتمدنا في هذا البحث على فرضيتين:

- أغلبية معلمي المدارس الابتدائية يتعاملون تعاملا تقليديا مع أخطاء المتعلمين.
- يتأثر تعامل المعلمين مع أخطاء المتعلمين بخبرتهم المهنية في ميدان التعليم.

4 . أهداف البحث

يهدف البحث الحالي إلى التعرف على نظرة المعلم إلى دور الخطأ في عملية التعلم وكيفية تعامله مع أخطاء المتعلمين وذلك بغية التعرف على النقائص التي يعاني منها المعلمون في تعاملهم هذا والتي قد تؤثر سلبا على عملية التعلم. كما أن للبحث أهدافا بعيدة المدى ومنها اقتراح استراتيجيات لتحليل الأخطاء في إطار بحوث أخرى تأخذ بعين الاعتبار أراء المعلمين في الموضوع، وكذلك اقتراح إدخال محاور هذا الموضوع في إطار تكوين المعلمين (الأولي وأثناء الخدمة).

---

(1) Scallon, G. (1988) Evaluation formative des apprentissages : l'instrumentation, T.2, Québec, Canada, les presses Laval, p. 83.

5 . أهمية البحث

تتجلى جدوى البحث من جدوى الموضوع نفسه، فالبحوث التي تناولت دور الخطأ في عملية التعلم قليلة وخاصة العربية منها، بالرغم من أهمية الخطأ في تعديل مسار التعلم للمتعلم ودوره الإيجابي و البنائي. كما أن مجرد تقديم مقياس حول التعامل مع الخطأ هو بمثابة تحسيس للمعلمين بأهمية هذه النقطة في عملية التقويم و التعلم.

6 . التحديد الإجرائي للمفاهيم الأساسية في البحث

التعامل التقليدي مع الخطأ: هو ما تقيسه عبارات المقياس – أداة البحث – والتي تحمل الترقيم الفردي و هي عادة ما تعبر عن رفض الخطأ وإقصائه واعتباره معيقا لعملية التعلم.

التعامل الحديث مع الخطأ: هو ما تقيسه عبارات المقياس – أداة البحث – والتي تحمل الترقيم الزوجي و هي عادة ما تعبر عن تقبل الخطأ واستغلاله في تعديل مسار عملية التعلم، ومحاولة تحليله للكشف عن أسبابه لتعديل استراتيجيات التعلم التي نتج عنها.

عامل الخبرة المهنية: عدد السنوات التي درس فيها المعلم وقد قسمت الخبرة في هذا البحث إلى ثلاث فئات:

- (0 ـ 5) سنوات
- (5 ـ 10) سنوات.
- فوق 10 سنوات

7 . الدراسات السابقة

1.7 . العلاقات بين درجات الثقة في الإجابة ووقت قراءة التغذية الراجعة[1]

أكد الباحثون في هذه الدراسة أن ثقة الفرد في إجابته تشكل عاملا محددا لدى اهتمامه بالتغذية الراجعة وهو أكثر أهمية من نوعية إجابته. وانطلقت مجموعة البحث من فرضيات مفادها أن الفرد الذي يجيب إجابة صحيحة مع ثقته في إجابته، يكون أقل اهتماما بقراءة التغذية الراجعة ولا يخصص لها إلا وقتا أدنى لقراءتها، وأنه في الإجابة حال الخاطئة يكون الانتباه الموجه للتغذية الراجعة يكون أكبر منه في حالة الإجابة الصحيحة. الانتباه الموجه للتغذية الراجعة يكون

(1)سهير أنور محفوظ علاقة التغذية الراجعة بالتقويم الذاتي، في: أنور الشرقاوي (1988) التعلم، نظريات و تطبيقات. مطبعة الأنجلو مصرية، القاهرة، ص. 25..5 .p

أكثر قوة عندما يعتقد المتعلم أنه أجاب إجابة صحيحة ففي هذه الحالة يكون أكثر وعيا بخطئه ولديه رغبة كبيرة في تصحيحه. فزيادة الوقت في قراءته للتغذية الراجعة يترجم بارتفاع احتمالية تصحيح الفرد لخطئه في اختبار تال. ولاختبار هذه الفرضيات قام الباحثون بإجراء دراسة على مجموعة من الطلبة الجامعيين الذين قسموا إلى مجموعتين، فبعد إجاباتهم على الأسئلة المتعددة الاختيارات، قام الباحثون بتقييم درجة ثقتهم في إجاباتهم حيث تلقت المجموعة الأولى تغذية راجعة، بينما انتقل أفراد المجموعة الثانية إلى السؤال التالي مباشرة.

إن نتائج البحث المحصل عليها تثبت صحة الفرضيات المطروحة، وهي أن أداءات التلاميذ الذين استفادوا من تغذية راجعة هي أعلى من أداءات المجموعة الضابطة، سواء في الاختبار التالي مباشرة أو في الاختبار التالي بعد فترة، وهذا لأن التغذية الراجعة تمد المتعلم بمعلومات عن تقدمه وطبيعة خطئه وطريقة تصحيحه. كما توصلت إلى أن اهتمام التلاميذ يكون أكبر لما تكون الإجابات الخاطئة مرفقة بمستوى عال من الثقة.

2.7 . علاقة التغذية الراجعة بالتقويم الذات [1]

انطلقت الباحثة من تساؤلات بحثية تمثلت إجمالا في: هل تؤثر التغذية الراجعة المتمثلة في إدراك الفرد لنتائج أدائه وفقا لمعيار معين لهذا الأداء على التقويم الذاتي، وهل يختلف أثر التغذية الراجعة باختلاف مقدار المعلومات التي تتضمنها التغذية الراجعة، وهل يختلف هذا الأثر باختلاف الجنس.

وقد تناولت الباحثة مفهوم التغذية الراجعة في شكلين: معلومات تفصيلية عن مستوى الأداء، و معلومات كلية عنه. وقامت بتوزيع العينة إلى مجموعتين، مجموعة ضابطة لا تعلم بنتائج أدائها مطلقا طوال فترة التجربة. ومجموعة تجريبية تعلم بنتائج أدائها عقب كل اختبار، وقد قسمت المجموعة التجريبية بدورها عشوائيا إلى مجموعتين تجريبيتين تختلفان في مقدار المعلومات التي يعلم بها أفرادها عن الأداء في اختبار الدراسة حيث:

يعلم أفراد المجموعة التجريبية الأولى بنتائج أدائهم بتسليم أوراق اختبارهم و متابعتهم ـ كل في ورقته ـ لمناقشة الباحثة في كل سؤال من أسئلة الاختبار والإجابة عن تساؤلات أفراد هذه المجموعة، وهي مجموعة التغذية الراجعة الكلية

(1) Bloom, R.B., Bourdon, L. (1980) Types of frequencies of teachers, written instructional feedback, p. 5.

في الاختبار (الدرجة الكلية للأداء على الاختبار) ويتم ذلك في موقف خاص كل مفحوص على حدى دون الدخول في تفاصيل عن نتائج الأداء. كانت نتائج هذا البحث متمثلة في: وجود فروق دالة إحصائيا بين متوسطات المجموعات الثلاث وذلك لصالح المجموعتين التجريبيتين ومعنى ذلك أن معلومات التغذية الراجعة سواء التفصيلية أو العامة كان لها أثرها على التقويم الذاتي، ولم توجد فروق بين الجنسين في هذا الأثر.

3.7. أنماط التغذية الراجعة المكتوبة و تكراراتها عند المدرسين

هذا البحث يؤيد النظرية التي مفادها أن التغذية الراجعة التصحيحية أكثر فعالية من التغذية الراجعة السلبية فقط، وأن كلتا

ـ الطريقتين تسهلان التحصيل الدراسي. شارك في الدراسة 183 معلما ابتدائيا من الجنوب الشرقي لولاية فرجينيا منهم 16

ـ معلما و167 معلمة تتراوح خبرتهم بين 4 سنوات و22 سنة، مؤهلاتهم بكالوريوس، ماجستير.

طلب من المشاركين أن يقوموا بتصحيح أوراق و إعطاء ملاحظات، ثم درس الباحثان الأوراق المصححة لتحديد الطرق التي استخدمها المعلمون في عملية التغذية الراجعة، وتوصل إلى تحديد الأصناف التالية:

ـ صحيح فقط: على الأجوبة الصحيحة دون إعطاء أية تغذية راجعة بنسبة 19.7%،

ـ خطأ فقط: مشيرة إلى الأجوبة الخاطئة دون إعطاء تغذية راجعة بنسبة 20.8%،

ـ صحيح/خطأ: أشير إلى كلتا الإجابتين الصحيحة و الخاطئة ولم تعط أية تغذية راجعة بنسبة 16.9% ،

ـ إعادة الورقة من جديد: حيث تمت الإشارة إلى الأجوبة الخاطئة وطلب من التلميذ إعادة كل العمليات التي لم يوفق فيها، و لم تقدم أية معلومات أو تغذية راجعة أخرى.بنسبة 16.4%،

تغذية راجعة تصحيحية: أشير إلى الأجوبة غير الصحيحة وأضيف على الورقة الأجوبة الصحيحة بنسبة 8.7%،

ـ مساعدة المعلم: أشير إلى الأجوبة الصحيحة أو غير الصحيحة أو كلتيهما وطلب المعلم من تلميذه أن يتصل به لتلقي المساعدة بنسبة 9.3%،

ـ تغذية راجعة مشخصة للأخطاء ومساعدة على تصحيحها: يشير إلى الأخطاء ويحللها ويطلب من التلميذ أن يعيد العمليات التي لم يوفق فيها بمساعدة

المعلم بنسبة 8.2%،

وتدل نتائج البحث على أنه استخدمت التغذية الراجعة التي لا تهتم بالتصحيح حوالي ثلاث مرات أكثر مما استخدمت التغذية الراجعة التصحيحية ويبدو أن جل المعلمين يصححون الأوراق فقط من أجل بيان ما هو صحيح وما هو خطأ وبدون اعتبار التغذية الراجعة نشاطا تعليميا.

4.7دراسة بعدين محددين للفعالية البيداغوجية للتغذية الراجعة [1]

أتت هذه الدراسة امتدادا لدراسة Kulhavy وتكملة لها بحيث اعتمدت هذه الدراسة على درس مبرمج على جهاز الإعلام الآلي، وأوقات قراءة الأسئلة والتغذية الراجعة تسجل بطريقة آلية بواسطة ساعة داخلية بدقة متناهية. وانطلقت الدراسة من فرضيات مفادها: أن المتعلم لما يتلقى تغذية راجعة بعد إجابة خاطئة فإن وقت قراءة التغذية الراجعة يتأثر بمستوى ثقة التلميذ في إجابته، فكلما كان هذا المستوى مرتفعا كلما خصص الفرد وقتا أكبر لقراءة التغذية الراجعة. خضع المتعلمون لبرنامج خاص عن طريق الإعلام الآلي ثم خضعوا لستة أسئلة(سؤالان مفتوحان وأربعة أسئلة متعددة الاختيارات) بعد قراءة السؤال يجيب التلميذ ثم تقاس درجة ثقته بالإجابة ثم يتلقى التغذية الراجعة التي تتضمن الإجابة الصحيحة مع تعليقات قبل الانتقال إلى السؤال التالي.تكونت عينة الدراسة من 38 طالبا في التعليم الجامعي في علم النفس التربوي. تمثلت نتائج الدراسة أساسا في:

ـ الطلاب يقرؤون التغذية الراجعة في وقت أطول عندما تكون الإجابة خاطئة، حيث أنه في هذه الحالة التغذية الراجعة تسمح بتصحيح الأخطاء و بالتالي تعميق معارف المتعلم (الوظيفة الإعلامية والتصحيحية للتغذية الراجعة)، على العكس عندما يجيب إجابة صحيحة فإنه ينتظر مجرد الإقرار بها (الوظيفة العاطفية للتغذية الراجعة).

ـ طلب التغذية الراجعة يكون أكبر بعد الوقوع في أخطاء.

5.7. الكشف عن الرصيد المعرفي لمعلم الرياضيات في تحليله لأخطاء المتعلمين[2]

(1)Tourneur, Y. (1986) Etude de deux paramètres déterminant l'efficacité pédagogique du feedback : la qualité de la réponse et la confiance du sujet dans sa réponse, Education et recherche, 8e année, N° 2, p. 7.

(2) Aihui, P., Zengru, L. (2009) A Framework for examining mathematics teacher knowledge as used in error analyses, For the learning of mathematics, 29(3), p. 22.

تنطلق هذه الدراسة من فكرة أن تحليل الخطأ نشاط رئيسي ومهم لمعلم الرياضيات، لكن في الأدب التربوي الحالي هناك فقر في المعلومات حول هذه المعلومات اللازمة للمعلم في عملية تحليل الأخطاء. في الدراسة الحالية، قامت مجموعة البحث باقتراح إطار لوصف و تقييم الرصيد المعرفي لمعلم الرياضيات في تحليله لأخطاء المتعلمين ومحاولة تبويبها في فئات معارف المعلم في ميدان تحليل الأخطاء) الأبعاد الرئيسية الناتجة في هذا الإطار المقترح هي: طبيعة الخطأ في الرياضيات، والجمل المستخدمة في تحليل هذه الأخطاء، والفئات المعرفية تنقسم إلى ثمان فئات ، أربعة منها تدخل تحت البعد الأول، والأربعة الأخرى للبعد الثاني، بالإضافة إلى وصف لبعض الأمثلة عن كل فئة. والنتائج موضحة كالتالي:

جدول رقم 1: الفئات المعرفية اللازمة للمعلم لتحليل أخطاء المتعلم

البعد	الفئة التحليلية	وصف الفئة
طبيعة الأخطاء في الرياضيات	رياضية	تناقض المفاهيم
	منطقية	حجج خاطئة
	استرا تجية	عدم القدرة على التفريق بين أنواع الأخطاء
	نفسية	اضطرابات ذهنية،الخ
الجمل المستخدمة في تحليل أخطاء المتعلمين	التعرف على الخطأ	معرفة وجود الخطأ الرياضي
	تفسير الخطأ	تفسير أسباب الخطأ
	تقييم الخطأ	تقييم مستويات الأداء للمتعلمين
	علاج الخطأ	عرض الاستيراتيجيات التدريسية

6.7. معالجة وتصحيح أخطاء المتعلمين من طرف بعض أساتذة التعليم العالي في مساق الدوال العكسية[1]

تهدف هذه الدراسة للكشف عن الطريقة التي يتعامل بها أساتذة التعليم العالي مع معالجة أخطاء المتعلمين في محور في الرياضيات وهو الدوال. وتركزت الدراسة حول تعليقات الأساتذة المكتوبة حين يقومون بتصحيح الأخطاء.

(1) Lopez, S.M. (2008) Etude d'une pratique face à un obstacle didactique : la correction en mathématique dans le cas de la fonction réciproque, Thèse de Doctorat en didactique des mathématiques, Université de Toulouse, 651 p.

وتمحورت تساؤلات البحث حول النقاط التالية:

ـ كيف تؤثر تصورات الأساتذة حول المساق المدرس على تعليقاتهم لما يقومون بتصحيح أخطاء المتعلمين؟

ـ ما هو دور هذه التعليقات لتعلم المتعلمين و كيف يستثمر الأساتذة هذه التعليقات؟

وللإجابة على هذه الأسئلة قامت الباحثة بتوزيع استمارة استبيان على مجموعة متكونة من 101 من أساتذة التعليم العالي في منطقة Toulouse بفرنسا وذلك عن طريق الانترنت كما قامت بملاحظة البعض الآخر في حصص التصحيح. ومن ضمن النتائج المتعددة التي توصل إليها البحث الحالي: فروق في مرافقة الأستاذ للمتعلم في عملية التصحيح حسب تصوره لدرجة صعوبة التمرين وحسب مستوى التلاميذ، فهو يستخدم تقنيات ضعيفة لما يعتقد أن التمرين سهل وأن التوضيحات أثناء التصحيح غير ضرورية، ويستخدم تقنيات أخرى قوية لما يرى أن إيجاد الحل ليس سهلا لكن المتعلم بإمكانه فهم تعليقاته وتوضيحاته.

8 . الإجراءات الميدانية للبحث

1.8 . عينة البحث

تم اختيار عينة عشوائية من معلمي المدارس الابتدائية بولاية برج بو عريريج التي أبدت تعاونا مع الباحثة، وقد بلغ عددهم 161 معلما يتوزعون حسب عامل الخبرة كما يلي: 40 معلما لهم خبرة أقل من 5 سنوات، 48 معلما لهم خبرة من 5 سنوات إلى 10 سنوات، 73 معلما لهم خبرة أكبر من 10 سنوات.

Lopez, S.M. (2008) Etude d'une pratique face à un obstacle didactique : la correction en mathématique dans le cas de la fonction réciproque, Thèse de Doctorat en didactique des mathématiques, Université de Toulouse, 651 p. 2.8

أداة البحث

إن أداة الدراسة الحالية هي عبارة عن مقياس ذي خمس اختيارات (على نمط ليكرت Likert scale) فهو عبارة عن مجموعة من العبارات التي تدور حول موضوع البحث وخصص لجميع هذه العبارات سلم موحد الإجابة بحيث أن لكل عبارة خمس اختيارات يطلب من المستجوب أن يختار إجابة واحدة من خمس إجابات وهي: دائما، غالبا، أحيانا، نادرا، أبدا.وتعطى هذه الاستجابات الدرجات 5، 4، 3، 2، 1 إذا كانت العبارات عن التعامل الحديث مع الخطأ و العبارات التي تقيس هذا النوع من التعامل تحمل الترقيم الزوجي في المقياس. وتعطى هذه الاستجابات عكس الدرجات السابقة أي 1، 2، 3، 4، 5 إذا كانت تعبر عن التعامل

التقليدي مع الخطأ و العبارات التي تقيس هذا النوع من التعامل هـي العبـارات ذات الترقيم الفردي في المقياس.

ـ اعتمدت الباحثة في بناء أداة البحث علـى معطيـات الدراسـة النظريـة في موضوع البحث، بالإضافة إلى الدراسة الاستطلاعية حيث أجريت عدة مقابلات مـع معلمي المدارس الابتدائية ووجهت لهـم أسـئلة فيمـا يخـص عمليـة التقـويم عامـة وعملية التعامل مع الخطأ خاصة. عند بناء المقياس كان يحـوي 50 عبـارة منهـا 25 عبارة تقيس التعامل التقليدي مـع الخطـأ و25 عبـارة تقـيس التعامـل الحـديث مـع الخطأ ثم خضع هذا المقياس لفحص الصدق والثبات.

قيس الصدق بثلاث طرق مختلفة: صدق المحكمين لفحص مـدى صـلاحية العبارات في اختبار الفرضيات، ثم قيس صدق المحتوى عن طريق تطبيق المقيـاس على 76 معلما ومعلمة من المدارس الابتدائية اختيروا بطريقة عشوائية ، وقيس هـذا الصدق عن طريق معامل الارتباط بين الدرجة كل فقرة و بين الدرجـة الكليـة علـى المقياس ككـل وقـد تم حـذف العبـارات الـتي لا تتمتـع بصـدق محتـوى(الاتسـاق الداخلي). استكملت عمليـة فحـص الصـدق بحسـاب الصـدق التمييـزي باسـتعمال اختبار « T » للفروق وبالتالي حذفت العبارات الـتي لا تتمتـع بصـدق تمييـزي. ثـم قـيس الثبـات علـى نفـس العينـة وحسـب معامـل α كرومبـاخ فبلـغ 0.62. أصـبح المقياس في صيغته النهائية بعد استبعاد كل العبارات التي لا تتمتع بصـدق محتـوى و صدق تمييزي، يحوي 19 عبـارة منهـا 10 عبـارات تقـيس التعامـل التقليـدي مـع الخطأ و 9 عبارات تقيس التعامل الحديث مع الخطأ.

9 . الطرق الإحصائية المستخدمة

الطرق الإحصائية المستخدمة هي:

ـ المتوسطات الحسابية و الانحرافات المعيارية للدرجات،

ـ اختبار T للفروق،

ـ تحليل التباين المتعدد ،

ـ واختبار χ^2 لمعرفة الأغلبية والأقلية حسب البنـود يعـني اسـتجابات أفـراد العينة على كل بند على حدى (هل كانت تقليدية أم حديثة).

10. عرض ومناقشة النتائج

تم التوصـل إلى جملـة مـن النتـائج في ضـوء مشـكلة البحـث و أهدافـه و فروضــه مــع تفســير لتلــك النتــائج في ضــوء الإطــار النظــري و الدراســات

السابقة.ولفحص فرضيتي البحث رصدت كل استجابات العينة و بوبت في جداول ثم حللت البيانات إحصائيا كل فرضية على حدى مع تحليل إضافي لكل عبارة على حدى.

1.10. اختبار الفرضيات

الفرضية الأولى:

أغلبية أفراد العينة يتعاملون تعاملا تقليديا مع أخطاء المتعلمين. لاختبار هده الفرضية اعتمدنا على اختبار « T » لمعرفة دلالة الفروق بين استجابات أفراد العينة لكل نوع من نوعي التعامل (تقليدي أو حديث) (1)

جدول رقم 2: دلالة الفروق بين استجابات أفرد العينة لعبارات التعامل الحديث مع الخطأ.

	قيمة المتوسط = 27			
	قيمة (T)	درجة الحرية	الدلالة ذات الحدين	متوسط الفروق
التعامل الحديث مع الخطأ	0.255	160	0.799	8.075

بلغت قيمة « T » 0.25 وهي غير دالة يعني أنه لا يمكن القول أنه هناك تعاملا حديثا مع الخطأ.

جدول رقم 3: دلالة الفروق بين استجابات أفراد العينة لعبارات التعامل التقليدي مع الخطأ.

	قيمة المتوسط = 30			
	قيمة (T)	درجة الحرية	الدلالة ذات الحدين	متوسط الفروق
التعامل التقليدي مع الخطأ	-.46148	160	.0000	-.72059

بلغت قيمة « T » - 48.461 وهي دالة عند α « 0.01. بمعنى آخر يمكن القول أن أغلبية المعلمين من المجتمع الإحصائي المقصود جاءت نتائجهم تحت المعدل (30) أي أن نتائجهم على العموم كانت بواحد (1) أو اثنان(2) في درجات المقياس أي أنهم كانوا يجيبون (دائما أو غالبا) على البنود الفردية الخاصة بالتعامل التقليدي.

(1)مقدم عبد الحفيظ (1993) الإحصاء والقياس النفسي و التربوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص.109.

جدول رقم 4: الفرق في استجابات أفراد العينة على بنود التعامل التقليدي وبنود التعامل الحديث مع الخطأ.

	ن (عدد أفراد العينة)	الأدنى	الأقصى	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري
التعامل الحديث	161	19	36	27.0807	4.0202
التعامل التقليدي	161	13	27	20.2795	2.5451

مما سبق ينتج تحقق الفرضية الأولى وهو أن أغلبية أفراد العينة يتعاملون تعاملا تقليديا مع أخطاء المتعلمين.

تحليل إضافي لكل بند على حدى

وقد دعم التحليل الأولي بتحليل إضافي، لكل عبارة من عبارات المقياس، بحيث حاولت الباحثة معرفة الأغلبية والأقلية حسب البنود أي أن كل بند هل الأغلبية أجابت عليه بتعامل تقليدي أم حديث. و لمعرفة ذلك تمت إعادة ترميز البنود الزوجية و الفردية كالتالي:

1 ـ 2= 1(1 ـ 2 أي دائما و غالبا يرمز لها بالرمز 1)

3 ـ 4 ـ 5=2 (3 ـ 4 ـ 5 أي أحيانا، نادرا، أبدا يرمز لها بالرمز 2)

وقمنا بحساب التكرارات الملاحظة والمتوقعة لكل بند ثم استخدمت الباحثة التقنية الإحصائية χ^2 على البنود الفردية كما يلي:

جدول رقم 5: دلالة الفروق بين استجابات أفراد العينة على البنود الفردية (تحليل إضافي).

	بند1	بند3	بند5	بند7	بند9	بند11	بند13	بند15	بند17	بند19
	119.719	97.200	81.815	110.508	86.735	93.241	73.283	111.075	112.133	146.027
درجة الحرية	1	1	1	1	1	1	1	1	1	1
الدلالة	0.000	0.000	0.000	0.000	0.000	0.000	0.000	0.000	0.000	0.000

وكما هو موضح في الجدول 5 فإن كل الفروق دالة فيما يخص البنود الفردية والتكرارات جاءت دائما لصالح (1) أي أن الأغلبية كانت تجيب إما دائما أو غالبا، وهذا يؤكد ويدعم تحقق الفرضية الأولى. نفس الشيء بالنسبة للبنود الزوجية تمت إعادة الترميز بنفس الطريقة ثم طبق اختبار χ^2 لمعرفة دلالة الفروق

كما هو موضح في الجدول 6 أدناه.

جدول رقم 6: دلالة الفروق بين استجابات أفراد العينة على البنود

	بند2	بند4	بند6	بند8	بند10	بند12	بند14	بند16	بند18
	2.139	0.653	15.042	0.495	1.000	1.943	0.089	1.358	0.640
درجة الحرية	1	1	1	1	1	1	1	1	1
الدلالة	0.144	0.419	0.000	0.482	0.317	0.163	0.765	0.244	0.424

فبالنسبة للبنود الزوجية لم تكن هناك فروق واضحة بين تكرارات 1 و2 ما عدا البند (6) والدي اختارت الأغلبية من الأفراد (2) أي دائما أو غالبا و بالتالي تحققت الفرضية الأولى بحيث لا يمكن القول أن التعامل حديث مع الخطأ بل هو تقليدي وذلك بتحليل كل بند على حدى. إن الفرضية الأولى قد تحققت عند استعمال اختبار « T » لمعرفة دلالة الفروق بين استجابات أفراد العينة لكل نوع من أنواع التعامل (تقليدي أو حديث) ووجدت الفروق دالة بين التعامل التقليدي و التعامل الحديث لصالح التعامل التقليدي، كما أكد التحليل الإضافي لكل بند على حدى أن الفروق غير دالة في كل البنود الزوجية ما عدا البند (6) ودالة في البنود الفردية.

الفرضية الثانية:

يتأثر تعامل أفراد العينة مع أخطاء المتعلمين بخبرتهم المهنية في ميدان التعليم. لاختبار هده الفرضية اعتمدت الباحثة على اختبار تحليل التباين المتعدد لمعرفة دلالة الفروق بين فئات الخبرة في نوعية التعامل مع الخطأ تقليدي أو حديث. والجداول الآتية توضح ذلك.

جدول رقم 7: مقارنة أولى بين فئات الخبرة عن طريق المتوسطات الحسابية.

التعامل	الخبرة	المتوسط الحسابي	الانحراف المعياري	عدد أفراد العينة
تقليدي	من 0 ـ 5 سنوات	19.6250	2.1206	40
	من 5 ـ 10 سنوات	21.2917	2.6090	48
	فوق 10 سنوات	19.9726	2.5494	73
	المجموع	20.2795	2.5451	161
حديث	من 0 ـ 5 سنوات	25.0250	3.4972	40
	من 5 ـ 10 سنوات	26.3958	3.7854	48
	فوق 10 سنوات	28.6575	3.8414	73
	المجموع	27.0807	4.0202	161

يلاحظ من خلال الجدول رقم 7 أنه كلما زادت الخبرة كلما قل نوعا ما

التعامل التقليدي مع أخطاء المتعلمين، كذلك بالنسبة للتعامل الحديث الذي يلاحظ أنه يزداد بوضوح مع زيادة الخبرة وذلك بارتفاع المتوسط الحسابي باستمرار. يمكن القول أن الخبرة تزيد في اتجاه المعلمين نحو التعامل مع أخطاء المتعلمين بشكل أكثر حداثة.

هذه المقارنة الأولى تبين تحقق الفرضية الثانية أي أن التعامل مع الخطأ يتأثر بمدى خبرة المعلمين التعليمية. ولجعل المقارنة أكثر عمقا، حللت البيانات إحصائيا باستخدام أسلوب تحليل التباين المتعدد حسب الجدول 8 أدناه.

جدول رقم 8: دلالة الفروق بين فئات الخبرة عن طريق القيمة الفائية (F).

مصدر التباين	المتغير التابع	مجموع المربعات	درجة الحرية	متوسط مجموع	F	الدلالة
الخبرة	تعامل تقليدي	73.185	2	36.593	6.002	دالة
	تعامل حديث	373.058	2	186.529	13.318	دالة
التعامل مع الخطأ	تعامل تقليدي	963.237	158	6.096		
	تعامل حديث	2212.893	158	14.006		
المجموع	تعامل تقليدي	67249.00	161			
	تعامل حديث	120658.00	161			

من نتائج الجدول رقم 8 والقيمة الفائية لتباين فئات الخبرة التعليمية، يمكن القول ان هناك فروقا ذات دلالة إحصائية بين فئات الخبرة وذلك في نوعية التعامل مع الخطا. **بالنسبة للتعامل** التقليدي، كلما نقصت الخبرة كان التعامل تقليديا

(قيمة F = 6.002 وهي دالة عند α = 0.01)، كذلك بالنسبة للتعامل الحديث مع الخطأ فالفروق دالة و ذلك حسب الخبرة (قيمة F = 13.31 وهي دالة عند α = 0.01)

فالمقارنة عن طريق القيمة الفائية تؤكد أيضا تحقق الفرضية الثانية أي كلما زادت الخبرة كلما كان التعامل أكثر حداثة.

خلاصة

من خلال التحليل الإحصائي لنتائج البحث تبين تحقق الفرضيتين الأولى والثانية. ونتائج هذا البحث اتفقت مع دراسة لـ Bloom التي حاولت تحديد طرق التغذية الراجعة المكتوبة التي يستخدمها المدرسون، وكانت نتيجتها أن المعلمين التغذية الراجعة التي لا تهتم بالتصحيح ثلاث مرات أكثر من استخدامهم للتغذية الراجعة التصحيحية. ويبدو أن جل المعلمين يصححون الأوراق فقط من أجل بيان ما هو صحيح وما هو خطأ دون اعتبار التغذية الراجعة نشاطا تعليميا ودون تشخيص الأخطاء وتصحيحها وربما يرجع هذا إلى جهلهم بهذه الطرق وعدم الوعي بها نظرا لنقص التكوين البيداغوجي والنفسي لمعلمي المرحلة الابتدائية في

مجال التقويم التكويني والتعامل مع أخطاء المتعلمين، بالإضافة إلى حجم المنهج الدراسي الذي لا يسمح بتخصيص وقت لتصحيح الأخطاء وتحليلها، ويمكن أن تفسر هاته النتيجة أيضا بنظرة المعلم والمجتمع ككل للخطأ عند الفرد متعلما كان أم لا، فهناك نظرة أخلاقية للخطأ سائدة ومستدخلة من طرف أفراد المجتمع، فالخطأ غير مسموح به، يدعو إلى الخجل ويوحي بأن الفرد دون المستوى المطلوب.

قائمة المراجع

[1] عبد الطيف الفاربي، عبد العزيز الغرضاف، آيت موحى (1991) بيداغوجيا التقييم و الدعم. مطبعة النجاح الجديدة، دار الخطابي للطباعة و النشر، الدار البيضاء، المغرب.

[2] سهير أنور محفوظ علاقة التغذية الراجعة بالتقويم الذاتي، في: أنور الشرقاوي (1988) التعلم، نظريات و تطبيقات. مطبعة الأنجلو مصرية، القاهرة.

[3] مقدم عبد الحفيظ(1993) الإحصاء والقياس النفسي و التربوي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

[4] Favre, D. (1995) Conception de l'erreur et de la rupture épistémologique, Revue française de pédagogie, N° 11, Avril ـ Mai ـ Juin, p. 8594 ـ.

[5] Cardinet, J. (1988) Evaluation scolaire et mesure, T.1, Bruxelles, De Boeck Université.

[6] Astolfi J.P. (2004) L'erreur, un outil pour enseigner, Issy ـ les ـ Moulineaux, France, ESF Editeur.

[7] Kulhavy, R.W., Yekovich, F.R., Dyer, J.W. (1977) Feedback and response confidence, Journal of Educational Psychology, 68(5), p. 522528 ـ.

[8] Bloom, R.B., Bourdon, L. (1980) Types of frequencies of teachers, written instructional feedback, the journal of educational research, 74(1), sept ـ oct, p. 513 ـ.

[9] Allal, L., Cardinet, J., Perrenoud, P. (1979) L évaluation formative dans un enseignement différenciée, actes de collogue à l'Université de Genève, mars 1978, Berne, Peter lang.

[10] Scallon, G. (1988) Evaluation formative des apprentissages : la réflexion, T.1, Québec, Canada, les presses l'AVAC.

[11] Tourneur, Y. (1986) Etude de deux paramètres déterminant l'efficacité pédagogique du feedback : la qualité de la réponse et la confiance du sujet dans sa réponse, Education et recherche, 8e année, N° 2, p. 725 ـ.

[12] Aihui, P., Zengru, L. (2009) A Framework for examining mathamatics teacher knowledge as used in error analyses, For the learning of mathematics, 29(3), p. 2225 ـ.

[13] Lopez, S.M. (2008) Etude d'une pratique face à un obstacle didactique : la correction en mathématique dans le cas de la fonction réciproque, Thèse de Doctorat endidactique des mathématique,

الحرية والديمقراطية في ضوء مطارحات كارل بوبر

أ. خوني ضيف الله*

من الموضوعات السوسيوسياسية (socio politique) التي طرحت عبر الزمن هو كيفية تجسيد مفهوم الديمقراطية في الواقع. هل هي عملية سياسية بحتة أم ترتبط بالأخلاق؟ هل هي لغة الخشب أم اجتماعية ؟ هل تقتصر على الطبقة السياسية أو كما يسمى بالنخبة السياسية أو تمتد إلى الشعب لأنها أصلا وجدت من أجل أن تحميه وتحقق أمنه وسلامته؟ ومن أجل ذلك يفترض أن تكون الحرية أحد هذه الأسس القوية التي تنبني عليها الديمقراطية. وبصيغ أخرى هل أن الدولة الديمقراطية هي الوجه الأخر للدولة الحرة بحيث يكون المصطلحان صفتين لمؤسسة واحدة؟ هل أن الديمقراطية والحرية وجهان لعملة واحدة ؟ أو ما العلاقة بين الديمقراطية والحرية ؟ هل هي علاقة شرط بمشروط ؟ هل هي علاقة مفهومية ، أم إجرائية ، أم الاثنان معا ؟ والأهم من كل ذلك ، هل لمجرد استفاء شرط الحرية تتحقق الدولة المنشودة أو العادلة ؟ ألا تختفي وراء هذا المفهوم مفارقات تقلب الأمر رأسا على عقب؟ والإجابة عن هذه التساؤلات يتطلب منا إلقاء ضوء جديد على الديمقراطية ، لكي تتضح المطارحات المختلفة حول هذه القضية.

سأقتصر في عملي هذا على الفلسفة السياسة في القرن العشرين الذي ميزته ظروف سيئة مر بها العالم بأكمله وأوربا خاصة ، منها الحربان العالميتان اللتان خلفتا مآس وأحزان ، وصعود الأنظمة الشمولية الكلانية التي غيبت الظاهرة السياسية ، بالإضافة إلى ذلك انتشار ظاهرة الاستعمار خاصة للمجتمعات العربية. ومن الفلاسفة الذين شهد لهم الوجود في هذه الفترة الفيلسوف النمساوي « كارل ريموند بوبر « Karl R Popper 1902/1994 ». الذي ذاع صيت فلسفته الابستمولوجية (القابلية للتكذيب بدلا من التحقق في الاستقراء) ، إلا أن هذا لم يمنع من أن يعمل بجدية في الفلسفة السياسية وخاصة مجادلاته في موضوع الديمقراطية. ألقى محاضرات في هذا الاتجاه وألف كتبا من أهمها « المجتمع المفتوح وأعدائه ».

ففي محاضرته ألقاها في 25 أغسطس العام 1958 ونشرت لأول مرة في العام 1967 ، قال فيها: (تكون الدولة حرة من الناحية السياسية إذا كانت مؤسساتها

* كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية ، جامعة أكلي محند أولحاج ، بالبويرة.

السياسية تمكن مواطنيها من الناحية العملية من تغيير حكومة قائمة دون سفك دماء ، متى ما كانت الأغلبية راغبة في ذلك [1] . وفي محاضرة ثانية تكلم عن الدولة الديمقراطية ، موضحا أن الديمقراطية متجسدة في القدرة على إقالة الحكومة دون إراقة الدماء ، قبل أن تتولى حكومة أخرى زمام الحكم [2] .

وقال أيضا في محاضرة ألقاها عام 1987 أن المبدأ الأخلاقي للديمقراطية هو (شكل الدولة الذي يسمح بإقالة حكومة من دون إراقة للدماء) [3] .

في هذه الأقوال الثلاثة يتجسد التلاقي الضروري بين وجودي الديمقراطية والحرية ، فلا وجود لأحدهما دون الآخر ، والحرية هنا تعني قدرة المجتمع على فصل أي حاكم متى رأى ذلك مناسبا أي مهددا للحرية ، مشترطا في ذلك عدم اللجوء إلى العنف الذي لا ينفك أن ينتهي بإراقة الدماء ، والتاريخ يشهد عن ذلك في جميع الأحيان. وبسبب ذلك عدل عن موقفه في الانخراط في الحزب الاشتراكي وكانت أحداث 1919المشهورة عاملا حاسما في ذلك لاستخدام القوات البوليسية الرصاص مقابل إخماد مظاهرة سلمية قام بها شباب.

ومن المفكرين العرب الذين أشادوا بهذا الشرط نذكر على سبيل المثال الباحث « عادل ضاهر » ، في دراسة منشورة في أغسطس من العام 2006 يطرح خمسة شروط للديمقراطية ، إذ قال في أحداها: (ينبغي إعطاء كل مواطن الحق في ممارسة الحرية على أوسع نطاق يسمح به إعطاء حرية مماثلة للجميع) [4] .

إذن تكون العلاقة بين للديمقراطية والحرية كعلاقة العلة بالمعلول. ويكفي أن تتحقق جملة من العوامل الأولية المحققة للحرية حتى يكون وجودها عاملا مساعدا على قيام الديمقراطية. إن الديمقراطية بوصفها صيرورة مجتمعية ثقافية وسياسية في المجتمعات المعاصرة ، ناتجة على المناقشة النقدية حول مختلف المشاكل التي تعترض الحاكم أثناء أداء مهمته. ويذهب « بوبر » لأن يقر بمصارحة الحاكم وبمناقشته (المناقشة النقدية) كمعيار للديمقراطية. وهنا يفصل بين مجتمعات تقر هذه المناقشة والمسؤولية الفردية فيسميها المجتمعات المفتوحة والأخرى على النقيض يسميها مجتمعات مغلقة. لن تتحقق المجتمعات المفتوحة أو الديمقراطية دون هذه الشرط الجوهري المتمثل في الحرية.

إن الإنسان والعقلانية عند « بوبر » مرتبطان بمفهوم الفردانية للحياة الاجتماعية ، وهذا لا يدفع إلى الشك أبدا ويعود ذلك بوضوح إلى التعريفات التي تزودنا بها كل من « المجتمع المغلق والمجتمع المفتوح ». من اللافت للنظر أنه يقدم الثانية كمجتمعات من خلالها يكون الأفراد قادرين على اتخاذ القرارات ،

بينما الأولى يلومها على كونها مجتمعات تقليدية ويصفها بالطائفية الموحدة والعضوية. لا ينكر عن المجتمعات المغلقة القدرة على المعالجة الصحيحة لبعض مشاكل الحياة الاجتماعية ، وإنما يلاحظ عليها فقط أنها من طبيعة مجتمعية ، بمعنى أن الفرد يكون فيها بشكل كلي تابع لما هو جمعي ، وهو في هذه الحالة محروم من أي قدرة ينفرد بها ومختزل إلى نوع من الوجود البيولوجي. وبنفس الشكل ، إذا كان « بوبر » يتظاهر باليقظة حيال المذاهب الجماعية الحديثة من أن تسلك الشكل المفرط للشمولية والقومية والعنصرية ، أو أن تضفي على شكلها السرية التامة والرتابة من نمط ديني أو مدرسة فكرية وحتى من نمط عائلي فإنه يعتبرها كعودة للعشائرية مرة أخرى أو صورا جديدة للتنازل عن المسؤولية الفردية.

يتصف مصطلح الديمقراطية بسيولة مفهومية هائلة ، ناجمة عن التطورات التي طرأت وتطرأ على محمولات المصطلح ، الفكرية والإجرائية منذ أن طرح لأول مرة في أثينا قبل أكثر من 2500 عام وعن المكونات الاجتماعية المتباينة وعن طبيعتها منها مثلا المقسمة لغويا ، دينيا أو اثنيا ، أين لا توجد الحاجة فيها إلى الرجوع إلى مبدأ الأغلبية مثال بعض دول أوربا الشرقية. وهي سيولة تكشف عن نفسها في أحيان كثيرة في اضطرارنا إلى إضافة صفة أخرى للمصطلح تستبطن محمولا آخر. فبعد أن كان الأثينيون يستخدمون كلمة « الديمقراطية » فقط لتسمية نظامهم السياسي ، قام المفكرون من بعدهم بإضافة كلمة « المباشرة » إليها ، فصارت تعرف باسم « الديمقراطية المباشرة » ، تمييزا لها عن ديمقراطية أخرى حملت اسم « الديمقراطية التمثيلية ». وأطلق أرند لفهارت Arend Liphart .../1936 اسم « الديمقراطية التوافقية « consensuelle » على نموذجه الديمقراطي ــ هو نموذج من الحكومة ذات التنظيم والعمل الذي يقتضي الإدماج والمشاركة لجميع القوى السياسية ـ ، لتمييزه عن « الديمقراطية التعددية » ، هذا فضلا عن مصطلحات ديمقراطية أخرى راجت في القرن الماضي ، مثل الديمقراطية الشعبية ، والديمقراطية المركزية ، وغيرها .

وفي الفكر الغربي لدينا قائمة طويلة من المفكرين أغدقوا الفكر بتعريفاتهم للديمقراطية مثل: « مونتسكيو » (1689 ـ 1755) (إذا كانت السلطة ذات السيادة في الجمهورية في قبضة الشعب جملة سمي هذا ديمقراطية)[5] ، و« جوزيف شومبيتر »(1883 ـ 1950)Joseph Schumpeter بأنها ذلك الترتيب المؤسساتي الذي يمكن من الوصول إلى قرارات سياسية تتيح للإفراد القدرة على اتخاذ القرار بواسطة الصراع التنافسي على أصوات الناس[6] و« رولاند أكسمان »

(حق الناس الذي لا نزاع فيه في تقرير الإطار العام للقواعد والأحكام والسياسات في بلدهم وأن يحكموا على هذا الأساس)[7] إي بالشعب وللشعب (سيادة الشعب) وإن كان « كارل بوبر » ينقد هذه الفكرة بشدة ، لأن الشعب ما كان ذات يوم يحكم نفسه بنفسه.

أمام هذه السيولة من التعريفات يتعين الغوص إلى بنية المفهوم التحتية من اجل اكتشاف ما يسميه « عادل ضاهر » النواة السيمانتية الجوهرية للمفهوم أو السمات الضرورية للمفهوم وهي ، تلك السمات الأبسط للمفهوم ذات الأسبقية المنطقية على كل سماته الأخرى ، التي تمثل المكونات الأساسية للمفهوم ، وما نشتق منه كل سمات المفهوم الأخرى. ومن المفيد أن أذكر هنا أن المفكرين لا يتفقون حتى في هذا المستوى على تحديد النواة المفهومية للديمقراطية. هناك من يرى ، على سبيل المثال ، ومنهم عادل ضاهر نفسه ، أن النواة السيمانتية للديمقراطية هي سيادة الشعب. لكن « بوبر » يقول في المقابل: (لم تكن الديمقراطية أبدا حكم الشعب ، لا يمكنها ولا يجب أن تكون كذلك)[8] . فيما يرى « صامويل هنتنغتون» (1927 ـ 2008) أن الانتخابات هي جوهر الديمقراطية . في حين أن الانتخابات لا يمكن أن تحقق للشعب إلا ما هو صوري ولا معنى له في الديمقراطية إذا لم تتوفر فيها شروط أخرى ، من بينها أن تكون حرة ، عادلة ونزيهة[9] ، وهي شروط تضمن سلامة الاختيار ، وصدق تعبيرها عن سيادة الشعب ، بينما يمكن إجراء انتخابات سليمة من حيث الشكل ، لكنها تؤدي إلى تزوير إرادة الشعب ، أو إنتاج حكم دكتاتوري. وقد تكون الانتخابات نزيهة لكنها في الأخير قد تنتهي بنجاح دكتاتوري كما فعلت الانتخابات التي جاءت بـ « هتلر » إلى السلطة من (1889 ـ 1945) .

لكن التأمل في التعريفات الكثيرة للديمقراطية يمكن أن يقودنا إلى نواة مفهومية أخرى ، ربما كانت أكثر عمقا وتفردا ، تتمثل بكلمة واحدة ، هي الاختيار الحر الذي يجسد حرية المجتمع وقدرته الحرة على تحقيق تداول السلطة سلميا. وفي هذه المعنى يمكن للديمقراطية أن يتجسد وجودها ومضمونها القيمي . الاختيار المتحرر من كل أشكال الخوف والقهر.

الاختيار الحر هو المعنى الذي تتقوم به الديمقراطية ، الذي لا يمكن أن نتصور له بديلا لشرحها. يقول « فرانسيس فوكوياما (1952ـ ...) : « إن البلد الديمقراطي هو الذي يمنح الشعب الحق في اختيار حكومته بواسطة انتخابات دورية على أساس التعددية الحزبية وبالاقتراع السري العام ، وعلى أساس المساواة

بين جميع أفراد المجتمع.[10] إذن فالبلد الديمقراطي ، هو البلد الذي يتيح للمواطنية فرصة الاختيار ، حق الاختيار الذي يستبطن في آن واحدا ، أن يكون اختيارا حرا واختيارا مسئولا ، والمؤدي إلى تداول السلطة سلميا. والعلاقة مفهومية بين هذه المفردات الثلاث: الديمقراطية ، الاختيار والحرية. إذ لا يمكن تصور ديمقراطية ممارسة من دون اختيار ، ولا يمكن تصور اختيار من دون حرية ، وعليه لا يمكن تصور ديمقراطية من بدون حرية .

تتوقف ممارسة الديمقراطية بأي من تعريفاتها ، على وجود مواطن حر قادر على الاختيار. مواطن (سيد على بدنه وعقله)[11] كما وصفه جون ستيوارت ميل (1806ـ1873). فلا سيادة للشعب من دون مواطنين أحرار. وكذلك الترتيب المؤسساتي لاختيار الحكام لا معنى له من دون وجود مواطنين أحرار يمارسون هذا الاختيار بحرية. وباختصار ، فالانتخابات لا معنى لها من دون وجود مواطنين أحرار يدلون بأصواتهم في صناديق الاقتراع من دون خوف أو قيود. وقيل الشيء نفسه عن استبدال الحكومات من دون إراقة دماء .

إذن الديمقراطية نظام سياسي من ممهاته الحرية ، إذ لا يمكن تجسيدها في مجتمع عبيد أو في مجتمع صودرت حريته وسلبت وحرم الناس منها. قال « ألن تورين1912ـ1954 » (لا وجود للديمقراطية بدون حرية اختيار الحاكمين من قبل المحكومين)[12] إن الحرية هي الحق في الاختيار. هذا الحق معطى أصيل وليس منحة ، لأن الحالة الطبيعية التي وجد فيها الإنسان هي الحرية. هكذا كان الإنسان يوم خلق لأول مرة كانسان راشد وعاقل سواء قلنا بالتطور ، بناء على نظرية داروين(1882 ـ 1809)أم قلنا بالخلق الدفعي من قبل الله كما تقول الأديان ، (إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا)[13] والهداية هنا تعني إنارة الطريق ، وليس الإيصال إلى المطلوب. فيكون المعنى أريناه طريقين ، وعليه أن يختار بينهما ، ولا يمكن للإنسان أن يختار أيا من الطريقين ما لم يكن حرا. الحرية تأتي في أصل طبيعة الإنسان ، سواء قلنا بالقانون الطبيعي أم قلنا بالقانون الإلهي. أيما كان أصل الإنسان وأيما كان القانون الذي يحكمه ، فالحرية هي طبيعته الأولى .

يولد الناس أحرارا ، ثم تنشأ الأغلال والقيود التي تقيد هذه الحرية. والقانون من القيود ، لكنه قيد ينظم الحرية ولا يصادرها ، بشرط أن يكون الإنسان الحر هو مصدر شرعية سلطة القانون ودخوله حيز التنفيذ. حتى الشريعة الإلهية لا تدخل مرحلة الإلزام الفعلي قبل أن يقبل الإنسان الحر الالتزام بها. الحرية شرط الأهلية الإنسانية للتعاقد. فحتى يكون هذا المخلوق مؤهلا للتعاقد وجب أن يكون حرا

فلا عقد بلا حرية. والديمقراطية فعل تعاقد لأنها عقد بين الناس لاختيار من يحكمهم وعقد بينهم وبين من اختاروه للحكم. إن الحرية في جوهرها الفلسفي واحدة. ويستطيع القانون والدستور والتشريع أن ينص على حرية الإنسان . وفي هذا النص يتساوى الناس ، فلا توجد حرية أكثر أو اقل...

لكننا حين ننزل إلى الواقع التطبيقي أو الفعلي نجد أن الحرية ليست واحدة في درجاتها لأن في تحققها الفعلي متعدد. تعتمد هذه الحرية على ما يعزز قدرة الانسان على الاختيار ، أو على ما يقيدها. والناس ليسوا سواسية في قدرتهم الفعلية على الاختيار لأن ثمة درجات لهذه القدرة. وتعتمد هذه الدرجات على مدى تحرر الإنسان من الخوف والأوهام والتوقعات ، بما في ذلك خوف الحاجة أو الحرمان أو اللعن ، ومن القيود المفروضة عدلا أو ظلما على قدرته على الاختيار. وفي المجال السياسي ، وجود مرشح واحد لرئاسة الجمهورية ، يجعل الاختيار في درجة الصفر. لأنك في هذه الحالة لست أمام عملية اختيار ومفاضلة بين أشخاص متعددين للمنصب ، إنما هو شخص واحد ، إما أن « تختاره» أو أن لا تختار أحدا. انك في هذه الحالة لا تمارس حرية الاختيار. التعددية في البدائل هي من الشروط التي يؤدي توفرها إلى تحرك الحرية (حرية الاختيار) من حالة القوة والتمكن إلى حالة الفعلية والتحقق أي من الوجود بالقوة إلى الوجود بالفعل. وقد تكون البدائل موجودة إلا أن ذلك لا يغير من الأمر شيئا أحيانا ، وأقصد بذلك الديمقراطيات الشكلية في البلدان العربية التي تتبنى ظاهرة الانتخاب كممارسة ديمقراطية ، إلا أن ذلك لا يكفي. فالديمقراطية هي تنصيب محكمة الشعب ، أي لهذا الأخير من القوة ما يمكنه من مقاضاة الحاكم عند زيغه عن إرادته العامة كما يقول كارل بوبر.

تنتقص درجة حريتك حين يفرض عليك الالتزام القبلي أو العلاقات الاجتماعية أو الالتزام الديني أو الوضع الاقتصادي أن تختار مرشحا دون غيره ودون إرادتك الحرة ، خوفا من النتائج غير المرغوبة وغير المسرة لعدم الالتزام. فكلما زادت نسبة الحرية ، وكلما زادت ضمانات ممارستها من دون عوامل التآكل والتأثير الخارجية ، كلما زادت نسبة الديمقراطية في عملية الاختيار.

الحريات الأخرى المنسوبة للمعنى الأساسي للحرية ، مثل حرية التعبير ، وحرية الاجتماع ، وحرية الصحافة ، وغيرها ، تزيد من ضمانات الديمقراطية هذه حريات لا يمكن تصور الديمقراطية من دونها. فحتى يكون المرء مختارا ، وحتى يكون حرا في الاختيار ، يجب أن يتمتع الناس بحرية الترشيح ، ويجب أن

يتمتع المرشحون بحرية التعبير ، ويتمتع المواطنون بحرية الاجتماع.

يؤكد الواقع العملي على وجود علاقة متينة بين الديمقراطية والحرية وذلك من خلال المطابقة بين البلدان الحرة في العالم ، والبلدان الديمقراطية فيه. وهي مطابقة تقود إلى اكتشاف ما هو متوقع: البلدان الديمقراطية هي البلدان الحرة ، والعكس. والبلدان الأقل حرية هي البلدان الأقل ديمقراطية والعكس أيضا. لكن أي حرية نعني ، هل هي مطلقة تمكن الإنسان من أن يفعل ما يشاء في غياب أي شرط أو قيد. وهنا يستوقفنا « بوبر » في تحليله لهذه المفارقة. إن الحرية قد تكون عدوة ومدمرة لنفسها. مشيرا بصفة خاصة إلى مفارقة الحرية الاقتصادية التي تفتح الطريق أمام الغني لاستعباد الضعيف واستغلاله. أما العلاج الذي اقترحه لحل هذه المشكلة من طبيعة السياسة. علينا أن نشيد مؤسسات سياسية واجتماعية قوية تستطيع حماية الضعفاء اقتصاديا من سطوة الأقوياء ، فعلى الدولة أن تتدخل في الشؤون الاقتصادية ، وليتحقق مذهب التدخل الاقتصادي. وليس بالتدخل المطلق الذي يقضي على الحرية.

أصدرت وحدة المعلومات في مؤسسة الإيكونوميست البريطانية عام 2006 قائمة تضم دول العالم ، مصنفة إلى أربعة أصناف ، هي: الديمقراطيات الكاملة ، الديمقراطيات المنقوصة ، الأنظمة الهجينة وأخيرا الأنظمة الشمولية. ويتم تصنيف دول العالم على أساس خمسة معايير هي:

أ ـ العملية الانتخابية والتعددية .

ب ـ الأداء الحكومي .

ج ـ المشاركة السياسية .

د ـ الثقافة السياسية .

هـ ـ الحريات المدنية.

في المقابل ، تقوم مؤسسة « فريدم هاوس Freedom House » الأميركية برصد أوضاع الحرية في العالم ، وتصدر سنويا تقريرا لدراسة حالة الحقوق السياسية والحريات المدنية في دول العالم المختلفة ، وإعطائها درجات تتراوح من 1 إلى 7 ، حيث يؤشر رقم 1 إلى الدول الحرة ، والرقم 7 إلى الدول غير الحرة ، ويتم تصنيف الدول إلى ثلاثة أصناف هي: الدولة الحرة (من 1 إلى 2,5) والدول الحرة جزئيا (من 3 إلى 5) والدول غير الحرة (من 5.5 إلى 7). ويتم تقويم الدول على أساس 25 معيارا ، 10 منها تتعلق بالحقوق السياسية ، و15 منها تتعلق بالحريات المدنية . في مجال الحقوق السياسية هناك مؤشرات للانتخابات

والتعددية السياسية والمشاركة السياسية وأداء الحكومة. وفي مجال الحريات المدنية هناك مؤشرات عن حرية التعبير والاعتقاد والحق في التجمع والتنظيم ، والحقوق الشخصية والاستقلالية الفردية.

وقد أجريتُ مقارنة ومطابقة بين قائمة الدول الديمقراطية (الايكونوميست) وقائمة الدول الحرة (فريدم هاوس) نفسه للعام. ولم تكن هذه المقارنة مفاجئة أو نتائجها غير متوقعة على صعيد العلاقة بين الديمقراطية والحرية.

فيما يلي ، تعرض هذه النتائج ملخصةً (تقييم عام 2008)

أولا: الدول 28 الأولى في قائمة الايكونوميست ، تمثل ديمقراطيات كاملة full democracy وهي كلها دول كاملة الحرية في قائمة « فريدم هاوس». هذه الدول كلها تأتي في قائمة الدولة التي تمتع فيها الصحافة بحرية كاملة.

نسبة التطابق هنا 100% .

ثانيا: هناك 53 دولة ذات ديمقراطية ناقصة أو ذات عيوب ومواضع خلل flawed democracy 16 حرة جزئيا (30٪) ، و37 حرة (69.8٪)

ثالثا: هناك 30 دولة هجينة hybrid (تجمع بين بعض العناصر الديمقراطية وبعض العناصر غير الديمقراطية في نظامها السياسي. دولة واحدة منها تعتبر حرة بمقاييس (فريدم هاوس) (3٪). 22 دولة حرة جزئيا (73٪). وأربع دول فقط غير حرة(13٪) .

رابعا: بلغ عدد الأنظمة المصنفة بأنها أنظمة سلطوية authoritarianفي الدراسة 54 دولة ، 18 دولة منها صنفت حرة جزئيا (33.3٪) ، و36 دولة غير حرة (66.7).

لا توجد دول حرة هنا.

ويمكن تلخيص الاستنتاج النهائي كما يلي:

كل الديمقراطيات الكاملة موجودة في دول حرة ، وأغلب الديمقراطيات الناقصة والهجينة تميل إلى أن تكون حرة أو حرة جزئيا.

تمثيل أغلبية الأنظمة السلطوية إلى أن تكون غير حرة ، والقليل منها تسمح بحريات جزئية.

والمشاهدة العينية تقبل الاستنتاج بأن مقدار الحرية المسموح به في هذه الأنظمة لا يمس القواعد الأساسية للدولة ، وهذا هو شرط الحرية الناقصة في هذه الأنظمة .

هوامش :

1 ـ Karl Popper, All Life is Problem Solving, Routledge,London, 1999, p 89

2 ـ كارل بوبر ، درس القرن العشرين ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ط1 2008 ، ترجمة الزواوي بغورة ولخضر مذبوح ، ص 90

3 ـ المصدر السابق ، ص 107

4 ـ عادل ضاهر ، الأسس الفلسفية للعلمانية ، ص43

اروند لفبهارت في كتابه « الديموقراطية التوافقية » ، في أواخر الستينيات ، رغم انه لم يكن أول من استخدم مصطلح التوافقية (consonciational) حيث يذكر « روبرت دال » ، في كتابه « الديمقراطية ونقادها » ، أن « ليبهارت » استعار المصطلح من « جوهانز الثوسيوس » (1557 ـ 1638) في كتابه الصادر العام 1603. لكن « ديفيد ابتر » كما يقول « ليبهارت » نفسه ، هو أول من استخدم المصطلح بشكل واضح في العصر الحديث « عام 1961. »

5 ـ مونتسكيو ، روح الشرائع ، ترجمة عادل زعيتر ، ج1 ، ص21

6 ـ Joseph Schumpeter, Two Concepts of democracy, in Political _ Philosophy, Edited by Anthony Quinton , p.173-174 also, Schumpeter, Capitalism, Socialism and Democracy.

أيضا ، انظر: بوتومور ، علم الاجتماع السياسي ، (ترجمة د. وميض نظمي) ، ص33

7 _ Ronald Axtmann, Democracy, in Liberal Democracy into the twenty ـ first Century , p 10.

8 ـ درس القرن العشرين ، مصدر سابق ، ص 86.

9 ـ Samuel Huntington, The Future of the Third Wave, The Journal of emocracy, October, 1997,pp3

10 ـ Francis Fukuyama, The End of history and the Last Man, p 436 ـ

11 ـ John Stuart Mill, On Liberty, p69

12 ـ ألن تورين ، ما هي الديمقراطية ، ص 13

13 ـ القران الكريم ، سورة الإنسان ، الآية 3.